روزا ياسين حسن

الذين مَسّهم السّحر

«من شظايا الحكايات»

مكتبة نوميديا 207

Telegram @Numidia_Library

منشورات الجمل

رواية

روزا ياسين حسن: **الذين مَسّهم السّحر**، رواية

روزا ياسين حسن

الذين مَسّهم السّحر

«من شظايا الحكايات»

رواية

منشورات الجمل

كجزء لا يمكن إغفاله من العمل، لا بد لي من شكر مؤسسة «هاينريش بول» Heinrich Böll Stiftung الألمانية، التي قدّمت لي منحة للكتابة في ألمانيا، ثم مؤسسة «هامبورغ شتيفتونغ» Hamburg Stiftung الألمانية تالياً.
لولا ذلك الدعم، ربما، ما قُدّر لهذه الرواية النور.

ولدت **روزا ياسين حسن** في سوريا. درست الهندسة المعمارية قبل أن تتفرغ للكتابة. صدر لها: **سماء ملوثة بالضوء**، قصص، ٢٠٠٠، بيروت؛ **أبنوس**، رواية، ٢٠٠٤، دمشق؛ **نيغاتيف: من ذاكرة المعتقلات السياسيات**، القاهرة، ٢٠٠٧؛ **حراس الهواء**، رواية، بيروت، ٢٠٠٩؛ **بروفا**، رواية، ٢٠١١، بيروت. ترجمت بعض أعمالها إلى الألمانية، الفرنسية والإيطالية. **روزا ياسين حسن** ناشطة في مجال حقوق المرأة. منذ أواخر العام ٢٠١٢ تقيم في المانيا.

روزا ياسين حسن: **الذين مَسّهم السّحر**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٦
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2016
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى وطني سوريا، قطعة صغيرة في قلب العالم
إلى أهلي السوريين من كل انتماء وفي كل مكان،
أولئك الذين مسّهم السحر!

(١)

عن الكافيتريا وذاك البناء البعيد على تخوم جرمانا

أصدر غلق الكافيتريا المعدني، حين كان «ميفان حاجو» يحاول فتحه، صريراً مثيراً للقشعريرة كحاله كل صباح، انتهك الصمت الطارئ للحيّ بعد ليل صاخب. المطر المتساقط طوال أيام جعل الصدأ يزيد من صعوبة فتح الغلق، كما أن الماء المحمّل بأوساخ الطريق تسرّب إلى داخل الكافيتريا، فأغرق السجادة العجمية تلك التي تزيّن المدخل، وها هي بدأت تبعث برائحة تشبه تلك التي لزريبة بقر!

- «أزده خوشكا بارانينم».

بدأ «ميفان» صباحه بالشتائم.

راح يشتم بالكردية مدير الكافيتريا الجديد الأستاذ «عبد اللطيف مسعود»، يشتم المطر والقدر الذي رماه هنا. يشتم مدير الكافيتريا القديم كذلك الأستاذ «عمران أبو العزم»، لا لشيء إلا لأنه ترك الكافيتريا وسلّمها لهذا المستثمر الجديد. كان صباحاً أشبه بزيارة قسرية إلى الجحيم، و«ميفان» يجاهد كي يُخرج الماء إلى خارج الكافيتريا، ثم يحاول شحط السجادة المتّسخة إلى الداخل لغسلها وقد أضحت أثقل من الرصاص.

- «أزده قدراخنم».

الأستاذ «عبد اللطيف» مصرّ على إبقاء السجادة العجمية هذه عند

المدخل، كي يطأها كل من يدخل الكافيتريا. رسالة ترحيب عربية، حسب تعبيره. كان يريد أن يبدّل المكان بكليته، أن يقلب روحه، أن يجعله مغايراً لما كان عليه حين كان ملكاً لـ«عمران أبو العزم». لذلك فقد غيّر كراسي القش القديمة بكراسي من الجلد الأسود اللماع. أغطية الطاولات المزيّنة بزركشات تقليدية بدّلها بأغطية من البروكار خمري اللون بخيط ذهبي متكسّر على الجوانب الأربعة. نزع الديكور القديم، المتمثّل بلوحات تشكيليين شباب مغمورين، من على الجدران، ونزع كذلك لوحات لـ«منير الشعراني» مكتوبة بخط عربي لم يستطع قراءة أي منها. عوضاً عن ذلك قَدِم بمعلّم جبصين ليشكّل له رسومات نافرة في الزوايا، لوّنها بلون يناسب الخيط المذهّب على أغطية الطاولات. كلّفه كل ذلك الكثير من المال والوقت وحرق الأعصاب. لكن «عبد اللطيف مسعود» كان راضياً للغاية عن شكل الكافيتريا الجديد. أهم ما في الأمر أنها لا تشبه الكافيتريا القديمة التي استلمها من صاحبها.

في النهاية رمى اللافتة الخارجية الكبيرة المعلّقة فوق المدخل، مكتوب عليها: «مقهى جرمانا»، وبدّلها بلافتة أكبر وأكثر إشراقاً مكتوب عليها: «كافيتريا ابن البلد». ثمّ ألصق صورة على طول الواجهة الزجاجية لـ«بشار الأسد» وهو يحيّي الناظر إليه بابتسامة. كما أجبر معلّم الجبصين، الذي نفّذ له الديكورات الجديدة، أن يخطّ له تحتها بالخط المذهّب ذاته: «ابن البلد». كان يشعر بالرضا كلما قَدِم إلى الكافيتريا ورأى تلك الصورة تشعّ على الواجهة، كانت تشعره بالأمان.

في الوقت الذي كان فيه «ميفان حاجو» ينظّف الرصيف أمام الكافيتريا ويواصل رمي شتائمه على كل ما يخطر بباله، فيما يخز صقيع الجو قدميه في المشّاية البلاستيكية المهترئة، نزل المهندس الذي يسكن الطابق الأول في البناء «صفوان الشيخ» ومعه زوجته. كان

ـ ـاً أربعينياً من مدينة «حمص» بشعر كستنائي منفوش ووجه شاحب، ـ ده صقيع اليوم شحوباً.

- «طوّل بالك يا زلمة... صباح الحرية».

ألقى «صفوان» التحية ضاحكاً من سحنة «ميفان» المتورّمة لغاضبة. نكزته زوجته «مريم محمود» هامسة: «ربما كان من رجال لأمن!»، فضحك «صفوان» وهو يغزّ السير بعيداً: أمن؟!! هذا ميفان حلى شب بجرمانا.

كان «صفوان الشيخ» يسكن الشقة اليمنى فوق الكافيتريا تماماً، ـطالما تردد عليها حينما كان يديرها المستثمر القديم: صديقه عمران أبو العزم». الشقة المواجهة لشقته كانت تشغلها عائلة عميد في الجيش اسمه «بهجت إسماعيل حسّون»، تلك الشقة التي تزدحم شرفتها بأصص الحبق والفل والنعناع. رمى «صفوان» ذاك الصباح كذلك بضعة كلمات سريعة تودداً لـ«ميفان»، لكن الأخير لم يسمع منها شيئاً، أكمل رمي شتائمه على اليوم الذي أتى فيه للعمل في هذه الكافيتريا الملعونة، من جملة ما يشتم، وقت فتحها أول مرة الأستاذ «عمران». كانت خربة مهجورة في الطابق الأرضي لبناية من بنايات مدينة «جرمانا». ولم يكن ثمة إلا شقة واحدة مسكونة في الطابق الثاني إلى اليمين، لعائلة مسيحية ينادون الأم فيها «الست جولييت أم بيرو»، وابنتها الأربعينية «جمانة شاهين». كان «ميفان» قادراً على تمييز مقدمها من رائحة عطرها الثقيل قبل أن يلمحها. تذكّره برائحة الثياب الشتوية المخزّنة منذ السنة الماضية. أما مكان الكافيتريا فقد كان مكاناً معداً لشركة تختصّ بأجهزة الموبايل.

الرجل الذي جاهد ليفتتح المكان هنا كفرع للشركة الأم في «دبي»، كان سورياً عمل في «الإمارات المتحدة» لسنوات طويلة. حلم طوالَ عمر من الجهد المضني بالعودة إلى بلده، بافتتاح مشروعه الخاص والبقاء إلى آخر حياته في «ربوع الوطن». كما كان يلحّ لاهجاً

في اتصالاته المتواترة بـ«عمران أبو العزم»، صديق طفولته البعيدة. لكن المشروع لم ينجح! اكتشف مع مرور الوقت بأن تجارة أجهزة الموبايل، وكذلك الاتصالات وكل ما يتعلق بها، منوطة بجهات محدّدة تحتكر العمل فيها، لذلك لم يكن من السهل لأي كان أن يفتتح مشروعاً يخصّ الموبايلات، يصيح حانقاً أمام رفيقه. تتوّج كل ذلك باتصال جاءه ذات ليلة، هدّده صوت غاضب بالقتل إن لم يلغِ هذا المشروع التافه ويرحل. هذا ما جعله يترك حلمه ويقفل عائداً إلى «دبي»، بعد أن أنفق ملايين الليرات على مشروعه الحلم، وأثقل نفسه، كما أثقل شركته، بملايين الليرات السورية من الديون. قبل أن يترك له المكان رطن لصديقه «عمران أبو العزم» طويلاً عن مفهوم الوطن الذي تبدّل إيمانه به خلال أشهر قليلة. كان يبدو مغتاظاً مألوماً وهو يغبّ كؤوس النبيذ الواحد تلو الآخر، ودمعة مخفية تتلألأ في عينيه اللتين ازدادتا اتساعاً. كان يصيح أمام رفيقه عن كذبة كبيرة يجبرونها على النمو في داخلنا، منذ أن يبدأ وعينا بالتشكّل، اسمها: «الوطن»!!

- ما هو الوطن أصلاً؟! أتستطيع أن تخبرني؟.. الوطن هو الكرامة، وفقط الكرامة.

- . . .

- هذا بلد ليس لأهله. هذا بلد لمن سرقوه! لهم يعود البلد، وليس لأمثالي.. هذا البلد لم يعد بلدي!

«عمران أبو العزم» استلم المكان من صديقه الخائب خربة مهجورة. ثم قرر أن يعدّه ليكون مكاناً للقاء الأصدقاء، على أمل أن يمحو ذاكرة الخيبة التي ارتبطت به. كان يريده متحفاً وصالة فنية، صالوناً أدبياً وملتقى للنقاش. كل ذلك في مكان لا تتجاوز مساحته ثلاثمائة متر مربع. لذلك حينما أتى «ميفان حاجو» ليعمل في الكافيتريا، في يوم من شباط ٢٠١١ يوم افتتاحها، كانت بالنسبة إليه أقرب إلى مضافة للأصدقاء منها بكافيتريا. لا يمكن مقارنتها البتة

بمطعم «أهل الخير» الذي عمل فيه قبلاً في دمشق القديمة. صحيح أن صخب «باب شرقي» وتلك القيافة المعتّقة التي ترشح منه لا يمكن مقارنتها بحال بالسذاجة القروية لـ«جرمانا»، لكن الزبائن أنفسهم مختلفون: كأس شاي أو فنجان قهوة وفي أحسن الأحوال أركيلة. معظمهم يأتون ويذهبون دون أن يطلبوا إلا كأس ماء. يتكلمون، يتكلمون... ويتكلمون طوالَ الوقت. يتناقشون بحدّة، يتصايحون في أحيان كثيرة، وتبقى الأغاني التي تلهج مسجلة الكافيتريا بها كأنها تغني لنفسها.

لا أعرف لم يصرّ الأستاذ «عمران» على وضعها فيما لا يسمعها أحد! كان مصراً أن لا يسمع إلا صوت «أم كلثوم» أو «عبد الوهاب»، «نجاة الصغيرة» في أسوأ الأحوال ليس إلا. حين أفتح الكافيتريا صباحاً كان يطلب مني وضع «فيروز». فيما ندر يدخل زبون عادي، آت ليتناول الغذاء أو العشاء، فيما ندر. حتى البناء الذي فوقه كان مهجوراً حتى وقت طويل إلا من عائلة «أم بيرو شاهين»، وعائلة حمصية تقطن في الطابق الأول. ثم مع الوقت سكنت عائلة من الساحل في الطابق الأول على اليمين، ورجل خمسيني أعزب، من الساحل أيضاً، في الطابق الثاني. بقي الطابق الثالث والأخير، شقة منه كانت بيتاً للدعارة، لم يكن بيتاً معلناً لكني كنت أعرف. كل رجال الحارة أيضاً كانوا يعرفون. كانت تديره امرأة ستينية تشغّل ثلاث صبايا عندها، كل صبية أبشع من الثانية، لكن لم يكن أحد يجرؤ على سؤالها ماذا تفعلين؟! كان الأستاذ «عمران» يقول لي: هذه شغلتها كبيرة يا ميفان... أكبر الرؤوس في المنطقة يحمونها. أما البيت المقابل لها فقد بقي فارغاً حتى وقت طويل، يتناوب عليه المستأجرون.

كان واضحاً بالنسبة إليّ أن معظم زبائن كافيتريا الأستاذ «عمران أبو العزم» كانوا من المعارضة. فشاشة التلفاز الكبيرة المعلّقة في

منتصف الكافيتريا لم تكن تُفتح إلا على قناة الجزيرة أو العربية أو الفرانس ٢٤ أو الـ BBC. الأقنية الفضائية ذاتها التي كنت أدعس فوق صورها كل ليلة وأنا ألج كراج السرافيس. صور كبيرة وملونة ملصقة على الأرض كمماسح للأحذية. ثمة من كان يتعمّد الدعس مراراً في كل مرة يمرّ فوقها، ويضرب الأرض بقدمه متشفياً. هناك من كان يمرّ فوقها لامبالياً! ومن يحاول ألا تمسّ قدمه الأرض. كنت أراقب الأرجل المتباينة وهي تمرّ عليها. لو كنت أعمل عند الحكومة لاكتشفت الموالي من المعارض فقط من ضربة قدمه على الصور. لكني كنت مضطراً أن أدخل الكراج في كل ليلة لأستقلّ السيرفيس الذاهب إلى منطقة «الحجر الأسود» حيث أسكن، ولا أجرؤ على تغيير مكان دعسات أقدامي. كان مكتوباً تحت شعارات تلك القنوات التلفزيونية وأسمائها عبارة: قنوات الفتنة.

لكن ليس بسبب من مشاهدة أصدقاء الأستاذ لتلك القنوات عرفت بأنهم من المعارضة، بل لأني كنت أسمع أحاديثهم من بعيد. في الشهور الأولى لعملي في الكافيتريا كانوا يصمتون حالما أقترب من الطاولة، يتشاغلون بأحاديث أخرى لا شأن لها بالذي كانوا يتحدثون فيه. كنت أتباطأ في وضع كؤوس الشاي والقهوة، فيقول لي الأستاذ «عمران»: ميفان لا تأتِ إلا إذا ناديتك.

لكن أحاديثهم كانت تتناهى إليّ شبه جلية حتى وأنا في المطبخ، أو على الترّاس أشعل النار في فحم الأراكيل. كنت أسمع كل همسة يقولونها دون أن أتقصّد ذلك.

في كل يوم كانت قنوات التلفزيون المفتوحة في الكافيتريا تُظهر مظاهرات في مدن سورية لم أعرفها يوماً. شباب كُثر يهتفون، يصيحون وأيديهم إلى الأعلى.

«معلّم هذا يصير هون بسوريا؟!»، كنت أسأله. وكان الأستاذ يهزّ برأسه إيجاباً.

مع الزمن أدمنت أحاديثهم. هذا النوع من الأحاديث أسمعه للمرة الأولى. بعضهم كان يتكلم بشكل هادئ مشدّداً على كل حرف في كلماته. البعض يحتد. البعض يبقى صامتاً. صرت أميّز مزاج كل واحد منهم من خلال طريقة مشاركته في النقاشات، التي غالباً ما كانت تنتهي بمشادّة أو بصراخ يسمعه ساكنو البناء والمارة في الشارع. يذهبون متخاصمين، ثم في أمسية اليوم التالي يعودون للجلوس معاً وللنقاش من جديد.

الأستاذ «عمران» كان يقول دوماً: ستطول.

في البداية لم أفهم ما هو الذي سيطول؟! ثم فهمت. كان يقصد الأحداث الجارية. كان ثمة صديق مقرّب له اسمه الأستاذ «طلال»، لا أعرف اسمه الثاني. شاب بشعر أسود حالك ونظارتين سميكتين. كانا يجلسان سوية دوماً يدخنان الغلايين، وتعبق الكافيتريا برائحة التنباك، ثم يحتسيان الويسكي. يحبّها الأستاذ «عمران» من دون ثلج، أما الأستاذ «طلال» فيحب أن يكون الثلج فيها أكثر من الويسكي! في بعض الأحيان يطلبان مني الذهاب إلى عربة الفول على ناصية الشارع لأشتري طاستي فول نابت مع الليمون والكمون، واحدة لهما وواحدة لي.

الأستاذ «طلال» كان يرى بأن الأحداث لن تتأخر. يطلق عليها: الثورة.

- كم شهر زمن وسيسقط النظام، وتنتصر الثورة.

هذا ما كان يؤكده مشدداً على كل كلمة يقولها: فالمظاهرات تعمّ الشوارع والاقتصاد الرسمي سينهار. الأستاذ «عمران» يضحك مستهزئاً: لن تنتهيَ قبل سنوات طويلة. والاقتصاد لن ينهار بهذه البساطة... أنت تعرف جيداً بأن هناك من يدعمه على طول الخط!!

ثم يرتشف غليونه رامقاً صديقه. الأستاذ «طلال» كان يحمرّ غيظاً، وتسحل نظارته فيرفعها بنزق، ويبدأ النقاش الحامي بينهما.

عرفت الكثير وأنا هنا. عرفت ما لم أعرفه يوماً. رغم أني لم أكمل تعليمي إلا أن معرفة الاشياء كانت تسحرني. كنت أحب أن أعرف. كنت أستعير القصص من مكتبة أستاذي في الابتدائية بمدرسة «الحجر الأسود» لأقرأ، فأستاذي التركماني كان جاراً لنا. كنت أحب أن أقرأ. الأمر الذي يجعلني أشعر بأني أعرف. ثم حين جئت إلى هنا صار الأستاذ «عمران» يجلب لي القصص، ويسميها الروايات. أخبرته يوماً وفي جلسة حميمية بأني أحب القراءة، فصار يجلب لي الكتاب وراء الكتاب. ما أن أنهي كتاباً حتى يجلب لي الآخر. كان يقول لي: اقرأ في الوقت الذي لا يوجد فيه زبائن، لذلك كنت أقرأ معظم الوقت. جلب لي رواية اسمها «وليمة لأعشاب البحر» أحببتها، وأنهيتها بيومين. ثم جلب لي رواية كبيرة اسمها «قصر المطر»، ولم أنهها إلا بعد ثلاثة أسابيع. قال لي الأستاذ «عمران»: هل تأكل الروايات ميفان!! كنت أضحك وأشعر بالفخر. آخر مرة جلب لي رواية اسمها «القوقعة» كانت مؤلمة بحيث أني اضطررت إلى قراءتها في الحمامات كي أخبئ دموعي عن بقية الناس في صالة الكافيتريا... يا اللّه كم كانت مؤلمة!

مع الزمن أمّن الأستاذ «عمران» لي وحزت على ثقته، كذلك معظم الزبائن. فقد مرّت أربعة أشهر وأنا أعمل هنا، لم أؤذهم ولم يؤذوني. كان واضحاً بالنسبة إليّ أنهم يشتركون في المظاهرات، ثم يعودون للالتقاء هنا في الكافيتريا. يبدو ذلك من أشكالهم المنفعلة واللاهثة، ومن كلماتهم المتلاحقة المرتبكة. يأتون جماعات وتبدأ الاتصالات بين بعضهم بعضاً، يطمئنون على بعضهم بعضاً... كنت أعرف! أحياناً يكون أحدهم مصاباً. مرة أتى جارنا المهندس «صفوان الشيخ» برأس مفجوج، أدخله الأستاذ مرتبكاً ومعه شخص غريب إلى المطبخ، كان يبدو بأنه دكتور. هناك راح يخيط له جرح رأسه المفتوح بدون تخدير، والمهندس المصاب يكزّ على أسنانه متألماً. سألت

الأستاذ وقلبي يوجعني: لماذا لا يأخذونه إلى المستشفى معلم؟! غمغم كلمات مبهمة.

حين كان أحدهم يُعتقل، وحدث ذلك كثيراً، يُشحن الجو بالخوف والارتباك. يوصيني الأستاذ «عمران» وقتذاك بأن أقفل الكافيتريا ليومين، ويتحجّج بالسفر. كنت أفهم كل شيء وأصمت. هم يظنونني لا أفهم ولكنهم مخطئون! لم أكن أريد أن أزيد من خوف الأستاذ بإظهار معرفتي، فقد كان لطيفاً للغاية معي. كان يسألني عن أهلي في «كوباني»! لم يسمّها «عين العرب» يوماً كما غيره من العرب، كان يلفظها كما نلفظها نحن الكورد تماماً: «كوباني». مرة مزح معي قائلاً:

- يا زلمة إذا بيسمّوا قريتي اسم كردي كنت جنّيت.. يعني كيف متحملين بقرية كردية، ما فيها ولا واحد عربي، يسموها عين العرب!!!

ويقهقه عاضّاً بأسنانه على غليونه. كنت أضحك معه مع أني لم أجد الأمر مضحكاً أبداً!

مع الزمن لم يعد «ميفان حاجو» يراقب المظاهرات في تلفاز الكافيتريا فحسب، صار يراها بأم عينه في حي «الحجر الأسود». وحينما دخل صيف ٢٠١١ صارت المظاهرات تخرج في «الحجر الأسود» كل يوم تقريباً. يعود «ميفان» في الليل فيشتمّ رائحة غريبة حامضة تملأ الشوارع، وترقب يسود المكان. الشوارع مقفرة.

تحدّثه أمه ليلاً عن المخرّبين الذين يخرجون ليهتفوا ويصرخوا في أرجاء «الحجر الأسود»، يقلقون أمان البلد ويخرّبونه. كانت تتربّع على الفرشة الإسفنجية في صدر الغرفة، مصرّة على الدوام أن تشاهد القناة الرسمية. كانت تحدّثه، وتحدّثه، وتحدّثه بحنق طوالَ الليل حتى تغفو قبالة التلفاز. أحياناً كان يشعر بأنها مذيعة نزقة في التلفاز الحكومي، لولا أنها تتكلم اللغة الكردية وليس العربية.

ذات ليلة من شهر أيار ٢٠١١ صادف «ميفان حاجو» مظاهرة صغيرة وهو يقفل عائداً إلى البيت. كان الشباب ملثمين بكفّيات تخفي وجوههم. ما يقرب من سبعين شاباً يهتفون: «علّا الطير علّا الطير.. باي باي يا بشار تصبح على خير».. نسي «ميفان» نفسه، وقف يتفرّج مستثاراً على المظاهرة المتهادية بثقة بين أزقة «الحجر الأسود» المتداخلة. يراقب حركات أيديهم، دعساتهم، ونظرات عيونهم من تحت الكفّيات. وقت بدأ إطلاق الرصاص راح «ميفان» يهرول كالممسوس بين البيوت لاهثاً مرتعباً. لأول مرة يشعر بكل هذا الخفقان، كاد قلبه يتوقف خوفاً. أصوات الرصاص وصيحات الناس وصراخ يلاحقه، وهو يجري يجري ويجري!! حينما وصل إلى البيت رأته أمه على هذه الحال، فحكى لها متقطع الأنفاس ما حصل. لكن الأم، وبعد أن قرأت عليه سورة الفلق وهي تمسّد شعره، وسقته كأساً من الماء البارد، جلست صامتة طوالَ الليل لم تنبس بحرف، كانت تتمتم بما تحفظه ذاكرتها من سور وآيات قرآنية، وهناك بجانبها غفا «ميفان» على صوت التمتمة، وعلى ملمس ثوبها القطني الذي تتضوع منه رائحة مسحوق الغسيل بعطر اللافاندر.

في اليوم التالي، وحالما وصل من عمله، طالعته الأم بخبر مقتل ابن جارتهم «أم محمد» البارحة. أصابته الرصاصة في بطنه في مظاهرة الأمس، وتوفي اليوم متأثراً بجرحه.

- المظاهرة نفسها اللي هربت منها.

تمتمت بدون أن تنظر في عيني ابنها. كانت قادمة للتو من العزاء. عيناها متورمتان حمراوان وما زالت تعتصر أنفها الرطب. لم تشعل التلفاز تلك الليلة، ولم تتحدّث كذلك، ولا «ميفان» فتح معها أي حديث. تربعت على الفرشة الإسفنجية مكتفة يديها فوق ثدييها العارمين وأطرقت. كذا «ميفان» تناول عشاءه بسرعة، مفركة بطاطا مع صحن سلطة بندورة، رشف كأس شاي على عجل ونام. قبل أن تغفو

الأم دسّت في قميص «ميفان» قطعة معدنية صغيرة منقوش عليها آية الكرسي. شكلتها بدبوس له قفل، ثم همست كي لا توقظه: «اللّه يحميك ويخليك لإلي.. ما في أغلى من الضنا. ما حدا بيعرف أكتر من الأم.. ما حدا بيعرف». «ميفان» يغطّ في نوم عميق لذلك لم يكن ثمة أحد لتداري عنه دموعها. ثم راحت تدعو ربها، وهي تنظر إلى السقف المتقشّر من أمطار الشتاء الماضي، أن يحفظ ابنها البكر كذلك «شيران حاجو» الذي يعمل في مدينة «حمص»، ثم غفت على الفرشة، وهي تذكر نفسها بضرورة أن توصي «ميفان» منذ الصباح أن يتصل بأخيه في «حمص»، ويطلب منه العودة إلى «دمشق». امرأته وأطفاله وأمه وأخوه أولى به وأكثر أماناً.

حين تصاعد شخيرها عاد «ميفان» إلى اليقظة من جديد. فتح التلفاز على قنوات السيكس على القمر سيروس، مرّت أسابيع لم يفتح فيها تلك القنوات. أخفى الصوت رغم أنه يستمتع أكثر ما يستمتع بأصوات الممارسة. غطّى نفسه بشرشف رقيق ودسّ يده في بنطاله. ترك أحلامه تأخذه بعيداً عن صخب اليوم وأرقه، وراح يستحضر امرأة تشبه نساء التلفاز، ثدياها عارمان ومؤخرتها مكتنزة، تغرقه في متعة مجنونة، تتأوه وتتقلّب بين يديه... لكن بصمت!

في اليوم التالي حدّث «ميفان» الأستاذ «عمران» ورفاقه في الكافيتريا عن المظاهرة التي رآها أول البارحة، تلك التي سقط فيها ابن جارتهم «أم محمد». حكى لهم عن الهتاف الذي سمعه، فما كان من الأستاذ إلا أن أطلق قهقهات هيستيرية مع رفاقه. ثم صاروا يرددون الهتاف المبتكر ذاك. الأستاذ «طلال» راح يردده وهو يلوّح بكفّه في الهواء ويضحك: «باي باي يا بشار.. تصبح على خير». ويقهقهون.

لكن ليالي أم «ميفان» راحت تتغيّر باطراد. لم تعد تتحدّث عن المخربين الذين يخرجون في المظاهرات. في ليلة أخرى حدّثت ابنها

عن ابن جارتهم «أم مصطفى»، تمتمت بالكردية: ذاك الصغير ذو الشعر الأحمر... تذكرته؟! لا يتجاوز عمره الخامسة عشرة. عاد اليوم إلى أهله. الحمد للّه لم يقتلوه ولكنهم عذّبوه كثيراً. اكتشفوا بأن اسم الرئيس موشوم على أسفل قدميه.

- لم يعد هناك هيبة لشيء. تشرشح كل شيء ولم يعد له قيمة... حتى البني آدم. يشتمون الرئيس، ويرسمونه على أسفل أقدامهم. وشباب تموت بالرصاص في الشوارع... هذه علامات الساعة يا ابني. اللّه يجيرنا ويحمينا... هذه علامات اقتراب الساعة!

- ...

- حكيت مع أخوك على حمص؟

- لا...

- اللّه يرضى عليك يا ميفان احكي معه بكرا، وقل له بتقلّك أمك اترك هالشغل المتعوس هناك وارجع على الحجر... بيننا بتطمّن عليه.

- حاضر.

- إي، اللّه يخليك يا أمي ويرضى عليك.

كفّت أم «ميفان» عن الحديث في الأيام التالية. تتربّع على الفرشة الإسفنجية مصالبة ذراعيها طوالَ الوقت، عيناها نديّتان متورمتان، تردد طوالَ الوقت جملة وحيدة، تكررها كتعويذة: اللّه ينجّي البلد... اللّه يحمي شباب البلد لأمهاتهم... اللّه ينجّي هالبلد!

الآن وفيما «ميفان حاجو» يواصل رمي شتائمه، وهو ينظّف الكافيتريا التي راحت روائح العفن تتغلغل في تفاصيلها، تناهى إليه زعيق وضحكات صغار قريبة. مدّ رأسه من المدخل متهيئاً لدفعة من الصراخ الغاضب عليهم. بقعة الأشجار الصغيرة الوحيدة والقريبة من البناء، تلك التي تفصل البناءين المقابلين، تغصّ بمجموعة من الأطفال اللاهين. كانوا ينشرون لافتة دعائية، لأحد المرشحين في

انتخابات المجالس المحلية، على شكل شبكة تفصل بين الفريقين، ويتبادلون رمي الكرة فيما بينهم فوقها. الكرة عبارة عن كبّة قماش ملفوف، والمرشّح على اللافتة مايزال يبتسم فيما تصفعه الكرة كل حين، ويبدو من الصعب قراءة كلمة واحدة من الكلمات المصفوفة قربه!

«جيد، تم استخدام هذه اللافتة في شيء مفيد!»

فكّر «ميفان» مبتسماً وقد عدّل مشهد الأطفال الضاحكين من مزاجه. رغم أن أصابع أقدام بعضهم، تلك التي تطلّ من مشّايات البلاستيك التي ينتعلونها، أحسسته بقشعريرة برد. لكن لم يكن يبدو أن الأطفال يشعرون بأية لسعة برد حتى لو كانت أقدامهم تضرب برك الماء المتجمعة تحتهم كل حين.

زعيق مليء بالإحباط هاجمه من جديد ما إن دخل لإكمال عمله، كانت اللافتة/ الشبكة قد انخزقت من منتصفها، وحُرم الأطفال من اللعب. صاح «ميفان» بهم من بعيد: لا بأس ستعثرون على غيرها.. الطرقات مليئة بأمثال هذا الأهبل.

ثم للحظة صمت حين رأى الأطفال مسمّرين يراقبونه بعيون مبحلقة. تلفّت حواليه لئلا يكون أحد قد سمعه، لكن أصوات إطلاق رصاص متلاحقة وعالية طغّت على المكان، طاخ... طاخ... طاخ... جعلت الجميع يصمت مترقباً بذعر. الأطفال قبعوا قريباً من الأرض منتظرين توقّف الرصاص. حشروا رؤوسهم بين أكتافهم وساد الصمت المترقب بينهم. ثم بعد دقائق ابتعد صوت الرصاص، فما كان منهم إلا أن نفضوا رؤوسهم، لمّوا الكرة القماشية، وعادوا إلى ألعابهم من جديد.

(٢)

عن الانتظار، وذاك السحر الذي غيّر البدايات

ثمة رائحة غريبة تفوح من «دمشق»، لا تشبه رائحتها المعتادة، أقرب إلى رائحة قلق وترقّب. بضع لفتات من حولك ستجعلك متيقناً من شعورك. روحك ستنبئك بأن شيئاً تبدّل في المكان، في التفاصيل، شيئاً تبدّل في القلوب! يوم رأس السنة للعام الجديد ٢٠١٢ لا يشبه أي يوم رأس سنة مرّ على «دمشق» قبلاً! «دمشق» لا تشبه «دمشق» أبداً! كأن لعنة الزمن أصابتها، غيّرت مزاجها، خرّبته. أشبه بهجرة قسرية أجبرتها على الانتقال من زمن إلى زمن آخر.

على الأقل هذا ما شعر به «صفوان الشيخ» وهو يقبع إلى جانب سائق سيارة الأجرة التي أوقفها في رأس طلعة «مساكن برزة»! كانت زوجته «مريم محمود» تنتظره في الشارع الفاصل بين حي «كفرسوسة» القديم والمشروع الجديد. اتصلت به قبل لحظات لتقول بأن أصوات إطلاق الرصاص تلعلع، وأنها ستنتظره فهي لا تجرؤ على العودة وحدها إلى البيت! قالت باقتضاب: سأنتظرك قرب «السيتي مول»، وأغلقت الخط. اتصل بها واتصل ثم اتصل، وحده صوت نسائي معدني من شركة الاتصالات ينبئه بأن الرقم مغلق أو خارج نطاق التغطية! قطعوا الاتصالات عن المنطقة. شتم «صفوان» قبل أن يبدأ بالهرولة من ساحة «برزة البلد» باتجاه الأتوستراد. هرول لاهثاً باتجاه الجنوب علّه يعثر سريعاً على سيارة أجرة مارقة. لم تعد الكثير من

سيارات الأجرة تجرؤ على الدخول إلى هنا بعد الأحداث المتلاحقة في «برزة البلد»، لكن حظه كان طيباً وعثر على سيارة تحاول الهرب بعيداً، فالتقطها بصفرة مترجية ليجلس بجانب السائق، ثم يستحثّه على المضي بسرعة إلى حي «كفرسوسة».

- لكن البلد مليئة بحواجز الأمن... لن نصل قبل ساعة إلى هناك!

قال السائق. لكن لم يكن أمام «صفوان» من خيار إلا أن يستحثّ السائق للإسراع.

تأخر كثيراً في زيارته. ربما لذلك كانت «مريم» ممتعضة. فقد مرّ أكثر من شهر على مقتل شقيق «أبو خيرات»، صديقه الحميم من حي «برزة البلد»، ولم يقدّم له التعازي حتى اليوم. عزّاه على الهاتف فحسب بعد ثلاثة أيام من الحادثة حين وصله النبأ. لم يعد المرء يستطيع الإحاطة بكل واجبات التعازي في هذه الأيام. لا يكاد يسمع بموتٍ حتى يدهمه موت آخر! موت يومي وتعازٍ يومية، حتى ليكاد المرء يعتاد الأمر! وتمرّ أخبار الموت وجلسات التعزية كما تمرّ معظم تفاصيل يومه الثقيل.

فكّر «صفوان» وهو يستحثّ السائق من جديد على الإسراع.

حين كانوا في «حمص» لم يكن يمرّ يوم بدون عزاء! كان «صفوان» قد قرر الانتقال من «حمص» إلى بيت جديد في حي من أحياء مدينة «جرمانا» على أطراف «دمشق». ترك بيته هناك وجاء إلى هنا! ففي صباح اليوم الذي قرر فيه الانتقال كانت سيارته عند مدخل البناء ممعوسة بالأرض. أتت دبابة ومشت عليها من جملة السيارات الأخرى التي مُعست كذلك. رأى «صفوان» الدهان الأحمر البرّاق متفنتاً متآكلاً على الإسفلت، والزجاج متفتت في كل مكان. أحسّ بأن قلبه تفتّت مع سيارته تحت جنزير الدبابة. حينها لملم ما كان يدّخره

من مال، إضافة إلى ما بقي من مصاغ «مريم»، ويمّموا شطر «دمشق»، تلك التي كانت ماتزال أكثر أمناً.

لم تكن الأجواء في بيت «أبو خيرات» في «برزة البلد» تنبئ بحزن مقيم. على كلٍ هذا هو الموت الثالث في العائلة خلال خمسة أشهر وأسبوع، حسبما علّق «أبو خيرات»، كأنه يبرر تبدد الحزن السريع. أما حضور الراحل فقد اقتصر على صورة بإطار وشريط أسود على زاويتها، عُلّقت على عجل في منتصف الحائط الكبير في الصالون، كُتب أسفلها: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»، وبضعة أحاديث مقتضبة تحدثت بها أمه قبل أن تتركنا، «أبو خيرات» وأنا، نكمل أحاديثنا المتراكمة. أذكر أمه قبل أقل من سنة، بدت لي حينذاك صبية مشعّة في أواسط ستينياتها وهي تحدّثني عن تفاصيل الفطور النسائي الذي يجمعها صباح كل أربعاء مع صديقاتها! اليوم بدت عجوزاً منهكة مطفأة، بوشاح صوفي أسود على رأسها ورداء طويل من اللون ذاته. لم أعرفها حين قدمت للسلام علي! ظننتها واحدة من عمات «أبو خيرات» الكثيرات. قبّلتُ يدها العارقة فربّتت بتؤدة على رأسي، ودعت لي بالعمر المديد. صوتها أبحّ وثقيل كان. استأذنتني من ثمّ للعودة إلى مجموعة النسوة المتحلّقات في الغرفة المجاورة، اللواتي يحاولن ختم القرآن اليوم وقد أتين لتعزيتها من «الغوطة الغربية».

رحت أتأمل ذاك الشاب الباسم أبيض الوجه في الصورة التي على الحائط، بشعره المصفف وسكسوكته المحددة بعناية، في الوقت الذي ذهب فيه «أبو خيرات» لإحضار صينية القهوة المرّة. لم أسأله عن تفاصيل رحيل أخيه، عرفت فحسب بأنه قتل برصاصة قناص. مرّ وقت طويل على الحادثة، أكثر من شهر يعادل سنة في كثافة الأحداث المتتالية كل يوم.

يوم الثلاثاء، قبل يوم من مقتله، كان وشباب حي «برزة» مفعمين

بفرحة امتلاك جهاز للبث المباشر، هدية من بلد عربي، حسبما علّق «أبو خيرات» وهو يصبّ القهوة القاتمة في فنجان مستدير أبيض. كان سيؤمّن لهم صلة مباشرة بالقنوات الفضائية المتعاطفة معهم، الأمر الذي سيخفف عبء تصوير المظاهرات بالموبايلات وتحميلها على الكومبيوترات لبعثها إلى القنوات! لكن في اليوم التالي كانت جثث شباب الحي ملقاة في الشوارع لساعات ولم يستطع ذووهم التقاطها، فالقناصات على الأسطح المحيطة بالمرصاد لكل من يقترب.

- لا يمكنك أن تتخيّل كيف يكون شعور المرء وهو يرى جثث أحبابه بعيدة عنه أمتاراً لا غير، ولا يمكنه احتضانها!

رمى الجملة ولم ينتظرني كي أرد، فقد ولج من فوره نقاشاً عن المؤتمر الأول الذي سيعقده المجلس الوطني المعارض في «تونس».

الآن وسائق سيارة الأجرة يراوغ قوافل السيارات الأخرى ليصل إلى حي «كفرسوسة»، لم يكفّ «صفوان الشيخ» عن حثّه على الإسراع، وهو يحاول الاتصال مراراً بموبايل «مريم». صوت المسجلة العالي يزعق بأغنية سريعة وصاخبة، تحكي عن رجل يتمنى أن يتحول إلى تنباك للأركيلة. طلب «صفوان» من السائق أن يخفض الصوت قليلاً ليستطيع سماع الاتصال. خفّض السائق الصوت، لكنه بقي يغني مع المطرب المتحمّس: «وبحس بحالي ربحت الكاس... أول مين شفافك باس...»

- منذ وقت طويل لم نسمع هكذا أغاني.. تعرف، نقضي الوقت كله أمام نشرات الأخبار!، قال «صفوان».

- نحن أيضاً، لكن فهمك كفاية، أبقي صوت الأغاني عالياً حتى يسمعها عناصر الحواجز. يريدوننا أن نقتنع بأن الدنيا بخير، ولا يوجد مشاكل، والأزمة انتهت وهكذا... صدقني كل السوريين مثلك لا يستمعون إلا لنشرات الأخبار!

ابتسم «صفوان» وصمت.

دبابة بلون أخضر غامق تقف تحت جسر المشاة، يرفّ على سبطانتها العلم الرسمي لسوريا وتتجه إلى الشرق. ذاك الطريق مغلق بسياج حديدي عالٍ. تُغيّر السيارة طريقها باتجاه آخر، مغلق أيضاً بسيارتي أمن ستيشن بيضاوتي اللون. تُبدّل إلى طريق مغاير! كان «صفوان» يريد أن يقطع ساحة العباسيين بدون أن يمرّ قريباً من حي «جوبر»، فذاك الشارع يجعله يرتعد خوفاً مع كل الاحتمالات التي قد تأتي منه. شارع «فارس الخوري» مزدحم معفّر ومنهك، لكن «صفوان الشيخ» أصرّ على الانتظار حتى استطاع السائق المراوغة ولوج الساحة.

«ساحة العباسيين» التي لطالما امتلكت تجهّم الحكماء، غدا تجهّمها اليوم مثقلاً منفّراً. لا يشبه بحال خفة ودلع ساحة «السبع بحرات» مثلاً، فكّر «صفوان».

«كل ساحة في «دمشق» لها غوايتها المتفرّدة: «ساحة الأمويين» تتمدد كامرأة مغوية، لكن مظهرها يشي بقليل من الابتذال. «ساحة عرنوس» أم مشغولة بأطفالها العشرة. «ساحة الشهبندر» غامضة وتشي بالكثير من القصص المطمورة، أما «ساحة المرجة» فعجوز سبعينية، بقدر ما هي حنون وحكيمة بقدر ما هي حانقة على هذا الزمان الذي أوصلها إلى ما هي عليه الآن بعد ماضيها المتعالي».

كل أمكنة «دمشق» اليوم تغيرّت. فقدت صبغتها القديمة تلك، وأضحى لتفاصيلها ملامح مغايرة لا تشبهها.

شعور غريب خامرني حينما ولجنا «ساحة العباسيين». اليوم ثمة متاريس على الجانب الأيسر من الساحة، تقطع الطريق القادم من حي «جوبر». حاجز عسكري على الجهة اليمنى، يوقف السيارات ويطلب الهويات الشخصية من كل من يركبها. المكان ينوء بعشرات الباصات الحكومية خضراء وبيضاء اللون، يتكدّس فيها رجال مسلحون يرتدون بذّات عسكرية. شرفة ملعب «العباسيين» الرياضي مثقلة بمئات

المسلحين كذلك، تظهر رؤوسهم مصفوفة كدمى خشبية إلى جانب فوهات بنادقهم من أعلى السور. لوهلة تذكرت أواخر نيسان ٢٠١١، قبل ما يقرب ثمانية أشهر من اليوم: كنا هنا «مريم» وأنا، لن أنسى ما حييت منظر الأجساد المتكدّسة عند بوابة «الزبلطاني»، بعيدة مئات الأمتار عن «ساحة العباسيين». رائحة البارود تملأ المكان، رائحة الرعب تزكم أنفي. كنا نهرول باتجاه الجنوب، تلاحقنا أصوات الطلقات والسيارات العسكرية.

على مفرق «الزبلطاني» لاحت المظاهرة الآتية من جهة حي «جوبر» إلى «ساحة العباسيين» تصدح بهتافاتها، تتلامح من بعيد اللافتات البيضاء «لا سلفية ولا أخوان... أنا طائفتي الحرية!». أصوات الهتافات تتناهى أيضاً من البعيد: «سلمية... سلمية... هي مطالبنا وطنية»، ثم تقطع الهتافات بين الحين والآخر موجة من هدير غاضب وملحّ وحازم: «الشعب يريد إسقاط النظام... الشعب يريد...».

كان الغاضبون يحاولون الوصول إلى الساحة والاعتصام فيها، يحدوهم حلم «ميدان التحرير» ربما، يحلمون بميدان آخر مقارب في «ساحة العباسيين»، ولربما حمل بعضهم خيمته على ظهره.

حاولت «مريم» أن تتّجه إليهم، كانت تشدّني من يدي بذاك الاتجاه حيث يقترب المتظاهرون من عنده، وأنا أرى قوات النظام بالرشاشات قريبة مني. لا يمكن لهم أن يسمحوا لساحة «كساحة العباسيين» بالّتحوّل إلى ميدان تحرير! الأمر مفروغ منه، كنت مقتنعاً بذلك، وتفاجأت أن هناك من فكّر للحظة بتحقيق حلم محال كهذا الحلم! لم لا تكون أحلامنا ممكنة التحقق؟! لم نحلم دائماً بأشياء لا يمكن تحققها؟! أم أن الأحلام هكذا دوماً، وإن كانت سهلة التحقّق، قريبة المنال، فلن يكون اسمها أحلام!

كانت «مريم» تحاججني على طول الخطّ.

الهتافات راحت تصلنا قوية وأقرب فأقرب، و«مريم» تشدّني باتجاهها، وأنا أرتعد خوفاً وأصرخ: «ليست شجاعة أن نذهب إلى الموت... ليست شجاعة مريم. سيطلقون النار عليهم»، و«مريم» تصرخ بأني جبان، وتشدّني باتجاه المتظاهرين. من هناك لمحت لوحة عليها صليب وهلال متعانقان.

تررررررر وجنّ الرصاص، وراح القادمون يتساقطون من البعيد، أما نحن...!! لم نستفق «مريم» وأنا من الصدمة قبل أسبوع من مرورها. مرّ أسبوع كامل ونحن ذاهلان بما جرى معنا. نجونا من الموت بإعجوبة!

من يومها ازداد تجهّم «ساحة العباسيين». أحسّ بذلك، كأن الدماء أنضجت حكمتها! كانت المرة الأولى التي نخرج فيها في تظاهرات يوم الجمعة. في الحقيقة أنا من أصرّيت على النزول، ولم تدعني «مريم» وحدي. كنا قد اتفقنا مع مجموعة من الرفاق أن نلتقي في «برزة البلد» حيث ستقام مظاهرة كبيرة بعد انتهاء صلاة الجمعة.

كنت أريد أن ألتقط هل من فوارق بين المظاهرات التي كانت تخرج في «حمص» وبين مظاهرات «دمشق»؟! «أبو خيرات» كان سينتظرنا هناك. لكننا لم نستطع الوصول!

- السنة الماضية كان الدم يغطّي ساحة العباسيين.

لا أعرف السبب الذي حدا بي إلى الكلام هكذا بصوت عال. قد يكون سائق التاكسي عنصر أمن! الكثير منهم يجوبون الشوارع في سيارات أجرة صفراء، يلتقطون الناس كما تلتقط العصافير الجائعة دود الأرض. كلمة واحِدة كفيلة بجرّ إنسان من عالم الضوء إلى مجاهل العتمة. رمقته بطرف عيني. كان شاباً بشرته غامقة ويلفّ حول رأسه كفّية بيضاء بالية ومرقّطة بالأحمر. مظهره مهمل ومتعب. لم أشعر بأنه رجل أمن! وتذكرت «مريم» وهي تؤنبني بأن غريزة الإحساس برجال الأمن لدي معطّلة، حينما رحت أدخل في حديث طويل متأفف مع

بائع الغاز الذي كان قد بلّغ قبل أيام قليلة عن أحد الناشطين في حارتنا. حقيقة لم أكن أعرف! إذاً هل يكون هذا السائق المتعَب بأسنانه المهترئة رجل أمن؟!

- ليك خيي.. محسوبك أبو ريّان، أنا أصلي من ريف حماة. وثلاثة من عائلتي انقتلوا من بداية الثورة لهلق.

شعرت بأن قلبي سيتوقف للحظات. لكن هل يعترف عنصر الأمن بأنه عنصر أمن؟! أو ربما كان مجرّد تمويه! لكن السائق الذي تتصاعد منه رائحة عرق مخنوقة وسط هذا الزمهرير، بدا كأنه جلس للتو على كرسي الاعتراف.

والده كان متطوعاً أيضاً في المخابرات العسكرية. وكانت ستمرّ شهور قليلة ويفترض أن يُحال بعدها إلى التقاعد، لكنه قتل على حاجز مشترك بين المخابرات العسكرية والجيش على الطريق بين مدينة «إدلب» وقرية قريبة منها اسمها «بنّش».

- هاجم المسلحون الحاجز في الليل. هرب أبي لجهة أشجار الزيتون لكن الرصاصة أصابته في رأسه من الخلف وسقط تحت الشجرة. اللّه يرحمه... ما كان يقدر على قتل نملة. كان مسالم وطيب كتير.. اللّه يرحمه ويجعل مثواه الجنة.

أوقف السيارة في طابور طويل أمام حاجز عسكري. ثم دفع بهويته الشخصية إلى العنصر الذي وقف متأففاً.

- إدلبي؟

- محسوبك..

امتعض وجه العنصر. ثم رمق هويتي الشخصية.

- حمصي؟!

هززت رأسي. لم أستطع أن أقول له «محسوبك». رمقني «أبو ريان» مزوراً يستحثّني أن أقول، فابتسمت للعنصر.

- شو بتشتغل؟

- مهندس.

- وشو جابك لهون؟!

- بتعرف الأوضاع بحمص... نقلت شغلي لهون.

هزّ رأسه ممتعضاً، ثم تأملني مماطلاً برأسه للحظات. كان عدد السيارات التي تتراكم على الطابور يزداد، فرمق هويتي مجدداً قبل أن يعيدها إلي ويضرب بكفّه على سقف السيارة: روح.

- اللّه يحميكم ويوفقكم.

صاح «أبو ريان» فرحاً، ودعس على دوّاسة البينزين.

على إحدى ناصيات الشوارع لافتة يتناهبها الهواء مكتوب عليها: «الشعب السوري مع الإصلاح»، ومن وراء السيارات اقترب باصان مليئان برجال يخفضون رؤوسهم على المقاعد. مرّا من أمام الحاجز، ولمح الاثنان من وراء الشبك الحديدي الذي يستر النوافذ، أجساداً ملطّخة بالثياب المشقّقة والدماء، ورائحة خانقة وصلت من وراء الشباك إليهم.

مزاج «صفوان» يزداد تعكيراً وقلقاً. خطر على باله أن يترجل من السيارة ويكمل طريقه هرولة باتجاه مكان «مريم» التي تنتظره. لكن «أبو ريان» همس فجأة والدموع تزدحم في عينيه إن المرحوم والده لم يكن لديه أية رغبة بالانشقاق. كان متيقناً إن هو انشق أو هرب فسيلاحقون عائلته، وسيتشرد في الجبال، أو سيضطر إلى حمل السلاح والقتال مع المسلحين في الجرود، الأمر الذي لم يكن يريده.

الآن طرأ تغيير في قصة «أبو ريان» جعل «صفوان» يدير جزءاً من انتباهه إليه، فيما الجزء الآخر يراقب فيه المحيط ويفكر بـ«مريم»، فقد اقتربوا من الشارع المفضي إلى «مستشفى المجتهد»، ولم يتبق إلا القليل كي يصلوا إليها. لكن حاجزاً أمنياً طارئاً انخلق فجأة أمامهم، واصطدموا بسياج حديدي صلب يقطع الطريق. حواجز حواجز حواجز، «دمشق» أشبه بثكنة عسكرية عملاقة. غريب كيف يمكن

للمكان أن يبدّل روحه بهذه السرعة، لتظهر روح جديدة كانت مختبئة على ما يبدو طوالَ زمن طويل.

- حال دمشق اليوم يشبه تحوّل الدكتور جيكل إلى الوحش مستر هايد.

قال «صفوان» للسائق الذي كان بدوره يقول كأنه يحدث نفسه: سواقتي هذي السيارة أرتني الكثير. رأيت الذي لم أره في حياتي! لو نظرت إلى السيارة من الخارج قبل يومين كنت ستراها مليئة بثقوب الرصاص. لكنني أصلحتها فقد كان من الخطير أن أتنقّل بها في شوارع المدينة! سيسألونني من أين ولماذا؟ وسأدخل في سين وجيم، وأنا في غنى عن هذا. نجوت من الموت كذا مرة... اللّه كاتب لي عمر لأعيشه، وأربّي الصغار... أخوتي!

صوت إطلاق الرصاص يلعلع من جهة «كفرسوسة».

عند مفترق الطريق حواجز معدنية تقطع طريق الأوتستراد! وعشرات السواتر البيتونية تفصلهم عن الطريق إلى مبنى المخابرات العسكرية، هناك حيث هزّ انفجاران قبل أسبوع مبنيي المخابرات العامة وأمن الدولة في «دمشق». حين مرّ «صفوان الشيخ» قبلاً في المكان شعر بمزيج غريب من الأسى والارتياح، فهو لم يكن موجوداً في تلك اللحظة! القدر وحده جعله غير موجود ونفّذ إرادته في أشخاص آخرين. فكّر بذلك والتفت حوله محرجاً. هل يفكر الناس الذين حوله بهذه الطريقة أيضاً؟! كان يراقب العيون التي تدور على المكان المبعثر، ويشعر بأنه يلمح شرارة ارتياح بسيطة وسط وجوههم المتجهمة. هل يشكرون ربهم مثله لأنهم نجوا!

الفراغ الذي تركه الانفجار في المكان يضيّع معالمه، يجعله أشبه بمكان غير محدد التفاصيل مبعثر ومشتّت! وسيكون عليه أن ينتظر زمناً طويلاً حتى يعود للتماسك من جديد.

لكن «صفوان» لم يفكّر في كل ذلك الآن.

طخ طخ طخ طخ. . . صوت الرصاص عالٍ مسيطر يقتحم الآذان بجلاء وهيبة قادماً من جهة حي «كفرسوسة» القريب. راح يصيح بالسائق إن عليه الانعطاف الآن! رفض «أبو ريان» الدخول إلى المنطقة، كان يستغفر اللّه ويعتذر من «صفوان» بأن وراءه عائلة يعيلها، وبأن رصاصة صغيرة كفيلة بإنهاء كل شيء، وبأنه ليس. . . رمى «صفوان» النقود على المقعد، وهرول من فوره باتجاه (المول) القريب من المدخل الغربي. كان شعره منفوشاً في الريح، ووجهه المحمرّ تلفحه نسمات صقيعية. صاح «أبو ريان» من شباك السيارة في أثره: كل عام وأنت بخير أخي. . . نسيت أن أعايدك برأس السنة.

ثم ضاع صوته وسط أصوات الرصاص والانفجارات المتتالية التي وحدها تُسمع بوضوح.

كان يفترض بـ«مريم» أن تنتظره قبالة المول! لكن الشارع خالٍ تماماً، شارع متروك للأشباح والخوف. هناك بائع متجوّل يجلس وحده قرب أكياس متراكمة من البطاطا، وينتظر أن يأتي أحد للشراء كأن شيئاً لم يكن!

لم تكن «مريم» هناك!

لم يكن ثمة من أحد هناك باستثناء ذلك البائع السارد وأصوات الرصاص.

ربما ذهبت إلى البيت! فكر «صفوان» وهو يهرول على طول الشارع الخاوي. ثم طفق يهرول من جديد بالاتجاه المعاكس خارجاً من شارع الرعب ليوقف سيارة أجرة أخرى ويطلب من سائقها الذهاب بأقصى سرعة إلى «جرمانا».

لم يطل الوقت حتى أتاه اتصال «مريم» ليهدّئ هواجسه التي أنهكته تطويحاً يمنة ويسرة: أنا صرت في البيت.

الحياة في «جرمانا» تمشي بشكل طبيعي كأنها مدينة في زمن آخر!

قبل أن يهمّ «صفوان» بالولوج في مدخل البناء انطلقت جوقة أصوات هادرة، كان صفّ سيارات تطلق زماميرها، أعقبها إطلاق متلاحق للرصاص! لم تكن أصوات الرصاص هنا تشبه أصوات الرصاص في «كفرسوسة»! مع أنها في النهاية أصوات إطلاق رصاص! لكن هنا والآن كانت أصواتاً فرحة ومتحمّسة ولعوباً. هناك عرس في «جرمانا»!

التيار الكهربائي مقطوع وجو البيت صقيعي.

موبايل «مريم» يلهج بأغنية قديمة لـ«ليلى مراد» تدفئ المكان قليلاً بحرارة الصوت الشجي. «مريم» وضعت على الطاولة الخشبية في منتصف الصالون مجموعة من أعلام الثورة، ولوحات من الخيش البني المؤطر بعيدان خشب رفيع منقوش على بعضها «الحرية»، وعلى البعض الأخر «الموت ولا المذلّة»، يبدو بأنها جلبتها معها من زيارتها إلى «كفرسوسة»!

- نبيعها ونشتري بثمنها سلالاً غذائية للمهجّرين هنا في جرمانا.

قالت «مريم» وهي تجفف وجهها آتية إلى الصالون. حين رأت «صفوان» يقلّب ما أحضرته. غمرها وقبّل جبينها البارد. كانت رائحة جسده العرِق قد ضجّت في المكان، مزيج من رائحة خوف وقلق وتعب. قامتاهما تكادان تتقاربان في الطول، لكن تبدو «مريم» أقل عرضاً لا غير. وداعب شعرها المسترسل الفاحم رقبته.

- قلقت عليك!

- أعرف.

- قلقت كتير!

- أعرف... يعني من أجل أن أعرف مقدار حبك لي.

- كيف كانت زيارتك إلى هناك؟

وقبّلها قبلة سريعة على شفتيها، واشتم رائحة الصابون الزكية. ثم

نظر في وجهها. خطّ الكحل القاتم الذي وضعته أسفل جفنيها السفليين يسيح على وجهها. وبدت لـ«صفوان» غاية في الجمال. باعد ما بين شفتيه هاماً بالبدء في قبلة عميقة. وضعت «مريم» إصبعها على شفتيه قائلة: بعد كل هذا الرعب الذي عشته لن ينقذني إلا حمام ساخن.. وأنت يلزمك حمام أيضاً!.. ربما بقي القليل من الماء في الخزان يكفينا حتى يأتي الماء غداً!

(٣)

عن ريما وأمها والحكايات

أمي أسمتني «ريما»، كانت تعشق «فيروز» وتذوب في سحر غنياتها. أمي امرأة رقيقة وشاعرية، صوتها منخفض يخرج كالهمس، ووجهها هادئ كهذا الصباح تماماً. ذكّرني هذا الصباح بأمي. مرّت أكثر من تسعة أشهر لم أرَها، فهي مازالت في بيتها في مدينتي «اللاذقية». بالأمس لم تبكِ على الهاتف، كانت صلبة لا تشبه نفسها. سألتني عن صحتي، وقالت أن أنتبه إلى نفسي جيداً، وأغلقت السماعة. أنا أيضاً كنت جافة وأردّ باقتضاب على أسئلتها المختصرة. حينما أغلقت الهاتف اجتاحتني رغبة عارمة بالبكاء. جلست أبكي ساعات. كأني أطرد كل ما بداخلي. ما بداخلي ناء به داخلي.. أنهكت.

طوالَ عمري كنت أحلم بأن أكون فنانة تشكيلية. درست الفنون التشكيلية في جامعة «دمشق»، وبدأت منذ سنوات أبحث عن طريق خاص في عملي! كنت أريد أن يكون لي لوحتي التي لا تشبه لوحة أحد، خطّي الذي لا يشبه خطّ أحد! لكن بالنسبة إليّ بدأ كل شيء يوم ١٦ آذار ٢٠١١، تاريخ لا يمكنني نسيانه. كان الفيسبوك مليئاً بأخبار ثورتي «مصر» و«تونس»، متخماً باحتمالات وتكهنات وقراءات وتحليلات حول ما يمكن أن يحدث هنا وهناك، وإن كان من الممكن أن يحدث! كنت قد رأيت ما يشبه مقطع فيديو مشوشاً عن مظاهرة

خرجت في زاوية من شارع «الحميدية» قبل يوم واحد. كانت لقطات سريعة مرتجفة. يومذاك لم أعرف ما الذي حلّ بالشباب الذين أشعلوها، لكني غدوت، في اليوم التالي، إلى حيث دعت مجموعات الناشطين إلى اعتصام من أجل المعتقلين في «ساحة المرجة». وصلت متأخرة على ما يبدو، دخلت من زمن إلى زمن آخر حالما قطعت «شارع النصر» نزولاً إلى «ساحة المرجة»: كانت غاضبة هائجة، صراخ وازدحام وهلع. رجال بهراوات يتحلّقون حول شاب يحمي رأسه ويصرخ. رجل بلباس مدني يسوق صبية، تقاومه بضراوة، ليودعها في دكان فارغ وينزل الغلق الحديدي عليها. ولافتات ماتزال مرفوعة تطالب بالمعتقلين. خفت، حاولت الابتعاد عن المنطقة، لكن شيئاً سمّرني في المكان، فتح عيني على سعتهما كأنه يقول لي: «تذكّري.. احفريها في ذاكرتك». وحفرته في ذاكرتي، ذلك الصباح المتأخر: «فاتحة العصيان».

شيء ما جعل غواية تلك اللحظة في «ساحة المرجة» تناديني: غواية التمرّد. أن أقول «لا» في وجه شخص يريدني أن أقول «أمرك». كطفلة تستمتع بعدم إطاعة أوامر والديها... هكذا. ثم مع الزمن يتحول كل هذا العبث إلى طريقة حياة. يتحوّل إلى خيار جدّي من حيث بدأ كمناكفة! وتتورط به!

لم أعد أرسم، تركت فراشيّ وألواني وحدها، ورحت أنشغل بالحلم الآتي!

في تلك الآونة كان الشباب ينتظرون المصلّين كل يوم جمعة أمام الجوامع. بعضهم في الخارج وبعضهم الآخر في الداخل، لينضموا إليهم حالما تنتهي صلاة الجمعة ويبدؤوا بالتظاهر. كانت فكرة غريبة بالنسبة إلى الجميع، لكنها كانت مغوية!

«في النهاية لم يكن مهماً إن كانت دور عبادة أم ملاهٍ ليلية تلك الأماكن التي تؤمّن لهم الاحتشاد!».

هذا ما فكّرت فيه «ريما» مع صديقها «فراس الصفدي»، الذي كان زميلها في كلية الفنون الجميلة، وصديقتها «هبة حدّاد»، وربما فكّر فيه المئات من الشباب والفتيات التوّاقين للتظاهر. في الحقيقة لم تكن كثافة الأحداث تسمح لهم بالتفكير أكثر، أو تمنحهم خيارات مختلفة.

اتفقوا أن يذهبوا سوية إلى «الحفلة»! صديقاها الدمشقيان الغارقان في علاقة حب عاتية، والـ«حفلة» هي المظاهرة بحسب القاموس الجديد لأحاديث الموبايلات المراقبة على الدوام، أو على الأقل هذا ما كانت الجموع مقتنعة به.

اتفق الأصدقاء الثلاثة أن يلتقوا أمام الجامع الأموي. كان الجميع خائفاً، فقد سبق وذهبوا الجمعة الماضية إلى جامع «الرفاعي»، كان إمامه يدعو الناس من مايكروفون الجامع إلى الحرية والكرامة والترحّم على أطفال «درعا». وهناك على الرصيف المقابل، حيث كانوا ينتظرون، بدأ الجحيم ينفتح أمامهم: الشباب والرجال الذين خرجوا محاولين التفرّق هوجموا بالهراوات من مجموعة أخرى ترتدي بذّات عسكرية!! راح الدم ينفر من رأس شاب يرتدي قميصاً أبيض، كانت هراوة قد نزلت على رأسه من الخلف. سقط هامداً من بعيد. تضادّ غريب كلوحة تشكيلية: بياض قميصه والأحمر المسفوح على الرصيف حوله. هذا ما بدا المشهد عليه أمام «هبة» و«فراس» و«ريما»، كانت الهياكل تتحرك كأنها أخيلة في لعبة فيديو. زعيق، زعيق، وزعيق، رعب في النظرات، غازات مسيلة للدموع، هراوات، دماء، ورائحة موت... صراخ صراخ صراخ...

وأُغلق جامع «الرفاعي». عُلّق على سوره المعدني لافتة تقول إنه «خاضع للإصلاحات».

كانت «ريما» تتمنى أن تصل إلى مظاهرة «الجامع الأموي»، لا أن تراقبها من بعيد. وبما أنها كانت تسكن في غرفة صغيرة في أول

حي «القيمرية» فقد غذّت السير بين الحارات القديمة باتجاه «الجامع الأموي». طريق أكثر ضماناً من الشوارع الرئيسية التي قد تقطعها الحواجز الطارئة والمفاجئة.

في الشارع المستقيم الواصل إلى «قوس النصر» أمام «الجامع الأموي» مشت لهفة. وحدها أصوات الناس كانت تتناهى من داخل البيوت. لكل بيت حكاية. وسمعت أغنية بعيدة ومنسية لـ«فؤاد غازي» بقيت تغنّيها حتى وصلت: «من خطواتي وخطواتك تعب المشوار»

كنت أتخيّل كيف ستكون المظاهرة، خائفة مرتبكة كنت ولكن مثارة! رحت أراقب الوجوه من حولي. سوق الحميدية مغلق يوم الجمعة لكن الشارع مزدحم كيوم عيد. كنت أراقب عيون المارة، أحاول أن أتكهّن من منهم آت ليشارك في المظاهرة، ومن منهم آت ليتجسّس عليها. كانت العيون تراقبني كذلك كما أراقبها، والنظرات متفحصة كنظراتي.

أمام الجامع لاقيت «فراس» و«هبة»، كان وجهاهما متورّدين بالإثارة رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي نشترك فيها في مظاهرة. كانت «هبة» قد تركت شعرها بدون تصفيف، هي التي تحرص على الدوام أن تبقيه مرسوماً بتصفيفة الكاريه الفرنسية واللون الذهبي كأنها خارجة للتو من صالون للحلاقة. لكني أحسسته بهذه التجعيدات الفوضوية أجمل منه حين تصفّفه. «فراس» يرتدي للمرة الأولى في حياته حذاءً رياضياً خفيفاً وبنطالاً من الجينز، والتيشرت السوداء تزيد من نصاعة بشرته. لم يكونا يشبهان نفسيهما، كأنهما خرجا من عباءة البريستيج المديني إلى فوضى الشارع.

- شكلكما اليوم ثوريين خالصين.

ضحكا من تعليقي، وحاولت «هبة» تصفيف خصلاتها بكفها بحركة عفوية، فيما رمق «فراس» حذاءه المهمل بنظرة سريعة.

حولنا وقف الكثير من الشباب والصبايا ينتظرون مثلنا. كانت

أصوات الصلاة تتناهى إلينا متقطّعة، جوّ من القلق والترقب يعمّ المنطقة. كنت خائفة، أسمع صوت قلبي يخفق بجنون! ولكني أغني بشكل لا إرادي كروبوت: «لوين الدرب مودينا، وعلى أي شطّ مرسّينا...».

خرج المصلون من الصلاة، وبدؤوا يجتمعون في باحة «الجامع الأموي». خيالات أجسادهم تتلامح من الباب العريض المزخرف المفتوح على مصراعيه، كأرواح انتفضت هذا الصباح بعد سبات! في الخارج بدأت الجموع تلتمّ أمام الباب. الركب وحده من قادني كأنه استعار قدميّ منّي. وبدأت هتافات خجولة بدئية تتصاعد: حرية... حرية. ثم بدأ الجمعان يقتربان ليلتحما مع بعضهما بعضاً. كانت الأصوات تعلو، والحناجر تبدو أكثر ثقة.

«سنية وعلوية... نحنا بدنا حرية»

امتلأت الساحة قبالة «الجامع الأموي» بالأيدي المرفوعة والهتافات التي تحتشد في الفراغ. ضاع الأصدقاء عن بعضهم بعضاً وسط الجموع المتراكمة. لكن «ريما» لم تشعر بغربة! كأنها تعرف كل شخص في هذه المظاهرة! وحدة حال غريبة كانت تلفّ جميع من تجتمع خارج باب الجامع! حتى حين رمقها شيخ ملتحٍ يرتدي جلباباً حائل اللون، ازورّ التيشيرت الأحمر بربع كم وبنطال الجينز الضيّق اللذين كانت ترتديهما!

«الموت ولا المذلة...»

تتعالى الأصوات الهاتفة.

لكن فجأة طرأ أمر غريب! كانت مجموعة من الرجال آتية من الجهة الجانبية للساحة، جهة حي «البزورية»، مجموعة كبيرة ترفع صور الرئيس والأعلام الرسمية لسوريا وتهتف: «بالروح بالدم نفديك يا بشار... بالروح بالدم...». اقترب الجمع المؤيد من الجمع

المعارض. كانوا شباناً عاديين يرتدون ثياباً مدنية ويهتفون، الأمر الذي جعل شباب المظاهرة يزيدون من علو أصواتهم:

«حرية... حرية... وبدنا دولة مدنية»

راح الخوف يتسلل مني بعيداً، الخوف الكبير يغادرني. كأن تلك الكتلة الهائلة من البشر منحتني شجاعتها. الجماعات حولي منحتني جزءاً من شجاعتها. للحظات فهمت كيف يغيب الخوف وسط الكثرة كالتنويم المغناطيسي!

وقبل أن أتمكن من فهم ما يحدث بدأت الجموع حولي تتدافع. تحوّل الهتاف الواثق إلى صراخ. في ثانية ألفيت نفسي وحدي. رشحت الشجاعة التي ملأتني قبل ثوانٍ. وجهاً لوجه مع شاب يحمل عصا خشبية هوى بها على رأسي. لم أتبيّن شيئاً، رأيت حجارة الأرض قريبة من وجهي، وشممت رائحة الغبار. كان كل شيء أشبه بكابوس. رأيت الشيخ الملتحي يشمّر جلابيته ويصرخ: «اهربي.. اهربي». فهربت.

حين وصلت البيت كان التيشيرت الأحمر الذي ترتديه «ريما العيساوي» قد استحال بنياً غامقاً، وألم هيستيري يضجّ في رأسها. «فراس» و«هبة» كانا ينتظرانها على الدرج الحجري الذي يفضي إلى غرفتها، شهقا حالما رأياها، ودخلت «هبة» في نشيج حارق. لم تكن «ريما» قد وعت ما حدث معها تماماً! أحسّت فقط بالسعادة لأنها رأتهما سالمين. كانا معفّرين منهكين وحزينين، لكن سالمان!

أرادت أن تكلّم أمها، كانت بحاجة ماسة لسماع صوتها، لربما أعارها بعض الدفء الذي احتاجته بولع، وربما لملم شظاياها المبعثرة. لكن صوت الأم كان واهناً متعباً في الطرف الآخر. أرادت «ريما» أن تحدّثها عن المظاهرة، عمّا حدث معها، عن جروح أصابت روحها قبل أن تصيب رأسها، بيد أن الأم بادرت من فورها، لهفة، بالحديث عن مشاكل طارئة تعيش البلد فيها، عن إشاعات وأخبار

تملأ مدينة «اللاذقية»، حكايات وحكايات عن مجموعات إرهابية مسلّحة تعيث فساداً وتهدد كل القاطنين في الساحل. ثم ناجتها الأم كي تبقى متيقظة ولا تسمح لأحد بتضليلها. كانت تحدّثها بانفعال وقلق، فيما أحسّت «ريما» بالصوت يصفعها من الطرف الآخر بعدم الثقة. أرادت أن تقول لها، أن تخبرها بتفاصيل الأسابيع السابقة، أرادت لكنها أحجمت، لم تحدّثها.

حاولت أن أقول لها بأنهم هم المضلَّلون ولست أنا، بأن ما يحدث ليس بسبب جماعات إرهابية، إلا إذا كانت تعتقد بأني إرهابية. لكنها قاطعتني لتحدّثني عن العائلة النازحة من «جسر الشغور» التي سكنت في البيت الذي تحتها. علّقت بكلمات تشفّ عن خوفها من الموضوع. قلت لها: مساكين اللّه يعينهم يا مو. ألا تسمعين أخبار جسر الشغور!! قصف وضرب وقتلى.

- قتلوا ٢٠٠ عسكري في يوم واحد، وتقولين لي مساكين!

صاحت أمي.

- لكن هؤلاء مدنيون ماما، لا علاقة لهم بكل ما حدث!!

- ريما، هؤلاء يقتلون عناصر الجيش، يقتلون أبناءنا كل يوم، ما الذي يمنعهم من قتلنا؟ وتريدين مني أن أتعاطف معهم!

في الحقيقة لم أعد أسمعها، كنت أفكّر باللعنة المفاجئة التي حوّلت ملاكاً كأمي إلى شخص خائف وغاضب لا أعرفه. كأن ثمة من سرق أمي وبدّلها بامرأة أخرى! لم أكن أستطيع في ذلك الوقت أن أفهمها. كان عليّ أن أشعر بما تشعر به علّني أستطيع تبديله! لكني كنت منهكة متعبة وغاضبة حقاً، وعاجزة عن استيعاب ما تقوله. أردت أن أوضّح لها، أن أشرح لها الحقائق التي أعيشها، لكنها ستتهمني بالتفلسف، التهمة الدائمة التي تسكتني بها. ثم طفقت توصيني مجدداً كي أنتبه إلى نفسي، وألّا أتورط في شيء، وألّا... وألّا... ثم

اقترحت أن أترك «دمشق» وأعود إليهم، خصوصاً وأني أستطيع الرسم بشكل أفضل في «اللاذقية»!

في المساء حالما هدأ رأسها، وراحت تتحسّس القطب الخمس التي ضمّت جرحه، قررت أن تكتب كل ما حدث، كل ما حدث معها وحولها، كل التفاصيل والوجوه والمشاعر والتعابير. وتذكرت الأغنية التي كانت ترددها وهي تيمّم شطر «الجامع الأموي». فتحت الفيسبوك وهي تغنيها، وكتبت على صفحتها ما حصل اليوم. لم تفكّر في أي شيء إلا بأن توصل ما حدث للآخرين، فلم يزدها حديثها مع أمها اليوم إلا إصراراً أن توثّق كل ما حدث ويحدث وسيحدث. شيء بداخلها كان ينبئها بضرورة ذلك، ما يشبه الكتابة ضد النسيان، الكتابة للفضح. لربما أتى اليوم الذي تقرأ فيه الأم ما كتبته ابنتها، وتتكشّف لها الحقائق التي عاشتها... ربما!

ابتاعت دفاتر صغيرة وأقلاماً، وبدأت تدوّن يوماً بيوم، فلم تعد ألوانها تغريها! لكن حمّى التدوين التي ستصيبها طوالَ الشهور التالية المتطاولة ستجعلها تؤمن بأن ما حدث يومذاك أمام الجامع الأموي، وما سيحدث في الشهور القليلة اللاحقة لذلك، كان مجرد بروفا ليس إلا، بروفا لعنف وخراب قادم لم يكن لهم تخيّله!

لكن رغم كل شيء أضحى الأصدقاء الثلاثة مدمني مظاهرات، مثلهم كمثل الكثيرين من الشباب السوري. إن لم يصل أحدهم خبر عن مظاهرة كانوا يخرجون وحدهم، يبحثون بين المفارق، يتنصتون علّهم يلتقطون هتافاً ضالاً لجموع غاضبة، فيندسّون بينهم.

لكني لم أتحوّل إلى مدمنة مظاهرات فحسب، بل أصبحت مدمنة مراقبة المتظاهرين، خصوصاً أولئك الذين ينؤون عن الجمع إلى المقدمة أو على الأكتاف. غريبٌ كيف يغدو الموت وقتها حافزاً للشجاعة، كأنه بطل على خشبة مسرح وجموع الناظرين تتعلق به! قتل الضعف بالموت، أو بالاقتراب منه حدّ الالتصاق. ربما لتبديد

لامعنى وانعدام الحيلة اللذين طالما أحاطا بنا! غريب كيف تتضافر لجموع والموت ليكونا المادة الأساسية للحياة. كأن الموت أمام لجموع حياة أخرى.

هذا بالضبط ما كان يتكشّف لي وأنا أراقب أحد الشباب محمولاً على الأكتاف وسط المظاهرة. كان من الممكن أن يسقط في أية لحظة!

تكرر هذا في كل مكان ذهبنا إليه حيث كانت المظاهرات تهدر. حتى في الوقت الذي غدا المسلحون يحمون فيه أماكن التظاهر، في شهر الثورة المتقدمة، برشاشاتهم الخفيفة وعصبات رؤوسهم لمصنوعة من الكفّيات المرقّطة، كان الموت يحاصر الجموع الهاتفة كذلك بقذيفة قد تنفجر وسطهم!

لحظتئذ يبدو كل من يخرج ذاهباً حتى الثمالة إلى حتفه الشهي: أن يموت من أجل قضية ما. يضحي الموت وقتها عتبة تجاه الحياة. تغدو الجموع كتلة واحدة لا فواصل فيها بين جسد وآخر، لا فواصل فيها بين حياة وأخرى! كأن ذلك التحقق لا يكون إلا بانصهار الفرد في الجموع.

يموت الفرد (شهيداً) فتحيا الجموع بمحفّز جديد للمضي قدماً، كأن موت أحدهما بعث للآخر! كأن الموت هكذا، في هذه الحال وعلى هذه الشاكلة، أنجع الحلول لمأزق زجّت أرواحنا في أتونه.

لو سمعتني أمي فستقول لي بأني أتفلسف كعادتي! لكني في لعمق رحت اكتشف الناس. أستمتع بمعرفة ما لم أعرفه عنهم. صرت أقتنع يوماً إثر يوم بأن إبداعي كان منفصلاً تماماً عن واقعي، أشبه بمن يبدع وعيناه إلى السماء الصافية فيما البشر يحتضرون تحت قدميه، وتتصاعد منهم روائح نفّاذة. كنت أكره الشارع، أتجنب اللقاء مع أي شاب أو فتاة ممن لا ينتمون إلى وسطي، أما اليوم فقد ولدت من جديد، أحسّ بأن رؤيتي للعالم تغيّرت!

لكن كل ذلك الوضع تغيّر منذ مدة. نحن الآن في نهاية سنة ٢٠١١ وتبدو سوريا وقد دخلت مرحلة جديدة منذ منتصف الصيف المنصرم! مرحلة لم يعد فيها كوميديات طارئة، بل تراجيديات محضة تلك التي تصنع التفاصيل. ولم يعد بإمكاني ممارسة هوايتي كما أحبّ، فقد أضحى خروجنا الى المظاهرات أصعب فأصعب.

كمدمنين طفقنا نبحث عن شيء يعوّضنا فلا نجد، مثلنا كمثل الكثيرين والكثيرات، بتنا نحاول البحث عن فاعلية أخرى، عن فعل آخر يجعلنا نقتنع بأننا وسط الثورة دون أن نضطر إلى حمل السلاح الذي راح يتمدد على جسدها حتى غطّاها بشكل شبه كامل... نبحث ونبحث... ونبحث...

(٤)

عن القرية والماضي وخوف الرجوع

كانت عائلة العميد «بهجت إسماعيل حسّون» تتحلّق حول طاولة العشاء في الصالون. التلفاز الرسمي يعرض شريطاً مصوراً عن جماعات إرهابية مسلّحة يقاتلها النظام السوري. يخرج المذيع بعدها لينوّه بأن افتراءات المعارضة على النظام بقتله المدنيين كذب بكذب. أعقبها اعترافات لشبان بضلوعهم بأعمال تخريب وقتل. يتمتمون بضع كلمات ثم يصمتون. عيون قلقة تتعلق بشيء ما وراء الكاميرات. ثم بضع كلمات وصمت.

كانت الأم «سميرة السليماني» تبتلع لقمة المكدوس الأخيرة وتتمتم: «اللّه يجيرنا». و«بهجت حسون» كفّ عن الأكل وجلس ينصت للاعترافات، حينما انقطع التيار الكهربائي فجأة! لم يكن موعد انقطاعه اليومي، لذلك لم تسبق «سميرة» الوقت كعادتها بإشعال الشموع وفانوس الكاز. بدا البيت مظلماً بشكل مبالغ فيه، فالليلة لا قمر فيها. الجدران المدهونة حديثاً بالأبيض مظلمة، وكذا الصورة الكبيرة المؤطرة بالخشب المذهّب والزجاج، تلك التي تضمّ صورة الرئيس «بشار الأسد» باللباس العسكري الكامل والنظارة السوداء وبجانبه أبوه «حافظ الأسد»، بدت معتمة كذلك!

لم يكن قد مضى زمن طويل على مجيء عائلة العميد للسكن في مدينة «جرمانا». لذلك لم يكن من السهل عليهم التأقلم مع المكان

بعد أن سكنوا أكثر من عشرين سنة متتالية في مدينة «المعضمية» على الطرف الآخر من الغوطة الدمشقية.

لكن ومنذ حوالى أربعة أشهر قرر العميد «بهجت حسون» الانتقال من «المعضمية» إلى مكان أكثر أماناً، فقد كانت مظاهراتها قد بدأت، وتبدو الأجواء العامة فيها مليئة بالترقّب والقلق والشحن الغاضب. هذا ما كان يشعره كل ليلة. لم يكن من السهل عليه أن يبعث بأسرته إلى القرية، كما فعل معظم الضباط في القطعة بأسرهم، فالعيش وحيداً بالنسبة إليه كان أمراً أقرب إلى الجحيم، لذلك قرر الانتقال إلى منطقة ليست بالبعيدة لا عن عمله، في مقر الفرقة العاشرة قريباً من «قطنا»، ولا عن مدينة «دمشق».

ذات مساء قريب وفيما كان العميد «بهجت حسون» عائداً إلى بيته في مساكن «المعضمية» العسكرية رأى الصورة الكبيرة للأسد، تلك التي كانت منصوبة على المدخل الشمالي للمدينة، ممزّقة تماماً!

- هؤلاء المخرّبون الذين خرجوا اليوم في المظاهرة...!

قال لابنه «علي حسون» الذي كان يقود سيارة الجيش على غير العادة. هنا راح الأخير يكيل الشتيمة تلو الشتيمة، فيما مجموعة من العمال يبدّلون الصورة الممزقة بصورة جديدة.

في صباح اليوم التالي، حين كان العميد «بهجت» يتوجّه إلى قطعته غرباً، لمح الصورة الجديدة للرئيس ممزّقة كذلك! راح يشتم أولئك «المندسّين»، الذين يتطاولون على أسيادهم وعلى السيد الرئيس، يشتم هذا العمر الذي جعله يرى الرعاع يمزقون صور القادة! يشتم ويشتم، حتى إن العسكري السائق همس بصوت خفيض: طوّل بالك سيدي.. اللّه لا يوفقهم!

كانت شاحنة صغيرة مقبلة تحمل العمّال وصورة أخرى للرئيس لوضعها مكان الصورة الممزّقة. وراء شاحنة العمال سيارة تجرّ «برّاكية» خشبية مسبقة الصنع محمولة على عجلات. كان يبدو بأن

«البراكية» ستوضع بجانب الصورة، وسيبقى حارس دائم فيها لحماية الصورة من عبث المخربين الذين يستغلون ظلام الليل لفعل ما يفعلونه. فكّر العميد قبل أن يصيح فرحاً: هذا عين العقل.

ثم شيّع «البراكية» الخشبية التي وصلت المكان للتو بابتسامة.

في المساء كان ثمة «براكية» بيضاء اللون منصوبة بجانب صورة الرئيس، فيها عسكري دائم للحماية. هنا أمر «بهجت حسون» السائق بالوقوف، ترجّل من السيارة أمام «البراكية» وألقى السلام على الحارس: يعطيك العافية ابني.

كان الحارس يقف على طوله ويرد التحية لرجل بدين في أوائل ستينياته يرتدي بزّة عسكرية عليها رتبة عميد، تكاد أزرارها تتمزّع أمام ضغط كرشه، ويمسك خصلة شعره الطويلة التي تستر صلعته كي لا يطيّرها هواء الليلة الصيفية تلك.

- ستبقى هنا دائماً؟

- دائماً سيدي.

- اللّه يعطيك العافية... انتبه منيح على صورة السيد الرئيس، هذه من شرف الوطن ها...

- أكيد سيدي. بعيوني الصورة وسيادة الرئيس.

ورحل العميد مفعماً بالفرح. فيما تابع العسكري الحارس تحريك الصحن المعدني أمام وجهه علّه يصيب قليلاً من النسمات القليلة وسط هذا القيظ الأياري المبكّر في «البراكية» المغلقة.

في يوم الجمعة ذاك تناهت أنباء عن تحركات خطيرة ستحدث في «المعضمية». خبّر بعض رجال الأمن كل الضباط الموجودين في المساكن بأن أهل «المعضمية» يتهيؤون للهجوم على بيوتهم بعد صلاة الجمعة. دقّوا الأبواب باباً باباً وحذّروهم. من لم يدقّوا بابه أخبره جاره أو قريبه. بالنسبة لبيت العميد «بهجت» فقد أتاه ثلاثة رجال، أحدهم كان قد قضى خدمته الإلزامية تحت إشراف العميد في القطعة

العسكرية ويعرفه جيداً، اسمه «غسان الغنّام». لكن «غسان الغنّام» قرر بعد انتهاء خدمته العسكرية الانتساب لسلك الأمن. أما الثاني فهو «أبو حسن»، ومن لا يعرف «أبو حسن»؟! يمكن لأي كان أن يراه في معظم الأوقات على رأس جمع من عشرات الشبّان المسلحين بالهراوات أو العصي الكهربائية أو القنابل المسيلة للدموع، يمشّطون الأماكن التي من الممكن أن تشتعل فيها مظاهرة ما في وقت ما! صوته هادر يلقي أوامره على ذاك ويؤنّب ذاك، يشير بيديه لجهة أو لأخرى، ويوجّه الجمع للمضيّ. «أبو حسن» كان يخدم في سلك الأمن في «فرع فلسطين»، لكنه منذ آذار ٢٠١١ ترك الفرع ونزل إلى الشارع، حسبما كان يعبّر. واجبه كان أن يترك المكاتب الفارهة هناك ويتعفّر في تراب الشوارع دفاعاً عن الوطن! في الشهور القادمة سيحفظ وجوه المتظاهرات والمتظاهرين ملمحاً ملمحاً، ينقش تفاصيلهم في ذاكرته حتى إنه كان سيعرف واحدهم إن لاقاه صدفة في مكان عابر. يعرف أين ينتظرون نشوب المظاهرة، وكيف يموّهون انتظارهم! يلتقطهم واحداً واحداً. هذا واجبي الوطني. يؤكد «أبو حسن» من جديد.

دخل الثلاثة بيت العميد. كان «غسان الغنّام» يبدو منفعلاً بشكل خاص، وهو يقحم الحضور في سلسلة جمل تتحدّث عن وجوب الوقوف إلى جانب سيادة الرئيس: «إن ذهب ستذهب الطائفة معه. إنهم ينتظرون لإبادتنا، ينتظرون الفرصة للقضاء علينا... وإن تمرّدوا على الدولة وانتصروا فأول ما سيفعلونه الخلاص منا».

صاح «غسان» وصمت العميد، فيما كان «فاطر السليماني»، صهره، يهزّ رأسه مؤكداً على حديث الرجل.

«سميرة السليماني»، التي كانت تستمع لحديث الرجال من وراء باب الكوريدور المفضي إلى الصالون حيث يجلسون، كانت تبكي رعباً، تدعو ربها أن يحمي عائلتها من أي مكروه، وأن يزيل هذه الغمامة على خير.

في تلك اللحظة بالذات قرر «فاطر السليماني»، شقيق «سميرة»، أن يخرج هذه الجمعة للدفاع عن الوطن، حسبما أعلن. فما قاله رجال الأمن خطير للغاية، سيستبيح أهل «المعضمية» أعراضهم وأولادهم، وهذا أمر لا يمكن السكوت عنه.

في الفترة الأخيرة كان يكتفي بالوقوف إلى جانب عناصر «اللجان الشعبية» للدفاع عن الحارة في حال هجم الآخرون عليهم. لكنه اليوم قرر أن يخرج خارج الحارة، وألا يكتفي بحال الدفاع التي تمترس وراءها خلال الأسابيع الماضية.

- لن أنتظر ليأتوا ويقتلونا... سأذهب إليهم.

قال لـ «بهجت» مقرراً، فصمت الأخير.

كان عناصر الأمن قد سلّموا «فاطر» سلاحاً منذ مدة قريبة. جلبوه إلى بيت صهره العميد وأعطوه إياه مع علبة الخرتوش: كلاشنكوف حنتج. لكن ليس «فاطر» وحده من حظي بهذه الأعطية، فقد تمّ تسليح معظم شباب مساكن الضباط في «المعضمية».

لم يكن الأمر مختلفاً في العمل أيضاً! ذلك أن «فاطر» يعمل في الوزارة سائقاً للمدير ومرافقاً له، فتفاصيل جسده الرياضي الضخم، وتلك المسحة من العنفوان التي تلوح على تعابيره وحركاته، تؤهله كي يكون مرافقاً شخصياً للمدير. لذلك فقد كان رفاقه في الوزارة يستلمون السلاح يوم الخميس مساء، ويعيدونه يوم السبت صباحاً، عن طريق قوائم معدّة ومعروفة. يغدون في صباحات أيام الجمع إلى الأماكن التي من المفترض أن يذهبوا إليها، تلك التي يتوقع أن تخرج منها المظاهرات، إلا في حال جاءتهم أوامر بالتوجه إلى أمكنة اخرى! كانوا يكتبون أسماءهم على القوائم، ويتأكدون من تسليمهم للسلاح. أما «فاطر السليماني» فلم يكن بحاجة لذلك، كان سلاحه ملكه وحده.

صباح الجمعة ذاك نزل «فاطر» مع بعض عناصر «اللجان الشعبية» ليساعدوا عناصر الأمن والجيش في السيطرة على متظاهري

«المعضمية» إثر صلاة الجمعة ومظاهرتها المتوقّعة. لاقاه «غسان الغنّام» وذكّره من جديد بأن أهل «المعضمية» سيهجمون عليهم اليوم فينبغي أن يكونوا حذرين.

- نحن فداء الوطن سيدي.

فربّت «غسان» على كتفه.

كان القناصة منتشرين على أسطح البنايات المحيطة، وفي محيط جامع «عمر بن الخطاب». ومن ذاك الجامع خرجت أرتال المصلّين كأنها جيش الموت! هذا بالضبط ما أحسّه «فاطر». كان واقفاً على ناصية إحدى الشوارع مع مجموعة من جيرانه في المساكن. وزّعهم عناصر الأمن بحيث يستطيعون التقاط أي إرهابي مخرّب خارج من الجامع. كانوا يرتدون بذّات عسكرية بلون الزيت.

خرج الجمع من الجامع شباباً ورجالاً وشيوخاً ومراهقين، ابتدؤوا بالهتاف منذ أن كانوا في الداخل واستمروا وهم يخرجون. كانوا يهتفون بالحرية، وإسقاط النظام، وأشياء أخرى لم يستطع «فاطر» تبيّنها. لكنهم حالما اقتربوا صاروا يهتفون: «الشعب والجيش إيد واحدة».

كان «فاطر» يرتجف وهو يضغط على جسد الكلاشينكوف بين يديه. الأوامر تقول بأن يطلقوا الرصاص حينما يقترب الجمع منهم، فهذا سيشكّل خطراً حقيقياً عليهم، خصوصاً وأن الجمع مسلّح بالتأكيد. كانت قبضاتهم عالية ويهتفون فحسب، لكنه سمع صوتاً بعيداً لإطلاق رصاص لم يتبيّن مصدره جيداً.

كان الخباز مع جمع المتظاهرين، الخباز ذاك الذي يشتري «فاطر» خبزه منه كل يوم. بدا وجهه غريباً لا يشبه وجهه حين يبيعه الخبز كل صباح! صاحب مطعم الفول والحمص كذلك كان معهم، والبائع في المؤسسة الاستهلاكية. لمحهم «فاطر» كلهم في المظاهرة المتقدمة في الشارع العريض.

تردد «فاطر» لثوان. كانت المرة الأولى التي يطلق النار فيها على حد! تردد لثوان أخرى، وكان الرصاص ينهمر من جهته على المتظاهرين المقتربين، فرفاقه يطلقون النار بحماس. بعضهم كان يغمض عينيه، والبعض الآخر يفتحهما على سعتهما.

خلال لحظة خاطفة طفق يطلق النار معهم. أغلق عينيه وبدأ. كان يريدهم أن يقفوا، أن يبتعدوا، أن يكفّوا عن الهتاف، لكنهم لم يقفوا. راحوا يتساقطون واحداً واحداً، سقط منهم الجرحى، وربما مات بعضهم. وتوقفت المظاهرة أخيراً!

بدا المشهد أمام «فاطر» مرعباً، صراخ وأنين وغبار ودخان وأجساد تركض وأخرى هامدة. لكن الأوامر جاءت بصوت «غسان الغنّام» الصارخ، بأن يذهبوا إلى المستشفى التي من الممكن أن يتم إسعاف الجرحى إليها. من هناك يستطيعون اعتقال كل الذين تسببوا بهذه الفوضى. لكن «فاطر» لم يذهب معهم. كان متعباً، خائفاً، وساقاه لم تعودا تحملانه. إنها المرة الأولى التي يطلق النار فيها.

«لكنه الواجب..»، فكر مطمئناً نفسه وهو عائد إلى بيت أخته «سميرة»، وظل يردد الجملة تلك ويرددها حتى وصل. كانت كل الأسرة تنتظره على أحرّ من الجمر.

- حدا أزعجكم شي؟

- لا.. الحمد للّه.

استقبلته «سميرة» وهي تربّت على كتفه داعمة ممتنة: كدت أموت قلقاً أن يكونوا قد هاجموكم.

لم يكن «فاطر السليماني» يحلم بأن ينال وظيفته تلك في الوزارة، فهو لم ينل شهادة الدراسة الإعدادية. لكنه طالما مقت العمل في الزراعة، كان يشعر بأنه يشبه دابة أبيه حين يساعده في العمل بالأرض. كان حلمه أكبر بكثير من أن يتحوّل إلى فلاح كأبيه. لكنه لم

يكن ناجحاً في دراسته! لذلك لم يكن أمامه إلا العمل في العاصمة «دمشق» بمساعدة من صهره العميد «بهجت حسّون»، وبوعود متكررة بأنه سيبذل جهده ليجعله يدخل في سلك الأمن قريباً.

«فاطر السليماني»، الذي تجاوز العشرين من عمره منذ شهور قليلة، كان لديه شعور طاغٍ بالرعب من العودة إلى القرية مجرداً من كل شيء في حال سقوط النظام! هذا هو الشيء الوحيد الذي طفق يلحّ على تفكيره في الأيام الأخيرة، أن يفقد كل تلك الفاعلية الجديدة، ويعود مهمّشاً مهملاً، كما عاش والده طوالَ حياته! رغم أنه لم يبح بشيء من مخاوفه لأخته، ولا لابنها المقرّب إليه «علي»، إلا أن الجميع كانوا يشعرون بما يعتمل داخله، فقد كان ثمة هاجس مشابه إلى حدّ بعيد يتغلغل في قلوبهم، شبيه بشعور الهلع، الرعب، وبتهديدٍ ملحٍ لبقائهم.

في الليل راحت معظم جوامع «المعضمية» تنادي على متبرعين بالدم، بعد أن حوصرت المستشفيات من عناصر الأمن واللجان الشعبية، رفاق «فاطر». حين تم تطويق المنطقة لم يكن أمام الناس من بد إلا اتخاذ الجوامع كمستشفيات ميدانية. ثم راحت الجوامع تؤذن وتؤذن، «اللّه أكبر... اللّه أكبر...».

للحظات ساءل «فاطر» نفسه إن كان حقاً قد قتل أولئك الناس! أم أن رصاصات رشاشه لم تصب أياً منهم! ثم نفض رأسه وصاح: إن لم أقتلهم كانوا سيقتلونني!.

لكن الجوامع لم تصمت: «اللّه أكبر... اللّه أكبر»، تهزّ كيانه، تضغط على قلبه بوحشية... ترعبه! في ساعات الليل المتقدّم صارت إذاعات الجوامع تنادي طالبة شاشاً وقطناً وأدوية.

«علي حسون» كان متحمّساً، لكن أخته «مي» كانت تبكي. «سميرة السليماني» كانت واجمة ذابلة، ودخل العميد «بهجت حسون»

لينام. بعد دقائق دخل «غسان الغنّام» البيت ومعه عنصر أمن آخر، قالا لـ «فاطر» بأن الخطر لم يزل بعد، بل ولقد ازداد، وبأن أهل «المعضمية» من الممكن أن يهاجموهم في أية لحظة.

في التاسع من أيار ٢٠١١ بدأ الحصار الأول «للمعضمية». قُطعت جميع خطوط الهاتف والإنترنيت، وحوصرت المدينة بالدبابات وسيارات الزيل. لكنهم احتاجوا أعداداً أخرى من الشباب لاقتحام البيوت والبحث عن الأسلحة، وكان «فاطر» من ضمنهم، وكذلك «غسان»، ومئات من شباب المساكن العسكرية!

تقسموا يومذاك في مجموعات. كانوا يدقّون أبواب البيوت بقوة، وإن لم يفتح أصحابها يقتحمونها. تختبئ النسوة مغطّيات رؤوسهن، فيما يبحث العناصر في كل مكان، في الخزائن وتحت الأسرّة ووراء الأبواب وبين المؤن، في أي مكان يخطر ببال شخص أن يخبئ سلاحاً فيه. من لم يفتح بابه كانوا يكسرونه، يخلعونه ويدخلون. وفي ذلك البيت الواقع إلى جانب مبنى البلدية على الناصية، غرف «غسان الغنّام» من صندوق الصيغة المركون على طاولة في غرفة النوم، وحش القطع الذهبية في جيبه. رآه «فاطر» وصمت مشيحاً بوجهه. بيد أن معظم البيوت التي شارك «فاطر» في اقتحامها لم يعثروا فيها على الأسلحة المطلوبة، باستثناء مسدس شخصي وجده مدسوساً في خزانة ثياب في أحد البيوتات!

لكن المظاهرات لم تتوقف! خلال الأسابيع القادمة كانت الجوامع تذيع كل حين خبر موت جديد، وكلما كان صوت الأذان يرتفع مناجياً: «إنّا للّه وإنّا إليه لراجعون، انتقل إلى رحمة اللّه تعالى...»، كان «فاطر السليماني» يرتجف.

استمرت الاقتحامات، واستمر «فاطر» في الخروج مع الشباب. بدا الأمر بالنسبة إليه مع انقضاء الزمن أشبه بنوع من التحدي أيضاً: يحاولون كسر رؤوسنا، لكننا سنكسر رؤوسهم أوّلاً. قال لأخته حين

سألته هامسة أن يكفّ عن الخروج في حملات المداهمة تلك. حدّثته بخوفها عليه من رصاصة تطلق على رأسه في ظلام أحد البيوت.

- تقولون بأنهم مسلحون، هذا يعني أنهم، بعيد الشر عنك، قد يستهدفونك في أية لحظة... دخيلك يا حبيبي لا تروح معهم... ضل بالبيت.

لكن «فاطر» بقي مصراً على المشاركة. ثم كيف سيكون موقفه من رفاقه حين سيتهمونه بالجبن أو التخاذل! لن يطيق نظراتهم تلك أو تعليقاتهم المهينة. مع الوقت، يوماً إثر يوم، أضحى الأمر أكثر جدية. ما اعتقده «فاطر» سينتهي خلال يومين طال أمده. لكن رغم كل ذلك لم يكن العميد «بهجت حسون» قد فكّر بمغادرة «المعضمية» بعد. كانت الأوضاع تبدو له مسيطراً عليها حتى اللحظة. لكن في نهاية الحصار الأول للمدينة، الذي استمر خمسة أيام وساعات، قدمت من المدخل الغربي للمدينة سيارة «بيك آب» هرمة مزدحمة بمجموعة من عمال البناء من «المعضمية»، كانوا غائبين في إحدى الورش البعيدة طوالَ الأسابيع الماضية. أوقفهم حاجز «اللجان الشعبية» في المنطقة القريبة من حي «المساكن»، وكان «فاطر» معهم. ولم تتوقف السيارة الهرمة تلك! كان العمال من شباب «المعضمية» ويعرفون جيرانهم من سكان المساكن جيداً، لذلك لم يجدوا الأمر بهذه الجدية ليستجيبوا للنداءات المتتالية بالوقوف. لم يبد الأمر لهم مهماً! ولم يكونوا قد عرفوا بعد خطورة ما حدث في الفترات الماضية في مدينتهم!

أحد الشباب الواقفين على الحاجز بأسلحتهم صار يصيح: معهم سلاح... معهم سلاح.

هل كانت أدوات البناء تبدو من بعيد كأسلحة مشرّعة إلى الأعلى؟! ربما، صار «فاطر» يفكّر فيما بعد. لكن السيارة بقيت تنهب الأرض مبتعدة، وظل شباب «اللجان الشعبية» يصرخون قبل أن يطلق

أحدهم النار عليها، وتبعه الباقون، فتوقفت السيارة وسقط اثنان من العمال قتلى فيما جرح الثالث جرحاً بليغاً.

ركض شباب اللجان، وأسلحتهم مهيأة إلى الأمام، إلى السيارة التي تثقّبت بالرصاص، ولم يكن ثمة من أسلحة! جثتان مضرجتان بالدماء وجريح، سيارة يسيل الوقود منها كشلال، وأدوات للبناء متراكمة فوق بعضها، هذا كل ما ألفوه!

وجُنّت «المعضمية». امتلأت شوارعها في ذلك اليوم بالمظاهرات الغاضبة، حتى النساء خرجن يصرخن. كانت الأصوات تتعالى بأن علويي المساكن قتلوا أولادهم، وبأن القصاص قريب. وليلتئذ وعلى صدى الأصوات الغاضبة التي تدور في شوارع «المعضمية»، وصوت الرصاص المقابل الذي يحاول تفريقها، قرر العميد «بهجت حسون» أن ينتقل من هذه المدينة التي تبدو أشبه بمرجل سينفجر في أية لحظة على رأسه ورأس عائلته. لم يكن وحده الذي قرر الانتقال، بل عشرات الأسر من سكان «المساكن» كذلك قررت الانتقال، من شارك شبابها في «اللجان الشعبية» ومن لم يشارك. جارهم القريب، وهو مهندس مدني، قال للعميد على عجل حين لاقاه في مدخل البناء: «تذكّر يا سيادة العميد أن لا يد لي في كل ما يحصل. لكني قررت الانتقال من المنطقة كذلك»، ثم أردف: «يا عارنا... يا عاركم، ستجعلوننا ندفع ثمن أخطاء غيرنا! سندفع أثمان أخطاء غيرنا...»، ومضى. ترك العميد مذهولاً بالطريقة الوقحة التي خاطبه ذاك الجار فيها، كما تركه وحده يفكّر بكلماته: «من غيرنا، وما هي أخطاؤهم؟!»، دون أن يتوصّل إلى إجابات!

بعض أسر المساكن غذّت الرحلة إلى قراهم البعيدة في الساحل، بعضهم إلى مدن أخرى أقل توتراً، والقليل منهم انتقلوا إلى أحياء أخرى في «دمشق» مثلما فعل العميد.

وحده «فاطر السليماني» قرر البقاء في «المعضمية» ليساند

«اللجان الشعبية». في الحقيقة كان يخجل في قرارة نفسه أن يتركهم، فقد زعق «غسان الغنّام» حين سمع بانتقال العميد «بهجت» بـ«فاطر» وسط الشارع: وأنت يا صبي أخته المدلل ألن تهرب من واجبك أيضاً؟! تترك الشباب يخوضون حربكم عنكم؟!

- أنا... سيدي.

- كل شاب علوي يهرب في هذا الوقت يكون خائناً... خائناً لطائفته ووطنه ورئيسه. لو كل شاب من الطائفة فكّر مثلكم فعلى الطائفة السلام... سيأتون ليسبوا نساءكم ويقتلوا أطفالكم. ويمرّغوا شرفكم بالوحل.

بعد هذا لم يعد «فاطر» يجرؤ على التفكير بالمغادرة.

كان يكبر في كل يوم سنة، والأيام تتوالى وتتوالى، والقادم غامض ومخيف. وشيء يشبه ثقباً أسود يجذبه بعنف إليه دون أن يقدر، أو يرغب، بالفرار! بقاؤه الثابت جعل «غسان الغنّام» يزداد ثقة به وتقديراً، «غسان» الذي كان يهدر كل حين: المهم أن نري هؤلاء الكلاب بأن النباح على أسيادهم أمر لا يمرّ بسهولة... واللّه لنفرجيهم واللّه.

(٥)

العودة إلى الحجر الأسود

لم ينته صيف العام ٢٠١١ حتى كان الأستاذ «عمران أبو العزم» قد قرر إغلاق كافيتريا «جرمانا». ليس لأن عناصر الأمن لم يفوّتوا أسبوعاً بدون أن يمرّوا إلى الكافيتريا، وليس لأن بعض عناصر اللجان الشعبية استساغوا القدوم كل حين لطلب المال، لكن لأنه في الشهرين الأخيرين دفع من جيبه عليها بدل أن يربح منها. الزبائن القليلون الذين ضحوا نادرين.

- لم أعد أستطيع رمي نقودي عليها «ميفان»!

قال الأستاذ «عمران» لـ«ميفان حاجو»، لكنه طمأنه إلى أنه سيطلب من الأستاذ «عبد اللطيف مسعود»، المستثمر الجديد لكافيتريا، أن يبقي «ميفان» في العمل. سيزكّيه بشهادته التي يستحقها.

شعر «ميفان» بأنه خسر صديقاً برحيل الأستاذ «عمران»، كما خسر منجم الكتب المجانية التي كان يتحفه بها. أحسّ بأن شيئاً جميلاً ابتعد إلى الابد.

«سعيد حسين»، صاحب البقالية المقابلة للكافيتريا، سأل «ميفان» بلهفة عمّا يزعجه، حين قدِم ليشتري نصف كيلو لبن مصفّى قبل أن يتنازل عائداً إلى البيت. كانت سحنة الشاب مضطربة مهمومة. أخبره «ميفان» بالأمر كله. لكن «سعيد حسين»، وهو رجل خمسيني لطيف

والضحكة مزروعة دوماً على شفتيه، حاول مواساة «ميفان» حين قال له إن من حقه أن يحزن على الأستاذ «عمران» فهو رجل محترم: صحيح هو معارض، «بهذا أمر واضح لي، لكنه رجل محترم مع ذلك.

ازداد حزن «ميفان» من حيث أراد صاحبه تخفيفه!

- انشاللّه... اللّه يبعث لنا بصاحب جديد لهالكافيتريا المتعوسة... إلى الآن لم يأت ولا رجل عرف كيف يديرها!

في ذلك اليوم الذي كانت مياه كانون المجنونة تُغرق فيه نصف الكافيتريا، التي تغيّر اسمها مع استثمارها الجديد، كان «ميفان» يتذكر أيام الأستاذ «عمران» هنا، يرمق البقالية المقابلة، ويستمر في السباب والشتائم.

لم يتغيّر اسم الكافيتريا فحسب بتغيّر مستثمرها، بل تغيّر كل شيء فيها حتى الزبائن. لم يرَ «ميفان» بعدها أياً من أصدقاء الأستاذ «عمران» في الكافيتريا! تغيّرت سحن الزبائن، تصرفاتهم، طرائقهم في الكلام، وأحاديثهم! بل حتى رائحة الكافيتريا تغيّرت! لم تعد الشاشة العملاقة في منتصف الكافيتريا تُفتح على المحطات السابقة التي كانت مسيطرة على فضاء الكافيتريا القديم. حذفها الأستاذ «عبد اللطيف» من قائمة القنوات. كان أصدقاؤه يطلبون قنوات روتانا الغنائية في معظم الأوقات، وأحياناً يطلب الأستاذ إلى «ميفان» أن يفتح على قناة الفضائية السورية أو قناة الدنيا ليسمع خبراً. لم يعد أحد يخفض صوته وهو يتحدث، كما كان الوضع أيام الأستاذ «عمران»، الجميع يتحدث بصوت عالٍ وأمام أي كان. مع ذلك ظل الزبائن قلّة. الشيف الجديد للمطبخ، الذي استقدمه الأستاذ الجديد براتب ثلاثين ألف ليرة في الشهر، اضطر بعد شهرين ونصف إلى الاستغناء عن خدماته، فقد كان يجلس طوالَ الوقت بدون عمل! يسند ذقنه بكفه الغليظة ويتحسّر على أيام العمل في ذلك المطعم الشهير الذي يطلّ «مهيباً» على الأوتوستراد الذاهب إلى المطار الدولي، قريباً من الجسر الخامس بالتحديد.

- لم تركته شيف؟! العمل هناك أفضل!

- آخخخ يا ميفان آخخخ... أغلقوه، لم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى هناك... أغلقوه!

ويستمر الشيف في التحسّر وطرد الذباب من أمام ذقنه ذي النظيات.

أصدقاء الأستاذ «عبد اللطيف مسعود» يأتون إلى هنا أيضاً. كانوا مختلفين عن أصدقاء الأستاذ «عمران أبو العزم»! مختلفون جداً. وكان الأستاذ «عبد اللطيف» يشرب الكثير كل يوم، يغبّ عرق الريان طوالَ الليل حتى يحتاج إلى مساعدتي في الوصول إلى سيارته المصفوفة قبالة الكافيتريا. حين يسكر كان يرفع كأس سورية، وكأس المعلّم الكبير، ثم يغني صادحاً: «حماة الديار عليكم سلام...». كنت أختبئ في حمامات الرجال كي أضحك على راحتي. منظره وهو سكران يميتني من الضحك.

لكن الأستاذ «عبد اللطيف» لم يختلف كثيراً هو وأصدقاؤه في النقاشات حامية كالأستاذ «عمران» وأصدقائه، معظم الوقت كانوا متفقين. لكنهم كذلك كانوا يتحدثون طوالَ الوقت عما يحصل. لكن ما كان الأستاذ «عمران» ورفاقه يطلقون عليه اسم: ثورة». كان الأستاذ «عبد اللطيف» ورفاقه يسمونها: «مؤامرة» أحياناً: «مشاكل»، وفي بعض الوقت: «أحداث». يستزيدون من الحديث عن الأموال التي تُدفع للشباب الغرّ كي ينزل إلى التظاهرات، وعن السلاح الذي بدأ بالدخول إلى البلاد، وعن جماعات إرهابية مسلّحة تقتل الناس. قالت مرة قال لي إنه سعيد منّا نحن الكورد كثيراً، لأننا حتى اللحظة لم نشترك في هذه المؤامرة الحقيرة على الوطن الحبيب. حينها تشجّعت قليلاً وقلت له بارتباك:

- لكن معلّم أنا لا أقبل أن أخرج في مظاهرات، تعرفني من

العمل للبيت ومن البيت للعمل. لكن صدّقني أعرف الكثير من جيراني الذين يخرجون في المظاهرات. . . لا يأخذون أي مال!

- وما أدراك أنت؟ لن يقولوا لك عن ذلك!

- ومن أطلق النار عليهم كانوا رجالاً من الجيش!

اختفت ابتسامته وهو يحاول الرد بهدوء. قال لي إن جيش البلاد لا يمكنه أن يفعل هذا! وإنني اعتقدت بأنهم الجيش السوري فيما هم عصابات إرهابية مسلّحة تروّع الأهالي ويتنكرون بلباس جيشنا ليشوّهوا صورته. ثم نصحني بأن أبتعد عنهم، وأن أخدم وطني بالمساعدة في إلقاء القبض عليهم، وإلا سيخرب حييّ «الحجر الأسود» كما ستخرب البلد كلها. ثم قال لي واثقاً: ابني يا ميفان، وما أدراك بأنهم لا يأخذون المال والسلاح بالخفاء؟! إنهم يهاجمون الشرطة والجيش يا ابني، ما بتسمع أخبار؟! وهذه طريقة تفكيرك الغبية تدعك تصدّق كل شي تبعبع فيه قنوات الكذب، والذين يريدون خراب البلد! هل تستمع إليها يا ابني؟! روح يا ابني على شغلك روح وحطّ عقلك براسك. . . اللّه يرضى عليك. . . انقلع.

- حاضر معلم.

كنت أرتجف من خوفي وغبائي. ألوم نفسي ألف مرة على هذه التفاهات التي قلتها. لا أعرف ما الذي جعلني أفتح فمي بخراء كهذا. وبقيت عدة أيام أخرى وأنا أخاف النظر في وجهه. ذات ليلة انكسر حاجز الصمت بيننا حين صاح بي، وأنا أضع الفحم المشتعل على أركيلته، إن كنت انفصالياً؟! كان المشروب قد بدأ يطيح به وهو وسط جمع من رفاقه الذين يتحلّقون حول الطاولة. نظروا كلهم إليّ. لم أفهم سؤاله جيداً، ارتبكت حتى بدأت يدي ترتجف غصباً عني. ربما بدا ذلك واضحاً على وجهي.

- يعني أنت من جماعة مشعل تمو اللّه يرحمو، أم تريد دولة كردية؟!

- لا أعرف من هو مشعل تمو!

وانفجر الضيوف ضاحكين. الأستاذ كان يفتح فمه على آخره متهقهاً وهو يضرب الطاولة: واللّه أنت المستريح يا ميفان... الجهل نعمة.

تركتهم وعدت إلى عملي. لكن في المساء كنت أعرف كل شيء عن «مشعل تمو»، عن أرائه والآراء المعاكسة، عن الاتحاد والانفصال.

مع «سعيد حسين» كنت أتحدث عن كل هذا بدون خوف. يتململ الرجل من حديثي، لكنه لا يغضب. شعرت بأني اشتقت إليه مع أنه لا يبعد عني إلا أمتاراً قليلة، وقررت أن أزوره اليوم مساء قبل أن أعود إلى البيت.

سألته بعد ذلك عن رأيه بانفصال الأكراد، فأجابني: «كارثة».

- لماذا؟!

- تتقسم البلد...

- لكن ممكن أن يأخذ الأكراد حقوقهم كاملة بدل الذلّ الذي عاشوا فيه...

- كأني لا أعرفك، لغة جديدة ومعلومات جديدة... ما الأمر؟!

- أحاول أن أقرأ بعض المقالات على الإنترنيت.

- ولا يوجد حل إلا الانفصال ليأخذ الأكراد حقوقهم؟!

- بلى يوجد. هناك كتّاب يقولون يوجد وهي الديمقراطية... وكتاب يقولون الفيديرالية، أو يجب الانفصال.

- وأنت؟!

- أنا لا أعرف!

لكن اليوم وأنا أنتهي من تنظيف المكان ونشر السجادة العجمية الثقيلة، المضمّخة بالماء القذر، للمرة السابعة هذا الشتاء، وصل الأستاذ «عبد اللطيف»، وشعرت بأنه يمكنني أن أضربه بعصا المسّاحة

التي أجفف الماء المتبقي بها. رمق الملصق الضخم لـ«بشار الأسد» الذي يحتلّ الواجهة كلها تقريباً وصاح: هل تأثرت الصورة بالمطر؟!

- لا معلّم... لم تتأثر.

هزّ رأسه وأخرج لافتة كبيرة ملفوفة. قال لي أن أساعده في تعليقها بجانب صورة الرئيس على الوجه الداخلي للواجهة الزجاجية. مكتوب عليها: «سوريا بخير»، الجملة ذاتها المكتوبة على اللافتة القماشية التي ترفّ بين عمودي كهرباء متقابلين أمام كراج السرافيس الذي أقصده كل يوم.

أردت أن أسأله رفع السجادة العجمية هذه من المدخل، فهي ما فتئت تتبلل بالمطر كل حين، وشهر كانون الأول لهذا العام ٢٠١١ كريم جداً بالمطر! لكنه تشاغل عنّي بسيارته، فقد كان الزجاج الخلفي لسيارته البيضاء «بي إم دبليو» مكسوراً بشكل دائري. صاح وهو يقفلها إن زعران «حوش بلاس» كسّروا له الزجاج حول صورة الرئيس التي كان قد ألصقها على الزجاج الخلفي للسيارة. صورة ملونة مكتوب تحتها «منحبك». اليوم حين ذهب ليغيّر زيت المحرك هناك عاد إليها من الورشة القريبة فوجدها هكذا! كان يحلف الأيامين المعظّمة بأن لا يطأ «حوش بلاس» مجدداً، أو حتى المنطقة الجنوبية كلها من حي «الزاهرة» وبالرايح!

فكرت بأنه ما كان ألصق صورة الرئيس على زجاج السيارة، لو عرف بأنها ستكلفه تغيير الزجاج كاملاً! ربما...

في ذلك الوقت نزل الرجل الذي يسكن الشقة اليسرى من الطابق الثاني، البيت المواجه لبيت الست «جولييت أم بيرو»، من أمامي وألقى السلام عليّ وعلى الأستاذ. كان رجلاً في الخمسينيات من عمره، شعره أبيض وملامحه جريئة، وعيناه شديدتا السواد. ابتسم وقال لنا: «يعطيكم العافية»، ثم ذهب رامقاً سيارة الأستاذ بطرف عينه. سألني الأستاذ من يكون؟! لم أكن أعرف.

فيما بعد سيعرف «ميفان حاجو» بأن هذا الرجل هو «صلاح عباس» ذاك الهارب من مدينة «حمص» إلى هنا منذ ثلاثة أشهر. لكن معرفته تلك لم تجعله يختبر ذاك الرجل المثير للمعرفة كما كان يأمل، لم يطل الأمر بكافيتريا «ابن البلد» حتى اضطر «عبد اللطيف مسعود» إلى إغلاقها بدوره.

كان «ميفان حاجو» يقضي يومه كاملاً بدون أن يقوم بعمل يستحق اسمه في الكافيتريا! كان ينظّف زجاج الواجهة، يصلح من حواف الملصق الكبير المتآكل من الرطوبة، يكنس الأرضية، يرتّب شراشف الطاولات، ويجلس. على ذلك الكرسي المقابل للواجهة الزجاجية تمضي أياماً يراقب الشارع. أحياناً كان يغدو إلى بقالية «سعيد حسين» ليثرثر معه عن كل شيء. في بعض الأحيان كانت تأتي مجموعات ممّن يطلقون عليهم اللجان الشعبية في «جرمانا»، يدخلون ليجتمعوا مع الأستاذ «عبد اللطيف» في الداخل. معظمهم يأتون مسلّحين ببرشاشات، وبعضهم كان يكتفي بدسّ مسدس يظهر جلياً من حزام البنطال. تحملهم سيارة بيك آب بيضاء على الدوام، ويجلسون في صندوقها المفتوح مشرّعين أسلحتهم أمام جميع المارّة.

«ميفان» كان يعرفهم جيداً. الأستاذ «عمران أبو العزم» حدّثه طويلاً عنهم. كان يهزّ برأسه أسفاً حين يراهم يتبخترون في شوارع «جرمانا». لم يكن يسمّيهم «اللجان الشعبية» بل سمّاهم «الشبّيحة»! يشير إلى الرجل الضخم ذي الكنزة نصف الكم السوداء: هل ترى ذاك الشغل يا ميفان! عامل حاله اليوم حامي البلد. هذا كان مجرم، خرجوه قبل بضعة أشهر من الحبس، سلّمه فرع الأمن هوية أمنية وأعطوه سلاحاً... صاروا يأخذونه مع غيره من الشباب ليشبّحوا عند جرانا... والله ما رح يجيب آخرة جرمانا الا هالشبيحة!

كنت أعرف هذا جيداً، فقد سبق وأخبرني بذلك «سعيد حسين». قال لي بأنهم طلبوه من دكانه، بما أنه (وطني شريف)، يريدون منه

خدماته لحماية الوطن. حسبما عبّر لي. عنصرا أمن كانا يزورانه بشكل دوري، أخبراه بأن يأتي إلى مخفر الشرطة ليستلم هوية أمنية جديدة، سلاحاً جديداً، وصندوق ذخيرة. «سعيد» لم يرفض العرض بشكل مباشر، وعدهما خيراً وقال بأنه سيذهب لكنه لم يذهب. قال لي: لم أؤذِ أحداً في حياتي كي أخاف من أحد... السلاح والهوية الأمنية ليسا لي.

«لكن هذا للشرفاء وحدهم!»، يؤكد رجل الأمن مجدداً وهو يحرك سبابته في وجه «سعيد حسين». كأنه يقول: للشرفاء مثلي وليس مثلك. منذ ذلك الحين كان على «سعيد حسين» أن يدفع حصته من الأتاوات لأولئك الذين رفض أن يكون واحداً منهم!

- أنا أعرف نفسي جيداً وأعرف بأني وطني وشريف أكثر من أبيه. تخيّل أن أتحوّل إلى قاتل في آخر عمري...!

قال «سعيد» وهو يدوّن ما اشتراه الزبون الأخير على دفتره. ثم علّق وهو يسرد في زحمة الشارع: يا حرام، ما الذي يحدث لهذا البلد؟!

«هناك الكثير ممن لعب بهذه البلاد كالطابة»، فكّر «سعيد»، «كنت أتمنى أن يذهب العديد من قادة الأمن وبعض قيادات الجيش، وبعض ممّن يحيطون بالرئيس... ربما، لأنه مظلوم بينهم. نعم مظلوم بينهم، وهم لا يريدونه أن يقوم بشيء من هذا... أنا واثق»، خاطب نفسه.

«جيش معظمه فاسد وأمن فاسد وبلد يتناهبها اللصوص»، همهم من ثمّ بصوت مسموع. «لكن تطهير البلاد يحتاج إلى إصلاحات، هي ذاتها الإصلاحات التي وعد سيادة الرئيس بها. كانت ستسير الأمور جيداً. لمَ لم ينتظروا عليه قليلاً لينفّذ إصلاحاته؟! لمَ؟!». تحسّر «سعيد» مجدداً، ثم راح يفكّر بأن كل هذه الأحقاد، كل هذا الكره،

كل هذا الخراب الذي تتجه البلاد إليه سيجعل منها لقمة سائغة في أفواه أعداء البلاد، كل أعداء البلاد في الخارج والداخل.

- من أعداء البلاد؟

سأله «ميفان حاجو» يوماً حين كان يحدّثه بهمومه تلك.

- كلهم.

- كلهم من؟!

- إسرائيل وأميركا وتركيا وقطر والسعودية... لذلك هم يدعمون التطرّف الديني في البلد!

- يعني كل العالم أعداء للبلد؟!

- لا، هناك إيران وروسيا والصين.. أصدقاء لنا.

- حسناً، هم يدعمون الأسد ليقتل أكثر! أليست هذه جريمة كذلك؟!

- الموضوع أعمق من ذلك ميفان! الأسد يحمي الوطن ممن يريدون السيطرة عليه ونهب خيراته. البلد ستذهب إلى الجحيم إن لم نقتنع بذلك... هناك أخطاء بالتأكيد، ولكن الجوهر هو المهم.

- أي جوهر يا رفيقي... إنه مجرم... إنهم مجرمون!

- فقط لو انتظر الشعب عليه قليلاً لقام بالإصلاحات و...

- لو انتظر هو على الشعب قليلاً! لو أعطاه قليلاً مما أراده لكان كل شيء مختلفاً!

وتذكّر «ميفان» جملة الأستاذ «عمران أبو العزم» التي كان يردّدها على الدوام: «كان السوريون بحاجة انتصارات قليلة كي يعودوا إلى بيوتهم راضين. انتصارات صغيرة كانت تكفي ليشعروا بأنهم مازالوا على قيد الإنسانية!».

حاول «ميفان» أن يعيد الجملة على أسماع «سعيد حسين» فتلكّأ، فالأستاذ «عمران» يقولها بلكنة تشبه لكنة الحكماء، هذا ما يشعر به

«ميفان» على الأقل! لكنه تذكّر ما كان يريد أن يقوله قبل الجملة تلك، فقاله: طيب.. وأهل البلد أليس لديهم حق بقول شيء؟!

- طبعاً.

- إذاً... هم لا يريدونه.

- ليس كل أهل البلد، هناك جزء كبير من أهل البلد يريده.

حين سمع «سعيد» نفسه يقول ما قاله، خطر بباله أن هذه الجملة هي أكثر ما يخافه، فهي تعني أن البلد تتقسّم، والسوريون ينقسمون، ولا أحد يعلم إلا اللّه إلى أين ستفضي الأحوال! ومن جديد بدا نقاشهما عقيماً فصمت، كما صمت «ميفان» بدوره.

لكن دواخل «سعيد» بقيت تمور بالأسئلة القلقة، بالخوف، بالتشظّي. هواجسه تسحقه، تتناهشه الأضداد، تضبّب رؤياه، ترميه في دوامة لا يعرف منها نجاة!

لكن الأستاذ «عبد اللطيف مسعود» أسرّ لـ«ميفان» بأنه سيغلق الكافيتريا بعد أيام. أعطاه أجرة شهرين: ستة عشر ألف ليرة سورية. ربّت على كتفه قائلاً: الكافيتريا لم تعد تربح قرشاً، ابني يا «ميفان»، صرت أدفع لها المصاري بدل أن تعطيني. الحالة داقرة هالأيام ابني يا «ميفان»، وإن شاء اللّه إذا رجعنا وفتحناها من جديد ترجع لتشتغل فيها... ما رح شوف أحسن منك.

لم آسف على إغلاق الكافيتريا، كان أمراً مثيراً للفرح بالنسبة إليّ، فقد تحولت أيامي الأخيرة فيها إلى كوابيس. لكني حزنت على فراق «سعيد حسين»، سأشتاق لبسمته، سأشتاق لخلافاتنا ونقاشاتنا التي راحت تتعقد وتتحول إلى نزاع يومي في السنة الأخيرة. حضنته كحركة وداع نهائية، شممت رائحة اللبن الحامض تتضوّع منه، ثم عدت الى بيتي النائي في منطقتي: «الحجر الأسود».

(٦)

عن البرد وأشجار الزيتون

لم يكن وقتاً مناسباً للخروج إلى الشرفة! برد كانون الثاني هذا العام ٢٠١٢ قاهر، متشفّ، وغامض كهاوية معتمة. لكن الهواء كان سينقطع عن رئتي «صفوان الشيخ» لو لم يخرج من فوره إلى الشرفة. بث مستنشقاً كناج من خضم بحر عاتٍ. بدا الهواء اللاسع كمن ألفى صيدته، راح يعبث بعنف بشعره المشعّث، بين طيات ثيابه المتراكمة، أطراف البطانية الصوفية التي يلفّ بها جذعه، وبدخان سيجارة «لجيتان» التي أشعلها لتوه. حتى النمر البنيّ المرسوم على بطانيته الصفراء بدا مرتجفاً.

«ستعمل الريح على إنهاء السيجارة بسرعة، أضحى باكيت السجائر الآن بمئة وثلاثين ليرة، ولا يعقل أن أدع الريح تشاركني بها!»، فكر «صفوان» لكنه بقي مسمّراً مكانه!

البنايات المقابلة تبدو مجلّدة من البرد، متخشّبة. الشمس الغاربة من وراء السحب تترك المكان لجنون برد أشدّ، والتيار الكهربائي منقطع عن المنطقة بأسرها منذ أربع ساعات وثلث. دخان ضئيل يتصاعد من فوق إحدى البنايات! «لديهم مازوت؟!» ساءل «صفوان» نفسه مستغرباً. ذلك أن تأمين المازوت هذا العام، كتأمين الدرّة الأساسية من تحت البحور السبع... غريب!!

«ربما كانت بقايا مازوت من السنة الماضية!»، فكّر من جديد،

ثم ارتعش متخيّلاً غواية دفء المازوت في مدفأة معدنية تتأجج فيها النار: «كشوكولا ساخنة تذوب برقّة في حلق جاف».

في الداخل كانت زوجته «مريم محمود» تلتحف ببطانية أيضاً وترتجف. قبالتها كانت «انتصار السواس» ماتزال تتحدث وتتحدّث منذ ساعات بدون توقف.

صاحت «مريم» على «صفوان»: ادخل يا مجنون ستمرض من البرد... ادخل. لكن «صفوان» لم يسمع، أو لم يرد أن يسمع. كان يفكّر بالذي قد يكون قد جدَّ من الأخبار، فالتلفاز مغلق منذ أربع ساعات وثلث ودقيقتين. لكن أصوات الانفجارات القادمة من الشمال البعيد تنبئ بأن القصف ما يزال يدكّ «حمورية» و«عربين» و«دوما». كما كان محتقناً حدّ الانفجار من الضيفة الثقيلة التي خرّبت يومه منذ الصباح.

قبل أيام كان الأصدقاء قد قرروا الذهاب لعزاء أحد شهداء «الكسوة»، «صفوان» و«مريم» و«عمران أبو العزم» ومعهم «ريما العيساوي» و«هبة حدّاد» و«فراس الصفدي»، أما «انتصار» فقد لاقتهم هناك. لم يعرفها أحد حين وصلت مكان التقائهم، كانت تضع على رأسها حجاباً أسود اللون وترتدي جلباباً كحلياً أيضاً. سألتها «مريم» عن السبب، فبررت بأنها ترتدي الحجاب حينَ تزور المناطق المتدينة الثائرة كي يشعروا بأنها تقف في صفهم، تؤازرهم وتدعمهم.

- ولكن هذه خديعة!! قالت «ريما» بجفاء.

- ثم إننا ينبغي أن نذهب كما نحن، عليهم أن يقبلونا بشكلنا السافر هذا كما نقبلهم بثيابهم المحتشمة. أردفت «هبة» واعظة.

هزّت «انتصار» كتفيها لا مبالية. لكنهم حين وصلوا إلى تجمّع العزاء، كان أهل المدينة قد نصبوا خشبة مسرح وعليها منبر لإلقاء الكلمات. طلعت «انتصار» على المنبر بحجابها الطارئ، عرّفت عن

نفسها كناشطة معارضة ثم وراحت تكيل الشتائم لأولئك المعارضين المتهادنين مع النظام، وأسمتهم «فرسان الحوار»، قاصدة بذلك قبولهم للحوار مع النظام! وكان «عمران» يكزّ على أسنانه غيظاً.

«معارضة حرة وشريفة...»، هتف أحد الواقفين أمام المسرح.

- «صورة مشرقة لعراك المعارضة مع بعضها».

همس «صفوان» من جديد ساخراً، وكان «عمران» مايزال يكزّ على أسنانه!

كان «صفوان» يستذكر تفاصيل الرحلة تلك مغتاظاً، وهو يراقب الشجرة الوحيدة في الفسحة الخضراء أمام البيت تلك التي تفصل البناءين المقابلين. كانت وحدها من تهب المكان لمحة من الإنسانية، فقد كانت تهتزّ. «ليس من الهواء»، فكر «صفوان»، فقد لمح امرأة مستحفة بفستان من المخمل القرمزي، لا يظهر إلا وجهها من تحت ثل الصوف الأسود، تقف إلى جانب الشجرة تراقب شاباً يحاول تقطاع غصن كبير من أغصان الشجرة. للحظات جنّ «صفوان» من غضب، رمى البطانية على أرض الشرفة ونزل مسرعاً إلى الحارة تجاه الشجرة المرتجفة. لم يستمع للذي تمتمته المرأة وابنها، كانا تحبين، والدخان يتصاعد من فيهما وهما يتكلمان. راح «صفوان» يصرخ حنقاً. يدا الشاب القابضتان على الفأس راحتا ترتعشان. كانا يديان الغصن ذلك ليتدفأا به! راحت المرأة تتوسل إليه بأن أبناءها يموتون من البرد، وما من شيء للتدفئة. حلفت عليه الأيامين المعظّمة يمشي معها إلى حيث يسكنون كي تريه الوضع المزري هناك. سبب ما استجاب «صفوان».

نهاية الشارع، في الطابق الأرضي لبناية ما زالت على الهيكل سبتوني، كان ثمة أطفال ومراهقات وعجوز، وشبابيك من أكياس يلون الوسخ، وتنكة قديمة صدئة فيها شيء ما يحترق. سحن جوههم كانت تحمل كلّ ما في هذا البلد من تعب. للحظات أحسّ

«صفوان الشيخ» بأنه دخل عالماً آخر، عالماً يتلبّس فيه شخصية الجلاد، فيما ضحاياه أمامه يرتجفون من البرد، أسرة هاربة من مدينة «الضمير» إلى هنا. وحين كانت المرأة تحدّثه عن رحلة الهرب من «الضمير» إلى هنا، عن القصف والقتل والجثث المشلوحة في الشوارع، عن الدمار والبرد والخوف، كان «صفوان» يراقب الأجساد المجتمعة أمامه بذهول.

- واللّه يا أخي نحن ما لنا علاقة بكل اللي عم يصير، يعني لا بالحرب لنا ولا بالقتال... نحن ناس مستورين على باب اللّه. لذلك تركنا البلد وجينا لهون.. والحال متل ما إنت شايف!

لسبب ما بدأ «صفوان الشيخ» فجأة يرتجف، تجمّعت الدموع في عينيه رغماً عنه! ثم فجأة راح يترجّى المرأة، التي وقفت ذاهلة أمامه، أن تعود لتأخذ غصن الشجرة. يجرّ الشاب من كمه كي يأتي معه ويأخذ الغصن الذي كان يباشر قطعه. وذاك الرجل الغاضب من قطع أغصان الشجرة تحوّل في لحظات إلى ممسوس يرجوهم أن يقطعوها!

هناك عند شجرة الزيتون، تلك التي وحدها تهب المكان مسحة إنسانية، وقف «صفوان» راضياً، يستمع باهتمام إلى قصص الشاب عن أشجار الزيتون التي راح الفلاحون يقطعونها ليتدفؤوا على حريق خشبها. «معظم أشجار الزيتون في منطقتنا قُطعت، تدفأنا على نارها في الشهور القليلة الماضية...». كان السكون المحيط يزدحم بوقع الضربات التي تقصم جسد الشجرة، و«صفوان» يراقب المكان المحيط، ويفكّر بأنه سيشعل شجاراً عاتياً إن اقترب أحد وسأل الشاب: لم يقطع أغصان الشجرة؟!

- «سنوات من التعب على شجرة تتحول خلال دقائق إلى فحم أسود.. كمن يحرق سنوات عمره!!».

علّقت فيما كانت ضربات الفأس العتيقة تنهال على الأغصان.

الجارة «أم بيرو» تطلّ من شرفة بيتها، متلحّفة بشالها الصوفي

الأبيض الكبير. ربما أخرجها صراخي قبل قليل وأصوات غريبة تناهت إليها. مع أنها في العادة لا تجرؤ على الإطلال من الشباك حين يتناهى صوت القصف من بعيد. لكنها اليوم أطلّت رغم صوت القصف الذي يزداد ضراوة.

«مسا الخير أم بيرو... انشاللّه تكوني بخير».

ابتسمت لي ولوّحت بيدها الواهنة. لا أعتقد بأنها سمعتني. كان قلبي مازال يتفطّر وأنا أراقب الشاب يقتطع أغصان الشجرة، ومنظر ذاك المكان، الذي يشبه بيتاً متداعياً، يتراءى أمامي ككابوس ليلي.

«سعيد حسين» صاحب البقالية المواجهة للبناية كان يقف عند بابها. بدا متحفزاً وصاح بي لهفاً: في شي أستاذ صفوان؟! بدك مساعدة؟!

- لا شكراً جار... كلك ذوق.

وابتسم لي. تربطني علاقة طيبة بصاحب البقالية ذاك. علاقة غريبة وطيبة. قبل أسابيع همس لي، فيما كنت أشتري كيلو لبن وربطة خبز من بقاليته، بأن هناك عنصري أمن سألاه إن كان يوجد أناس من «حمص» أو «حماة» أو من «ريف دمشق» في الحي. لوهلة أحسست بالريبة منه: لهجته اللطيفة المبالغ بها، القناة الرسمية التي لا يفتح تلفاز الدكان إلا عليها، وصورة «بشار الأسد» التي تلعلع على الحائط لمواجه لباب الدخول... كل ذلك يجعلني أشعر بريبة شديدة. لكن نظرته توحي بالعكس. بالنسبة لي كنت أعرف بأنه رجل موالٍ حتى لعظم، ولم أسأله من أي منطقة هو، لكنني لم أكنّ له الضغينة! تذكرت مرات عديدة علّق فيها، وقت ولوجي البقالية، عن أولئك لمعارضين الذي يعيثون فساداً في البلاد. ثم استطرد كأنه يعتذر مني: لكن لا يخلو الأمر من معارضة شريفة ووطنية».

- كيف يعني معارضة وطنية شريفة؟

سألته.

- يعني المعارضة التي لا تقبل أن يتدخل الخارج بمشاكل البلد... مشاكل البلد يحلّه أهل البلد.

علّق. لم يكن بوسعي نقاشه، فرغم كل شيء ما زال يثير الريبة فيّ رغم لطافته. بل ربما كانت لطافته بالضبط هي ما يثير الريبة. علّق قبل ذهابي: أرجوك أستاذ صفوان انتبه إلى تحركاتك، إنهم يراقبون كل الغرباء.

- ليس هناك ما أخاف منه أخي سعيد!

وأشحت بنظري، خفت أن يرى الكذب يتقافز من عيني.

- أردت أن أحذّرك فقط.

هززت رأسي.

«مريم» كانت تنتظرني في الداخل. لم أخبرها بما قاله صاحب البقالية يومذاك، فلم تكن بحاجة إلى قلق جديد.

كانت «انتصار السواس» قد غادرت، و«مريم» تنتظر بفارغ الصبر عائلة أختها التي من المفترض أن تصل اليوم من مدينة «حمص»: «فاديا محمود» وزوجها «أبو ليلى» وابنتها الصغيرة، الأشبه بملاك، «دلع». كنت أفكّر بالاشتباكات التي تتناهى أصواتها إلينا على طريق المطار القريب منا، ربما كان عليهم أن يسلكوا طريقاً آخر! وفكّرت بأن الطريق إلينا سيكون محفوفاً بالخطر كطريق إلى الجحيم. لكني لم أسرّ بمخاوفي إلى «مريم»، خوفها كان يكفيها، تشبه لبوة جريحة تروح وتغدو في قفص.

لم يرضَ حماي، والد «مريم»، أن يأتي مع ابنته إلى مدينة «دمشق». لم أستغرب التصرف من ذاك الرجل البعثي القديم، قدم إيديولوجيته القومية الأثيرة، لأنه رفض ترك مدينته «حمص» وحدها والقدوم بعيداً. فـ«حمص» بدونه لن تكون كـ«حمص» أبداً! على الأقل هذا ما كان يؤمن به بكل جوارحه. وهذا ما أؤمن به أنا أيضاً. لذلك فقد قررت ابنتاه أن تتركا مربيتهما العجوز معه لتخدمه ريثما تهدأ

لأوضاع قليلاً وتعود «فاديا» إلى البيت. كان قلبه موهناً، مثقلاً بالحب، ولديه قدم مبتورةٌ. لذلك لم يكن يستطيع التجوّل إلا على كرسيه المتحرك. مع الزمن غدا الكرسي المتحرك جزءاً من جسده، يكاد لا ينفصل عنه.

في شرفة بيته في «حمص» كان العجوز مصرّاً على البقاء. تمظاهرات تمرّ من أمام البيت، جسده مثبّت على الكرسي ورأسه يشرئب بإتجاه الجمع الهاتف. يرفع يده الواهنة قدر ما يستطيع ويدمدم بكلمات مبهمة ظاناً منه بأنه يشارك المتظاهرين الهتاف. كانت ابنته «فاديا محمود»، تلك التي أتت لتشاركه السكن منذ الشهر السادس لعام ٢٠١١ حينما دكّت قذيفة دبابة جزءاً من بيتها على مشارف حي «بابا عمرو»، تصرخ هلعة مَن الداخل وهي تحمي رأسها بكفيها: «هلق بتصيبك شي رصاصة طايشة. هلق ببلش الأمن يقوّص... ولك دخل!»، والعجوز يدمدم: إنشاللّه... اللّه يسمع منك. بموت شهيد وقتها، ما أحسن ما موت متل شي حيوان جربان بتختي.

«فاديا» لا تسمعه بالطبع، وتستمر بالصراخ كي يدخل. تقول له: «لا يكفيني «أبو ليلى» نزل معهم، وأخي «مصعب» يصرخ على الأكتاف! واللّه وحده يعلم إن كانوا سيعودون إلينا سالمين!».

رغم أنه كان بعثياً حقيقياً، بمعنى أنه صدّق كل تلك الأحلام الوردية التي خطّها مؤسّسو الحزب الأوائل، إلا أن حماي ترك حزب البعث حالما استلم الأخير زمام السلطة في العام ١٩٦٣. شعور الغضب والخزي الحارق، ذاك الذي اجتاحه لحظتئذ، ظل ملازماً له طوال عمره. كان يقول لي متحسّراً: كل تلك الفظائع التي فعلوها في سوريا بدأت من فكرةٍ ساميةٍ. غريب كيف يستطيع الطغيان أن يحوّل الأحلام الى مقابر! ثم يردف بصوت منكسر: عسانا، نحن فلول البعث الأوائل، نكفّر عن مشاركتنا بولادة هذا الابن العاق بدعمنا ثورة الشباب ضده اليوم.

أهزّ برأسي، ولا أجد داعياً للتعليق على اعترافاته الحميمة. كنت أرى بأنها ثورة ضد أشياءٍ أخرى، وليست ضد حزبه وحده. فما هو إلا جزء من الأصنام التي يثور الشباب ضدها اليوم. لكنني لم أقل له، كان ينبغي أن أكتفي بالصمت. رغم أني لطالما رغبت بأن أساله: «بماذا ستدعم الثورة أيها العجوز المقعد؟!». لكن كان مجرد انسياب تلك الإعترافات الحقيقية، حدّ الألم، كافياً لجعلي أصمت، ولا أقوم بأي فعل سوى الإنصات!

من مدخل الحارة تبدّت أطياف الأنبياء القادمين!

على الأقل كان هذا شعور «مريم محمود» وهي تنتظر عائلة أختها على الشرفة. كانت «فاديا» تبدو أكبر من عمرها بعشر سنين على الأقل، حجاب رأسها البنيّ مبعثر، وجلبابها فاتح اللون معفّر بالغبار. زوجها يظهر كعجوز متعب حانق. ثلاثة أشهر مرّت لا غير، كأنها ثلاث سنوات، لم تلمح الأختان فيها بعضهما بعضاً. «مريم» بدت هرمةً لأختها أيضاً، وهي تلوّح للقادمين من على الشرفة كالممسوسة. تصرخ: اللّه محيي حمص.. حمص العدية. والقادمون يحاولون الابتسام لها، لكن الابتسامات تصل صفراء منهكة كوجوههم.

لم يكن أحد قادراً على تخيّل تفاصيل الرحلة التي قطعتها العائلة الصغيرة تلك من الجحيم إلى هنا. كانت السيارة الصغيرة المغبرّة، التي من الصعب التكهّن بلونها الأصلي، تقطع الدروب المفخخة بالموت بسرعة مجنونة. «حمص» المحاصرة منذ أيام تسوّرها مدرعات ودبابات وحواجز. مشفى «الحكمة» القريب من بيت أهل «مريم» تم ضربه. كانت سحب الدخان تتصاعد منه عالياً الى السماء. أصوات القذائف والصواريخ على «بابا عمرو» منذ الفجر تصمّ السماء. دخان عشرات البيوت المحترقة هناك تتمازج مع أنقاض من دفنوا تحتها. في ذلك الوقت كانت أجساد ذهبت رؤوسها مسجّاة في صالة مسجد «الجيلاني» في «بابا عمرو»، وأقارب وأهل ينوحون فوقها. لكن لا

«فاديا» ولا زوجها عرفا بالأمر، كانا مشغولين بحماية رأس الصغيرة «دلع» تحت مقعد السيارة، وبحماية رؤوسهم من الرصاص والشظايا التي من الممكن أن تخترق الزجاج في أية لحظة.

- «انفتحت بوابات جهنّم على الحي، حتى أن بيتاً على أطراف «بابا عمرو» كبيتنا انهار ما تبقى منه!».

علّقت «فاديا محمود» من بين دموعها وهي تحدّث أختها، ثم أردفت: «في تلك الحرب استشهد من المدنيين أكثر بكثير مما استشهد من الثوار!».

كانت أرتال البشر تهرول تحت القذائف بالاتجاه الآخر، علّهم يصيبون شيئاً من حياة أخرى، موت مؤجّل لأطفالهم. «فاديا» وزوجها وابنتها والسائق، الذي أخذ على عاتقه تهريبهما بسيارته المثقبة بالرصاص، لم يعرفوا أن مئات الأشخاص كانوا يحاولون النزوح عن المنطقة، فكل من في السيارة مرعوب ومهجوس بالخروج على قيد الحياة. حتى إنهم اعتقدوا بأن ذلك الانفجار العظيم الذي فتّت أنبوب النفط المغذّي لمدينة «حمص»، ما هو إلا احتراق لأحد البيوتات في مكان ما من المدينة المشتعلة.

كانت الأحداث تتطوّر بسرعة مهوّلة، تجعل الدقيقة محمّلة بالجديد المتغيّر، وتلك الساعات الثلاث التي قطعتها السيارة مراوغة الموت جعلتهم لا يعرفون الكثير من المستجدات، منها مثلاً أن «واشنطن» قررت إغلاق سفارتها في «دمشق»!

من بين دموعها راحت «مريم محمود» تتنسّم رائحة «حمص» والذاكرة وكل ما كان في ثياب أختها وهي تحتضنها ناشجة. «فاديا» بدورها، وحالما وطأت عتبة البيت الذي بدا آمناً كفردوس مقارنة بالجحيم الذي قدمت منه، انهدت على الأرض وجلست تنوح. «مريم» أيضاً جلست تنوح معها. وراح «صفوان» يداري عينيه الدامعتين، ويربّت على كتف الصغيرة «دلع» التي راحت تنشج بصوت عالٍ.

لكن «أبو ليلى» غيّر مود اللقاء كله حالما قدّمت «مريم» تعازيها له باستشهاد أخيه «أبو الليث». راح يكيل الشتائم، يرمي السباب على كل ما يخطر له: على النظام، على أزلامه، وعلى مواليه، ثم على القدر الذي بلاهم بكل هذا الخراب. كان يرمي بكل الشتائم المبتكرة أمام الجمع الذي سكن واجماً. ثم راح يترحّم على الشهيد «الذي كانت صرمايته تشرّف النظام وأتباعه ورئيسه»، حسبما عبّر نهاية.

الصغيرة «دلع» وحدها من استطاعت قطع سلسلة الاندفاعات تلك حين نسي الجميع وجودها. كانت تشير الى الواجهة الزجاجية الواسعة للصالون وتزعق: بأن كل هذا الزجاج المفتوح سيتيح للقناصة المجال واسعاً لقنصهم واحداً واحداً. أكملت تصيح، من بين دموعها المنهمرة، بأنها لن تبقى دقيقة واحدة في هذا البيت. كانت تشير إلى البناء العالي المقابل لبيت خالتها وتلهج: «انظروا... انظروا... على سطح البناء العالي... هناك، أكيد مليان قناصة؟».

راحت «فاديا» تقصّ عليهم محاولة التبرير، وهي تشرق بدموعها، عن اليوم الذي رأت «دلع» فيه رصاصة قناص تدخل رأس كهل يمشي الى جانب سيارة والدها. رصاصة آتية من سطح بناية الغارديناا مقابل مبنى أمن الدولة في «حمص». لكن «دلع» لم تكفّ عن الصراخ المستغيث. فحدّثتهم «فاديا»، مكملة، كيف سبحت أرغفة الخبز التي وقعت من يده في دمائه، فيما ظلت الصغيرة تزعق بهستيرية طوال الطريق الذي راحت السيارة تنهبه فزعاً... ثم نامت طوال يومين كاملين!

أنهت «فاديا» الحكاية و«دلع» لا تقبل السكوت، تصرخ وتصرخ وتصرخ! لم تردعها تهديدات أبيها، ولا تطمينات خالتها! لم تهدأ حتى انتقل الجمع كله الى الغرفة الداخلية الصغيرة التي كانت بدون شبابيك.

- «على كلٍ الغرفة أكثر دفئاً من الصالون...».

علّق «صفوان» محاولاً ترطيب الجو.

- «وأشدّ ظلمة».

لكن الصغيرة أكملت بكاءها! هذه المرة لأنهم لا يملكون ملجأ للاختباء فيه وقت تأتي الطائرات للقصف. فما كان من زوج خالتها «صفوان» إلا أن أمسك بيدها وأنزلها إلى الطابق السفلي ليريها غرفة القبو التي يستطيعون استخدامها كملجأ. لكن الظلام في الأسفل كان شديداً، والشمعة الضئيلة لم تستطع إنارة المكان، ألقت بمائها الحارق على كفّ «صفوان» وانطفأت!!.

- «إنت تعرف خالو... من شان وقت يبلّش القصف يكون في مكان نتخبى فيه».

ولم تفلح شروحات «صفوان» المتطاولة لإقناعها بأن لا قصف هنا في «جرمانا».

- ليش هذي منطقة للموالين؟ لحتى ما يقصفها!

- لا مو تماماً... يعني فيها كل الأنواع.

- لكن ليش ما قصفها لهلق؟

أسقط بيد «صفوان» فصمت. لكن «دلع» أنهت النقاش: «فيني حتمل جيرة الموالين إذا كانت بدون قصف ورصاص... أحسن. على عكس بابا فهو يقول القصف أحسن من جيرة الموالين. غلطان كتير... مو خالو؟!».

في الأعلى كان الحديث يدور عن تفاصيل ما يحدث في مدينة «حمص». «أبو ليلى» يحكي بصوته الجهور عن الحركة الجديدة التي قام بها النظام حين طلى دباباته باللون الأزرق! كأنها لن تكون دبابة حين تغدو زرقاء! ضحك متهكماً. ثم أكمل يسرد عليهم تفاصيل عن حادثة المعمل، الذي يديره في «الحولة»، الشهر الماضي.

- خيو عندنا بحمص الشغلة طائفية من زمان... من شهور. من وقت ما صاروا العلويين يقتلوا فينا و...

- «لا أبو ليلى ما فينا نقول هيك»، قاطعته «مريم».

- بلى... نسيت مين قتل أخي أبو الليث؟ شبيحتهم من قتلوه. يعني الشغلة ما إلها أسابيع لننساها!

- اللّه يرحمه.. بس...

- ونسيتوا يوم السبت ١٦ تموز السنة الماضية بشارع الحضارة. حفظت التاريخ مثل اسمي. هجموا على بنت محجبة ونزعوا حجابها!! وحين هجم شبابنا عليهم طخّوهم بالنار، وعلقت بين حارة «كرم الزيتون» و«الحضارة» وبين حارة «الزاهرة» و«بابا عمرو»... هجموا علينا بالسكاكين والسواطير، فهجمنا عليهم بالسكاكين والسواطير... كسروا لنا محلات فكسرنا لهم محلات!

- لكن هؤلاء شبيحة، وليس العلوية كلهم.

اعترضت «مريم» من جديد بصوت يصطنع الهدوء محاولة أن تضفي قليلاً من السلام على النقاش الحاد.

- كلهم مثل بعضهم جنس ملعون... مجوس، رافضة، كفرة...

- ليس أمام الصغيرة يا أبو ليلى.

همست «فاديا» غامزة زوجها وهي ترنو إلى «دلع» التي دخلت الغرفة للتو مع زوج خالتها. كانت الصغيرة تبحلق عينيها متنصّتة الى الحديث المحتدم.

- دعيها تستمع وتعرف... دعيها لتعرف من هؤلاء الكلاب. ولست أنا وحدي الذي يعرف هالحقيقة، لولا دعم العلويين لهذا النظام ولرئيسه ما كان ظلّ حتى اليوم عم يقتل فينا!

- الذين يدعمونه أبو ليلى ليس هؤلاء، الذين يدعمونه دول كبرى ومصالح سياسية وألعاب. برجع بقلك يا أبو ليلى هدول شبيحتهم، يعني القتلة والزعران منهم وليس كلهم... أنا لدي...

- لا بقى تقوليلي مو كلهم يا مريم... البي كي سي كانت

تنصب على أسطحة بيوت «عكرمة» وتضرب على «باب السباع»!! شو اسمه هذا؟!

- لكن يا أبو ليلى هؤلاء مجبرون، ليس باستطاعتهم أن يقولوا لا... وأكيد هناك كتير من العلويين موالين. ولكن الموالي لا يعني شبيح.

بادرت «فاديا» بسؤال أختها إن كانت تدافع عن القتلة؟! لكن «أبو ليلى» حاول قطع النقاش بصوت عالٍ غاضب: الذي يسكت على كل هذا القتل الذي صار بحقنا بيكون شبيح. بتقولي خايفين، بتقولي مضحوك عليهم، الذي تريدونه ولكنهم موالون، وهذا الذي أعرفه. من يسكت عن القتل قاتل. أنتم لستم في مكاننا، ولم تعيشوا الذي عشناه في الشهور الماضية... تعالوا وعيشوا في مكاننا لتعرفوا ما الذي حدث.

تدخّل «صفوان الشيخ» الذي بقي صامتاً منذ دخوله الغرفة. حاول أن يحدّث عديله عن جارهم في الطابق الذي فوقهم، اسمه «صلاح عباس» معارض وعلوي من «حمص»، سجنوه اثنتي عشرة سنة في التسعينات، واليوم أجبرته اللجان الشعبية الموالية للنظام في حارته على الهرب من المنطقة كلها، وإلا كانوا قتلوه وقتلوا عائلته معه! أردف: إذاً فقد حاول شبيحة طائفته قتله!... ماذا تسمي هذا؟!

- هؤلاء معدودون على الأصابع من تسمّيهم معارضين منهم... وحتى هؤلاء لا أصدقهم. من شي بتصير الشغلة جد بيقلبوا... كلهم جنس ملعون.

بدا الامتعاض واضحاً على محيا «مريم». ليس لأنها تسمع هذا الكلام للمرة الأولى فقد سبق وسمعته مراراً، بل لأن هذا العري الصادم لكلام صهرها جعلها ترتجف، تهلع، وتتخيل سيناريوهات قادمة أشد هولاً. «صفوان» بدا ممتعضاً أيضاً حين رمقته بطرف عينها مستنجدة. ثمة موجة من غضب وحقد تجتاح البيت.

كان «أبو ليلى» لا يزال يرغي ويزبد حينما غمز «صفوان» زوجته ليخرجا من الغرفة آخذين معهما الصغيرة التي كانت ما تزال تقف عند الباب مذهولة.

- خذي راحتك أختي سنغيب قليلاً.

قالت «مريم» لـ«فاديا»، فما كان من الأخيرة إلا أن خلعت حجابها حالما خرج «صفوان» من الغرفة، وفكّت أزرار جلبابها المعفّر متنسمة القليل من الهواء.

«أبو ليلى» جلس واجماً قبالتها. كان وجه أخيه «أبو الليث» وحده الحاضر أمامه، وجهه المسودّ في اللحظات الأخيرة. ظل طويلاً ينكر أن يكون هذا الوجه الغريب المنتفخ هو وجه أخيه، ظل طويلاً ينظر بتشكك إلى جثة محروقة ينبغي أن تكون جثة أخيه: ليست له، لا. لا تشبهه! لكن في النهاية كان هو!

رمق «أبو ليلى» فضاء الغرفة، ربما تكون روح «أبو الليث» مرافقة له هنا. لا، ستكون هناك، ترفّ فوق تفاصيل «حمص» و«دير بعلبة» التي عشقها وليس هنا. ثم فكّر «أبو ليلى» كيف سيكون حال روحه الآن وهي في برزخها! ثم استغفر ربه ومسح وجهه وهو يدعو اللّه أن يهبه الشهادة كأخيه!

في المطبخ راح «صفوان» و«مريم» يتهامسان. كان «صفوان» يحتضن كتفي زوجته وينبّهها إلى ضرورة أن تصبر أكثر على صهرها، أن تستوعب وضعه أكثر من ذلك، وأن تأخذ بعين الاعتبار أنه رجل ناجٍ من الموت، وأنه الآن لاجئٌ عندهم، وبأن أخاه استشهد منذ زمن قليل بصورة فظيعة: لا تنسي مريم من قتل أخاه وحرقه. الأمر ليس سهلاً أبداً! من غير المعقول أن يكون هادئاً عقلانياً في مثل هذه الظروف!

- . . .

- تخيّلي، بعيد الشر، أن يستشهد أخوك في القتال! هل ستسامحين قاتله؟!

لم تستطع «مريم» أن تتخيّل أخاها «مصعب محمود» شهيداً! حرّحت برأسها نافضة تلك الصورة البشعة من خيالها. ثم حاولت أن تغيّر من اتجاهات تفكيرها، رمت برأسها على كتف زوجها وراحت تسائله عن الأسباب التي حدت بهذا الشخص اللطيف «أبو ليلى» أن يتحول إلى حاقد، وتسرّ له بخوفها من الأيام القادمة التي ستجمعهما في بيت واحد! كما تسرّ بهلعها من الأيام التي من الممكن أن تأتي على هذه البلاد! حضنها «صفوان»، وأحسّت بأن كرشه قد انخفض كثيراً، كرشه العارمة التي طالما أبعدت جسداهما عن بعض. كان وجهه متعباً كذلك. رمقته «مريم» بأسى وصمتت.

كان موعد وصول صديقتهم «ريما العيساوي» قد اقترب. نصف ساعة وتكون في البيت. فقد اتفقوا أن يذهبوا سوية إلى مسائية «الميدان» هذا اليوم. فكرت «مريم» بأن عليها الاتصال بـ«ريما» فوراً لتأجيل الموعد. لم يكن من المحبّذ أن تأتي الآن بعد الحديث المحتدم الذي دار، لربما سمعت جملة أهانتها أو جرحتها. لكن الباب كان يدقّ، ودخلت «ريما» فجأة مبكّرة عن موعدها. كانت تحمل لفّة من الورق بيد وكيساً باليد الأخرى. وجهها الضاحك المحمرّ من البرد أضحك الصغيرة «دلع» التي وقفت تراقبها بفضول.

- لم تقولوا لي إن هناك صغاراً هنا.. مرحبا خالتو.

وربتت على رأس الصغيرة ودفعت باللفّة إليها: «هذا مشبّك طيب كتير خذيه لك». ثم دفعت بالكيس إلى «مريم»: «وهذا لك مدام نريد جهدك لنبيعهم». وقبّلت صديقتها. لاحظت لأول مرة خصلات رقيقة من الشيب تخطّ عتمة شعرها المسترسل الفاحم فيما تنحني «مريم» على الكيس المليء بلوحات قماشية مكتوب على بعضها «الشعب السوري واحد»، وعلى البعض الآخر «سوريا بدها حرية».

- أتيت مبكرة؟!

- كنت عند صلاح فوقكم... واشتقت لكم.

بان الارباك واضحاً على محيا «مريم» وهي تمسك «ريما» من يدها وتدخلها إلى غرفة النوم. همست لها بأن صهرها جاء مع أختها الليلة من «حمص»، وأنها تعتقد بأنه قد يُزعج «ريما» إن عرف من أين هي! ثم راحت تشرح لها تفاصيل مقتل أخيه، وركام الأشياء التي حدّثهم بها.

لكن «ريما» لم تمهلها لتنه تبريراتها: من أي جهة سأتحمّل كل هذا... أضحى الوضع لا يطاق مريم... لا يطاق.

فجأة راحت «ريما» تبكي. شعرت «مريم» بأنها ارتكبت خطأ فادحاً، ضمّت رأس صديقتها وراحت تقبّله معتذرة. كان شعرها الأجعد الرطب يدغدغ وجهها.

- لا يهمّك مريم أنا حزينة قليلاً... اليوم تحدثت مع أمي. لكن من المتعب حقاً أن تكوني متهمة من قبل كل الأطراف. من أهلك أنت خائنة، ومن الآخرين أنت موالية للنظام وقاتلة، ومن غيرهم...

- لن يبقى الوضع هكذا إلى الأبد.

- واللّه يا مريم أظن بأنه سيزداد سوءاً.

ولم يأت المساء حتى كان خبر اعتقال أحد الرفاق قد وصلهم. اعتقل من أمام أحد الحواجز الأمنية. توتّر جو البيت، فكر «صفوان الشيخ» و«مريم محمود» بترك المكان على الفور، فلربما اضطر رفيقهم تحت التعذيب إلى البوح بأماكن رفاقه.

«فراس الصفدي» تخفّى في بيت مجهول لأحد أصدقائه، و«ريما العيساوي» ذهبت إلى بيت «هبة حدّاد» الذي كان مايزال محمياً. أما «عمران أبو العزم» فقد يمّم شطر قريته دون أن يخطر بباله أن عناصر الأمن قد يسألون عنه هناك.

كل رفيق عَمِل يوماً مع الشاب المعتقل ترك مكان سكنه ذلك المساء حتى وقت غير معروف. صفحات الفيسبوك امتلأت بصوره، وبدعوات إطلاق سراحه وبحقه بالحرية. الجميع تكلّم عنه خلال

الأيام التالية، وربما نقلت إحدى المحطات الفضائية النبأ في نشرة سريعة، أو في الشريط الإخباري المتحرك في أسفل الشاشة.

بعد أسبوع خبت سيرته، وراح النسيان يلفّه شيئاً فشيئاً. بعد أسبوعين نسيه الجميع، فقد اعتقل المئات بعده. وحدها دهاليز المعتقل المجهول هي التي ابتلعته بشهية!

لسبب ما بدت الصورة متطابقة إلى حد بعيد دون أن يكون هناك نسخة من الوقت كي يدركها أحد: يمرّ المعتقلون والشهداء والمختفون كشهب لامعة حارقة في السماء، شهب شديدة الاحتراق قريبة التلاشي، تخبو ليشتعل غيرها، ثم تخبو ليشتعل غيرها... وهكذا! كأن الزمن يتكثّف في بؤرة تجعله يتلاحق بسرعة مذهلة كمعجزة، بؤرة لا يروى ظمؤها، بؤرة تجتاف الناس كفوهة بركان حارق لا يرضى الانطفاء، بل يزداد استعاراً ويزداد ويزداد.

سيمرّ وقت طويل قبل أن يدرك الأصدقاء ذلك! حتى «ريما العيساوي»، التي ستجلس في ذلك المساء، ككل مساء، لتدّون التفاصيل التي نقلتها «مريم» عن أختها وزوجها، لم تفكّر بذلك. كانت تدوّن ما مرّ من أحداث في الأيام السابقة، تدوّن فحسب كآلة تسجيل!

(٧)

دمشق والذاكرة والحب

كانت «هبة حدّاد» قد قفلت عائدة للسكن في بيت أهلها منذ طلاقها قبل ثلاث سنوات. لم يطل الزواج أكثر من سنة، فقد رجعت ذات يوم من العمل مبكرة ووجدت زوجها يعاشر امرأة ما ترقد تحته على فراشهما. كان يبدو منهمكاً للغاية، متحمساً، وصوت لذته يضجّ في البيت. كانت المرة الأولى التي تراه فيها على هذه الحال! لم يكن يتصرف على هذا النحو حين يعاشرها! فلم تكن المعاشرة بينهما تستمر لأكثر من خمس دقائق باردة سريعة، ولا تصل فيها إلى لذّتها في معظم الأوقات. ليلتذاك ما كان منها إلا أن غادرت البيت من فورها للمرة الأخيرة واتجهت إلى بيت أهلها. قضت الكنيسة السنتين التاليتين لانفصال الزوجين وهي تناقش إمكانية موافقتها على الطلاق. وربما ما كان لهذا الطلاق أن يتمّ لولا تدخّل أحد المسؤولين الكبار في الحكومة، ذاك الذي تربطه صداقة قديمة بوالديها.

هذا الصباح تأخرت «هبة حدّاد» عن وظيفتها، يوم آخر من شهر أيار ٢٠١١. البارحة لم تذهب إلى الوظيفة، فقبل البارحة كان الاعتصام الذي أعدّوا له لأيام طويلة في «ساحة عرنوس»، اعتصام تحوّل إلى ما يشبه حرباً صغيرة خلّفتها منهكة متكسّرة. فعلى الرغم من أن دعوات التظاهر انتقلت بشكل شخصي، من فم إلى أذن، وبالرسائل والإيميلات المشفّرة إلا أن المتوقّع قد حدث: لاقاهم

رجال الأمن قبل أن تهمّ المظاهرة. طلبوا منهم بداية فضّ المظاهرة بدئة فرفضوا، حينها راحت الهراوات تلاحق جموعهم. كهل من صحاب المحلات القريبة كان يقف أمام محلّه ويصيح دالاً رجال نظام على متظاهر هارب: من هنا... الحقه من هنا... مخربين... الخونة... اقبضوا عليهم كلهم!

نصيب «هبة حدّاد» من تلك الحرب كانت ضربة قوية على رأسها جعلتها تطير وترتطم بواجهة زجاجية لدكان أحذية في منتصف شارع «الصالحية»! أما صديقتها «ريما العيساوي» فقد وقعت أرضاً، وارتمت نظارتها الطبية بعيداً، وراح المتظاهرون الهاربون يدعسون فوقها كل بدوره. شاب آخر من المتظاهرين يلهث وراء سيدة غريبة في السوق، تبدو في ستينياتها وهي ترتدي جلباباً أسود وغطاء رأس أبيض، «احميني يا خالتي... احميني...». أمسكته السيدة من يده، وأكملت سيرها بالاتجاه المعاكس. لكن الذي نجّا «هبة حداد» و«ريما العيساوي» من اعتقال محقّق أن صاحب دكان الأحذية القريب، ذاك الذي يراقب ساحة المظاهرة من أمام دكانه كغيره من تجار السوق، نادى «هبة» بإيماءة عابرة مبطّنة، فحملت صديقتها المتهالكة وهرولت إلى الداخل. جعلهما صاحب الدكان تتواريان خلف علب الأحذية الكرتونية في زاوية المكان. كان شعر «ريما» الأجعد الطويل مليئاً بالغبار والأوساخ التي لمّها من بلاط الشارع، ووجهها الشاحب حُفر في ذاكرة «هبة»، التي راحت تراقبه بقلق، كما انحفرت روائح الأحذية الجديدة. في ذلك الوقت كان هناك سبعة شباب وفتاة من المتظاهرين يتم اعتقالهم من أمام المحلات التجارية الأخرى، على مرأى ومسمع المارة في شارع تجاري مزدحم كشارع «الصالحية»!

الاتفاق كان أن تلاقي الصديقتان «فراس الصفدي» قريباً من ساحة «السبع بحرات»، أمام مسرح «أبو خليل القباني». إن تأخر أحدهم فهذا يعني بأنه اعتقل! كما اتفقوا أن لا يتصل أحد بموبايل

الآخر، لئلا يكون قد اعتقل فيعرف رجال الأمن الرقم ويلاحقونه. لذلك فقبل أن يبدأ الاعتصام في الساعة الخامسة عصراً محت كل من «هبة حدّاد» و«ريما العيساوي» أرقام الأصدقاء كلها من على الموبايل، ولبستا سروالين داخليين فوق بعضهما. ففي المعتقل لا يمكن لهما تغيير اللباس الداخلي! ولطالما حدّثتهما النساء اللواتي اعتقلن قبلاً عن تلك المشكلة الأساسية والجوهرية في المعتقل: الألبسة الداخلية، والكيلوتات بشكل خاص! المشكلة أن معظم كيلوتات «هبة» كانت من الساتان المثير بزنانير من الدانتيلا، فلم تكن تنتقي إلا هذا النوع من الألبسة الداخلية التي تثير شبق حبيبها الدمشقي. ولم يكن من بد إلا أن ترتدي كيلوتين ملونين بشرائط. كما دسّت كل منهما في حقيبتها فرشاة أسنان ومعجون. وغافلت «هبة» صديقتها لتدسّ زجاجة عطرها كذلك في الحقيبة، فلو عرفت «ريما» بذلك فستقضي الساعات القادمة، وربما الأيام القادمة، في السخرية من برجوازيتها الدمشقية التافهة: «ثائرة مع زجاجة العطر!».

مرّ الاعتصام على خير بالنسبة للصديقتين، فعلى الرغم من كل شيء كان إنجازاً أن تستطيعا، مع رفاقهما، الهتاف دقائق للحرية، في ساحة كساحة «عرنوس» وسط العاصمة، تلك التي تحوّلت إلى حرم قدسي للنظام، قد يفعل المستحيل ولا يسمح لصوت أن يعلو فيها!

كان «فراس الصفدي» ينتظرهما مترقباً خائفاً على زاوية الشارع. حين لمحهما جرى باتجاههما لهفاً وضمّهما بعنف، ودمعة مختبئة تلتمع في عينيه. همس بفخر: صوّرت كل شيء.. كل كل شيء!.

كان البارحة قد نزع الزر العلوي من قميصه الصيفي سماوي اللون، وخاط شقفة قماشية صغيرة داخل القميص، ثم وضع فيها موبايله، ليجعل كاميرا الموبايل الصغيرة مكان الزر المنزوع. لم يلاحظ أي من رجال النظام أن هناك كاميرا تلتقط الصور، وتوثّق كل شيء. كان كأي شاب يتمشى في شارع تجاري مزدحم في عصر ذلك

اليوم، ويبدو أن رجال الأمن لم يشعروا بالريبة تجاه شاب نحيل مثله بشرته بيضاء بشكل مبالغ به بهيئة متحذلقة وهندام متأنق!

صوّر «فراس» كل شيء، ابتداء من الهتافات والاعتصام مروراً بضرب المتظاهرين واعتقالهم وترويع الناس في الشارع. كل تفصيل، كل نأمة، وكل تعبير طاغٍ على الوجوه صوّره. وعاد مفعماً بالإنجاز الذي حققه.

قالت له «ريما»: سأكتب عن هذا.

- لا لندع هذه الطريقة سرّية. سنحتاجها لاحقاً لتصوير مظاهرات أخرى.

عرض ذلك اليوتيوب لأسابيع على العديد من الفضائيات. لم يكن لدى «فراس الصفدي» غضاضة أن أحداً لم يعرف من قام بهذا العمل الفدائي. كان سعيداً بكونه وراء الكاميرات دوماً، فمن يقف وراء الكاميرات يمكنه رؤية الكثير مما لا يراه الغائص في قلب الحدث! يردد.

أما «هبة حداد» فقد كانت مفعمة يومذاك بسعادة غامضة رغم الألم الذي اجتاح كامل جسدها. كانت ابنة عائلة شيوعية عريقة. والداها مايزالان في اللجنة المركزية لأحد الأحزاب الشيوعية السورية، واحد من الانشقاقات الكثيرة التي طالت الحزب الشيوعي الأساسي. كان حزبهم مايزال حتى اللحظة في صفوف (الجبهة الوطنية التقدمية) وفي مجلس الشعب كذلك. اليوم تبدو ذكرى طلاقها بعيدة بُعْدَ ولادتها، لم تعد تذكرها! بل لم تعد تذكر كيف كانت حياتها قبل الثورة، كأنها قادمة من زمن آخر.

لقد أعادت الثورة ترتيب حياتي بطريقة مختلفة تماماً، كما أعاد الحب ترتيبها. أشعر بأني أصبحت اليوم ضرورية لشيء ما، لأحد ما. بعد أن أحببت «فراس الصفدي» أحببت «دمشق» أكثر، مدينتنا نحن الاثنين. كما غصت في جسد حبيبي، وصرت أعرف ما الذي يعنيه

الحب بين جسدي عاشقين، كذلك صرت أغوص أكثر في تفاصيل مدينتي، أعشقها وأحسّها. بعد الثورة أحببت «سوريا» أكثر وصرت أغوص في تفاصيلها وأحسّها كما لم أكن قبلاً.

«فراس» و«سوريا»، قطبا الحب في قلبي!

لكن هذا الصباح كان على «هبة حداد» أن تذهب آسفة إلى العمل.

الشباب الواقفون في الطابور الطويل ينتظرون دورهم لاستلام الأسلحة التي سيستخدمونها في اليوم التالي، كانوا يتحدثون بصخب حين مرّت «هبة» من أمامهم واجمة صامتة، وقاومت رغبة طاغية في شتمهم عالياً، ثم شتم كل مسؤول في هذا البلد.

منذ منتصف آذار ٢٠١١ راحوا يسلّمونهم عصياً خشبية، وللمدعوم منهم عصياً كهربائية. لكن اليوم وبعد شهور طويلة صاروا يوزّعون الأسلحة عليهم يوم الخميس ليستلموها منهم يوم السبت صباحاً، إن لم يكن ثمة من طارئ. حينها يستدعونهم من بيوتهم، فالقائمة راحت تطول يوماً بعد يوم!

ذات يوم قال لي «أبو أحمد»، المستخدم الذي ينقل بريد المديرية إلى الوزارات والمديريات الأخرى، إنهم خفّضوا مكافأة يوم الجمعة. في الشهور الأولى كانوا يعطونهم ١٥٠٠ ليرة، مكافأة على حماية البلد من المخربين والعملاء الذين ينزلون كل يوم جمعة في المظاهرات، كانت مكافأة مجزية. لكن اليوم صاروا يعطونهم ٣٠٠ ليرة فقط، لا تكفي أجار مواصلات إلى حيث ينبغي أن يذهبوا، بالإضافة إلى ثمن سندويشة يكافئون أنفسهم بها بعد أن ينهوا العمل الشاق الذي قاموا به.

- واللّه يا ست هبة الجمعة الماضية كانت مناوبتي في حي الميدان... بالكاد جلبت فيها كيلو حلويات للأولاد وأجار المواصلات وسندويشة شاورما... وسلامتك خلصت المصاري!

قال لي، وكان يلفّ معصمه برباط أبيض اللون. سألته عنه فقال إن أحد المتظاهرين المندسين ضربه عليها، لكنه انتقم ففجّ له رأسه بعقب البندقية قبل أن يعتقله ويسلّمه إلى عناصر الأمن الواقفة قرب المكان.

- لم أقتله. لا أحب الدم، ولا أن يكون هناك دم في رقبتي... سلّمته للأمن فقط.

- حسناً، ولماذا لا تعتذر إذاً عن هذه المهمات؟!

سألته بتغاب. كنت أخاف أن يلتقط أي شخص ضمن العمل موقفي، فألحق بالذين يعتقلونهم كل حين. لم يجب «أبو أحمد»، نظرة عينيه أنبأت بحاله. صمت وذهب.

صباحاً وأنا أهم بإعداد قهوتي وافتني زميلتي التي تعمل في الغرفة المجاورة لغرفتي «ديانا خوري». تلك الصبية كانت على الدوام زميلة لطيفة، منذ سبع سنوات وحتى أشهر قليلة من الآن! طالما استمتعت بأحاديثها الفكاهية، وكان ثمة ذاكرة لها رائحة الفرح بيننا. منذ شهور راحت هذه المرأة اللطيفة تتبدّل! كانت تحمل إليّ كل صباح أخباراً مثقلةً مزدحمةً، جلّ تلك الأخبار كان يدور حول الجماعات الإرهابية التي راحت تعيث فساداً في البلاد، وكيف تركّز في عملها على المدنيين الذين ينتمون إلى الأقليات. مرة حدّثتني عن مقتل صائغ للذهب في حي «باب توما»، الذي تقطنه غالبية مسيحية، ومرة عن قصة ذبح رجال في الحارات المسيحية والعلوية في مدينة «حمص». سألتها لماذا لا تذكرين إلا هذه الحوادث الفردية، ولا تذكرين مئات الشباب الذين يُقتلون في المناطق الأخرى! إذا كانت العصابات المسلحة هي التي تقتلهم أيضاً؟! لم يش وجه «ديانا خوري» بالسرور أبداً، تغيّرت سحنتها في وجهي. ربما فكّرت بأن القنوات الإعلامية الرسمية تقول أشياء أخرى مختلفة، و«ديانا» ترى بأن هذه الظروف توجب علينا ألا نستمع إلى غيرها، فهذا سيعتبر: خيانة.

- أوافقك بأن هناك أجندات وراء كل وسيلة إعلام، ولكن ينبغي أن نستمع إلى آراء الجميع.

- إذاً يجب عليك أن تستمعي إلى رأيي أيضاً هبة، أتلاحظين نفسك؟! أنت تناقشينني بعدائية غريبة حالما نختلف حول هذه الأمور!

- وأنت أيضاً ديانا!

لم توافقني «ديانا». أشعر بأنها تصبح امرأة أخرى حينما نتحدث عن هذه الأمور. ثم تعود «ديانا» الدافئة التي أحبها حالما نغيّر هذه الأحاديث المكربة. لذلك صرت أحاول ألا أخوض معها الكثير من النقاشات. كانت صديقتي تبتعد، هي تقول بأني أبتعد أيضاً! حاجز حجري راح يتطاول بيننا، كأننا فقدنا ذاكرتنا المشتركة سوية.

«لترحمنا السيدة العذراء!».

ربما كانت تشتمني حين أشكك في أخبارها، رغم أني لم أسمع منها شتيمة في حياتي. كنت أقول لها بأن العسل يكاد يسيل من لسانها حين تتكلّم، ولم أكن أبالغ بقولي هذا. الجميع كانوا يتذوقون البيتفور اللذيذ الذي تعدّه «ديانا» بالبرتقال أو بالزبيب والقرفة. حتى المستخدمون كانوا ينالون نصيباً من لذائذها كل أسبوع على الأقل. لم ألمس يوماً بأنها ميّزت بين عامل وآخر. اليوم أكاد أجزم بأن الوضع اختلف حين همست لي بأن ذاك العامل المسلم نظر إليها باحتقار حاقد.

- أنا التي أكاد لا أعرفك ديانا! منذ متى تحكمين على الناس من طوائفهم!

- منذ اليوم.

أجابتني بحدّة وعادت إلى غرفتها. ربما اعتقدتني مجنونة لا أشعر بالخطر القادم من الجماعات الإرهابية المسلحة التي يذكرها الإعلام الرسمي كل يوم مئات المرات. بعد لحظات عادت إليّ من جديد وأرتني ورقة ملفوفة خبأتها في يدها. «انظري...». كان مكتوباً

عليها: «تميّز وشارك في الإضراب»، ثم كُتب تحت تلك الجملة جدول مفصّل عن خطوات وتواقيت الإضراب العام.

- ماذا تسمين هذا؟ أليس تخريباً لاقتصاد البلد؟

الشيء الأساسي الذي خفّف من عبء شعور «هبة» بالذنب أن والديها اصطفا إلى جانب الثورة منذ اليوم الأول. ربما كان شعوراً إنسانياً وليس موقفاً سياسياً ما جعلهما يدعمان الثورة، فموقف الحزب كان واضحاً: الوقوف إلى جانب النظام في حربه ضد أميركا وإسرائيل والإمبريالية والرأسمالية العالمية، أولئك الذين يتصارعون على امتلاك البلاد. هذا هو ملخّص الموقف الثابت المعلن الذي ما فتئت «هبة» تسخر منه بمناسبة وبغير مناسبة. لكن إصرار الوالدين على البقاء في صفوف الحزب، رغم كل النقاشات الحامية التي تدور رحاها في البيت، كان يكتنف على نقطة إيجابية واحدة، لقد جعلهما محميّين، نوعاً ما، من المراقبة والملاحقة والمساءلات الأمنية رغم نشاطهما السياسي.

كل شيء كان يدور في البيت بشكل خافت: النقاشات، الحوارات، ترتيبات النشاطات الثورية والمواعيد، حتى الأغاني والأخبار كانوا يسمعونها بصوت خفيض!

ذات أحد وقبل أن ينتهي الدوام بربع ساعة طلب المستخدم «أبو أحمد» أن يكلّمني جانباً. قال لي فجأة: «ست هبة أنا أثق بك دوناً عن كل الموظفين هنا»، وكانت عيناه تنبئان بكارثة. تربّط لساني، وتعلّقت روحي بفمه. «ما الذي يريد أن يقوله؟». خلال دقائق أخبرني «أبو أحمد» بأنه لم يعد قادراً على فعل ما يفعله، هناك الكثير ممن يستطيعون إكمال عمله وهم سعيدون بذلك، لكن ليس هو. لم أفهم ما هو هذا العمل الذي يقصده. لكنه أسرّ لي بأنه في يوم الجمعة الماضي، وكانت بعض تنسيقيات الثورة قد أطلقت عليه: «جمعة العشائر»، عاد إلى بيته في «مخيم السبينة» بعد يوم حافل. كانت

المظاهرة كبيرة في «دوما» بريف «دمشق» ثم في حيي «القابون» و«حرستا»، ولم يعد حتى أمسى اليوم في أفوله. كان متعباً حدّ الموت، منهكاً ومرضوضاً ومعفّراً. قضى نهاره يركض وراء المتظاهرين، يضرب هذا ويشحط ذاك، وللمرة الأولى تلوّث دماء شاب، ضربه على رأسه، قميصه بالكامل! فالمتظاهرون، لأول مرة كذلك، لم يتفرّقوا جميعهم بعد إطلاق الرصاص على المظاهرة! وسيكتشف «أبو أحمد»، حال وصوله البيت، بأن أولاده كانوا في المظاهرة التي خرجت في «مخيم السبينة». جنّ جنونه، طفق يكيل الشتائم ويصرخ في وجوهم. نبر ابنه البكر بنزق: ألسنا من العشائر وهذه جمعتنا؟ هل تقبل أن يدعونا أقرباؤنا ونعتذر؟.. ماذا سيقولونه عنا؟ جبناء متخاذلون. تركناهم ليموتوا ونحن ننعم في البيت؟!

- وأنا يا ست هبة تكربج لساني. ماعاد عرفت شو لازم رد... سكتت. الولد بإيده حق. تخيّلي لو كنت أضرب ابني في واحدة من المظاهرات!! كنت قتلت حالي واللّه.. من ذاك اليوم وحتى الآن لا أتذكّر إلا رائحة الدم، رائحة قريبة وفظيعة، ولا أتخيّل إلا رائحة دم ابني على قميصي! أكاد أجنّ.

لم أعرف أنا أيضاً كيف أرد عليه. كان الألم المغروس في وجه «أبو أحمد» كافياً. ودّعني بهمس، قال بأنه اليوم الأخير له في الوظيفة، فقد قرر أن ينتقل مع أسرته إلى مدينة «القنيطرة» حيث أقرباؤه، هناك سيعينه اللّه على تدبير قوت أسرته: أليس أفضل من أخذ قوتي من دم الناس؟

لم أسأله لمَ لم يفكر بهذا منذ شهور؟! لكنه سؤال ألحّ عليّ لحظتئذ. ودعته، ثم عدت إلى مكتبي.

يومذاك حين انتهى دوام وظيفتي توجّهت إلى سوق «الصالحية». استقبلتني لافتة جديدة منصوبة على مدخل السوق كُتب عليها: «سوريا منيعة بجيشها الباسل درعها المنيع». لم أستطع أن أضحك كعادتي

على مثل هذه العبارات ككليشيهات مبتذلة، ولكني لم أجد نفسي إلا وأنا أشتم! بحثت على مهلي عن دكان الأحذية الذي أنقذني صاحبه وصديقتي «ريما» من الاعتقال البارحة. درت السوق مرات، كنت أحاول أن أتبيّن مكان الدكان. هنا كانت العربة التي تبيع الذرة المسلوقة، وهنا الحديقة الصغيرة التي تعثّرت بسورها الحديدي، وهنا... هذا هو، رأيته، عرفته من واجهته الزجاجية التي ارتطمت بها فقد كانت أزواج الأحذية تصطف أمامها كما اليوم. دخلت الدكان متمهلة، وانتظرت حتى خرجت زبونة كانت تساومه على سعر شبشب صيفي مزخرف.

«أمرك ستي.. شو بتريدي؟»، قال لي مبتسماً.

نظرت إليه ملياً، اعتقدت بأنه من الممكن أن يتعرّف إليّ، لكن لم يبدُ بأنه عرفني! رغم أني عرفته من فوري، بجمّته الكثّة الرمادية وقميصه الأبيض.

- أنا التي أنقذتها قبل يومين.. في المظاهرة.

توتر وهو ينظر حوله، ثم قال لي بسرعة: «أنتن أخواتنا...»، لكنه استدرك قائلاً: لماذا تفعلون كل هذا؟! مظاهرات وتخريب وبلبلة بالبلد... اللّه يصلحكم يا أختي!

- لأنهم يقتلون أولاد سوريا.

- لا أحد يقتل أولادكم يا أختي اللّه يخيلكي.

- كل شباب سوريا أولادنا، والنظام يقتل أولادنا...

قلت، ويبدو أن جوابي زاده فزعاً، فصار يتلفّت حوله كالمجنون، ويشير عليّ بيديه أن أسكت. قال لي بأنه خبّأني ذلك اليوم في دكانه لأنه لم يتصوّر أن تُضرب فتاتان سوريتان أمام عينيه في الشارع وهو يتفرّج. قال بأنه تخيّلني ابنته التي تقترب من عمري، وقد أنقذنا فقط من أجل ذلك، لكنه ليس راضياً عن كل تلك الاحتجاجات

والمظاهرات التي لا طائل منها إلا تخريب البلد. ثم دعا لي بالخير، وبأن يصلح اللّه من أمري وسريرتي، كأنه يطلب مني الرحيل.

خرجت من الدكان. لم أشعر بالعتب عليه، كان رجلاً لطيفاً ساعدني حين احتجت. لكن حديثنا جعلني ألتفت إلى أمر لم أنتبه إليه قبلاً: كانت جميع المحلات التجارية والدكاكين الصغيرة تشرّع أبوابها في سوق «الصالحية»، في سوق «الحمرا» الموازي له، وفي شارع «الحميدية» كذلك! في الشوارع العريضة وبين الأزقة الجانبية القديمة معظم المحلات التجارية مفتوحة! عدد قليل منها أنزل غلق متاجره! هل كان الخوف هو السبب؟! أم هي بوصلة التجار التي تتجه ناحية الاستقرار والأمان اللذين تقوّضهما الثورات؟ أم الأمر أشبه بتقيّة للحماية؟ أم ماذا؟!

(٨)

عن أشقاء الروح والفراق

في هذا اليوم الكانوني من أوائل العام ٢٠١٢، والتيار الكهربائي مقطوع في مدينة «جرمانا»، ساد الصمت أرجاء البيت. الأولاد «علي حسون» و«مي حسون» دخلا إلى غرفتيهما. العميد «بهجت حسون» تكوّر على الصوفا في الصالون، وتلحّف بالبطانية لينام قريباً من نار المدفأة. أما «سميرة السليماني» فقد جلست تراجع شريط اليوم. وحده أخوها «فاطر» كان يتحدث إليها طوالَ الوقت، يبدو وجهه مخيفاً في الظلام، كأن عمره ازداد سنوات في هذه الشهور القليلة! يبدو أكثر صلافة وقسوة.

كان يحدثها عن أنه لم يعد يكتفي بمساعدة رفاقه من عناصر النظام في مدينة «المعضمية»، صارت «المعضمية» ضيّقة على طموحاته، فقد راح شباب «عش الورور» يطلبون مساعدتهم أيضاً لمكافحة مظاهرات الإرهابيين في حي «برزة البلد». قبل أيام هبّوا كذلك لمساعدة شباب «السومرية» و«مزة ٨٦»! «الأمور تزداد شراسة ولكن لن يطول الوقت... أسابيع وينتهي كل شيء».

- قلت لغسان الغنّام أريد ٣٠ ألف ليرة بالشهر لقاء مشاركتي بالحرب على المسلحين. فقد فكرت ان أتفرّغ لهذا العمل الجديد. قالوا لي: لا نستطيع أن نعطيك هذا المبلغ، سنعطيك ١٥ ألف ليرة

واجلب ما تريد معك من مداهماتكم للمناطق، تستطيع أن تأتي بما تراه ويعجبك.

لكن «فاطر» لم يوفّق حتى اللحظة في جلب ما يستحق عناءه، باستثناء عقد من الذهب استله من درج إحدى الكومودينات في بيت من بيوت «القابون»، وموبايل «سامسونغ» فاخر موديل هذه السنة، فكّر أن يبيعه لكنه قرر من ثم أن يستخدمه، فقد أراد تجريب نكهة الحديث من موبايل فاخر كهذا يجعله يخاف من مرور صوته عبره لئلا يُخدش! والآن بدت الطاولة فقيرة مهترئة أمام لمعانه!

لكن «غسان الغنّام» صار لديه ثروة في هذه الشهور القليلة المنصرمة. «غسان» لا يرضى أن يأخذ راتباً، يقول لهم: «لا أريد راتباً أريد أن تتركوني لآخذ ما أريده من البيوت التي تتم مداهمتها في مناطق الإرهابيين». في الحقيقة ليس هناك من أحد يقول له لا!! يستطيع أن يأخذ ما يريد... شاطر!!، علّق «فاطر» متحسراً.

- خايفة عليك خيي.

همست «سميرة»: بلاها هالطلعات على مناطق غريبة... يمكن يعملوا لكم كمين بمكان ما!

- كمين؟!!! ليش في حدا بيسترجي خيتي! قال كمين! هه..

بالنسبة لـ«سميرة» فقد كان الجالس قبالتها شخص آخر لا يشبه أخاها «فاطر» بحال من الأحوال، لا يشبهه البتة! لكن أمرين كانا يتناهشانها، الأول هو فخرها بموقف أخيها وشجاعته في الدفاع عن الوطن، والثاني خوفها الهستيري عليه، وخوفها من غرقه في المسألة إلى الحد الذي يجعلها تخاف منه! لكن لم يكن من داعٍ للحديث، فكلامها كهواء ضائع في الغرفة، لا معنى له ولا تأثير، كما هو كلامها دوماً لا معنى له بالنسبة إليهم ولا تأثير.

في غرفتها الداخلية كانت «مي حسون» تتحدث في الهاتف،

وأخوها «علي» في غرفته يتحدث على موبايله أيضاً. «مي» كانت تخابر صديقتها «عائشة الحبال». هي صديقتها منذ السنة الأولى في الجامعة، بل منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه مدرج كلية العلوم في جامعة دمشق. كانت «مي حسون» غريبة ومربكة يومذاك، فهي قلّما خرجت من مساكن «المعضمية» إلا في سيارات الجيش التي يبعثها والدها بصحبة سائقين تمّ انتقاؤهم بدقة. في العموم لم تكن «مي» تعرف مكاناً خارج مساكن «المعضمية» باستثناء طريق «جبلة» والقرية وقليلاً من كورنيش البحر حين تذهب مع أمها. يومذاك أحسّت «عائشة الحبال» بأنّ تلك الصبية القروية كانت مربكة بين هذا التجمع الضخم من الطلاب، اقتربت ورمت عليها السلام. كانت «عائشة» ترتدي جلباباً بلون رمادي وحجاب رأس أبيض، كان وجهها مشرقاً وهي تبتسم لمي. «مي» كانت ترتدي تي شيرت بنصف كم مزهّرة وبنطالاً من الجينز الغامق. ذلك السلام الدافئ جعل «مي» و«عائشة» صديقتين منذ تلك اللحظة وحتى قبل عشرة شهور من اليوم.

اعتادت «عائشة» أن تأتي إلى بيت أهل «مي» يوم الخميس من أول كل شهر لتتناول الغذاء معهم. و«مي» تردّ لها الزيارة في الأسبوع الذي يليه. بيت «عائشة» كان في مدينة «دوما» إحدى مدن ريف «دمشق». لم تكن «سميرة» لتسمح لابنتها بزيارة بيت أحد من «دمشق» لولا أنها أحبّت «عائشة» كأنها ابنتها. كانت فتاة ضئيلة لطيفة «وبنت بيوت»، كما وصفتها «سميرة السليماني». لم يكن فيها من شيء غير محبب إلا اسمها، عبّرت «سميرة» مراراً. «عائشة» تعشق «الورق دوالي» الذي تعده الست «سميرة» بالعصاعيص ولية الغنم، وكانت تمنّي نفسها في الخميس الأول من كل شهر بالتهامه، تكاد تأكل أصابعها العشرة وراءه، كما تقول. لذلك كانت «سميرة» تحرص على إعداده في كل مرة. تسهر هي و«مي» على لفّ طنجرة كبيرة مليئة بالقطع الصغيرة الملفوفة بعناية وحب، لأنها تحب أن تأخذ «عائشة»

معها صحناً عارماً بالورق دوالي معها إلى «الست الوالدة». وكانت «الست الوالدة» تتصل مع «سميرة السليماني» لتخبرها بأنها من غير الممكن أن تتذوق ورق دوالي أطيب وألذ من الورق الدوالي الساحلي الذي تعده «الست أم علي». أما «مي» فكانت تفضّل الكبة اللبنية التي تتفنّن «الست أم عائشة» في صنعها، أو الشاكرية! فأكلات اللبن المطبوخ لم تكن معروفة في الطعام الساحلي الذي تعده أمها.

وهناك على جذع شجرة الكينا في الساحة الرئيسية أمام كلية العلوم حفرت «مي» و«عائشة» اسميهما على الخشب القديم، وكتبتا تحتهما: «شقيقتا الروح».

منذ شهر أيار ٢٠١١ بات من الواضح أن ثمة أشياء راحت ترتبك في علاقة الصديقتين. كانت «عائشة» تحدّث صديقتها عن أزلام النظام، عن أمنه وجيشه الذين يقتلون الثائرين في «دوما»، و«مي» تحدّثها بدورها عن العصابات الإرهابية التي تعيث فساداً في البلد، وتهدد بقتل أهلها وكل الأقليات الأخرى.

«عائشة» حدّثتها عن أولاد خالها في «الكسوة» الذين نزحوا إلى بيت جدّها في «الميدان» بسبب الأحداث هناك. أحداث «الكسوة» بدأت مبكرة جداً، في الشهر الرابع من عام ٢٠١١، قبل أن مسلّحين هاجما حاجزاً لعناصر الأمن هناك فانفتحت جهنم على المدينة، واستقرّت دبابتان في ساحتها الرئيسية منذ ذلك الوقت. ثم راحت الأحداث تتطوّر باطّراد مفزع، نبرت «عائشة» بغضب قبل أن تكمل حديثها لـ«مي»، متحدّثة عن ابن عمّها ذاك الذي يقضي خدمته الإلزامية في الجيش والذي كان قادماً لزيارتهم! دقّ الباب ودخل بلباسه العسكري الكامل، فما كان من الصغار إلا أن انفجروا فجأة بالبكاء! أحدهم بال في ثيابه، والثاني أغمي عليه، فيما اختبأ الآخرون تحت الصوفا. كانوا يصرخون: «عسكري، عسكري... جاي يقتلنا». واضطر أن يبدل ثيابه ليعود من جديد إليهم كي يهدؤوا

من روعهم! لكن «عائشة» لم تجرؤ أن تخبر صديقتها «مي» بأن ابن عمّها ذاك انشقّ عن الجيش النظامي.

إثر تلك القصة حدّثتها «مي» بدورها عن حارة العلويين في حي القدم»، التي غادرها الكثير من أهلها بسبب رسائل أتتهم تهدّدهم بالقتل. ثم قالت لها ما ذنب أولئك الاشخاص كي يتهجّروا من بيوتهم؟! لأنهم علويون فقط؟! ولأن أهل الشام ينظرون إليهم كأغراب وأعداء! كل عمركم تنظرون إلينا كأغراب!

كان كل شيء يتبدى بوضوح يوماً إثر يوم: لا «مي حسون» تستمع إلى حديث «عائشة الحبال» أو تصدّقه، ولا «عائشة الحبال» استطاعت أن تنصت إلى كلمات «مي حسون» أو تصدّقها! وفي ذاك الحديث الأخير كانت «عائشة» تلهث عن بنات خالتها الصغار الذين راحوا يكون رعباً حينما صدح أذان الجامع: اللّه أكبر. اختبؤوا وراء أمهم صارخين بأن ضرب الرصاص سيبدأ!

- الأذان صار يثير فيهم الرعب مي، تصوري! المظاهرات تخرج بعد انتهاء صلاة الجمعة، فراحوا يقرنون المظاهرة بالرصاص!

لكن «عائشة» لم تعد تشعر بالارتياح حين تسرّ لصديقتها «مي» بأسرارها ومشاعرها كما كانت قبلاً. صارت تشعر بالراحة حينما نهمس بالذي يحدث وتفكّر فيه لزميلات أخريات! حتى قدم ذاك الصباح الأسود: فاتحة الفراق، ودخلت «عائشة الحبال» إلى مدرّج الجامعة باكية. كان ابن خالها مصاباً بطلق ناري في المظاهرة! لم تستطع «مي» إلا أن تبكي معها، لم تفكّر بمن يكون ابن خالها أو بسبب إصابته، كانت «عائشة» تبكي بحرقة وهذا سبب كافٍ ليثير كل حزن العالم فيها.

بعد أيام تغيّبت «عائشة» عن الجامعة، وعرفت «مي» من صديقاتها بأن أخاها الكبير «أحمد» قد مات!! وكيف؟ بهراوة مدببة

نزل بها أحد عناصر النظام على رأسه في آخر مظاهرة في «دوما»، فانفلعت جمجمته ومات من فوره!

حاولت «مي» كثيراً أن تخابر «عائشة»، لكن الأخيرة لم ترد! أرادت أن تذهب لمواساتها، لكن «بهجت حسون» منعها من ذلك. كان يصيح بأن أولئك الذين يخرجون للتظاهر يريدون خراب البلد، وبأنهم يقبضون المال لفعل ذلك، ونحن لا نذهب للمواساة بمخربين وعملاء ضد الوطن.

«ثم من قال لك بأنه مات بضربة هراوة؟! سيكون بالتأكيد قد حمل السلاح ضد عناصر النظام ومن واجبهم أن يهاجموه! من واجبهم أن يقتلوه ويطهروا الوطن منهم... لا تصدقي هذه الأكاذيب يا مي، إنهم يضحكون عليك. ثم من هؤلاء الفتيات اللواتي قلن لك هذه المعلومات؟! سأذهب غداً معك إلى الجامعة لتدلّيني عليهن».

- لا أحد... لا أحد، سمعت ذلك فقط.

لم تذهب إلى «عائشة» ولم تواسها بمقتل أخيها. شيء ما خلخل ثقتها بالأخبار، ولم تكن قادرة على الوقوف في وجه عائلتها. «ثم ماذا لو كان حديثهم صحيحاً؟! ماذا لو ذهبت بدون علمهم إلى «دوما» وقتلها المسلحون هناك لأنها علوية، أو اختطفوها!»، فكرت «مي». فهي تسمع كل يوم عشرات الأخبار والقصص المشابهة التي يقصّها أبوها وأمها وأخوها وأقاربها!

وراحت الأحاديث تتباعد بين الصديقتين! في يوم رأت «مي» «عائشة الحبال» وهي ترفع قبضتها في الباحة أمام الكلية، كانت تصرخ بأعلى صوتها بالحرية، وهي ترفع قطعة من الكرتون الأبيض مكتوب عليها: «الموت ولا المذلة». محمرّة الوجه كانت، منفعلة كما لم ترها «مي حسون» يوماً. شعرت بأن الأجساد كلها اختفت، بقيت «عائشة» وحدها وسط المشهد، وقد راحت تغوص تماماً في هذا الدور الجديد، مقتنعة حتى النهاية وغاضبة، كشخصية مناضلة في فيلم

سينمائي. فكّرت «مي» لحظتئذ وهي تتأملها دهشة من وراء زجاج الكلية. بجانبها استطاعت «مي» للحظات أن تلتقط وجه شقيق عائشة»: «كريم»، ذاك الشاب اليافع الفرح الذي لم يملّ يوماً من إضحاكهما في بيت أهل «عائشة»! يبدو «كريم» اليوم على غير هيئته! صارماً مقطّباً وجاداً كما لم تره يوماً، يهتف كذلك وقبضته إلى الأعلى: «سوريا حرة حرة.. والبعث يطلع برّا. سوريا حرّة حرّة...»، ويردد ويردد!

حين هجم رجال الأمن ومعهم بعض الطلبة على الطلاب المتظاهرين رأت «مي» أخاها «علي» بينهم. كان يحمل عصا خشبية غليظة، ويضرب بشكل عشوائي غير محسوب ذات اليمين وذات الشمال. كان «علي» محمرّ الوجه أيضاً، منفعلاً حتى الأقاصي، غاضباً كما لم تره «مي» يوماً، يبدو كأنه يقاتل جيشاً من الأعداء وليس طلاب جامعته! لمحت «كريم» ورجلان ضخمان يحملانه معهما إلى البعيد! يحاول التملّص منهما وهما يشحطانه من شعره وياقة قميصه! ثم للحظات صارت «عائشة» قبالة «علي» في المشهد الذي تراقبه «مي». بدا كأنه لم يعرفها، وهي لم تعرفه. وقفت في وجهه تصرخ «حرية...»، فرفع عصاه ليضربها. تتوقف الصورة هنا، فقد غطّت «مي» عينيها، لم ترد أن ترى هذا المشهد البغيض والقاسي: أخوها يضرب شقيقة روحها... حين رفعت كفّها عن عينيها كانت الصورة مغبّشة تماماً، فدموعها راحت تسيح.

كان رجال الأمن يعتقلون مجموعة أخرى من الشباب، ولم تكن «عائشة» حاضرة في المشهد. جنّت «مي»، خرجت تبحث عنها كالممسوسة، تركض يمنة ويسرة تبحث عنها. اعتقدت بأنهم أخذوها مع شقيقها «كريم»، اعتقلوها، وهي تسمع ما الذي من الممكن أن يفعلوه لها إن اعتقلت. فحكايات اعتقال الإرهابيين وما يفعلونه بهم تُسرد على الدوام في صالون بيتهم، مرة على لسان أخيها «علي»، مرة

على لسان أبيها، ومرات على لسان خالها «فاطر السليماني» الذي يساهم في إلقاء القبض عليهم يومياً!

لكن «عائشة» كانت هناك تحت شجرة الكينا ترتّب هيئتها المتعبة، تعيد تنسيق حجابها وجلبابها المعفّر بالغبار والذي انتقته اليوم سكرياً!! همّت «مي» بالاقتراب منها، كانت تريد أن تحتضنها، تخبرها بالهلع الذي شعرت به عليها، وتحدّثها بحبها. لكنها فكرت في الثواني الأخيرة بأن «عائشة» قد تكون عرفت «علي» وسط هذا الجنون. وماذا ستكون ردة فعلها إن هي عرفته؟! كان يضربها ويضرب بقية الطلاب زملاءه! همّت بالاقتراب من جديد، لكنها أحجمت، فقد ساءلت نفسها: «ولماذا تقوم «عائشة» بكل ذلك؟!»، ثم ابتعدت من فورها.

اليوم والتيار الكهربائي مقطوع، وقد مرت شهور على تلك الحادثة، شعرت «مي حسون» بنوبة حنين طاغية إلى «عائشة الحبال». نوبة حنين أدخلتها في نوبة أخرى من البكاء المسموع. لم يكن وجه «كريم»، ذاك الذي أطلّ على شاشة التلفاز الرسمي قبل انقطاع الكهرباء، هو وحده السبب، فـ«عائشة» لم تغادر روح «مي» يوماً، لكن «كريم» ذاك الشاب الضاحك الأسمر، يعترف أمام الكاميرات بأنه إرهابي اشترك في تهريب السلاح وأخذ الأموال من «قطر» و«السعودية» لدعم الإرهابيين المخرّبين.

«كريم!!!»، صاحت «مي» في قلبها، ولم تجرؤ على البوح أمام أحد من أهلها! «كريم...!!»، صاحت من جديد. متى استطاع فعل ذلك وقد اعتقلوه قبل شهور؟! كيف له أن يأخذ الأموال، كيف ومتى؟! «كريم؟!»، لا يمكنه أن يؤذي النملة. هل يكون كل هذا كذباً؟! أم أنها لا تعرف؟! أم ماذا...؟! لكنها لم تستطع أن تتخيّل الشاب وهو يحمل بندقية تشبه تلك التي يحملها الخال «فاطر». ذكرى جسد «كريم» الضاحك اللطيف لم تتناسب في مخيالها مع جدية حمل السلاح ورهبته. لا يمكن لـ«كريم» أن يفعل ذلك!!

كانت شهور الصيف قد مرّت دون أن تسمع «مي» صوت «عائشة»، وحين بدأت السنة الدراسية الجديدة والأخيرة في الكلية كان يبدو واضحاً بأن لا مجال لعودة صداقتهما! كان هناك رفض في عيني «عائشة»، وربما أحسّت الأخيرة بالرفض نفسه في عيني «مي».

«سميرة السليماني» حرّمت على ابنتها أن تحدث «السنية» من جديد، وقالت لها إنهم يكرهوننا، ويريدوننا أن نخرج من وطننا. وأنهم يتمنون إبادة العلويين كلهم! الست «أم عائشة» كانت بدورها تحمّل العلويين مسؤولية كل ما يحدث في البلاد، كل المجازر التي حدثت في مناطق «السنة» فعلها «شبيحتهم»، ولا تنسى أن ترفق حديثها بالقول لابنتها: إنهم يكرهوننا! لكنها فترة قليلة تلك التي قصدت «عائشة حبال» الجامعة فيها، فترة قليلة لا تتجاوز الشهر، ثم انقطعت عن الدوام.

أما اليوم فقد علمت «سميرة السليماني» بالصدفة من صاحب البيت الذي يستأجرونه في البناء بأن عائلة علوية تسكن الطابق الذي فوقهم، قبالة بيت الست المسيحية «أم بيرو». فكّرت بأنه سيكون أمراً رائعاً إن هي استطاعت نسج علاقة طيبة مع تلك العائلة، فالوحدة تكاد تقتلها هنا! البيت المقابل لهم تزوره الكثير من النساء المحجّبات، ولهجة المرأة حمصية، ثم إن وجهها لم يكن بشوشاً في يوم!

لذلك، فمنذ الصباح وضعت «سميرة» بقايا الكيك الذي صنعته البارحة في صحن خزف مزخرف، لبست فستانها الصوفي الذي تزينه زخرفات، ووضعت الشال الملون على كتفيها، ثم انتظرت أن ينزل الزوج إلى عمله، وصعدت إلى الطابق الأعلى. ذاك الفستان كان يجعلها تبدو أكبر من سنها، يكاد الرائي لا يخطئ منبتها القروي بهذا الشال فوق الفستان المزخرف وكل منهما بألوان مغايرة عن الآخر.

لم تنتبه «سميرة» إلى ملامح الاستغراب التي اشتعلت في وجه الجارة. عرفتها بنفسها، وقالت مباشرة وعلى وجهها ابتسامة عريضة: نحن أقرباء!! قال لي صاحب البناء إنكم من ريف حمص! نحن كذلك

من جبلة. ابتسمت الجارة، التي لم تكن غير «ريما العيساوي»، مجاملة، فيما دفعت «سميرة» بصحن الكيك إليها. دعتها «ريما» للدخول.

كان من الصعب أن تشرح «ريما» لتلك الجارة بأن «صلاح عباس»، الرجل الذي يسكن البيت، هو رفيقها وليس زوجها، قرابة بعيدة تلك التي تربطه بأمها، وأنها لا تسكن هنا بل في غرفة صغيرة في حي «القميرية» داخل أسوار «دمشق القديمة»، وأنها رغم كل هذا قضت الليلة في بيته البارحة. كان من الصعب شرح كل ذلك، لذلك فقد راحت تجيب عن أسئلة الجارة المتدافعة بما يقتضيه وضعها كزوجة لـ«صلاح عباس».

- صلاح أتى من حمص قبل فترة ليست بطويلة.

تمتمت «ريما» وهي تعود من المطبخ بإبريق الشاي.

«التعب يبدو على محياها»، فكّرت «سميرة»، «إنها في أوائل ثلاثينياتها ربما». عيناها ضاحكتان من تحت نظاراتها الطبية، وشعرها الطويل الأجعد معقوص إلى الخلف بقلم رصاص! حاولت «سميرة أن تعرف أكثر، كان الفضول يأخذها وهي تراقب البيجاما الرجالية التي ترتديها هذه الجارة الشابة والغامضة.

- ليش إجيتو ع الشام؟

سألتها.

- من أجل عمل صلاح.

أجابت «ريما».

- وما هو عمل زوجك؟

- مدرس...

- أها...

وصمتت.

لم يكن جواباً شافياً. حاولت «سميرة» أن تعرف معلومات ضافية، لكنها لم تفلح. كانت «ريما» تبتسم طوالَ الوقت وهي ترشف من كأس الشاي، تبتسم لا غير. أحسّت «سميرة» بشيء غريب يفوح من ذلك المنزل! لم يكن يحوي أثاثاً كثيراً: صوفايتان قديمتان حائلتا للون، بعض كراسي البلاستيك الملون وطاولة بلاستيكية في منتصف، مليئة بثقوب سوداء شكّلتها حروق السجائر! وتلفاز أقرب ى أنتيكا موغلة في التاريخ محمول على طاولة بلاستيكية أخرى في زاوية. الجدران عارية إلا من كرتونة بيضاء معلّقة بلاصق شفاف مكتوب عليها بخطّ يد أسود مجعلك:

«دعوا الذعر جانباً، ولا تفعلوا شيئاً يمليه عليكم شعور الذعر، نا لا ندعو إلى العنف!». وتحتها كتب بخط أصغر: «مارتن لوثر كينغ».

لم تفهم «سميرة» شيئاً من ذلك، لكنها فكّرت بأنها قد تكون جزءاً من آية قرآنية! أو لربما حديث لا تعرفه لعلّامة دين شهير! ثم رت بأن عليها أن تقود الحديث مع هذه الجارة الغريبة والغامضة طريقتها التي تشتهر بها. كان الجميع يشهد لها بقدرتها على استلام كلام لساعات متتالية بدون ملل. بادرت الجارة بجملة مفاجئة عتقدت بأنها ستثيرها، وربما حفّزتها على الكلام: حكى معي صهري من الضيعة، قال لي إنهم رؤوا ثلاث جثث لشباب مرميين على مدخل ضيعة. مذبوحين من الوريد للوريد، على طريقة السلفيين!! إي واللّه ـ حرام. واحد منهم عريس ما له شهرين متزوج، وواحد منهم أب ربعة أطفال... واللّه حرام.

«اللّه يرحمهم». هذا كل ما قالته «ريما». لكن «سميرة» كانت نتظر شيئاً آخر.

– قالوا إن المتطرفين الإسلاميين في الضيعة التي بقربهم قتلوهم ـموهم عندنا!

- لكن المفترض أن عناصر الأمن يملؤون المناطق والطرقات. كيف يدعونهم ليعملوا ما عملوه؟!

- لم يكن هناك عناصر أمن!

وصمتت «سميرة»، ليس لأن بديهتها لم تسعفها بإجابة، بل لأنه كان السؤال الأول من نوعه الذي يوجّه إليها، لكنها قررت الإيغال في الحديث.

- يا خيتي اللّه يجيرنا... أنا سلفتي من القنينص باللاذقية، قبل كم شهر، من وقت ما بدأت الأحداث، جاء كم واحد منهم وصارو يصرخوا بالحارة: العلوية عالتابوت والمسيحية عبيروت... واللّه خافوا الناس كتير، ولحقوهم، لكن ما قدروا يمسكوهم.

- لا أعتقد بأن أهل المنطقة هناك من فعلها، إذا كانوا قد فعلوها. هي محاولة لإشعال النار بين المناطق.

- أقول لك سلفتي سمعتهم بأذنها!

- ووين كان الأمن كمان؟

- بس واللّه عملوا الشغلات نفسها بحمص كمان... بالنزهة والزهرة.

لكن «ريما» قررت أخيراً أن تبدأ بالكلام مع هذه «المرأة البسيطة المثيرة للشفقة التي تكاد تموت بخوفها». حسبما رأتها. قالت لها إن بعث «الشبيحة» للقتل في مناطق السنة خطأ كبير: في هذه الحالة ستتولّد قناعة مقيمة لدى الأغلبية في تلك المناطق المشتعلة أن من يقتلهم هم «العلويين» بمطلق الكلمة، ولا تمييز بينهم.. حتى لو كانت نسبة «الشبيحة» في هذه المناطق لا يتعدى ١٠٪.

- شبيحة!

قطّبت «سميرة» حاجبيها: شبيحة شو؟

حينئذ تحاول «ريما» تمييع الحديث، وقد أحسّت بأنها تورطت فيما قالته، وهي لا تعرف من هي هذه المرأة وما الذي من الممكن

تقوم به! لكن لحسن حظها يأتي «صلاح عباس» في تلك الدقيقة. تهمس له من على الباب منذرة: «أنا زوجتك... ها... لا تنسى»، ثم تتركه مع الجارة وتدخل لتعدّ القهوة.

و «سميرة السليماني» التي بدت مشوّشة قليلاً بشأن ردود الجارة الغريبة طلبت من «صلاح» أن تدخل إلى الحمام. عند باب الحمام ظهر لها باب غرفة النوم مفتوحاً، ناداها فضولها كي تلقي نظرة سريعة على غرفة نوم هذين الزوجين. كانت الغرفة فوضوية مغبرة، وسرير ضيق ومتهالك في زاويتها. كان غريباً أن تكون غرفة نوم لزوجين! كل شيء في بيت هذين الزوجين غريب مثلهما!

«ريما العيساوي» بدورها كانت تفكر، وهي تعد القهوة، بحديث الجارة، وتتذكر أحاديث جدها التي تماثلها إلى حدّ بعيد. لم يكن وقتاً بعيداً على ما يبدو لينسوا. جدها مات منذ خمس سنين تقريباً عن عمر ناهز التسعين. ذاكرته الغريبة تلك كانت تعجّ بالأحداث والذكريات والأخبار والمشاعر. كان يحكي دوماً، وهو يلفّ سيجارة التبغ البلدي، ويتفّ بين الجملة والأخرى، عن ملّاك الأراضي من المدينة. يقول:

«ملّاك الأراضي السنة الذين كانوا يفلحون علينا كالثيران».

لطالما سرد وسرد تفاصيل الاضطهاد الذي عمره عقود ومازال ماثلاً في ذاكرته حتى اللحظة التي تكلم فيها قبل سنوات قليلة. من ضمن تفاصيل سرده لم ينسَ مرة أن يذكر ابنته البكر، عمة «ريما» الكبيرة، تلك التي اضطر أن يبعثها مع مالك الأرض لتعمل في «بيروت» ولم يرها بعد ذلك. انقطعت أخبارها تماماً منذ عقود. لابد أنها اليوم عجوز مسنة إن كانت لا تزال حية. يتفّ الجد وهو يقول إن الفقر والجوع جعلاه يخسر ابنته البكر. وربما بسبب كل هذه الذاكرة الخائفة ما تزال صورة العمة على حائط متوارٍ في غرفة الجلوس، صورة قديمة قدم الذاكرة تلك، تظهر فيها العمة وهي تزمّ شفتيها

الرقيقتين، حتى يبدو فمها خطاً صغيراً في وجه يقاوم الابتسام أمام الكاميرا. صورة بعثتها لوالديها بعد سنوات من سفرها لتخدم في إحدى بيوتات «بيروت». كانت «ريما» تفكر بحجم الحقد الطبقي ذاك الذي يتغلغل داخل أهلها حتى لو لم يعوه. شعور بالغبن يتوارث جيلاً بعد جيل، حقد طبقي تمازج مع حقد طائفي في دواخلهم، وفي دواخل الآخرين الذين راحوا يبادلونهم الأحقاد، لتتوالد كل هذه المشاكل التي تحدث اليوم.

«ها أنا قد عدت إلى فلسفاتي مجدداً!»، فكّرت «ريما»، لكنها قررت أن تحدث الجارة عن كل ذلك، «مثلاً يا جارتي هناك الكثير من السنة لم يكونوا ملّاكة ولا ظالمين ولا مُسْتَعبِدِين!». دمدمت في بروفة للقول، ثم حملت الفناجين وخرجت متأهبة. ربما لن تفهمها الجارة كما يجب، لكنها قد تنفجر إن لم تقل، فقلبها مثقل بالقول. كانت كلمات والدها عن فتاوى «ابن تيمية» و«الغزالي»، تكفيرهم للعلويين وإحلال دمائهم ونسائهم وأموالهم وأولادهم، تضجّ الآن في رأسها، جمل مخيفة يردّدها من نصوص الفتاوى، جمل تسكن في الذاكرة، تهدّد الوجود الآن كما في الماضي، ذاكرة ممتدّة محفورة كأثلام في أرض قاسية.

لكن «ريما» فوجئت بالجارة تقف على عجل بعد عودتها من الحمام، وتستأذن في الذهاب... وتذهب!

«ما بها؟»، سألت «ريما» «صلاح».

قلب شفته بلامبالاة وذهب ليغيّر ثيابه.

- هل أزعجتها بشيء؟!

- أبداً!

- اعتقدتني زوجتك...

لم يردّ صلاح، وبقيت «ريما» وحدها تحتسي القهوة وتفكّر وهي تناظر الجملة المكتوبة على كرتونة الجدار، فيما كانت «سمير:

لسليماني» تنزل الدرج مبلبلة. لكنها حين فتحت باب بيتها، وألفت زوجها العميد «بهجت» يستلقي على الصوفا العريضة في الصالون يراقب التلفاز، قرّرت ألا تخبره عن تلك العائلة الغريبة، ولا عن تفاصيل أحاديثها مع الجارة، فلربما كان سوء فهم، لربما...

في الشقة المقابلة لشقة العميد كانت «فاديا محمود» تحدّث أختها مريم» للمرة الأولى، وهما تشربان القهوة، عن الدمار الذي قضى على بيتهم. حدّثتها عن الحيطان المثقبة بالفجوات، وقضبان الحديد تخرج منها كسيوف مسلّطة. حدثتها عن الأدوات الكهربائية المخرّبة، وغسالتها الجديدة التي أصبحت أشبه بصندوق تنك صدئ، عن ثيابهم التي حُرقت في الخزائن، وعن حظهم الطيب بأنهم نجوا من حمى الشظايا التي طالت معظم البيت! لكنها من حيث اعتقدت بأنها تآلفت مع ما حصل ألفت نفسها تجهش بحرقة. لم تتآلف مع كل ذاك الخراب بعد! كل تراكمات أعمالهم في السنين الماضية تبدّدت في لحظة، نزلت قذائف على بيت فاحترق كأنه من قطع كرتون!

- لم يبق شيء على شيء، يا ضياع سنين التعب...

نشقت «فاديا» ماسحة أنفها. كل ما أخرجته من البيت كان ألبوما صور بقيا على حالهما، بضع أوراق ثبوتية، ساعة المرحومة أمها، وقليل من قطع الثياب... ماعدا ذلك كل شيء ضاع!

- اللّه لا يوفقهم، قصفوا المنطقة كأنهم يقصفون الجيش الإسرائيلي وليس بيوت مدنيين سوريين!

حاولت الأخت أن تهدّئ من أساها، قالت بأنهم سيعودون ليبنوا البيت من جديد، فالحجارة تعود وتتعمّر، المهم هو الحياة، وستصبح هذه الأيام ذكرى بعيدة ومضحكة، وقت يسقط النظام وتعود سوريا أجمل مما كانت، و...

- مضحكة؟! ذكرى مضحكة؟!.

قاطعتها «فاديا»: كلما تذكّرت صوت القذيفة التي سقطت على

سقف مطبخي أرتجف كأنها سقطت الآن. لن تصبح هذه الذكرى في عمرها مضحكة بالنسبة لي يا أختي. صوت رصاصات القناصة، وعيوننا المعلّقة بالأسطح... لا أعتقد بأنها ستصير ذكرى مضحكة بالنسبة لأحد! سيتذكّر السوريون كل ما يحدث اليوم لعشرات السنوات القادمة، وربما لمئاتها... ستكون ذكرى سوداء كليل بهيم، مؤلمة كنزع القلب من الصدر، وأقسى من حجر الصوان!

- لكنها مفعمة بالأمل كذلك.

تهمس «مريم» بكلمات متردّدة.

- ربما...

تجيب «فاديا» بقنوط، وتمسح وجهها الرطب بكفيها. ترددت «مريم» قليلاً قبل أن تسألها عن «مصعب محمود» شقيقهما، فقد قالت لها «فاديا» البارحة، وبكلمات مقتضبة، بأنه فضّل أن يبقى في «حمص»، يخرج في مظاهراتها ويشارك في ثورتها، حسب تعبيره، وأنه لن يترك مدينته إلا إلى القبر.

- بعيد الشر!

صاحت «مريم».

- لم يعد هناك أحد منّا بمنجى من الموت حبيبتي... الموت حولنا في كل مكان... وروحه ليست أغلى من أرواح الشباب!

لكن «مريم» كانت تشعر بأن هناك مساحات مخبّأة من الحقيقة لم تقلها «فاديا» كلها! معلومات متوارية لم تنقلها! فقد كان «مصعب محمود» في ذلك الوقت، أوائل سنة ٢٠١٢، قد قرر الانتقال من مكانه الدائم على أكتاف المتظاهرين، في معظم مظاهرات مدينة «حمص»، إلى الأرض! من فعاليته كناشط سلمي، يهدر صوته بهتافات حامية، إلى مقاتل ينوء بثقل رشاشه. لم يناقش الأمر مع والده، رغم أنه خطط طويلاً ليفاتحه بالأمر، ورتّب سيناريوهات طويلة ومتعددة لإقناعه بمباركة قراره. كان قد انقطع عن ارتياد

الجامعة منذ شهور طويلة. آخر مرة ذهب إليها كانت مجموعة من اتحاد الطلبة، أولئك الذين دأبوا في الفترات الماضية على الحلول مكان رجال الأمن في الجامعة، يحيطون بشاب من القسم ويصفعونه كل بدوره على وجهه. الشاب كان اسمه «قاسم»، زميل قريب لـ«مصعب» من قرية مجاورة للمدينة. كانت المجموعة الأمنية من اتحاد الطلبة قد طلبت من «قاسم» أخذ دوره في حراسة تمثال «حافظ الأسد» قبالة مبنى الجامعة، أسوة ببقية الشبان من أصول علوية في القسم، وأن يتسلّم سلاحه الخاص للقيام بدوريات الحراسة! رفض «قاسم» ذلك، كان يقول لـ«مصعب» بأنه لن يحمل السلاح يوماً، وبأنه لم يأت إلى الجامعة ليحرس تمثالاً، رغم أنه لم يكن معادياً للنظام ولن يفكّر يوماً بذلك. يؤكد لـ«مصعب» مجدداً.

ذات صباح لاقاه أحد عناصر الدورية الأمنية في ساحة الجامعة، صاح بصوت عالٍ، وهو يشير إلى ملصق كبير لقناة الجزيرة على الأرض رُسم عليه لوغو القناة وكُتب بجانبه: قناة العار، القناة المغرضة: «هيا ادعس هنا على قناة الكلاب، ادعس على أعداء الوطن والخونة». لم يرضَ «قاسم» أن يدعس. قال بصوت خفيض: نن أحاربهم بهذه الطريقة، الإعلام يحارب الإعلام، والكلمة بالكلمة. هنا استشاط العنصر غضباً، أخرج رشاشه وصار يضرب لملصق بالرصاص، والطلقات تتطاير يمنة ويسرة، و«قاسم» طفق يركض كالمجنون باتجاه مبنى الجامعة، كما معظم الطلاب المحيطين به.

- لست مع القناة، ولا أحب طريقتها غير المحترفة بنقل الأخبار ولا مبالغاتها... ولكنها قضية مبدأ.

قال لـ«مصعب» أيضاً. لكن العنصر لاحقه، طوّقه مع بقية المجموعة وطفقوا يكيلون له الصفعات واللكمات في بهو الكلية. قبل ذلك قال له العنصر زاعقاً بغضب: تريد أن تتقاوى علينا، بدل أن

نكون يداً واحدة ضد المؤامرة على الوطن وسيادة الرئيس. . . تريد أن تجعل الآخرين يتطاولون علينا!

في المرة الأخيرة التي رآه «مصعب» فيها كان قد أتى قرار فصل «قاسم» من الجامعة، ومعه ورقة استدعاء للتحقيق معه في فرع الأمن السياسي. قال «قاسم» وهو يودّعه: لا يمكن أن يقبلوا شاباً علوياً ليس لعبة في أيديهم. يريدون طائفة فزعة ضعيفة تتبعهم، هذا كل ما يريدونه يا صديقي. ثم أردف «قاسم» بأنه سيمضي إلى قريته ويستقرّ هناك حتى يأتي يوم وتصبح هذه الجامعات للأحرار وليس لحزب البعث ولبشار الأسد وزمرته.

- لم يسئ أحد لنا كما أساؤوا هم.

قال، وودّع «مصعب» للمرة الأخيرة ومضى. أما بالنسبة لـ«مصعب» فقد كانت المرة الأخيرة أيضاً التي يزور الجامعة بها.

يومذاك كان يفكّر بالحجج التي سيقنع والده بها لينضمّ إلى جماعة الثوار المسلّحين، سيقول له: «الكفاح الثوري يا والدي. . . إنها الطريقة الوحيدة مع هكذا نظام قاتل!»، إن تململ العجوز، أو دحض حجّته بالكفاح الثوري المفترضة، فسيأتيه من اتجاه آخر، سيقول له: «إنهم يقتلوننا كل يوم وما من داعم أو مؤيّد لنا!»، وإن صاح العجوز بالصبر واستمرار الثورة السلمية على ما هي عليه، فسيعدّد له أسماء أصدقائه الذين سقطوا شهداء في مظاهرات الشهور الماضية والتي يعرفها العجوز جيداً.

- قوتنا تأتي من سلميتنا، من أننا نقاتل نظاماً مجرماً بأيدٍ عزلاء، وهو يستخدم الأسلحة بمقابل أصواتنا!

سيقول العجوز متحمّساً، هذا ما افترضه «مصعب»، وحينها سيردّ عليه. . .

لكن أياً من تلك السيناريوهات والحوارات المفترضة بين «مصعب محمود» وأبيه لم تحدث! ما حدث يختلف اختلافاً كاملاً

عمّا رتّب له «مصعب» في خياله! ففي المظاهرة الأخيرة التي قامت في حي «باب هود» بحمص قبل شهرين تقريباً، كانت أعداد الشباب هائلة، تتقافز على مساحة ساحة التظاهر، تغني وتغني طوالَ ساعات، تتمايل على أنغام أغاني الثورة وهتافاتها:

«ع العين موليّتي، ع العين موليّا

قررنا نقدّم الروح لحمص العديّة...»

تردّ الجموع منتشية متراصّة.

اللافتات تحيّي الجيش الحر، وتمجّد دفاعه عن الثورة والشعب. على واحدة منها كُتب بخطّ مجعلك: «الجيش الأسدي يقتلنا، الجيش الحر يحمينا»، مذيّلة بتوقيع: «حمص المنكوبة... باب هود».

لم يشارك «مصعب» ذاك اليوم في كتابة اللافتات كعادته، كان مشغولاً بالتواصل مع عناصر من الثوار المسلّحين لحماية المظاهرة، تحديد موعدها، وأين، وكيف... في آخر اجتماعهم سأل «مصعب» الشاب الملثّم الذي التقاه على تخوم البساتين حاملاً الكلاشنكوف: هل تستقبلون عناصر جدداً؟

- طبعاً نحن بأمس الحاجة للأحرار...

- ومن ليس لديه خبرة؟!

- نعلّمه!

أما في المظاهرة فيستمر الشباب ويستمرون في التمايل على أنغام الأغاني لساعات. كانت لافتات كبيرة معلّقة على الحوائط مكتوب عليها: «لن نركع إلا للّه». العلم التركي إلى جانب علم الثورة السورية وعلم الثورة الليبية أيضاً، معلّقة على حائط بناية انكشط دهانها.

تذكّر «مصعب» لثوان، وسط كل ذاك الضجيج، استياء والده من تعليق علم تركيا في المظاهرات! «لماذا العلم التركي يعني؟! بلحظة صارت تركيا حبيبة وأغلى من الأخت؟!». ثم فكّر «مصعب» إن السبب الوحيد الذي حدا بمظاهرات «حمص» كي تخرج بهذا الشكل

الأسطوري هي حماية الجيش الحر بالسلاح، «وفقط حماية السلاح»، أكّد لنفسه، «فقد كانت مظاهرات المناطق الأخرى غير المحمية بالسلاح أشبه بانتحار جماعي، أو هي مشروع مظاهرات تنطلق لدقائق معدودات قبل أن يفرّقها عناصر النظام كذلك بأساليبهم المعروفة!». بالنسبة إليه كانت «المظاهرات الطيّارة»، تلك التي راحت تنتشر في بعض المناطق، أشبه بالضحك على اللّحى: «ماذا ستقول في بضعة دقائق؟ وماذا ستُظهر؟ وما هو تأثيرك؟ حتى إن الناس لا تراك!»، يصيح برفاقه بعد كل «مظاهرة طيّارة»!

في تلك الليلة لن يعود «مصعب محمود» إلى البيت، ولا في الليالي المقبلة كذلك. سيبيع عقد الذهب المعلّق برقبته، هدية أمه المرحومة، وكذلك الميدالية التي تتدلّى منه وعليها نقش «ماشاء اللّه»، وسيحاول أن يشتري بثمنهما رشاشاً. مهرّب الأسلحة، الذي لاقاه على التخوم في بيت محايد وصغير، ضحك ملء شدقيه، ضحك وضحك، ثم مسح دموعه وقال له بجدية مفاجئة: «يا ابني هذه لا تشتري صندوق رصاص! سآخذك إلى مجموعة من الأبطال، سيعطونك رشاشاً وتنضمّ إليهم في القتال». وسيتمّم «مصعب» شطر البساتين، ليعيش مع المقاتلين المسلحين حيثما يعيشون، ينتقل معهم حيثما ينتقلون، ويغير على حواجز النظام وتجمعات عناصره معهم حينما تأتيهم الأوامر بالإغارة. بالنسبة لـ«مصعب» فقد كانت الأمور تنتهي هنا، بقرار انضمامه إلى القتال، ولم يفكّر بالذي سيأتي بعد. ذاك الرشاش المعلّق على كتفه وهبه قوة لم يعهدها في نفسه يوماً، ثقلاً مغايراً يختلف عن خفّته السابقة، حجماً مهولاً لا يشبه ضآلته القديمة التي كانت تجعل المتظاهرين يختارونه للصعود على أكتافهم للهتاف.

ـ باختصار ذاك الرشاش بدّل كل شيء!

(٩)

عن المعجنات والدروب التي انقطعت

كان «أبو الليث» يغطّ في نوم عميق حينما دقّ الباب بضراوة.

انتفضت زوجته هلعة بقربه، صاحت: «لا تفتح أبو الليث هدول لأمن أكيد». أجابها وهو يقوم من فوره: «وإذا ما فتحنا بكسّروا لباب». وأبعد ذراعها التي تتعلّق به.

قبل أن يفتح الباب بيمناه استل باليسرى الكلاشنكوف من بين لأحذية المتراكمة في سلة قشّ كبيرة بجانب الباب، لقّمه وأشهره في وجه من يدقّ، ثم فتح الباب بسرعة: كان شاباً وحيداً ذاك الذي ينتصب أمامه في العتمة، ضئيلاً وملثّماً بكفّية مرقّطة. بادره من فوره مرتبكاً: «ما تواخذني عمي أبو الليث الشباب مضطرين على بضاعة».

- قلت لكم مئة مرة خبّروا قبل أن تأتوا.

أنزل الكلاشنكوف، ودسّها من جديد في مكانها: سلة الأحذية لقشية. أخرج رأسه ليراقب الطريق يمنةً ويسرة قبل أن يدعو الشاب للدخول إلى الغرفة الجانبية.

- يا صاحبي الحارة كلها عيون، وإذا انفضح أمرنا بتروح علينا كلنا... بدها قليل من الحيطة والحذر!

عاتب «أبو الليث» الشاب مجدداً، فما كان من الأخير إلا أن استزاد من الاعتذارات بسبب مجيئه المفاجئ، لكنه شدّد على حاجتهم لملحّة للأسلحة، فربما لم يسمع العم «أبو الليث» أصوات

الانفجارات المدوّية عندهم في «بابا عمرو»، ذلك أن حي «دير بعلبة» بعيد إلى الشرق كفاية كي يبدد الفضاء كل الأصوات. كان ثمة حاجز لقوات النظام قد بدأ منذ أول المساء بضرب الحي، بعد رحيل بعثة «مراقبي الأمم المتحدة» بساعات، والآن أقرّ الثوار ضربه، وبدؤوا.

«إذاً لابد من المجازفة!»، خرج «أبو الليث» مع الشاب ذي الكفية إلى مرآب السيارات الملاصق لبيته، فقد كان قد قرر منذ شهرين أن يفرّغ البناء الذي يملكه ابن عمه، ذاك البناء المقابل لبنائه في الطرف الآخر من الشارع، ليغدو كلّه بطوابقه الثلاثة «تحت تصرّف الثوار»، حسب تعبيره. ثم أرسل خبراً بذلك مع أحد الشباب إلى «بابا عمرو» فيما عائلة ابن عمه تنقل أغراضها للسكن في الطابق الثاني من بنائه. خلال ساعات من قراره ذاك راحت وفود الثوار تجتاح المكان، رغم إلحاحه بضرورة الإبقاء على الأمر سراً، والانتقال إلى البناء بمجموعات صغيرة تحت جنح الظلام! لكن الكثير منهم كان قد قضى في العراء شهوراً، والبعض الآخر يتوق إلى فراش يريح رأسه عليه! بيد أن ذاك القرار المفاجئ لـ«أبو الليث» رافقه قرار آخر يتلخّص بأن لا تخرج طلقة واحدة من ذلك البناء! ليجعلوه أشبه بفندق لهم وليس أرض عمليات عسكرية. فقد كان أحدهم قد أغرى «أبو الليث» قبلاً بقنّاصة رخيصة غنمها. قال له بأنه لا يريد المال مقابلها، لكنه يريد أحد عجوله التي يربّيها في مبقرة شاسعة على تخوم مزارع «دير بعلبة». «أبو الليث» رضي بالمقايضة بدون طول تفكير، احتضن القنّاصة الغالية ودسّها بين شحنة من أكياس الطحين المتراكمة في مستودع سيارة شحن قديمة. هكذا استطاع نقل القناصة تحت جنح ذلك الليل إلى مستودع بنائه. ثم في الليل المقبل حملها بخفة إلى الطابق العلوي من البناء حيث غطّاها بجوالات الطحين وتركها آمنة. «سيأتي يوم ونحتاجها»، فكّر. لكن أحد أبناء ابن عمه، وهو مراهق في السادسة عشرة من عمره، اكتشف القناصة ذات مساء. تسلّل في بهيم الليل، نصبها على

الشباك الذي يطلّ على «شارع الستين»، حيث مازال ذاك الحاجز النظامي هناك منذ شهور طويلة، ثم أطلق رصاصة من تلك القناصة! رصاصة واحدة خرجت من الشباك واستقرت في مكان ما من الحاجز، لتنطلق على الفور قذيفة من الدبابة المتمترسة هناك، وتحصد المراهق وقناصته الجديدة ونصف الطابق العلوي من البناء وكمية لا بأس بها من جوالات الطحين!

من يومها صار ذلك البناء فندقاً للثوار، وما يشبه مستودعاً لأسلحتهم.

بعد «مجزرة الساعة» بشهور قليلة بدأ بعض ثوار «بابا عمرو» يستقدمون قطع السلاح شيئاً فشيئاً. بداية كان المال يغري بعضاً من عناصر الأمن لبيع الأسلحة لهم، قطع قليلة يتم تهريبها سرّاً بدون أن تثير الشبهات. بتلك الأسلحة الخفيفة استطاعوا أن يهاجموا حواجز النظام التي تحاصر «بابا عمرو»، وبدؤوها بعملية قرب «جسر السلطانية»، قتلوا فيها ما يقرب من عشرة عناصر.

- اختلف الشباب وقتها كما حكوا لي، بعضهم كان يريد أن يدفن قتلى النظام، وبعضهم كان يريد رميهم للكلاب!

يحكي «مصعب محمود» أمام صديقه وشقيق صهره «أبو الليث».

- وما الذي استقروا عليه من ثم؟!

- تركوا الجثث على الحاجز ليأخذها رفاقهم.

- أحسنوا... أفضل شيء.

ثم انتقل الثوار إلى مرحلة ثانية، صاروا يجلبون السلاح من «لبنان». تجار «عسال الورد» الحدودية في البدايات قاموا بالمهمة بصعوبة، ثم صار الأمر أسهل بكثير!

كانت الأقاويل تتكاثر عن الجهات التي ترسل السلاح من لبنان، تتكاثر الأقاويل وتتشعّب، لكن اليوم، وفي أوائل خريف ٢٠١١، كانت جميع أنواع الأسلحة الخفيفة، وحتى قذائف الآر بي جي، قد

أضحت بين أيدهم: «أما مهرّبو السلاح، الذين لم يتجاوز عددهم أصابع اليدين بداية، فقد أضحوا اليوم بالعشرات... وربما أكثر!»، يؤكد «مصعب» أمام «أبو الليث»، والأخير يهزّ برأسه موافقاً.

- حان الوقت لردّ الصاع صاعين لـ«كتائب الأسد»!

يؤكد «مصعب» مجدداً، ويوافقه «أبو الليث».

لكن تلك الأسلحة المهرّبة من وراء الحدود لم تكن صالحة للاستعمال طوالَ الوقت! في مرات ضربت القذائف بالدبابة وسقطت أرضاً، بدت بالنسبة لـ«مصعب»، الذي أطلقها، أشبه بتفاحة قاسية ضربت بالهيكل المعدني للدبابة ليس إلا. مرة خسروا أحد رفاقهم حين انفجرت قذيفة الآر بي جي في وجهه بدل أن تنطلق باتجاه الهدف أمامه. مع ذلك كان الظرف الذي يزداد حصاراً يجبرهم على المجازفة... يجبرهم دوماً على المجازفة!

حتى ذلك اليوم لم يكن «أبو الليث» يفكر في إغلاق فرن المعجنات الذي يملكه في «دير بعلبة». كان مستودع الفرن متخماً بأكياس الطحين الأبيض والأسمر. مجرد إلقاء نظرة صباحية عليها كانت تملأ روحه بالطمأنينة. تستطيع هذه الجوالات المكدّسة أن تطعم «دير بعلبة» الخبز لأسابيع ربما، فيما لو فكّرت قوات النظام بحصارها. في زريبة العجول التي يملكها، على التخوم القريبة من المدينة، أتخم المستودع المتطرّف بأكياس الطحين كذلك، وفي الطابق الأخير من بنايته. جوالات الطحين كانت مكدّسة في أي مكان من الممكن لها أن تتكدّس، ورائحتها الزكية تفغم المكان كما تفغم أيام «أبو الليث». في بعض الأحيان كان يضطر لسحب بعضها، مثلما حدث قبل شهور قليلة حينما لم تبق كسرة خبز في «بابا عمرو»، مطوّقة محاصرة لأيام. دقّ «أبو الليث» على صدره وقال لـ«مصعب محمود» ورفيقه الذي رافقه مع شقّ الفجر: «سيكون الخبز في كل بيوت بابا عمرو اليوم... خلاص شباب اذهبوا إلى رفاقكم ولا تاكلوا همّ الموضوع».

مائتا ربطة خبز حمّلها «أبو الليث» في سيارته البيك آب وانطلق وحيداً.

شقيقه «أبو ليلى» وصل صدفة إلى باب الفرن حينما كان «أبو الليث» يهمّ بالرحيل. أصرّ مترجياً أخاه أن يأخذه معه، توسله قائلاً: «اللّه يخليك يا أخي خلّيني معاك... أنا ومعك أطمئن عليك أكتر». «أبو الليث» لم يقبل، قال لأخيه: «ليقتل واحد منا، أحسن من أن يقتل الاثنان... وامرأتي وأولادي وصيتي لك»، وذهب.

بعد حوالي الساعتين عادت سيارة «أبو الليث» البيك آب مزدانة بعشرات الفجوات التي كوّنها الرصاص في هيكلها، بدون زجاج وبدولاب مثقوب يشحط على إسفلت الشارع. «أبو الليث» كان يضحك وهو يضغط على زنده المصاب. لم يجد «أبو ليلى» شيئاً ليعبّر به عما يحسّه إلا النحيب، بكى وبكى، وهو يحتضن أخاه المبعوث من الموت. صاح «أبو الليث» به: «حاج تبكي متل النسوان... هاي الخبز صار بكل بيت بابا عمرو!».

لم يكن الشاب ذو الكفية قادماً تحت جنح الليل من أجل جلب الأسلحة من مرآب سيارات «أبو الليث» فحسب، بل كان قادماً لأمر أكثر خطورة، كان ثمة أكثر من خمسة عشر عسكرياً من الجيش النظامي يريدون الانشقاق من على حاجز أمني قريب. اتفق الثوار معهم هذا المساء. ذلك أنهم كفّوا منذ زمن عن مهاجمة المفارز والحواجز ليلاً، بعد أن غدا واضحاً أن عناصر الأمن يدفعون بالمجندين ليلاً للمناوبة على الحواجز، فالثوار يفضلون الإغارة تحت جنح الظلام، فيما يستلم عناصر الأمن الحواجز نهاراً. اكتشاف هذه الحقيقة جعل الثوار يبدّلون خططهم ولو لزمن: ستكون الإغارة، على صعوبتها، في وضح النهار، بحيث يكون رجال الأمن هم المستهدفون وليس عساكر الإلزامية ومجندو الجيش.

العساكر الخمسة عشر سيبيتون في البناء الذي أفرغه «أبو الليث»

للثوار، هذه كانت الخطة ريثما تقرر التنسيقيات بالتعاون مع الثوار مصيرهم. سيبقى بعضهم بالتأكيد، سيرحل بعضهم الآخر الى منطقته ليقاتل هناك، اللهم إذا كانت منطقته قد دخلت طور الكفاح المسلح.

- لكن هناك مداهمة غداً... بعض الشرفاء في الأمن خبّرونا اليوم. أمن وجيش وشبيحة، ومعهم زيل بس وبي كي سي وشيلكا. لذلك الشباب رح يجوا لعندك بكرا بالليل.

- بانتظارهم... كل شي جاهز.

وعاد «أبو الليث» إلى غرفة نومه.

كانت زوجته ماتزال مستيقظة تنتظره. اطمأن قلبها قليلاً لأنها سمعت همسه والرجل الآخر، لكنها لم تستطع العودة إلى النوم قبل أن يرجع زوجها إلى سريره.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- تمام.. ارجعي عالنوم.

حضنته وهي تتثاءب، ثم غطّت في النوم بعد دقائق. لكن «أبو الليث» لم يستطع أن ينام، بقي مستيقظاً يناظر السقف ويعبث بخصلات شعر زوجته ويفكّر. ثم قرر أن يقوم ليتوضّأ ويصلّي صلاة الفجر علّ قلبه يطمئن قليلاً حين يستزيد من دعائه لربه!

في الصباح رنّ الموبايل، على الطرف الآخر شاب يسأله بصوت عالٍ إن كان يعرف شخصاً اسمه «شيران حاجو»! بدا «أبو الليث» لهفاً قلقاً وهو يؤكد بأن ذاك الشخص المسمّى صديقه، وبأن «شيران» (إلى جانب الشباب)، وينبغي ألا يؤذيه أحد مهما كان الظرف. كأن حدسه أخبره بأن صديقه «شيران حاجو» وقع في أيدي الثوار.

- لكن هذا من عين العرب عمي «أبو الليث».. كردي يعني.

- بعرف من عين العرب، من كوباني أكيد... هذا صديقي، اتركوه.

كان «شيران حاجو»، وهو شاب أربعيني من «كوباني»، قد حمل حفّارة الآبار، يدوية الصنع، خاصته ويمّم شطر مدينة «حمص» قبل سنتين من الآن. ترك وراءه زوجة، لا تتجاوز العشرين من عمرها، وثلاثة صغار في حي «الحجر الأسود» على أطراف دمشق. رغم أن بيت العائلة، الذي يسكنه أمه وأخوه «ميفان حاجو»، لا يبعد أمتاراً عن بيته إلا أن باله بقي مشغولاً من الجمعة للجمعة حين يعود كل أسبوع إلى البيت. فزوجته أشبه بطفل في العشرين، لا تكاد تعرف شارع بيتهم في «الحجر الأسود»، ولا تتقن من العربية إلا «السلام عليكم، وعليكم السلام»! أما في السرير فجلّ ما من الممكن أن تقوم به هو الاستلقاء وفتح ساقيها وإغماض عينيها.

«هل كان عليكِ أن تخطبي لي فتاة جاهلة تماماً بما يعني الزواج؟!»، كان «شيران» يتأفف أمام والدته بعض الأوقات حين يفيض غضبه. الأم تجيبه بكردية مستعجلة: أليس أفضل من أن تكون امرأة مجرّبة قوية وتلعّبك على أصابعها!

لكن الذهاب والإياب من وإلى «حمص» كل يوم كان أمراً أشبه بالمستحيل، لذلك فقد استأجر «شيران» بيتاً في «حمص» ليقضي فيه أيامه الخمسة كل أسبوع، وقد انتقاه في حي «الزهرة»، أما نهاية الاسبوع فقد حرص على قضائها مع زوجته وأولاده في بيته في حي «الحجر الأسود» بدمشق.

الصدف الغريبة قادت «شيران حاجو» ليحفر أول بئر له في «حمص» في الحديقة الخلفية لبيت «أبو الليث». منذ ذلك اليوم وصداقة خاصة لها طعم الذاكرة البعيدة وحّدتهما، كأنهما روحان شقيقان من زمن مضى!

في ذلك اليوم الذي اتصل شاب من الثوار مع «أبو الليث» ليسأله إن كان يعرف شخصاً اسمه «شيران حاجو» كان الأخير قد قرر العودة بشكل نهائي الى مدينة «دمشق». إلحاح أمه الدائم، اتصالات أخيه

«ميفان» المتكررة كي يعود، الطريق الذي يفصل «حمص» عن «دمشق»، والذي يمعن في الخطر يوماً عن يوم، والقلق الذي راح يتصاعد داخله، كل ذلك جعله يقرر هجر مدينة «حمص» والعودة نهائياً إلى «الحجر الأسود» على أطراف «دمشق».

كانت سيارة الجيب الفضّية، التي اشتراها «شيران» قبل شهور بالتقسيط، تشبه من حيث لا يدري السيارات التي يستخدمها الأمن! ربما كانت هذه ميزة في منطقة أخرى وفي زمن آخر، لكن ليس في «دير بعلبة» ولا في بداية شهر تشرين الأول ٢٠١١. ربما كان حظه العاثر هو الذي جعله يتجه الى الطريق الذي نُصب في آخره حاجز جديد لقوات النظام، وقبل الحاجز بمئات الأمتار أمسكه حاجز طارئ لقوات المعارضة. أحاطته أربع سيارات مغبرّة وثلاث دراجات نارية وعشرات البواريد. أحسّ «شيران» بأن قلبه تدحرج هلعاً بين قدميه. طلب الرجال الملثمون بالكفّيات هويته، وراحوا يزخّونه بوابل الأسئلة المتلاحقة المشككة. لم يتذكر «شيران» شيئاً، كأن ذاكرته انثقبت لتوها، وأسقطت كل المعلومات التي بحوزتها! أخذ يتلعثم فيما الشباب ينبشون سيارته ويفتشونها نتفة نتفة. يبدو أن أحدهم عثر على دفتر حسابات، راح يقلّب صفحاته بهياج حين وقعت عيناه على صورة لـ«حافظ الأسد» في دائرة منمّقة على الصفحة الأولى للدفتر!

- شو عم يعمل هالخنزير بسيارتك؟!

سأله الشاب صائحاً فيما عيناه تقدحان غضباً أعلى الكفّية.

تلعثم «شيران» من جديد. أراد أن يقول بأنه اشترى دفتر الحسابات من المكتبة على هذه الشاكلة، ولا ذنب له في الأمر. لكن لم تخرج منه إلا دمدمات خائفة!

قال شاب آخر: لا تظلموه شباب... لا ذنب له، هذه صورة مطبوعة على دفتر الحسابات.

- يعني لست مؤيداً لهالخنزير؟

حرّك «شيران» رأسه بشدة نافياً. كان لونه شمعياً أقرب إلى الأثير المحيط به.

- وما الذي يضمن لنا ألا تكون من كلاب الأسد؟!

للحظة تذكّر شيخ جامع كان يحضر دروسه كل حين وآخر هنا في «حمص». طلب من الشباب بدمدماته ذاتها أن يتّصلوا بالشيخ فهو يعرفه جيداً، وسيحكي لهم عنه وعن مواقفه.

- قصدك الشيخ أبو محمد؟

سأله شاب لفّ شالاً مغبراً حول وجهه وهو يرفع موبايله ويطلب رقم الشيخ «أبو محمد». كان «شيران» يلهج بالدعاء بينه وبين نفسه أن يتذكره الشيخ «أبو محمد» وإلا ستكون نهايته. لكن الموبايل كان خارج «نطاق التغطية». وكرسالة من الغيب قال صوت بعيد لـ«شيران»: «أبو الليث... دعهم يخابرون أبو الليث...». وهذا ما كان.

حين أوصله الثوار بسيارته الى فرن «أبو الليث» كان الأخير يضحك مقهقهاً. لكن «شيران» راح يكيل الشتائم حالما تركه الثوار وقفلوا راجعين الى منطقتهم. حضنه «أبو الليث» مهدئاً من روعه، وربّت على ظهره وهو مازال يضحك.

- يا زلمة أنا شو عامل لربي؟ الشاطر يوقفني كرمال هالسيارة.

- من أوقفك أيضاً؟!

راح يسرد لصديقه كيف اتصل به أحد عمّاله قبل أيام فيما كان «شيران» يرتاح في شقته في حي «الزهرة». كان قد ترك العاملين، اللذين يساعدانه في العمل على الحفارة، بعد ساعات طويلة من العمل، ويمّم شطر بيته ماشياً فيما ركن السيارة قرب الحفارة في حال احتاجها أحد العاملين. اختطف أحدهم السماعة من يد العامل، وسمع «شيران» صوتاً يقول له باقتضاب: ... المعلّم يريد سيارتك.

لم يكد يصل مكان الحفر حتى كانت دورية للجيش النظامي تهيّئ نفسها لقطر سيارته مع سيارة جيش مهترئة. قال العسكري من جديد

وباقتضاب: «المعلّم يريد السيارة... تعال معنا بسرعة». والى المعلّم ذهب «شيران» معهم.

كان الحاجز عبارة عن ثلاث خيم عسكرية مغبرّة تحيطها أكياس الرمل المصفوفة فوق بعضها بعضاً كمتاريس بطول قامة رجل. المعلّم كان مقدّماً شاباً لحيته لم تُحلق منذ أيام! يلتحف بطانية عسكرية حائلة اللون ويرتجف، أما العساكر فيتراقصون من البرد حوله، فقد قدم تشرين ذلك العام ٢٠١١ بارداً على «حمص» كما لم يكن، خصوصاً حين يحلّ على خيم عارية تحت السماء.

لم يفلح «شيران حاجو» في إقناع المقدّم باسترجاع السيارة. قال له الأخير صائحاً: خلص، قلت لك سنستخدمها في مهمة وطنية ثم نعيدها لك... إنت ضد خدمة الوطن؟!!!

- ماعاذ اللّه سيدنا أنا وسيارتي فداء للوطن...

أخذوا المفتاح منه، ثم غطّوا النمرة بلاصق أبيض كتيم بحيث لم تعد الأرقام بادية من بعيد، وذهبوا. أما «شيران» فقد انتظر عودة سيارته في خيمة المقدم على الحاجز العسكري.

رغم البرد القارس فقد كان للانتظار غواية غريبة أحسّها «شيران» يومذاك، ولمراقبة المجنّدين والعساكر غواية أخرى. كان ثمة عالم آخر حوله، ذكّره بخدمة الجيش التي قضاها قبل سنوات. شهور أكثر سواداً من ليل تشرين.

بعد حوالي الساعتين عادت السيارة معفّرة متعبة ومتخمة بقرم الحطب.

- لنا يومين بدون تدفئة... الارهابيون يستهدفون سيارات الأمن والجيش، لذلك اضطرينا نستخدم سيارتك.

لكن حينما استبشر «شيران» خيراً بعودة السيارة، وهمّ بطلب المفتاح، أوقفه المقدم بحزم: لا، هناك مشوار آخر بعد. الشباب جائعون ولازم يجيبوا أكل. إلها ثلاثة أيام ما وصلت الإمدادت لعندنا.

- حاضر سيدي.

ذهبوا بالسيارة من جديد. وكان على «شيران» أن ينتظر ساعات أخرى لتعود سيارته إليه.

قبل أن يسلّمه المقدّم مفاتيح السيارة، كأنه يسلّمه مفاتيح الفردوس، أمره بصرامة أن يترك رقم هاتفه إن احتاجوا لاستخدام سيارته مرة تالية.

- أنت تعرف، جيش بشار الأسد جيش الوطن لا يظلم أحداً. هذه فقط مهمات وطنية اشكر ربك أنك هنا لتأديتها.

- أكيد سيدي، أكيد.

ومحّص المقدّم مفنجراً عينيه في تعابير «شيران» كأنه يحاول أن يعرف بالذي يفكّر فيه.

- قررت أن أترك البيت يا صاحبي. سأجلب أغراضي وأسلّم مفتاح البيت وإرجع عالشام. الأوضاع هنا لم تعد آمنة أبداً، وشغل ما في، أهلي أولى فيني هناك... وبلا ما حط أجرة هالبيت على الفاضي، وبلا ما تروح هالسيارة مني حاطط دم قلبي عليها.

زفر «شيران حاجو» لصديقه، ثم أردف: يعني إذا ما نهبوها كلاب الأسد بينهبوها المعارضة... ما تواخذني.

كان «أبو الليث» ما يزال يقهقه.

لكن رغم أن «أبو الليث» سيفتقد وجود «شيران حاجو» شبه اليومي في حياته إلا أنه أقرّ بأن قرار صديقه كان حكيماً، ولم يجد بدّاً لا من موافقته على ما قرّره، فقد استطاع اليوم حمايته لكنه لا يضمن لنجاح غداً في ذلك. قال له مواسياً حزنه: اسبقني إلى بيتك واحزم أغراضك، وسأجعل سائقي يلحق بك ويساعدك في نقلها.

كان هناك صديق حميم لـ«أبو الليث» من سكان حي «الزهرة» يملك محلاً لبيع المعجنات هناك، ينادونه «أبو جعفر». «أبو الليث»

كان المموّل الأول لمحل «أبو جعفر»، و«أبو جعفر» هو الزبون الأول لدى «أبو الليث». علاقة معتّقة عمرها سنوات، تشبه تلك العلاقة القديمة كنبيذ معتّق بين أطياف السوريين. رغم كل ما حدث في الأشهر الماضية بين حارات «حمص»، وبين طائفتيهما المختلفتين على وجه الخصوص، بقيت علاقة الرجلين قائمة على ما هي عليه. لكن بدل أن تكون علنية، كما كانت سابقاً، صارت مستترة، فلا «أبو جعفر» يجرؤ على البوح بعلاقته بسنيّ من حي «دير بعلبة»، ولا «أبو الليث» كان قادراً على إخبار أحد بعلاقته المستمرة حتى الآن برجل علوي من حي «الزهرة». هذا ما حدا بـ«أبو الليث» لأن يبعث ببضائع إلى «أبو جعفر» في حيّ «الزهرة» كي لا تذهب السيارة فارغة، ثم لتعود بأغراض «شيران» بعد ذلك. حمّل سيارة البيك آب، التي مازالت ثقوبها السوداء تزيّنها، بمختلف أصناف المعجنات والحلويات وجوالين من القمح، ثم نادى سائقه «وليد»، الذي طالما نقل له البضائع إلى كل أحياء «حمص»، واستحثّه على الذهاب سريعاً قبل أن تغيب الشمس.

- إلى الزهرة معلمي؟!!... كيف رح روح عالزهرة؟!!

- متل ما كنت تروح كل مرة.

- لكن منذ شهور لم أذهب إلى هناك... أعتقد بأن الأمر صعب معلم وخطير يمكن.

- لا وليد ليس صعباً، ثم ستقف في باب الحارة فقط وسيكون أبو جعفر بانتظارك هناك لينقل الحمولة إلى الداخل... لا تخف.

«وليد» شاب ثلاثيني، كل ما يملكه من مهارات في حياته: قيادة السيارات. حين ناداه معلمه «أبو الليث» كان يحتسي الشاي مع عمال الفرن على كراسي القش الصغيرة أمام الواجهة الزجاجية، يسمعون أغنية جديدة حفظها أحد الشباب على موبايله.

«إنت الحرة ومهرك دم..

يا حرية.. هيلا هيلا يا سوريا».

تقول الأغنية. كانوا يغنون معها بصوت عالٍ وفخور.

في تلك الأثناء كان «شيران حاجو» يهمّ بدخول بيته في حي «الزهرة»، سمع مجموعة من الصغار يصرخون في الحارة هلعين: «منـدسيـن... منـدسيـن». يركضـون ويخبطـون علـى الأبـواب: «منـدسين... منـدسين».

جارته، التي خرجت مرعوبة أمام بيتها، قالت له ووجهها شمعي اللون إن أربعة مندسين إرهابيين خطفوا اليوم صباحاً آذنة مدرسة الحي، وهاهم آتون لخطف غيرها.

- إنهم إرهابيو الحارات المجاورة «باب السباع» و«تلبيسة» و«بابا عمرو»، آتون ليقضوا علينا... قبل أيام رموا بجثتي شابين من الحارة على أبوابها!

كان الهلع المبثوث من عيني الجارة يشبه هلع الموشك على الموت.

لم ينبس «شيران» بكلمة رداً على ما قالته الجارة، ولسبب ما لم يدخل إلى بيته أيضاً، ولم يحزم أغراضه. كان ثمة شيء في قلبه يقول له ارحل من هنا... ارحل سريعاً وانجُ بنفسك!

ودّع الجارة متمنّياً من اللّه أن يحميهم، والجارة شيّعته بصوت عالٍ: اللّه معك... اللّه يحميك.

لم يكن «شيران» قد غادر المكان بسيارته الجيب حتى هزّ الحارة انفجار كبير. بمممممم.. ثم صمت ساد لثوان. جنّ جنون الناس، صراخ نساء، صيحات أطفال، أجساد راكضة، وزعيق زعيق وعيق... كان هناك من يصرخ: «هاون... قذائف هاون...».

لحسن حظّه لم تكن الساحة التي سقطت القذيفة فيها على مرأى من «شيران»، فالأصوات كانت تصرخ بأن هناك الكثير من القتلى! لكنه لم يستطع أن يغادر الحارة المكتظّة بالبشر. أوقف السيارة أمام

صالون للحلاقة الرجالية عند الناصية التالية، وولج إلى الداخل. من وراء الواجهة الزجاجية العريضة، التي تشعّر جزء منها من قوة الانفجار، راح يراقب الجنون المحيط. كان الدخان يلفّ المكان، ورائحة بارود طاغية تسلب كل الهواء.

«شيران» لم يعد يستطيع أن يحتمل أكثر من ذلك، انتظر قليلاً ثم ركب سيارته واتجه من فوره إلى «دمشق». كل ما كان يبتغيه: الخروج من هذا الجحيم المستعر بأقصى سرعة ممكنة! لم يتذكر سيارة «أبو الليث» وسائقها، الذي من المفترض أن يلحقه إلى «الزهرة»، إلا بعد أن تجاوز مفرق «القصير» بزمن، فما كان منه إلا أن اتصل بـ«أبو الليث» ليشكره وليودعه، ثم ليقول له: لا تبعث بالسيارة فقد غادرت حمص وسيعوّضني اللّه عن أغراض بيتي. لكن الاتصالات كانت مقطوعة، فأغلق «شيران» الموبايل، وراحت سيارته تنهب الأرض باتجاه العاصمة دون أن يعرف ما الذي استجد أثناء رحيله!

في ذلك الوقت كان «أبو الليث» قد بعث بالسيارة ومعها السائق «وليد» والمعجنات وجوالات القمح إلى حيّ «الزهرة»، واتصل برفيقه «أبو جعفر» ليخبره بأن يلاقي لـ«وليد» عند باب الحارة.

حين وصل السائق المتعوس من حي «دير بعلبة» إلى حي «الزهرة كانت القيامة قائمة فيها، والسيارات ماتزال تنقل المصابين في انفجار القذائف. أوقفته مجموعة اللجان الشعبية أول الحارة، ومعهم بعض رجال الأمن والجيش من الحاجز العسكري القريب. هجموا من فورهم على سيارته، حينما ناظروا هويته كسّروا الزجاج بهراواتهم، شحطوه من الشباك، ورموه أرضاً قبل أن يجهزوا عليه من فورهم بالهراوات وعلى مرأى كل الناس!

حينما وصل الخبر لـ«أبو الليث» كان «أبو جعفر» يجهش كالأطفال على الطرف الآخر من السماعة. من بين دموعه وكلماته المبهمة الهلعة سمعه «أبو الليث» يحلف الأيامين المعظمة بأن لا يد له

بردع من فعلوا فعلتهم! لم يستمع إليه أحد، كانوا كالثيران الهائجة... كالوحوش، كسّروا السيارة وضربوا الشاب دون أن يسعفه الوقت لفعل أي شيء!

- سامحني خيي يا أبو الليث سامحني، واللّه العظيم ما لي يد! النفوس غاضبة ومجنونة هالأيام... سامحني واللّه...

- لا أريد السيارة.. أنقذ لي السائق.

- قتلوه... خلّصوا عليه، دمه يملأ الحارة.

- أريد جثته إذاً.

أمر «أبو الليث» بحزم. وكان على «أبو جعفر» أن يخاطر بحياته لتهريب جثة السائق «وليد»، فقد كان من الممكن لأخمص الكلاشنكوف، الذي ضربه به شاب هائج من اللجان الشعبية للحي، أن تودي بحياته، لأنه حاول سحب الجثة من على الطريق. لكن الموت وإنقاذ جثة السائق تعادلا في تلك اللحظة لدى «أبو جعفر»، كان شيئاً يشبه الإبقاء على آخر قدر من احترامه لنفسه، إن خسره فلا معنى لحياته. شيء يشبه لملمة آخر ذرة كبرياء يتشبّث بها كي لا تُسفح علناً، ذرة كبرياء تبقيه مرفوع الرأس أمام سادة الحارة الجدد.

بالفعل نجح «أبو جعفر» أخيراً في سحب جثة «وليد» الدامية إلى بيت صديق قريب من المكان، وظلّ ملازماً لها يتأمل الثغرات المفتوحة في رأس الشاب، وملامحه التي تستحيل مبهمة شيئاً فشيئاً. لم يكن يشبه «وليد» بحال، ذاك الشاب المفعم بالحيوية الذي كان «أبو جعفر» يلمحه أمام فرن «دير بعلبة» كلما يمّم شطر تلك الحارات. ملامحه تنضح بالفراغ، كأن بؤرة محددة في وجهه تبددت، صار وجهاً متبدداً فارقه التحديد!

ساعات طوال بقي «أبو جعفر» مختبئاً مع جثة شاب «دير بعلبة»، يحاول أن يصبّر روحه المتهالكة ويزجر خياله كي لا يتخيّل ابنه «جعفر» مكان «وليد» ممدداً أمامه فاغر الفم مدمّى بعينين متلاشيتين

فالشابان في السن ذاتها تقريباً! ربما هذا أو غيره ما جعله ينظّف رأس الشاب بقطعة قماش مبللة بالماء، يرتّب هيئته، يغلق عينيه وفمه محاولاً تقليل الفراغ الذي راح يبتلع المكان! ثم غطّى الجثة بشرشف أبيض ناصع، أتت به ربة البيت الباكية، بعد أن قبّل جبينه الذي راح يفقد حرارته.

كم الإنسان كائن هشّ! فكّر «أبو جعفر». موته أسهل من شربة ماء! رصاصة حديدية لا تتجاوز السنتيمترات القليلة كفيلة بإنهاء كل هذه الحياة! شظية لا تتجاوز حجم كفّه ترديه بلا حراك! نشقة من غاز يلتقطها خلال ثوان توقف تنفسه! وها هو شاب بطوله وعرضه أسقطته هراوة همجية في يد شاب آخر.

- «لو يدرك الناس كم هم هشون، وكم أن موتهم يتلطّى خلف الباب، وينساب بسلاسة الماء في أية لحظة! لكانوا فكّروا كثيراً قبل أن يقدموا على أي شيء...».

همس لنفسه وقد راح يشعر بأن رئتيه عاجزتان عن التقاط الهواء!

حين حلّ الظلام تساعد «أبو جعفر» وصديقه صاحب البيت/ المخبأ على تهريب الجثة من الشباك الخلفي للمطبخ، وعلى دراجة نارية استطاعا الإبقاء عليها متأرجحة باردة حتى وصلا إلى مشارف حي «دير بعلبة»، وهناك سلّماها إلى مجموعة من شباب المنطقة.

قال «أبو الليث» في نهاية مخابرته المسائية مع «شيران حاجو» وهو ينهي قصة مقتل «وليد»: «النظام منذ اليوم الأول يريد إشعال حمص طائفياً، يريدون أن يحوّلوا الثورة إلى حرب طائفية. وإن ظل الأمر كذلك يا صديقي سينجحون... بالتأكيد سينجحون!!».

- ...

- كيف سأقنع شبابنا الآن بألّا يأخذوا بالثأر؟!! يا صديقي يـ شيران ثأر وراء ثأر، موت وراء موت، وسنجد أنفسنا في حرب شعواء لا نعرف نهايتها!!

في المساء ذاته سيختفي «جعفر»، ابن أبي جعفر، من الحارة مع شابين آخرين من رفاقه. وما تخيّله والده طوالَ الساعات التي قضاها مع جثة «وليد» سيصبح كابوساً مرعباً يحاصره في الأيام القادمة لاختطافه.

كانت الأقاويل تعمّ الحارة، البعض يقول بأن الجماعات الإرهابية المسلّحة اختطفته، البعض مقتنع بأنهم سكان الحارات المعارضة اختطفوه طلباً للفدية، وآخرون أكّدوا بأنهم رؤوا جثثهم ملقاة في البساتين!

لن تتبدد كوابيس «أبو جعفر» إلا حين يطالع بنفسه الجثث الثلاثة التي ألفاها أهل الحارة ملقاة على أبوابها في فجر اليوم الرابع لاختفائها. جسد «جعفر» الشاب، المعفّر بالتراب والدم، سيثقّب عيني والده بالفجيعة.

منذ ذلك اليوم ستنقطع العلاقة، تلك التي عمرها سنوات طويلة، بين الرجلين: «أبو جعفر» و«أبو الليث»، تماماً كما انقطعت الدروب التي تصل بين حارتيهما.

(١٠)

دمشق، مدينتي التي لا أعرف

لم أخبر حبيبتي «هبة حدّاد»، ولا أياً من أصدقائي، بأني سأغدر ذلك اليوم إلى حي «ركن الدين» الدمشقي، يوم من أواخر أيار ٢٠١١. كان وجودها يشكّل عبئاً ثقيلاً على كاهلي، خصوصاً حينما يكون المكان خطيراً! و«ركن الدين» كانت من أكثر المناطق خطراً وقتذاك، فيما بعد ومع توالي شهور الثورة صار خطر «ركن الدين» يماثل غيره من أخطار المناطق المحيطة.

كنت قد أدمنت الذهاب إلى مناطق الاشتعال، فقد رحت أستعيد علاقاتي القديمة، أنا ابن «دمشق»، كبرت بين حاراتها وعشقت رائحتها. في السنوات الأخيرة ابتعدت عنها كثيراً، أهملت ذاكرتي وصداقاتي، حتى إنني كففت عن التسكع بين حاراتها وأزقتها كما اعتدت أيام مراهقتي. لم أعد أمتصّ طاقة مدينتي الغالية، أتلفت السيّارة ذائقتي، كما أفسدها رتم عملي المكثّف على الدوام، أنستني رائحة حجارتها ورطوبة مداخل البيوت المنخفضة. الزمن المهرول حملني بعيداً عن مرتع ذاكرتي!

في الأسبوع الماضي ذهبت إلى «دوما» بريف «دمشق»، أخذني صديقي «عصام طعمة» إلى هناك كي أرى ماذا تعني كلمة ثورة، حسب تعبيره، وكي أصوّر ما أريده من ثورتها تلك. قال لي بفخر: «فراس، صديقي، مدينتي دوما أضحت منطقة شبه محررة»، ثم أردف بفخر:

- ألبوم الثورة لديك فقير، فقير جداً، سأجعلك تُغنيه بصور مدينتي!

لم تكن حارات «دمشق» قد شهدت ما شهدته حارات «دوما» بعد، فقد كنا مانزال في أواسط شهر أيار ٢٠١١. «عصام طعمة» ينتمي إلى عائلة عريقة من عائلات «دوما»، وكان صديقي في الجامعة. ما أذكر عنه أنه دعاني يوماً في الجامعة لأن أنتسب إلى حزبهم الاشتراكي الديمقراطي ذي الميول القومية. قال لي وقتها بأنه يحب القائد «عبد الناصر»، ذاك الرجل الذي يبتسم من على شعار دائري صغير علّقه داخل سترته. لم أستجب يومها لدعوته، سخرت منه بجلافة أندم عليها اليوم، فقد اعتدت أن أسمع من أبي إن السياسة والسياسيين هم خراب البلاد. كبرت وتلك الجملة محفورة في روحي!

- أنتم الدمشقيون دائماً هكذا، ما يعنيكم هو المال فقط... براغماتيون زئبقيون. اتركوا النضال لنا نحن أهل الغوطة.

تركني يومذاك محمرّاً من الغضب، ماتزال صورته وهو على تلك الشاكلة مطبوعة في ذاكرتي إلى اليوم: قامته الفارعة النحيلة، شعره المحلوق ناعماً، وعنفوان وغضب يتوفّزان من كل خلاياه. لم تزل وجنتاي تحمرّان خجلاً كلما تذكّرت الحادثة تلك! لكن نظرتي للسياسة والسياسيين لم تتغيّر رغم كل الوقت المنصرم!

حينما بدأت الثورة قررت التواصل معه مجدداً بعد انقطاع دام سنوات، فجأة ترتبت العلاقات من جديد بطريقة لا أفهمها! لم أكن أحب «دوما»، كنت أراها منطقة مغلقة ومتخلّفة، نساؤها مجلّلات بالسواد، ورجالها غاضبون متجهمون على الدوام لسبب لا أفهمه! ربما كان إحساس المديني تجاه الريف، ربما هذا ما كنت أشعر به دون وعي مني! لا أعرف!

لاقاني «عصام طعمة» في ساحة «السبع بحرات»، أتيت بسيارتي إليه وذهبنا سوية. لم أخبر والدي بأني ذاهب إلى «دوما»، سيستشيط

غضباً إن عرف. لم يكن مقتنعاً بكل ما يحدث، يرى بأن ما تفعله المعارضة سيحمل البلاد إلى الخراب. أفكّر دوماً بأنه يفكّر كتاجر دمشقي ما يهمّه الاستقرار والأمان وليس غيرهما!

كان علينا اجتياز ستة حواجز أمنية وعسكرية قبل الوصول، علينا اجتياز مئات من الرشاشات بأيدي عناصر النظام بلباسهم العسكري والمدني، عشرات السيارات العسكرية والأمنية، كنت خائفاً حتى الموت من أن يكتشف أحد العساكر كاميراتي. أتيت بكاميرتين، أخفيت إحداهما تحت المقعد والثانية في باب السيارة. ولم يكتشفهما أحد لدهشتي! لكن الخوف لم يلح البتة على محيّا «عصام»! كان مسترخياً كأنه في بيته! سألته عن سرّ طمأنينته فأجابني: كل ما يقدّره اللّه سيحصل، خفت أم لم أخف!

حين وصلنا «دوما» أحسست كأني دخلت زمناً آخر لا يشبه زمن «دمشق»، أو بلداً آخر على رقعة أخرى من الجغرافيا! نظرات الحذر والريبة، التي أطلّت من أعين النسوة على الطرقات، تشبه سكيناً محزّزة تقطع وجداني. عيون مسلّطة عليّ ومؤطرة بالقماش الأسود. هممت أن ألتقط صورة لهذه النظرة فنهاني «عصام» غاضباً، قال لي إنني سأثير الريبة أكثر بتصرفي هذا! ثم لا تنسَ يوماً: نساء دوما خط أحمر وعريض.

لحظتئذ أحسست بنفسي أشبه بسائح مستشرق لا يعرف شيئاً عن حقائق الأرض إلا صورها.

أخذني «عصام» من ثم إلى مشغل للخياطة في قبو قريب من سجن «دوما» للنساء. مررنا من هناك فأشار إلى السجن وقال لي: السياسيات والناشطات يعتقلوهن هنا جنباً إلى جنب مع المجرمات والعاهرات! أما مكان نشاطنا الأساسي فهنا قبالته، أأمن مكان للحرامي فوق سطح المخفر! علّق ضاحكاً.

في ذاك القبو كان الشباب يجهّزون اللافتات لمظاهرة الليلة

شاب بريشة سحرية يخطّ كلمة «الحرية» بالحبر الأسود على قماش خام أبيض. يبدو واضحاً أنه محترف. ريشته ترقص بانسياب على خشونة الخام الذي يبدو طيّعاً تحت لمساتها! المكان يعجّ بماكينات لخياطة التي اصطفت بمحاذاة الجدران، بلفّات الأقمشة الملونة، بعشرات الأجساد من الشباب المتحمّس، وبرائحة الحبر والدهان. في الزاوية البعيدة اصطفت عشرات اللافتات فوق بعضها بعضاً.

- لافتات الشهر ما قبل الماضي.

علّق «عصام» حين رآني أمحّص النظر فيها، فهرعت لالتقاط صورة لإحداها كانت لافتة بيضاء مكتوب عليها بخط مجعلك: (مطالب الشعب السوري: الشعب يريد إصلاح النظام، إنشاء قانون الأحزاب، إلغاء قانون الطوارئ... ألخ).

- تغيّرت اللافتات اليوم؟

- تغيرت طبعاً، شهران من الموت يُغيّران كثيراً! اليوم لم نعد نكتفي بمحاربة الفساد وتلبية المطالب وما إلى ذلك مما طالبنا به منذ شهور... اليوم نريد إسقاط النظام.

عرّفني «عصام» إلى الشباب المتواجدين في القبو، المسؤولين عن الجزء الإعلامي في تنسيقية «دوما». لحظتئذ أحسست برغبة عارمة في تحنيط تلك اللحظة: اللافتات مصفوفة على الأرض تنتظر أن يُخطّ عليها معناها، أن يخلق لها معنى للتو. الشباب يتحلّقون حولها كسرب نحل حول بحيرة. أخرجت كاميرتي وبدأت التصوير. «لن أظهر وجوه أبداً»، حاولت طمأنتهم فلم يتحرك الشباب، تصرّفوا كأن شيئاً لم يكن. ووثّقت اللحظة السحرية تلك!

لسبب ما تذكرت أن أسأل «عصام» عن الحزب، وإن كان مايزال عضواً فاعلاً فيه. طوّح برأسه ممتعضاً، قال لي، باقتضاب من لا يرغب في الإسهاب في الكلام، إنه تركه من شهرين، وبأن الكثير من

قواعد «دوما» العريضة في الحزب انفصلت عن القيادات بعد شهور قليلة من الثورة.

- لماذا؟

- آه فراس يا صديقي، صرنا نحن في وادي وهم في وادٍ...!

قال لي وغصّ بكلمته الأخيرة. لم أفهم جيداً، لكنه لم يكن في مزاج الحديث عن الحزب الذي يبدو أن شيئاً يشبه الحقد عليه تولّد داخله مؤخراً.

- سنوات يا رجل ونحن بانتظار هذه اللحظة، وحينما أتت خاف شيوخ حزبنا... فقررنا أن نثور وحدنا.

ثم استطرد: غداً حينما ستنتصر الثورة سننشئ أحزابنا الشابة وحدنا. لكنه عقّب: إذا لم يقدّر لي أن أرى ذلك اليوم سأكون واثقاً بأن الشباب سينجزون ذلك.

أراد «عصام» أن يريني مدينته «دوما»، قال: «رتّبت زيارات لأسر الشهداء لتراها وتسمع القصص، سيشيب شعرك. أنتم في دمشق لا تعرفون الكثير عنا».

البيت الأول الذي زرناه كان يبدو أن «عصام» يشعر بالإلفة معه. حينما أطلّت «عائشة» بحجابها الأبيض وردائها الكحلي لمعت عيناه. كانت إحدى أخوات الشهيد «أحمد الحبال»، فتاة عشرينية متماسكة ورزينة، رفيقة «عصام» في تنسيق معظم نشاطات الثورة هنا. حسبما شرح لي. دعتني للجلوس وجلست قبالتي. طلب «عصام» منها أن تحدّثني بقصة أخيها الشهيد فراحت تبكي، تحوّلت فتاة أخرى لا تشبه تلك التي كانت قبالتي قبل لحظات!

- صارت الثورة بالنسبة لعائشة شغلها الشاغل! تخيّل يا رجل. تركت دراستها في الجامعة وتفرّغت للثورة!

قال «عصام» بلكنة يشوبها الفخر والإعجاب.

كان موبايل «عائشة» يدقّ كل حين، تسألها إحدى النسوة عن

موعد مظاهرة اليوم، وتستشيرها أخرى بخصوص اللافتات التي من الممكن رفعها، أو الشعارات التي سيهتفن بها.

- اليوم ستقوم مظاهرة نسائية في الشارع الرئيسي، من المفترض أن تكون كبيرة جداً...

علّقت «عائشة» والتمعت عيناها الواسعتان. فقد كانت نساء «دوما» قد بدأن في تنظيم مظاهرات نسائية خاصة بهن، وليس مع بقية مظاهرات الرجال، بتلك الحال يستطيع الشباب حماية النسوة بوقوفهم حولها.

وتتوالى القصص كزخات المطر عليّ:

هنا اعتقل رجال الأمن مجموعة من «الدوامنة»، أخذوهم من بيوتهم، ثم أجبروهم على خلع ملابسهم إمعاناً في الذل، وخرجوا عراة تماماً أمام الأهالي! هنا كانت السيارات المتخمة بأجساد المعتقلين العارية التي تتراكم فوق بعضها بعضاً. هنا تهجم سيارات بدون لوحات رقمية على الناس الواقفين على الأرصفة، تصدم من تصدم وتدهس من تدهس وتفرّ بسرعة جنونية كما أتت، وتطيح بالأطفال في الشوارع تحت عجلاتها. بعضها بلوحات رقمية مغطاة بلاصق أبيض يخفي أرقامها. هنا بيت شهيد أعادوا جثته إلى ذويه مثقبة، وجلده متآكل من صعقات الكهرباء!

تبدّت «دوما» يومذاك أمام «فراس الصفدي» مدينة مثقلة بالأرواح والقصص والذاكرة السوداء المتراكمة، كما هي مثقلة بأحقاد تتنامى يوماً إثر آخر، تبدو بأنها ستنفجر في أية لحظة. لكن المشكلة بالنسبة إليه كانت تكمن في أن القصص تلك مكوّنة من الكلمات والمشاعر والغضب، وليست من الصور! كان يبحث فيما بين الكلمات عن مشهد يستطيع التقاطه، يكثّف فيه كل ما تم قوله، يحاول أن يعثر على اللحظة التي يستطيع فيها أن يوثق بالصورة.

- القناصة هنا قتلوا أكثر من نصف عدد الشهداء.

قال «عصام»: سآخذك إلى بيت آخر، امرأة «مأمون الأبيض»، ربما أمكنك مساعدتها إن استطعت، فهو من أوائل الشهداء في مدينة «دوما»، استشهد في أول نيسان.

سأل «عائشة»: «هل تستطيعين الذهاب معنا؟». وأحسست بصوته يرقّ. هززت رأسها موافقة، واحمرّت وجنتاها قليلاً فبان النمش الصغير المنثور عليهما أكثر وضوحاً. كان مجرد وجودها معنا سيسهّل دخولنا إلى بيوت الشهداء. فقد كانت امرأة أولاً في «دوما»، وثانياً محلّ ثقة الجميع... كانوا يسمونها «المناضلة».

قبل أن نصل البيت الصغير، المعلّق على سلّم خشبي، رحت أراقب بنايات «دوما» على جانبي الطريق: معظمها مثقّب بالرصاص. فجوات صغيرة تحفر حجارة الجدران، نوافذ بزجاج مكسور، وكثير من الستائر الممزّقة تشرّع ذيول أقمشتها للريح! لا وجوه تطلّ من وراء النوافذ، ولا قصص غامضة كنت أشعر بها دوماً مختبئة وراء الأبواب! إنه الرعب، الرعب وحده، من فوهة بندقية قنّاص تطلّ بلحظة ما من على شرفة أحد الأسطحة.

أرملة الشهيد كانت أشبه بطفلة عمرها عشرون عاماً، تحمل رضيعها على يدها، ويلحقها أطفالها الخمسة الأُخر. من عينيها أطلت نظرة مستفسرة مستغربة، تمنّيت لو أني استطيع التقاط تلك النظرة وحفظها في صورة. حدثتها «عائشة» بأننا صديقان يريدان المساعدة.

- لا أحتاج مساعدة من أحد... اللّه المعين.

أجابت بحدة، لكنها غصّت.

«مأمون الأبيض» كان واحداً من ثلاثة عشر شاباً سقطوا في ذلك اليوم في مظاهرة أمام الجامع الكبير. لكنه لم يكن مشتركاً في المظاهرة، كان يقف متسمّراً أمام باب البقالية التي يملكها قبالة الجامع، يراقب كالمسرنم طلقات الرصاص الحيّ تنهال على المتظاهرين، وقنابل الغاز المسيل للدموع التي تجعل المشهد أمام

شبه بمشهد من فيلم أكشن! وقت راح المتظاهرون يسقطون واحداً إثر الآخر، وقد بدا على بعضهم الاختناق بسبب الغازات، هرول «مأمون» إلى بقاليته ليجلب علب محارم وزجاجات الكولا، فقد كان قد سمع بأن الكولا إذا رُشّت على الأنف والفم تخفف من تأثير لغازات، فراح يُسعف من استطاع إسعافه. بيد أن رصاصة مصرّة كانت أسرع منه، اخترقت قلبه وجعلته يسقط إلى جانب الذين يسعفهم.

- كان يقول إنه يريد أن يكون في مقدمة طالبي الحرية محمولاً على أكتاف رفاقه وهو يهتف، ويريد لابنه السادس، الذي كان ما زال في بطني، أن يعيش الحرية التي حرم منها أبوه طوالَ حياته.

قالت أرملته وغصّت من جديد.

في ذلك اليوم أتى «مأمون الأبيض» محمولاً على أكتاف رفاقه كما حلم ولكن في الكفن. وعلى الرغم من أن ابنه الأصغر ولد بدون أب لكن اسم والده، الذي حمله من بعده، وحلم الحرية كذلك خلقا معه.

قاطع حديثنا فجأة أصوات بعيدة وتلاوة قرآن. صاحت «عائشة»: «إنه تشييع ابن الحلواني...»، فصاح «عصام» إثرها: «يجب أن تغادر «دوما» فوراً». الجنازة ستتحوّل بالتأكيد إلى مظاهرة، والمظاهرة ستُجابه، وسيعود السيناريو ذاته للتكرار، خاصة وأن هذا الشاب، الذي مات بطريقة أخرى ومكان آخر، وُجد مرمياً في حاوية القمامة! وحين تغضب «دوما» لا يمكن لـ«عصام»، ولا لأي أحد غيره، أن يضمن حياتي.

على كل كنت أفكّر بالمغادرة، ضاقت روحي من القصص المتراكمة، أثقل وجداني ورحت أشعر بالاختناق! لم أكن قد التقطت الكثير من الصور التي حلمت بها، فالقصص في هذه الحالة أكثر بجيعة، والألم يسحق. قال لي «عصام» بأنه سيهبني كل السيديات

التي بحوزته عن مظاهرات وتوثيقات «دوما». أكثر من عشر سيديات سيعطيها لي! ربما كان يحاول تخفيف الأسى عني.

- وسترى أحد الفيديوهات في تشييع أحد الشباب في جمعة «إسقاط الشرعية» حين صدح صوت سميح شقير بأغنية «يا حيف» من ساحة جامع الكبير.. تخيّل يا رجل، كأنها رسالة تقول هذه هي سوريا: أغنية عن أهالي درعا والثورة بصوت يساري من السويداء تصدح في جامع من دوما... ما رأيك؟

لا أستطيع وصف مشاعري التي عدت بها من «دوما» يومذاك، أستطيع أن أقول فحسب إني رأيت جدران الخوف القديم المعشّش وقد تحطّمت. لكن كل شيء تغيّر تماماً بعد ذلك بشهور قليلة، انقلب المشهد الحلم، فقد كان كل ما رأيته وقتذاك في الفترة التي سبقت حمل ثوار «دوما» للسلاح. بعد ذلك انتقلت المنطقة لتحيا مراحل مغايرة تبدّل وجه الأشياء فيها.

لم يكن صيف العام ٢٠١١ قد انتهى بعد حينما قال لي «عصام»، بعد شهور من زيارتي لمدينته، بأن السلاح بدأ يدخل بشكل جديّ إلى أيدي ثوار «دوما».

اتصلت مع حبيبتي «هبة حدّاد» فور وصولي إلى مشارف «دمشق» يومذاك، سألتها أن تأتيني إلى البيت مباشرة، على صدرها استطعت البكاء قدر ما أريد. كان ثمة حزن وألم وغضب وتعاسة وأمل وقرف واستصغار لنفسي. كل هذا كنت أشعره يمور بداخلي. لأول مرة لدهشتي أشعر بهذه المتعة أثناء الوصال، كانت قشعريرة اللذة تجتاح جسدي كأسراب نمل هائج من مفرق شعري وحتى أخمص قدمي! ولأول مرة كذلك فتحت موضوع الزواج معها، لم أكن أجرؤ على التفكير في هذا قبلاً، الزواج يخيفني، كالغادي إلى القيود بقدميه. لم أكن أشعر بأن جسدي الضئيل قد يُشعر أي امرأة بالامتلاء والرهبة على الدوام، تلك الرهبة التي كان والدي يقول بأن على كل رجل أن

يزرعها في قلب زوجته إن أراد زواجاً موفقاً! لكن كل ما حولي يغيّرني، يغيّرني إلى الدرجة التي لم أعد أعرف فيها نفسي! وسألت هبة» إن كان من الممكن لأهلها أن يرضوا بزوج مسلم لابنتهم؟!

- لا أعرف... أعتقد أن ليس هناك مشكلة كبيرة. أهلي أناس منفتحون.

- والأقارب؟!

- ليس الأمر مهماً جداً بالنسبة إلى أبي، ربما قليلاً بالنسبة إلى مي... لماذا؟

حاولت «هبة» أن تظهر بمظهر غير العارفة غير المبالية، لكن عينيها كانتا تلتمعان.

- تتزوجينني؟

أحسست بأنني في مشهد من فيلم مبتذل، وضحكت. لم أنجح في شرح ما أشعر به، كنت أريد أن أبقى مع حبيبتي طوالَ العمر، نكبر سوية وننجب الأطفال. لا أعرف لماذا شعرت فجأة بهذه الرغبة الطاغية، أن أكون عجوزاً قرب عجوزتي، نتهادى متكئين على بعضنا بعضاً في أحد أزقّة «دمشقي» القديمة، نثرثر ونضحك ونقاوم الموت حتى النهاية. تخيّلت صورة لنا على هذه الشاكلة قد يلتقطها حفيد لي أو لي يوم من قادم الأيام.

- وأهلكَ، أليس لديهم مشكلة في زواجك من مسيحية؟!

- لا يهمني إن كان لديهم مشكلة أم لا... أنا أحبك أنت. ما رأيك؟

- ألم يكن بإمكانك أن تطلب مني الزواج بطريقة أكثر رومانسية!

ضحكت. لم أعرف كيف سيكون الأمر أكثر رومنسية وأنا قادم من «دوما»، ونحن الآن عاريان على السرير في غرفتي المعتمة التي تقع في الطابق الأخير من بناية معتّقة تطلّ على «شارع العابد». نزلت

وركعت بقرب السرير، وكانت حبيبتي تتلفّح بالشرشف الأبيض الذي تلطّخ بماء عشقنا.

طلبت منها الزواج على طريقة الفرسان، لكن الفرسان العراة والمنهكين!

ضحكنا وضممتها طويلاً، ثم غفوت وهي بين ذراعي على حلم بيت صغير آمن، فيه أطفال مثل السكر، يزداد فرحاً كل يوم.

حالما غادرت حبيبتي رتّبت كل الصور والفيديوهات التي التقطتها في ملف خاص، سميته: «صور دوما قبل...». فيما بعد سأنشئ ملفاً آخر بجانبه سأسميه: «دوما بعد...».

أما اليوم فسأذهب إلى «ركن الدين».

كان لي رفيق قديم في الجامعة اسمه «عبد القادر» من «الكيكية»، استعدت علاقتي به في الأشهر القليلة الماضية من ضمن العلاقات التي جرّبت استعادتها. اتصلت به وردّ عليّ صوته الأبح الهادئ ذاته. قال لي إنهم سيخرجون في تلك الجمعة في «ركن الدين» الفوقانية. وأردف: «مظاهرات ركن الدين كبيرة للغاية، لا تشبه بقية المظاهرات في دمشق... ذلك أن قوات النظام لا تجرؤ على المضي قدماً باتجاه الحارات الماضية في الجبل، فالبيوت ملاصقة للبيوت، والناس ملاصقة للناس».

كانت نغمات كلماته كنغمات شعر، مؤمنة وواثقة وماضية إلى اليقين! وكان قلبي يخفق وهو يتكلّم ببساطة على الهاتف كأنه يتكلّم عن عشاء البارحة. أغلقت الهاتف من فوري وأطفأته. لا أعرف لماذا، ولكني كنت خائفاً!

قضيت ليلة الخميس التي سبقت المظاهرة في بيت «عبد القادر» جهّزت كاميراتي في الليل، نظّفتها ورتّبتها بانتظار الغد.

سألني «عبد القادر» لمَ أنا مولع بالتصوير؟. لم أعرف بماذا أجيب! لم تستحضر ذاكرتي أية إجابة! لكني حين أفكر بالأمر بهدوء

أعتقد بأني لطالما رغبت بأن أكون في الحدث لكن بدون أن أكون في واجهته. تماماً كما أفعل اليوم: بدون صوري وأفلامي لن يكون للحدث وجود في الذاكرة، ولكنني غير موجود في هذه الذاكرة المحنّطة في الصور.

كانت المظاهرة مقسومة إلى ثلاث مراتب. اتجهت المرتبة الأولى من فورها باتجاه منطقة التماس مع قوات النظام في أسفل الحي المتعربش على الجبل.

«حرية للأبد غصباً عنك يا أسد...»

كان ذلك صف الآلهة والقديسين. صنّفته في قلبي. كانوا يتلقّون الرصاص القادم من الأسفل بصدور عارية، يصيحون كمن مسّه السحر، فلم يعد يشعر بشيء إلا بإصراره على المضي:

«حرية للأبد غصباً عنك يا أسد»

يهزّون قبضاتهم عالياً. يا إلهي كم كانت تلك الصورة معبرة! وكنت قد شغّلت أمر التسجيل فبدأ الفيديو يصوّر.

الصف الثاني كان صفّ القادة العظماء، سميته أيضاً. كانوا خلف الصف الأول، يهتفون بالتأكيد، وينتظرون سقوط أحد من الصف الأول برصاصة موجّهة ليحملوه من فورهم إلى خارج المظاهرة.

أحد المتظاهرين أصيب للتو برصاصة في رأسه. الدم كان يتقافز من ثقب فوق أذنه. صوّرته بعدسة الزوم فبدت الصورة أقرب من دمه إليه. حمله متظاهرو الصف الثاني وركضوا إلى الخلف. كان يبتسم ويرفع يديه عالياً إشارة النصر ويصيح: «حرية... حرية». كانت أفظع صورة، لكن بعد بضع خطوات تراخت يده وأغمي عليه بين يدي الشباب. في المساء علمت بأنه رحل.

الصف الثالث كان صف الخائفين والمراقبين، وأنا كنت معهم. ربما في التصنيف بعض الظلم! كان معظم من حولي كباراً في السن

أو فتياناً صغاراً، بعض النسوة وقليل من الشباب أمثالي. لكن مع مضي المظاهرة انتقل السحر إلينا. شيء يشبه انتشاءً صوفياً جعل الخوف يغيب ونتجه بعمومنا إلى الأمام، بدون تفكير، إلى الصفوف الأمامية للمظاهرة حيث الموت متاح، كغواية الهاوية! كانت تلك إحدى أكثر الصور خطورة وصدقاً.

انتهت المظاهرة. خسائرنا أكثر من عشرة مصابين منهم اثنان قُتلا. وإلى المستشفى الميداني توجهنا أنا و«عبد القادر». كنت أهرول وأنا أحمل كاميرتي كرضيع بين يدي. المستشفى الميداني كان بيتاً يختبئ بين البيوت المتراكمة في «ركن الدين- الكيكية»: سريران، صوفا، شاش وقطن ومعقم، صبايا يساعدن في التطبيب، رائحة معقمات ودم وتحدٍّ، وشاب جسيم بجسد رياضي ممتلئ ولحية مشذّبة سوداء وعينين واسعتين. عرّفني «عبد القادر» إليه: الدكتور «خالد الساعي». هذه كل مكونات المستشفى الميداني. والتقطت صورة من الخلف.

كان الدكتور «خالد» يأتيهم في كل جمعة. يخيط جروح من يجرح، ويساعد في إسعاف من يمكن إسعافه. أما الجريح الذي كان وضعه الصحي خطراً فقد كان نقله إلى مستشفى المواساة، حيث يكمل الدكتور «خالد» اختصاصه، أصعب من نقل مفاعل نووي من هنا. لكن كان «خالد» يرتّب في معظم الحالات نقله كمريض عادي إلى أحد أجنحة المستشفى الحكومي الكبير.

عند المساء نزلت أنا والدكتور «خالد الساعي». سيارتي كانت قابعة بعيداً أقرب إلى الطريق الرئيسية في الأسفل. خبأت بطاقة ذاكرة موبايلي في باب السيارة إن اعتقلوني. أما الكاميرا فقد دسستها في ثقب أحدثته في مقعد السيارة من الأسفل. كنت راحلاً مع كنز لا يقدّر بثمن: عشرات الصور والفيديوهات. وعرفت بأن «خالد الساعي» اعتاد على التنقل بين المناطق المشتعلة منذ بدء الثورة.

دعوته إلى غرفة صديقتي «ريما العيساوي» حيث من المفترض أن تنتظرني وحبيبتي «هبة حداد» هناك. كانت «هبة» تنتظر بقلق شديد، فقد نسيت أن أشعل موبايلي حين نزولي. بكت وهي تحتضنني، أما «ريما» فقد راحت تصيح بصوت عالٍ غاضب في وجهي بأنهما قلقتا كثيراً فقد تأخرت، وحين دخل «خالد» ورائي إلى الغرفة سكتت.

لم يخطر ببالي أن تلك النظرات الخجلى والمتوارية التي راح «خالد» و«ريما» يتبادلانها بصمت ستسفر عن كل ما سيأتي. لاحظت أن «ريما» راحت تمسّد بعفوية خصلات شعرها المبعثرة، وأن «خالد» حمرت وجنتاه. لكن إحساسي أنبأني بأن هذا الشاب، الذي أراه للمرة الأولى، سيصبح من أعز أصدقائي.

دخلت «هبة» معي إلى الغرفة الصغيرة الداخلية. كنت مشتاقاً إليها كمجنون، مشتاق لرائحتها وخصرها، مشتاق لضمّتها وصوتها. وفي الداخل تطوّر العناق إلى قُبل، فجأة ألفينا نفسينا عاريين في السرير! كانت المرة الأولى التي أفعلها في بيت ليس بيتي وثمة زائر أيضاً. لكن كانت غواية الرغبة أقوى مني. لنأمل ألا يكون قد شعر بما حدث.

«سنعلّم العالم ماذا يعني الحب؟»، همست لها، فضحكت بخفر. أجمل ضحكة من الممكن أن تراها عيناي. كان وجهها موردا، ورائحة المتعة تتضوّع منها، رائحة عرق خفيفة تجعلني لا أكفّ عن اشتياقي.

تضحك حين أخبرها.

حين خرجنا من الغرفة كنت خجلاً، لكن لم يبد أن الدكتور «خالد» و«ريما» يعيران انتباهاً لغيابنا، كانا يتحدثان بصوت خفيض على ضوء شمعة. «ريما» أعدّت قهوة ساحرة الرائحة دخلت روحي. حين دخلنا الغرفة ابتعدا قليلاً عن بعضهما بعضاً، وعلا صوتاهما.

قالت لي «ريما»: «كنت أحدث الدكتور عن أهمية توثيق

الثورة!». هزّ «خالد» رأسه موجهاً الكلام إليّ: «تعرف صديقي فراس، هذا أفضل ما يمكن أن نفعله. في معظم الثورات يتحوّل كل من سقط فيها ولأجلها إلى مجرد رقم، ربما يتم تكريم هذه الأرقام بتسميتها «شهداء»، لكنهم شهداء أرقام أيضاً، تسير في طريقها إلى النسيان ويتابع الناس حياتهم الأخرى بعد الثورة التي مهدت تلك «الأرقام» لمقدمها بدمها».

«كلام جميل»، فكرت بصمت.

- «سأكتب كيلا يتحول الشهداء إلى مجرد أرقام، على كل واحد منهم أن يتكثّف إلى قصة من لحم ودم، قصة تجذّر كونه أخاً وابناً وزوجاً وعشيقاً وصديقاً وجاراً لأحد ما، قصة توثّق تفاصيله كإنسان يحلم بالحرية أولاً ومتفرد عن غيره من الحالمين ثانياً».

قالت «ريما». تبدو وهي تتكلّم اليوم كأنها تضع كل طاقاتها في الكلمات! تنتقيها بعناية، هل تكون قد أعجبت بهذا الدكتور، وتريد أن تظهر نفسها أمامه بأكمل شكل!

- لكنكِ فنانة تشكيلية ويمكنك استخدام أدواتك في ذلك.

- لم أعد أستطيع حمل الفرشاة... لا أعرف هناك حالة غريبة أمرّ بها!

حينها وعدها «خالد» أن يزودها بكل القصص التي يعيشها.

بالنسبة إليّ شعرت اليوم بأني اكتشفت ما أريده، أريد أن أصوّر كل شيء: أن أسجن اللحظة في لقطة، أحنّطها كي تبقى آلاف السنوات القادمة، أجعلها غير قابلة للنسيان. حينها لن تكون دراستي للفنون الجميلة قد راحت هدراً، ولن يكون عملي في شركة الاستيراد والتصدير، التي يديرها أبي، قدراً أبدياً. سأخلق ذلك المعنى لما أريده.

(١١)

عن أيام بطعم الخيبة

حين كان «سعيد حسين»، صاحب البقالية المواجهة للبناية، يقف أمام الواجهة يراقب الشارع الخالي من أية حركة، راح يفكّر بالحال الذي كانت عليه البلد قبل الأحداث. «دمشق» الآمنة تثير الخوف والريبة اليوم. حتى مدينة «جرمانا»، التي كانت تبدو خارجة عن الزمن، راحت فرائصها ترتعد! في قرارة نفسه كان يتمنى لو بقيت الحال على ما كانت عليه ولم يحصل ما حصل.

«فقط لو انتظر الشعب على الرئيس قليلاً لقام بالإصلاحات و...»، كرر بينه وبين نفسه. «كان سيطهّر البلاد من العناصر الفاسدين في الأمن والجيش، ثم سيبدأ بالإصلاحات... مجرد زمن قليل، وكانت البلاد ستنجو من مصير أسود لا يعلم إلا اللّه بماذا سيأتي!!». فكر مجدداً. «هذه الأيدي القذرة التي تلعب بالبلاد تريد خرابها، خرابها فقط... خرابها..». هذه المرة قالها بصوت عالٍ.

«سعيد» في الآونة الأخيرة لا يكفّ عن التفكير، يحسّ برأسه ستنفجر في لحظة ما. يعرف بأن الفساد عمّ البلد، يعرف ذلك جيداً، وتكاد ذكرى خدمته الإلزامية لا تفارق ذاكرته. لكنه مقتنع أيضاً بأن الفساد يمكن أن يُحارب بطرائق مختلفة عمّا يفعله معارضو النظام اليوم، ولن يستطيع أحد اقناعه بغير ذلك. لكنّه يتذكّر بين الحين والآخر أوقات خدمة «المعلّم»!! أخذهم الضابط المسؤول إلى حي

«السومرية» حيث يسكن، وكان عليهم أن يحرسوا بيته وينقلوا أسرته بالسيارات، ويقوموا بعمليات التنظيف والخدمة وسقاية الحديقة! كان الشباب يتهامسون بأنه من رجال «رفعت الأسد»، ولولا ذلك لكان حاله أفضل بكثير، ولما سكن في حي «السومرية». لكن «المعلّم،» المغضوب عليه من قبل السلطات، كان يستطيع أن يجلب من يريد من العساكر لخدمته!

خدمة عسكرية ك بدي غارد. كان «سعيد» يضحك من الأمر دوماً.

- أنا حتى اليوم لا أعرف كيف يستخدمون البارودة، مع أن اختصاصي في الخدمة العسكرية كان في المشاة!

ذات مرة أتت لجنة للتفتيش إلى حيّ «السومرية»، فأخذنا «المعلّم» إلى كهوف الجبال القريبة لنختبئ ريثما تنتهي لجنة التفتيش من عملها وتغادر الحي. كانت المنطقة التي هربنا إليها عبارة عن حقل رمي، يتدرّب العساكر فيها. يومذاك مرّت رصاصة بجانب رأسي، سمعت أزيزها في أذني وأنا أقف أمام المغارة. هرولت إلى الداخل، وظللت قابعاً حتى رحلت لجنة التفتيش. ثم عدت لأمضي خدمتي الإلزامية في خدمة العميد ذاته... يا اللّه كم هناك من فاسدين في هذا البلد! هناك الكثير من الأخطاء، صحيح، لكن هذا لا يعني أن نخرب البلد، ندمّر الدولة، نترك المجال لأعدائه لتخريبه! هناك طرق ثانية أكثر وطنية من ضرب عناصر النظام وهم يقومون بواجبهم الوطني. هناك طرق أفضل من تخريب البلد والممتلكات!

«سعيد» يعيد تقليب الأفكار وتقليبها، حتى شعر بأن رأسه صارت تضجّ بصداع مفاجئ، ومجدداً تذكّر صديقه «ميفان حاجو».

فجأة وقفت سيارة فارهة أمام البناء، كان فيها ثلاثة رجال. توجّس «سعيد حسين» من منظرها شراً وسط فراغ الشارع. اثنان منهما كانا مسلحين. عاد إلى الوراء كيلا يروه، لكنهم تصرفوا كأن أمره لا

يعنيهم. واعتقد بأن نمرة السيارة أمنية! صاح أحدهم باتجاه الطابق الأخير في البناء المقابل، فخرجت السيدة الستينية التي كان يلمحها «سعيد» بين الحين والأخر لكنها لم تشتر من بقاليته يوماً. قال لها الشاب المسلّح بصوت عال لا مبال هزّ هدوء الليل: «أربع». فزعقت السيدة من على الشرفة: «ليس لدي إلا ثلاث... دبروا حالكون».

عاد الرجل إلى السيارة وتباحث مع البقية، ثم نزل وصاح بها.

- كان اتفاقنا على أربع بنات، ما بيمشي الحال ثلاثة... دبري حالك.

صارت السيدة تقسم بأنه من الصعب تدبير فتاة رابعة الآن، الوقت متأخر والأجواء غير آمنة: «اصعدوا ودبروا حالكون باللي عندي». لكن الشاب صار يصرخ من جديد. كان الصمت المحيط يضخّم صوته بشكل مخيف. واختبأ «سعيد حسين» داخل البقالية، كان يلوم نفسه لأنه تأخر في إغلاقها حتى الآن، يلوم نفسه لأنه لم يكتشف أن ثمة بيتاً للدعارة قبالته، رغم أنه لطالما رأى سيارات غريبة تصطف أمام باب البناء حين يفتح بقاليته باكراً.

اتجه أحد المسلحين إلى البقالية، دخل هادراً وصاح: «ليش فاتح لهلق؟!». تلعثمت ولم يخرج مني جواب شاف على سؤاله! لكن المسلّح طلب مني باكيت سجائر مالبورو أحمر. قدّمته إليه وأنا أراقب كفي التي ترتجف!

- من وين الأخ؟.. من جرمانا.

صاح بي المسلح، ولكنه لم ينتظر جوابي، رمق صورة الرئيس على الحائط، وهزّ رأسه قبل يأخذ الباكيت ويمضى بدون أن يدفع ثمنه. شعرت بأن ساقي لا تقويان على حملي بعد، وتهاويت على الكرسي. كان قلبي يقرع بعنف، خفت حقاً، وشعرت بالقرف من نفسي. حالما تلاشى صوت السيارة الهادرة، بصقت باتجاه الخارج:

«تفو اللّه يلعنك يا واطي؟!». لكن ماذا تعني شتيمتي تلك بعد ذهابهم؟!

ثم فكر «سعيد حسين»، وهو يهمّ بإغلاق البقالية، بأن البلاد بحاجة إلى تطهير حقيقي وسريع، وبأن الإصلاحات كانت ستكون الحل لو انتظر الشعب... لو انتظروا قليلاً! وتذكر «ميفان حاجو» أيضاً.

قبالة البقالية، في بيت «صلاح عباس»، اجتمعت «مريم محمود» و«هبة حدّاد» و«ريما العيساوي» تتناقشن بخصوص ما يتوجّب عليهن عمله في الوقت القادم. مرّ يوم قاسٍ على الصديقات الثلاث، يبدو أنهن منهكات الروح بعد انقضائه، كان «أبو حسن» هو الحديث الأهم، فقد مرّت أكثر من ساعة لم يفارق اسمه شفاههن. فمن لا يعرف «أبو حسن»؟! كالعادة ما رأوه إلا على رأس جمع من عشرات الشبّان المسلحين بالهراوات أو العصي الكهربائية أو القنابل المسيلة للدموع، يمشّطون الأماكن التي من الممكن أن تشتعل فيها مظاهرة ما في وقت ما! لا يمكن لهم أن يسمعوا صوته إلا هادراً غاضباً. اليوم، وهو يوم آخر من خريف ٢٠١١ في حي «الميدان» كانت المظاهرة عارمة:

«يا وطنية التمّوا التمّوا... الشعب السوري ضحّى بدمو...»

تصيح «هبة حدّاد» بعزيمة من فوق أكتاف المتظاهرين، فيهتف وراءها مئات من شباب «الميدان»: «يا وطنية التمّوا التمّوا... الشعب السوري ضحّى بدمو...»

كانت قد بدأت هتافاتها منذ قليل حين رفعها شابان على كتفيهما، قبلها كانت «ريما العيساوي» محمولة فوق كتفي شابين آخرين وتهتف أيضاً بملء صوتها. مسائية حي «الميدان» كانت تحتفي بحناجر الصديقات الثلاث «ريما» و«هبة» و«مريم محمود»!

«بدنا دولة مدنية... إسلام ومسيحية»

أكملت هتافها بصوت أبحّ أشعل المتظاهرين أكثر. أحسّت «هبة» لحظتئذ بشيء غريب، شيء يشبه الفخر أو يشبه الحب! كأن جدراناً عازلة كانت بينها وبين أولئك الشباب والآن انهارت!

خلال لحظات اقتحم «أبو حسن» وعناصره ساحة التظاهر، وتفرّق الجمع تحت وطأة الهراوات والعصي الكهربائية والقنابل المسيلة للدموع، والصبايا الثلاث رحن يركضن مع الجموع التي فرّقت جمعهنّ. ألفت «مريم محمود» نفسها خلال لحظات وحيدة بدون صديقاتها، فانطلقت إلى مدخل بناء قريب واختبأت فيه. أما «ريما العيساوي» و«هبة حدّاد» فستقبع كل منهما خلال الساعات التالية في غرفة صغيرة في قبو بيت عربي في مجاهل حي «الميدان»! قال لهما صاحب البيت وهو يساعدهما على الهرب: «لن ندع الشبيحة يمسّون شعرة منكما وهناك شوارب في وجوهنا». بعد ساعات عاد الرجل الميداني إلى القبو وهو يحمل ملاءتين سوداوين ومع كل ملاءة خمار أسود سميك: ستلبسان الملاءتين كامرأتي، وسأصحبكما خارج الحي... وابن أمه من يجرؤ على إيقافي... فأنا أنقل نسائي في سيارتي.

في تلك الأوقات كانت «مريم محمود» قد قررت مغادرة البناء الذي اختبأت فيه، فقد هدأت الأصوات ويبدو أن كل شيء انتهى! اصطدمت عند المدخل برجل يحمل رشاشه ويرتدي لباساً مدنياً، كان يدير ظهره لها ويراقب الشارع الممتد أمامه! ترددت للحظات ثم حزمت أمرها، وانطلقت باتجاهه: السلام عليكم أخي!

قالت له بهدوء محاولة إقناعه بأنها من سكان البناء.

- لماذا تخرجين الآن ألا ترين المخربين يملؤون الشارع؟! ارجعي إلى بيتك!

فلبثت «مريم» بقربه تراقب الشارع مثله.

- هؤلاء لا يفهمون إلا بالقتل... لا ينفع الكلام معهم، لا يفهمون إلا بهذه!

وهزّ بندقيته ثم زفر بتعب. كان يظهر جلياً بأنه يشتهي الكلام، فصمتت «مريم» تستمع.

- أتمنى أن يموتوا كلهم لننتهي... تعبت والله شهور وشهور، أريد أن أعيش مثل كل الناس، أعشق وأتزوج وأذهب المشاوير... تعبت والله!

ثم رمقها بطرف عينه. خلال الدقائق التالية استمر في الكلام والكلام والكلام دون توقّف. ثم خفّض من نبرة الغضب في صوته وهمس لها: تبدين فتاة طيبة، أتمنى أن نتعارف أكثر... ما رقم هاتفك؟

كان الشارع قد هدأ تقريباً. مجموعات من عناصر النظام بقيت هنا وهناك، رجال بألبسة مدنية يشرّعون بعض الرشاشات أو العصي على ناصيات الشوارع، ورجال بألبسة عسكرية كذلك، و«أبو حسن» في بداية الحارة مازال يلقي أوامره على من حوله!

- سأذهب الآن... إلى اللقاء!

وانطلقت «مريم» مسرعة وهي تدعو ربها ألا يكون المسلّح قد لحقها أو شكّ بأمرها. عند نهاية الحارة فحسب التفتت خلفها، كان الشارع خالياً.

تمرّ كل تفاصيل اليوم أمام الصديقات الثلاث الآن كشريط سينمائي.

بعد أن انتهين من أحاديثهن عن «أبو حسن» راحت «هبة حداد» تطرح إمكانية تشكيلهن لتجمع مدني جديد، أو الانضمام إلى أحد التجمعات المدنية الأخرى التي راحت تتكاثر في البلد، أو ربما العمل على فكرة السلم الأهلي والتنبيه من العنف المستشري من كل الأطراف. «ريما العيساوي» ترفض الأمر، وتقول بأنه مازال الوقت

مبكراً للتفكير في التنظيمات، علينا إسقاط النظام أولاً، ثم الالتفات للعمل السياسي أو المدني، فعمل سياسي ومدني والناس تموت يومياً سيبوء بالفشل! أما «مريم محمود» فترى بأن كل هذا الكلام لا معنى له، والمعنى الآن للبندقية ولا حلّ غيرها.

- ولا أعرف استخدام البندقية فماذا أفعل؟! أبكي على الأطلال؟

سألتها «هبة» متوترة، ثم أردفت: «الحل هو العمل المدني، بما أن العمل السياسي اليوم لا يثمر». ثم رشفت شفّة من كأس نبيذ الريان الذي ابتاعته من دكان المشروبات على الناصية. كانت ترتدي إحدى بيجامات «صلاح عباس» بعد أن غسلت فستانها البني فور وصولها وقد تضمّخ بالدم. عادتها الشهرية أتت هذه المرة غزيرة مؤلمة كما لم تأتها يوماً. أمها قالت بأن هذا بسبب التوتر والتعب.

- كيف عمل مدني يعني؟

تسألها «مريم»، ثم تطلب منها أن تصبّ لها النبيذ مرة أخرى فقد فرغ كأسها. تسأل «صلاح» سيجارة حمراء طويلة هو الذي لم يكفّ عن التدخين منذ أول الجلسة. النبيذ يجعل إحساسهنّ بالحرّ يزداد، والعرق يسيل على أجسادهنّ.

- يعني نعمل بين الناس، خارج الأحزاب السياسية التقليدية.

- كيف؟ يعني أقصد أسسنا تجمع، وسميناه كما تقولين، وأعلناه على الفيسبوك وكل شي... وبعدين ماذا نفعل؟!، سألت «مريم» مجدداً.

- نقوم بوقفات احتجاجية، واختراع وسائل للثورة السلمية وما إلى ذلك.

- لكن نستطيع أن نفعل كل ذلك بدون تجمع!

- في الحقيقة ليس لدي خبرة واسعة بهذا العمل، نستطيع أن نبحث أو نسأل من لهم خبرة بمثل هذا...

- طيب، وكيف ستوعّين الناس بضرورة السلام ونبذ العنف والنظام يقصف بيوتهم ويقتل أطفالهم؟! أفهميني هذه النقطة بالذات.

- نقول لهم النظام يستخدم السوريين كأدوات بين يديه للقتل، ونحن نقتل سوريين!

- سيقولون لك صحيح، ولكنهم سوريون كذلك من يقتلوننا! إما أن يقتلونا أو نقتلهم... هبة حبيبتي تذكري دائماً سبب حمل الناس للسلاح.

- حسناً مريم لا تغضبي، يمكننا أن ننبّه من التجاوزات والأخطاء التي تحلّ بشارع الثورة المسلّح... ننبّه من ازدياد التطرّف الإسلامي في صفوفهم.

- جيد ولكن ننبّه من؟! الناس؟! ليس لهم حول ولا قوة... الثوار المسلحون؟! بالنسبة لهم رأينا والضراط على البلاط واحد.

في الآونة الأخيرة راحت «مريم»، لسبب ما، تستحضر أخاها «مصعب محمود» كلما انفتحت أبواب النقاش حول سلاح الثورة. لم يمرّ يوم لم تتخيّله وهو في براري «حمص» حاملاً رشاشه مصوباً على هدف ما، أو ممدداً في بيت مهمل، أو هارباً من قذيفة. كان يحتل أوقاتها بوجهه الحبيب، حتى وهي في السرير مع زوجها، يقفز وجه «مصعب» أمامها مشتتاً تركيزها. يهمس «صفوان» إن كان ثمة ما يؤرقها، لكنها تطوّح برأسها نافية. لم ترغب في الحديث معه حول الأمر، أبقت قلقها المتنامي في قلبها. كانت تخاف إن هي جهرَت أن تبدو خائفة متقاعسة، الشباب يذهبون إلى الموت وهي تتمنى على أخيها أن يجلس في البيت كالعجزة! قلقها بقي يتنامى في داخلها دون أن يتسرّب منه إلى العلن سوى نظرات حائرة تطلّ على الدوام من عينيها.

هي الآن تناقش رفيقاتها تخالفهن وتجادلهن حول عملهن في الثورة! من كان يظن بأن يوماً سيأتي وتتدخل فيه «مريم محمود» بشيء

يمت بصلة للسياسة! لم تكن تطيقها يوماً. كانت تشعر بأن والدها دفع عمره كمداً قرباناً للسياسة، وبأن تلك البراغماتية النكدة، التي اسمها السياسة، ستبقى عدوتها الأولى والأخيرة! لكن انظروا ما الذي يحدث، كأن الثورة أمسكتها من تلابيبها، هي وأجيال كاملة من الشباب السوري العازف عن السياسة، وألقت بها في خضم أمواجها العاتية! هل ثمة بيت الآن على طول البلاد لا يتحدّث أهله بالسياسة؟! هل ثمة بيت لا تلعلع نشرات الأخبار السياسية في غرفه؟! هل هناك أصدقاء لم يتناقشوا ويتصايحوا ويختلفوا؟! هل هناك من لم يفقد أصدقاء ويكسب أصدقاء بسبب السياسة؟! كأن الثورة فتحت تلك البوابات الموصدة بإحكام منذ أزمان، وتركت لريح السياسة الهوجاء أن تلعب كما يحلو لها!

أم هي ليست السياسة، وإنما خلافات قديمة متراكمة حجتها السياسة؟!

«ريما العيساوي» نادت «صلاح عباس» الذي كان قد ذهب إلى الغرفة الداخلية مستغلاً المجيء الطارئ للتيار الكهربائي كي يقرأ بعضاً من مقالات اليوم على الإنترنيت.

- لكن صلاح هو من أكبر الممثلين للسياسة التقليدية! الآن سيقول لنا لماذا لا تنتسبن إلى تجمعنا المعارض الذي يعمل الآن... أراهنكما بأنه سيقولها؟!

علّقت «مريم» فيما كان «صلاح» يقترب مسرعاً إلى الصالون مشرعاً سيجارته:

- شيء طبيعي ألا يكون لديكم خبرة في العمل السياسي والمدني، سوريا كانت محرومة منه لعقود، كيف للأجيال الجديدة أن تمتلك المعرفة والخبرة؟!

قال «صلاح»، وبدأ حديثاً طويلاً مطوّلاً انقطع التيار الكهربائي في منتصفه ولكنه أكمله. كان يدخن ويدخن حتى أصبح الجو في

الغرفة ضبابياً رغم الشبابيك المفتوحة على مصراعيها. الصبايا الثلاث شعرن بشيء من الندم لأنهن طلبن سؤاله، فقد أنهين زجاجة النبيذ، وغلين الماء ليحتسين الشاي، ودخلت «مريم» في نوبة من التثاؤب المتواتر، ثم خلعت حذاءها الأسود وطوت ساقيها تحتها على الصوفا.

في النهاية قالت له «ريما»: ولكني لا أريد أن أعمل بأدواتكم ذاتها، أدوات صدئة لا يمكنها أن تكون فاعلة!

- إذاً اخلقي أدواتك الخاصة.

- لا أعرف.

- طيب... ماذا يمكنني أن أقدّم لك؟!

تقول «هبة» بأن ذلك اليوم سيأتي ويستطيع شباب سوريا خلق أدواتهم الطازجة تلك، لكنهم يحتاجون إلى وقت وتراكم للخبرة التي حرموا منها.

- وريثما يأتي الوقت والتراكم ماذا نفعل؟

- ندعم الجيش الحر.

تجيب «مريم» بيقينية، لكن جوابها ذاك فتح الباب مجدّداً لنقاش حامٍ طويل بين الأصدقاء الأربعة. ربما مئات، بل آلاف، البيوت في عموم البلاد تخوض النقاش ذاته، بلهجات مختلفة، بسويات ثقافية مختلفة، وبيقينيات مختلفة أيضاً. علّقت «ريما».

- الآن الجيش الحر تأسّس، يعني هناك قيادة للمعارضة المسلّحة، وهناك كذلك لواء الضباط الأحرار، وسمعت بأن هناك مفاوضات ليتّحدوا سوية، وربما اتحدوا في وقت قريب! هذا يعني يا شباب قوننة أكثر للسلاح، وضبطاً لسلاح الثورة... وربما تذهب تخوفاتنا بشأن فوضى السلاح!

حاولت «مريم» تدعيم موقفها مجدداً.

في نهاية السهرة تعب الجميع. بقيت «مريم» مصرّة على ضرورة

دعم الجيش الحر بكل ما تستطيع، لكنها لا تعرف كيف! كان أولاد عمومتها في «حمص» قد انخرطوا في الكتائب المقاتلة منذ فترة ليست ببعيدة، لكن «صفوان» زوجها لا يعرف كيف يقتل نملة، حسب تعبيرها. كان ثمة مزيج من العتب والارتياح والسخرية والخجل يتصاعد من كلامها، فـ«صفوان» يجهر بأن الشجاعة في هذه الأوقات تتلخّص في بقائنا على قيد الحياة.

«بعمرها لم تكن الشجاعة تتلخّص بالموت!»، يؤكّد مشدداً على مخارج حروفه.

كانت «مريم» ما تزال ترتدي بنطالها من الكتان الأسود، وقميصها الرسمي الأسود ذاك الذي ترتديه في مجالس العزاء، وأحسّت بالضيق بعد ساعات طويلة من ارتدائها للثياب ذاتها.

«هبة» أصرّت على ضرورة تشكيل تجمّع مدني، أو الانضواء تحت تجمع من التجمعات التي تتصاعد كفطر الشتاء في هذه الفترات. أما «ريما» فكانت ضائعة بين الاثنين. لكن الصديقات الثلاث اجتمعن على شيء واحد هو عدم العمل مع المعارضات السياسية التقليدية التي تريد أن تحاكي ثورة اليوم بأدوات البارحة. يقلن هذا ويقهقهن بصوت عالٍ مستفزات «صلاح عباس».

عندما بدأ الانهاك يمتلك الثلاث توصلن إلى قرار بتكثيف العمل الإغاثي للنازحين من مناطق التوتر، الذين تكاد مدينة «جرمانا» تمتلئ اليوم بهم. كانت كل منهن مقتنعة في قرارة نفسها بأن الإغاثة كمفهوم أقل من النشاط السياسي أو الثوري، أشبه بملجأ ضيق لكنه شبه وحيد اليوم لمن لم يستطع، أو لم يرغب، حمل السلاح أو المشاركة فيه. كانت كل منهن مقتنعة بأنه سبيلها الوحيد كي لا تعترف بأنها باتت خارج مسرح الثورة الفاعل.

– واللّه دعوة واحدة بالخير من دعوات العائلات المحتاجة تساوي بالنسبة لي كل العمل المدني والسياسي الذي تتحدثون فيه.

تنبري «مريم»، لكن أحداً لا يجيب على جملتها!

هنا بدأت «هبة» تصدح بأغنية أحمد فؤاد نجم، صباح الخير ع الورد اللي فتح في جناين سوريا.

- بالإذن من الشيخ إمام.

ويكمل الباقون معها وكأنهم ينتظرون منها هذه البادرة: «مادامت سوريا ولاّدة وفيها الطلق والعادة... حتفضل شمسها طالعة برغم القلعة والزنازين».

وراحوا يرددون الأغنية ويرددونها.

لكن قبل أن تنزل «مريم محمود» إلى البيت، وتغفو «ريما» و«هبة» منهكتين كل منهما على صوفا في صالون بيت «صلاح عباس»، راجعت القائمة الأخيرة التي أعددنها بأسماء العائلات التي يجب إغاثتها سريعاً. ثم رتبن الجدول النهائي لعدد علب الحليب والسلل الغذائية وحفاضات الأطفال، واتفقن على موعد الغد ثم افترقن.

عند الباب، وفيما تودّع «مريم»، همست «ريما» لصديقتها بأنها عاشقة. صاحت «مريم» من على الباب وصارت تقفز: أخيراً ريما العيساوي عاشقة! ومن هذا الفارس الذي استطاع سرقة قلبك العنيد يا حلوة؟

لم تحدّثها «ريما» بالتفاصيل، قالت لها: غداً نتحدث.

- اسمه على الأقل يا بخيلة!

- اسمه خالد...

- لكني أعرف أنكم لا تستخدمون هذا الاسم في الطائفة؟!

- لأنه ليس من عندنا!

- من أين؟

- من ريف دمشق... أصله من المليحة.

- ألف مبروك حبيبتي.

كانت «هبة» تقهقه وحدها على الصوفا، حين سألتها «ريما» عن السبب قالت إنها كمريم لا تصدق حقاً بأن ثمة رجلاً استطاع شكمها!! ثم سألتها إن كان من الممكن لأهلها أن يقبلوا بعلاقتها مع شاب من طائفة أخرى؟!

- أحاول ألا أفكر في الأمر. لأنهم لن يكونوا راضين بالطبع... لنؤجّل التفكير بالموضوع الآن. دعيني سعيدة بعشقي!

في اليوم الثاني للقائهم الأول في بيت «فراس الصفدي» اتصل لدكتور «خالد الساعي» بـ«ريما» عند الساعة ١٢ وعشر دقائق ظهراً. قال لها: «ألا تريدين قصة جديدة للتدوين؟!»، واتفقا على اللقاء بعد ساعة في مطعم «عالبال» في إحدى أزقة دمشق القديمة. كان «خالد» يرتدي قميصاً سماوي اللون مخططاً بالكحلي، تبان تفاصيل جسده لعريض من تحت قماشه الخفيف، وقد شذّب سكسوكته القاتمة وصفف شعره إلى الوراء، بدا وسيماً للغاية في عيون «ريما». أما هي فلم تمتلك وقتاً كافياً لترتيب هندامها مثله، ولم تكن تريد أن تؤخّر لموعد، فقلبها راح يخفق حالما لمحت اسمه يتلألأ على شاشة لموبايل. كان شعرها الأجعد الطويل خلاباً في عيني «خالد»، كذلك كل ما فيها: نظاراتها الطبية، جسدها النحيل، حركاتها الدائمة حين تتحدث... كل ما فيها يأسره بشباك غامضة وغريبة ومفاجئة.

«ريما» كانت تفكّر: هل من الممكن أن يستسلم لعشق امرأة من طائفة مختلفة؟!

دعته «ريما» يومذاك إلى غرفتها القريبة في حي «القيمرية» ليكملا لحديث واحتساء القهوة. كانت أشبه بمعرض صغير للوحات الفنانين لسوريين. راحت «ريما» تعرّفه على اللوحات ومبدعيها: هذه لـ«لؤي كيالي»، هذه لـ«نذير نبعة»، أما تلك التي هناك، قرب باب المطبخ، فـ«ليلى نصير».

- أريد أن أرى لوحاتكِ!

- معظمها خبأته في بيت هبة، لكن لدي لوحتان هنا!

وهناك في غرفة القيمرية قبّلها «خالد الساعي» القبلة الأولى. كانت تنحني قريبة منه لتسكب له القهوة الساخنة في فنجانه، أحسّ لحظتئذ برائحة شعرها تمسك بوجهه وتديره إليها، وكانت عيناها تناديانه. لم يعتد قبلاً على حركات مشابهة! شعر لوهلة بالذنب، بالخطيئة، وراح قلبه يخفق وجلاً. لكن طعم القبلة كان حميماً كأن هاتين الشفتين خلقتا لتلامسا شفاهه. ارتباكه جعله يغادر الغرفة فجأة بعد أقل من عشر دقائق، تاركاً «ريما» في بركة من المشاعر المتلاطمة.

في تلك الليلة لم يستطع «خالد» النوم، كان يفكّر بأنه ليس زمناً للعشق هذا الزمن، إنه زمن للعمل في الثورة، عليه أن يعمل الكثير وأن يقدّم الكثير لأناسه، أولئك الذين يحملون أرواحهم ويمضون إلى الموت كل يوم. راح يؤنّب نفسه، يلومها على ضعفها، ثم فكّر بأن الأمرين لا يتعارضان: الحب ثورة والثورة حب، أليس كذلك؟ ثم هي فتاة معارضة، وسيكونان إلى جانب بعضهما بعضاً في كل شي، رفيقَي نضال سيكونان «من طائفة مغايرة... وليكن! هي معارضة في النهاية، وربما لن يقدّر اللّه أن نستمر في علاقتنا، فالموت يقف خلف الأبواب، وقد أستشهدُ في أية لحظة!»، خاطب نفسه وهو ممدّد على السرير.

في ليل اليوم التالي كان السرير المعدني يضمّ جسديهما، ويصرّ صوته حتى السماء. غواية الحب انتصرت، أشبه بقوة الماء التي لا تقاوم! هل هي الثورة التي أشعلت القلوب الراكدة قبل أن تشعل العقول الراكدة. كان شيئاً لا يمكن لـ«خالد الساعي» أن يفكر فيه قبلاً، لكن اليوم أبيح كل ذلك، شيء يشبه نمراً غاضباً كسر قضبان سجنه الأبدي وانطلق إلى الضوء، ولم يعد ثمة من قوة توقفه، كان يرمح في الحرية، ومن يتنسم هواء الحرية لا يمكن لروحه أن تقنع

بالأسر، لا لفكرة ولا لمعتقد ولا لعادة ولا لخوف! «إنها غواية الحب التي فرضت نفسها». يؤكد «خالد» لنفسه مراراً.

حين انتصف الليل، وذاك الرجل الغريب الذي اسمه «خالد الساعي» قد غفا وهو يحتضنها، أحسّت «ريما العيساوي» بأن روحها راحت ترفّ فوقها، بأنها تشعر بهذه الريح المشاكسة التي تخفق في صدرها للمرة الأولى، وفكرت بأنها قد تكون عاشقة!

ذكرى «خالد» ووجهه المترائي أمام ناظريها، وهي ممدّدة على الصوفا في صالون بيت «صلاح عباس» تناظر السقف، خفّف قليلاً من ذكرى اليوم الموجع، لكنه لم يبددها. كان النسيان أضعف من أن يهزم الصور التي راحت تنبني صورة وراء صورة ومشهداً خلف مشهد. كن قد غدين ثلاثتهن صباحاً إلى بيت أحد الشهداء في «المليحة». «خالد» خبّر «ريما» عنه، فأخبرت صديقاتها وذهبن. في كل مرة كانت تسمع بشهيد كانت تبذل جهدها كي تزور أهله، تجدها فرصة مواتية كي تبلغ أهالي الشهداء رسالة مفادها: ليست طائفتها برمتها من تقتل أبناءكم. كانت تعتقدها فرصة، وكل تجربة تثبت فشل تفكيرها. «صلاح» يقول لها، كلما رآها آتية من عزاء شهيد، «لن تستطيعي أن تكفّري بزياراتك عن طائفة برمتها ريما... اذهبي باعتبارك أنت، وأنت فقط وليس من داع كي تضعي نفسك ممثلة عن أشخاص لا تمثلينهم في الحقيقة!».

اليوم في «المليحة» كانت أم الشهيد صامتة كآلهة. عيناها تنضحان بالتسليم. لكن المشهد، الذي غطّت عليه بصمتها، كان فاجعاً للغاية. كرسيها في صدر الغرفة، وحولها نسوة متشحات بالسواد. لم تنطق بحرف، تبدو كأنها في مكان آخر لا يمتّ إلى هذا العالم بصلة، فوحيدها استشهد في السجن تحت التعذيب. استلموا جثته من قبو مستشفى «المجتهد»، بعد أن أجبرهم رجال الأمن، أولئك المصطفون هناك بجانب براد الموتى، أن يوقّعوا على ورقة بيضاء مهملة، مكتوب عليها بخطّ مجعلك سريع إن العصابات

الإجرامية الإرهابية هي من قتلت ابنهم. ووقّع الأب صاغراً على الإقرار، وإلا ستبقى جثة ابنه ليأكلها الدود في مكان قصيّ ومجهول.

كان جسد الشاب مبقعاً، وآثار الضرب والصعق تملؤه.

أخته الكبرى من كانت تنوح طوالَ الوقت، تنوح وتهذي وهي تهزّ جذعها ذات الأمام وذات الخلف. «قتلوه الكلاب... قتلوه الكلاب». بعد أن هدأت قليلاً سألت الصبايا: من أين هنّ؟

حينما أجابت كل منهن بأصلها، رمقت «ريما» بازورارة غاضبة:

«من قتلوا أخي من عندكم أيضاً!... مجموعة شبيحة وأمن أخذوه من أمامي، يا روحي عليه ولم يرجع...».

أحسّت «ريما» بأن سكيناً حادّة غُرزت في قلبها. خافت أن تطردها الأخت الثكلى من الغرفة. لكن الأخيرة صمتت في النهاية، فضغطت «هبة» على كفّ «ريما» مواسية. لكن الأخت انبرت من جديد، بعد أن كفكفت دموعها للحظات، لتعرّف «ريما» على امرأة شابة كانت تجلس قبالتها، تمسك بسبّحة طويلة وتتمتم طيلة الوقت: «اللّه أكبر... اللّه أكبر»، وبصوت لا يكاد يسمع. كانت المرأة الشابة أماً لشهيد آخر من «المعضمية»، عمره اثني عشر عاماً، قالت إن الموالين المسلّحين في منطقة المساكن هناك قتلوه.

- قتلوه... لم يوقفهم أنه طفل صغير... قتلوه برصاصة في رأسه، ورموه لأمه.

زعقت الأخت، ثم عادت إلى نواحها المؤلم.

«ريما» لم تجد نفسها إلا وهي تعتذر، لسبب ما، من تلك المرأة التي لم تتوقف تمتماتها.

- «لا تزر وازرة وزر أخرى ريما...»

صاحت «مريم» ونظرت إلى المرأة المنتحبة التي بدت كأنها لم تسمع!

وحدها الأم الشابة من «المعضمية» همست: «سنسامح، لن

نستطيع أن نكمل هذه الحياة بدون غفران... اللّه يرحم الشهدا ويجازي القتلة». ثم عادت إلى الدمدمة «استغفر اللّه... أستغفر اللّه...»، فيما بدت كل النساء المحيطات مشغولات بالصلاة.

لسبب ما شعرت بأني سأختنق.

لمت نفسي من ثم طويلاً على هذا الشعور، أحسست بأني أفكر بشكل أكثر طائفية يوماً بعد يوم! ما دخلي أنا بالشبيحة؟! هل لأنهم من الطائفة ذاتها؟ وليكن؟ هم لا يمثلون الطائفة بأكملها! ثم متى كنت أؤمن بأن الانتماء الطائفي هو انتماء أصلاً؟ على الدوام كنت أعتقده أمراً شبيهاً بزجّ فراشة وجرادة في الزجاجة ذاتها، ثم النظر إليهما كواحد لأنهما حشرتان لديهما أجنحة! تفكير قاصر بحق... ثم مالي إن كانت النسوة حولي ينظرن إليّ باعتباري من صفّ القتلة! إنهن مخطئات باختصار!!

لكني لم أقدر على فتح فمي، لم أستطع إخراج كلمة واحدة من جوفي! هنا في هذا المكان وهذه الحالة فقدت قدراتي على التفلسف!

بعد أن قفلنا عائدات إلى «جرمانا» أمسكت «مريم» بيدي، ربما حسّت بأني مضطربة وحزينة. قالت لي: لا تحزني ريما هي ثكلى وفقد، عليك أن تتفهمي هذا.

بعد أن أنهت «ريما العيساوي» تدوين كل ما مرّ اليوم من أحداث، غفت إلى جانب «هبة حدّاد» في صالون بيت «صلاح عباس»، فيما بقي الأخير وحده يقظاً يترقّب عودة التيار الكهربائي، ينتظره كي يكمل قراءة مجموعة المقالات، تلك التي أخرجها من الصحافة والمواقع الإلكترونية ووضعها في ملف على سطح المكتب في كومبيوتره وسمّاه: «للقراءة».

كان ثمة شيء له طعم التهميش يحسّه في روحه! ربما بدا بأنه تقبّل كل ما قيل بروح رياضية، لكنه شعر بالإهانة في قرارة نفسه. شيء يشبه أن تُرمى خارج اللعبة أنت الذي حلمت بها طوالَ عمرك،

ودفعت الأثمان تلو الأثمان في سبيلها! لم يكن هناك عدل في كل ذلك.

قام ليأتي بباكيت جديد من كروز دخان الحمراء الطويلة الذي يحتفظ به في قعر خزانة الثياب الفوضوية.

كان «صلاح عباس» قد اعتقل بتهمة انتمائه إلى حزب العمل الشيوعي المعارض في ثمانينيات القرن العشرين. ظل في السجن اثني عشر عاماً وثلاثة أشهر وعشرين يوماً وأربع ساعات ونصف تقريباً، حسبها بالساعة والدقيقة والشهقة، منذ العام ١٩٨٢ وحتى العام ١٩٩٤. لم يشعر يوماً بأنه منبوذ إلا بعد آذار ٢٠١١، كان يشعر دوماً بذلك الخليط من الإعجاب والاحترام والأسى الذي يكاد ينفر من عيني من يكلمه. كان دوماً الأستاذ «صلاح عباس» المعارض والمعتقل السابق الذي يحترمه الجميع. بعد آذار ٢٠١١ تغيّر كل شيء، كأن ثمة من قام بغسيل الأدمغة.

لو كنت أؤمن بالغيبيات لآمنت بأن قوة قدرية غيّرت ما في القلوب. فكّر «صلاح». لكنه بقي مقتنعاً بأنها الثورة التي طالما حلم بها، وسيبقى في متنها ولن يرمى إلى هامشها حتى لو قرر كل الناس ذلك. هذا التجمّع الجديد الذي يجمع فلول رفاقه وعدداً من شباب الثورة سيجعله يشعر بالفاعلية. ثم فكر بأن عليهم تكثيف العمل أكثر بكثير، وتكثيف محاولات الاتصال مع المعارضين على الأرض في المناطق الثائرة، قرر «صلاح» وهو ممدّد على سريره.

أما الست «أم بيرو شاهين»، التي كانت ترتب حقائبها في البيت الذي قبالته، فقد كانت تقول لابنتها «جولييت» بأن عليهما توديع الجيران غداً قبل سفرهما، فقد يكون سفراً طويلاً، ولربما كان دائماً!

كان ابنها «إبراهيم شاهين»، الذي يقيم في جنوب «ولاية فلوريدا» في «الولايات المتحدة الأميركية»، قد بعث لهما بدعوة للزيارة ومعها مبلغ لا بأس به من النقود كي تحجزا تذاكر سفر

الطائرة، ثم تلحقانه إلى هناك. كان يقول لأمه وصوته يتقطع ويغيب في الهاتف بأن معظم أصدقائه السوريين هنا أرسلوا في طلب أهلهم، وأن الوضع في البلد لا يحتمل أن يبقوا يوماً آخر بعد. كان يصيح من البعيد بأن لا علاقة لهم بكل ما يحدث، هذا صراع بين علوية وسنية، وهم المسيحيون لا علاقة لهم بكل المسألة، «والله ما قال يضيعوا بين الرجل». يصرخ «ابراهيم» من البعيد، وتهزّ الست «أم بيرو» رأسها موافقة في صالون بيتها في «جرمانا».

- بلد المسيحيين لم يعد للمسيحين يا أمي. البلد لم يعد لسكانه الأصليين يا أم بيرو.

يستمرّ «ابراهيم» في زعيقه الخائف، وتستمر «أم بيرو» بهزّ رأسها علامة الموافقة.

لكن الست «أم بيرو» منذ أن قررت السفر إلى بلاد ابنها وهي تبكي كل ليلة. تقول لابنتها بأنها ستشتاق «دمشق»، كما اشتاقت إلى وحيدها «إبراهيم» طوالَ السنين الماضية! ستشتاق رائحة المدينة القديمة وأزقتها وحواريها، ستشتاق بيت أهلها الكبير في حي «باب توما»، ستشتاق إلى الكنيسة المريمية، ستشتاق الحجارة والناس والصباح والمساء والأصوات وكل شيء... ستشتاق كل شيء، وتجهش بحرقة.

ابنتها «جولييت» كانت تبكي معها، لكنها في قرارة نفسها كانت سعيدة. كانت تمنّي نفسها بأن تحمل لها «أميركا» فرصة جديدة للقاء رجل ما. فرصة لزواج مؤجل طال انتظارها له هنا، ولا يبدو بأنه من الممكن أن يأتي بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين من عمرها هذا العام. كل الخاطبين الذين أتوها في السنوات الثلاث الأخيرة إما تجاوزوا الستين من عمرهم بزمن، مطلقين أو أرامل لديهم أولاد عليها أن تعمل كخادمة مجانية لهم. قد يكون لـ«أميركا» قناعات مختلفة، قد يكون لها أخلاق مختلفة، توسّع قليلاً من القيد الذي يمسك بخناقها.

قد تكون فاتحة جديدة من يدري، تفكّر «جولييت» وهي تمسح أنفها الرطب.

في صباح اليوم التالي، بعد أن ودّعت الست «أم بيرو» الجيران واحداً واحداً، صافحت «صلاح عباس» وقبّلت «مريم محمود» طويلاً. حتى الست «سميرة السليماني» قبّلتها على خديها الاثنين رغم أنها لم ترها إلا مرة واحدة. كانت قد اتفقت مع السيارة العمومية، التي ستقلّها إلى «لبنان» حيث تغادر من مطار «بيروت» باتجاه «أميركا»، كي تأتي لتأخذها من أمام باب البيت، لذلك فقد كان السائق بالانتظار أمام مدخل البناء، وإلى مطار «بيروت» كانت وجهتهم.

بعد منتصف الليل تفاجأ من بقي مستيقظاً من سكان البناء بأن السيارة التي أقلّت الست «أم بيرو» وابنتها «جولييت» إلى بيروت تقف أمام باب البناء. خرجت «سميرة السليماني» إلى الشرفة وصاحت: شو صار أم بيرو؟... انشاللّه خير؟!

تتمتم «أم بيرو» متعبة وهي تنزل من السيارة: طريق بيروت مقطوع... إلنا ساعات ناطرين على الطريق... عم بيقولو اشتباكات.

- شو يعني؟! راح موعد الطيارة عليكم؟!

- راح... لكن نشكر اللّه ست سميرة أننا بسلام!

هزّت «سميرة السليماني» رأسها موافقة، ثم راحت تنزع الوريقات الذابلة من على نباتاتها المزروعة في تنكات حديد على الشرفة. أما الست «أم بيرو» فقد رسمت علامة الصليب على صدرها وهي تهمّ بولوج مدخل البناء. لكن من أنصت من سكان البناء استطاع سماع نشيج «جولييت» طوالَ ما تبقى من الليل حتى حين بدأت أصوات الرشاشات وقذائف المدفعية والشيلكا والدوشكا سيمفونيتها اليومية في المناطق المحيطة.

(١٢)

عن الفجيعة وذاك الغول الذي اسمه الموت

كانت «ريما العيساوي» تدقّ على رأسها وصدرها، تصرخ بشجة، تلطّخ وجهها بالغبار وهي تصفعه، وتدور كالممسوسة في أرجاء غرفتها في حي «القيمرية» في «دمشق القديمة». «خالد الساعي» ينبع مرتعباً بعيون مفتوحة يراقب نوبة البكاء الهيستيرية التي تجتاح حبيبته بدون أن يعرف ما الذي عليه فعله! حينما وصل «صلاح عباس» بعد دقائق كانت «ريما» توشك على الإغماء في الكوريدور الفاصل بين المطبخ الصغير والغرفة، و«خالد» ينوح فوقها.

قبل أقل من نصف ساعة جاءها خبر استشهاد أخيها «مهند العيساوي»!

كان قد طُلب للاحتياط منذ شهرين تقريباً، الخدمة الإلزامية الثانية التي يقضيها في صفوف الجيش النظامي، فقد كانت الأولى انتهت منذ عامين بعد شهور قليلة من حصوله على شهادة كلية التربية الرياضية.

كانت «ريما» تلهج، فيما «صلاح» يحاول تهدئتها، بأنها قالت له ألا يذهب إلى الجيش، قالت له أن يهرب، ولكنه أصرّ على الذهاب. قال لها في آخر مكالمة إنه سيورّط العائلة بأكملها إن لم يلتحق بطلب الخدمة الإلزامية التي أتته. ثم مازحها: «ألا يكفينا أنت؟ جلبت لنا ما يكفي من المشاكل!»، ثم أردف بأن واجبه الدفاع عن الوطن والشعب من كل هجمات إرهابية.

- كان يوماً مشؤوماً . . . واللّه يوم مشؤوم!

تعود «ريما» للنشيج، ويتساقط الماء من أنفها وفمها قبل عينيها.

لكن في النهاية كان عليها أن تتجه إلى القرية حيث سيكون دفن أخيها في الغد. «صلاح» لا يمكنه الذهاب، رغم أنه من المفترض أن يكون موجوداً وأم الشهيد ابنة عمه. لكنه خشي من تكرار تجربته الأليمة مع المسلحين الموالين في قريته، قال لها، لذلك فضّل أن يقدّم تعازيه لابنة عمه هاتفياً، وكان على «ريما» أن تغدو إلى جنازة أخيها «مهند» وحدها.

على الأتوستراد الذي يخترق البلاد باتجاه الشمال كانت «ريما» تتذكر أخاها الراحل. كل الذاكرة القديمة المطمورة سفحت أمامها طوالَ الساعات الأربع التي تفصل مدينة «دمشق» عن مدينتها «اللاذقية». لم تفكر بردة فعل أمها حين تراها، ولا بالذي من الممكن أن يقوله والدها، لم يخطر ببالها شيء! ملتاعة بالفقد كانت وبوجه «مهند» المرسوم بضحكته أمامها. كانت تفكر بأن الحرب، أياً كانت مبرراتها، أمر حقير سيء ودموي. هي حرب في النهاية يموت فيها الجميع من كل الأطراف. «لا توجد حرب جيدة. . . لن تكون الحرب جيدة بحال مهما كانت نواياها وطموحاتها. ميدان للموت هي. . . وللموت فقط». دمدمت وهي تنشق بدموعها محاولة مداراتها عن بقية المسافرين الذين راحوا يرمقونها بفضول وتعاطف. ثم في لحظة لمعت فكرة في رأسها: ربما صاح المعارضون المسلّحون حين سقط «مهند» بأن كلباً من النظام سقط! ربما لبطوا جثته بأرجلهم. وربما بصقوا عليه! ربما قام أحدهم بذلك. . . ربما! فالغضب يفعل أي شيء. جعلتها تلك الفكرة تدخل في نشيج عالٍ بغير توقف. ثم راحت تتأرجح بين أمرين، تنوس بينهما، أولهما أنها تشعر بالحقد على من يكون قد فعلها، والثاني أنها تبرر له ذلك بعد كل ما مرّ عليهم. ربما قُتل أخوه، أو عائلته بأكملها. ربما لبط جنود النظام جثة

رفيقه وبصقوا عليها. وربما لم يحدث أي شيء من هذا، بل سقط «مهند» في البعيد بين رفاقه... وربما! ثم راحت تحاول طرد تلك الأفكار التي تعبث برأسها كشياطين ملتهبة، تحاول تذكّر «مهند»، ذاكرتهما المشتركة، الأوقات الفرحة. لكن تلك الشياطين الملتهبة لم ترضَ أن تفارقها!

حين وصلت مشارف القرية كان ثمة سيارتان عسكريتان وسيارة تلفزيون «الدنيا» تقفل عائدة بعد أن سلّمت التابوت الخشبي الملفوف بعلم سوريا الرسمي إلى أهله. كانت الكاميرا تصوّر المشهد كاملاً من وقت وصول التابوت عند مطلع القرية وحتى البيت. فكرت «ريما» بأن حظها جيد لأنها وصلت بعد رحيلهم، «أولئك الذين يقتلون القتيل ويمشون في جنازته. سيعرضون الصور غداً على شاشاتهم، وينوحون على رجال جيش الوطن الذي يقتله الإرهابيون!... كلاب... كاذبون...»، دمدمت وهي تقترب من أصوات النواح وزحمة الملتمين. صوت القرآن يتعالى من بعيد بقراءة الشيخ «عبد الباسط عبد الصمد». كان قلبها ينتفض، وتشعر بأن جسدها واهن لا يقوى على سيرها.

﴿وسلام عَليه يوم ولِد ويوم يموتُ ويوم يُبعَث حيّاً...﴾

عند الباب المشرّع للقادمين وقفت أناظر أمي: هل ستطردني؟ كيف ستستقبلني؟

كانت حانية كعجوز ملفّحة بالأسود، واللحشة البيضاء، التي ترتديها في الجنازات، سحلت عن رأسها. عيناها حمراوان متورمتان وحركاتها متعبة. النسوة يتقدمن لعزائها وهي هائمة في مكان آخر. حالما لمحتني ابتسمت بحزن من بين دموعها. لم أجد نفسي إلا وأنا أرتمي في حضنها، وشعرت بساعديها تضمّانني!! لثوان نسيت كل ما حولي... كل شيء، الناس، العزاء، العيون والعيون التي تراقبني، وراحت أدفن رأسي في ثوبها الصوفي الأسود، كانت نظارتي قد

سقطت وأنا أحكّ وجهي وأحكّ باللحشة القطنية البيضاء، أتنسّم رائحة حُرمت من عبقها طوالَ ما يقرب السنة، رائحة تشبه رائحة الجنة.

﴿إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يَسمع ولا يُبصِر ولا يُغني عنكَ شيئاً﴾

عبد الباسط مازال يرتل.

في المرة الأخيرة قبل سنة تقريباً قال لي والدي بألا آتي بعد الآن إلى هنا. طردني بنبرة حازمة وهادئة وأشاح بوجهه عني. ربما لم يكن يقدر على فهمي. بالنسبة إليه كنت ابنته التي طالما أحبها وهي اليوم مع الإرهابيين الطائفيين الذين يريدون قتل أهلها! عبثاً حاولت أن أشرح له وجهة نظري، أن أوضّح له رأيي بأنها أكاذيب يلفّقها النظام، ويريد أقناعهم بها... عبثاً. حين حدّثت «صلاح عباس» بكل ذلك، وأنا أبكي ناشجة، قال لي بعد صمت: «اهدئي ريما، سيأتي يوم وتتكشّف كل الحقائق وسيفهمون... بهذه الطريقة لن يصل لهم أي شيء مما تريدينه»، ثم أردف كأنه يخاطب نفسه: «غلالة سوداء تظلل رؤيتهم، أتمنى أن يأتي يوم قريب وتزول... وإلا...».

سألته هلعة من بين دموعي: «وإلا ماذا؟!»، لكن «صلاح» صمت، ونفث سحابة دخان قاتمة من فمه.

اليوم تحتضنني أمي باكية، وأبي يمسح وجهه وشاربيه الكثّين الرماديين. كان يخبّئ عينيه المتورمتين عن الجموع في الغرفة المتّسعة المحتشدة بالأقارب والمعارف وأهالي القرية ووجوه لا أكاد أتبينها. بعد أن عبّأت روحي برائحة أمي اتجهت إليه. فكرت في الأمتار القليلة الفاصلة بيني وبين كرسيه في صدر الغرفة بأني سأقول له إن رفض السلام عليّ: «لا تدع أحداً يفرّق بيتنا بيي... واللّه أنا بحبك كتير ويلعن أبو كل شي يفرّقنا». لكنه لم ينتظر طويلاً. حين اقتربت وأخذت كفه وقبّلتها ممرّغة إياها بوجهي، احتضن رأسي وقبله، ثم ضمّني، ضمني بقوة، واقتحمتني رائحة تبغ عتيق، رائحة حبيبة حبيبة.

في تلك اللحظة، ولسبب ما، نسي والد «ريما» كل شيء. نسي لعيون المعلّقة به، تلك التي تنتظر كيف سيتصرف مع ابنته العاقّة لخائنة، ونسي ما مرّ، وما تحدّثا به، وكل شهور البعاد المنصرمة، كان يفكّر بأنه اشتاق إليها كثيراً، وبأنه فقد ابنه ولا يريد أن يفقد ابنته أيضاً... وضمّها بعمق! وفي تلك اللحظة أيضاً صاح صوت نسائي من بعيد، من مجاهل الغرفة: «ريما».

من بين دموعها، وفيما كانت ماتزال قابعة على الأرض ملاصقة لكرسي أبيها، تبيّنت «ريما» امرأة عمها قادمة من عتمة الزاوية. كان شعرها الأرجواني من الحنّة المتراكمة على شيبه يظهر من تحت لفوطة البيضاء التي تزنّره. لا يمكن لها أن تنسى هذه الهيئة أبداً! كان وجه امرأة عمها الأبيض السمح، الذي ترتسم ابتسامته على الدوام على محياه، مثار تندّر للقرية كلها. بسبب تلك الابتسامة المرحبة دوماً لقبوها: «أم محمد أهلين».

- انشاللّه تكوني مبسوطة بموت خيك؟!

نظرات الشماتة تقطر من عيني «أم محمد أهلين»، تنضح بالكثير الكثير. اختفت ابتسامة الترحيب الملتصقة بوجهها وتغيّرت سحنتها بالكامل!

لم تجب «ريما»، تذكّرت وصايا «صلاح عباس» لها قبل السفر: «لا تردّي على أي كلام يخصّ موقفك المعارض. اصمتي ولا تستجيبي لاستفزازاتهم...». لكن لم يكن من السهل الصمت بعد هذا السؤال اللئيم. كيف من الممكن لها أن تكون سعيدة بموت أخيها!!

أعادت امرأة عمها السؤال صارخة، وهي تقوم من مكانها وتتجه نحوها: انبسطت! مات خيك.. ومن قتله؟ الإرهابيون الذين تعميهم يا خائنة. تقفون بجانب الذين يقتلون شبابنا يا خونة!!

لم تعرف «ريما» ما الذي ينبغي أن تفعله! كان قلبها ينتفض

والمرأة المفجوعة تقترب منها أكثر. امرأة غريبة كأنها لم تعرفها يوماً، تصرخ وتصرخ، دموعها تنهمر على فوطتها التي انسحلت من على رأسها، ويبدو واضحاً بأنها تهمّ بالانقضاض على «ريما».

كانت «أم محمد أهلين» قد فقدت ابنها الوحيد قبل شهر تقريباً. استشهد، كما قالوا لها، في تفجير إرهابي استهدف رتلهم العسكري في إحدى مناطق ريف «حلب». هذا كل ما عرفته!

- على الأقل خيّك وصل جسمه كامل. ابنها يا حرام ما بعثوا لها بجثته. قالوا منتّف تنتيف، جسمه صار شقف... أشلاء. يعني حتى جثة تقبرها ما لاقت المسكينة... اللّه يعينها ويعينّا.

قالت أم «ريما» لابنتها وهي تحتضنها في الغرفة الداخلية وتهدئ من روعها. ودفنت «ريما» رأسها في التابوت الخشبي الذي يحتضن جثة «مهند»، وكان قد تمّ وضعه على طاولة خشبية وسط الغرفة.

«مهند» يرتدي بيجامته السوداء والبيضاء، الأمر الذي أثار زوبعة من الأسئلة في رأس «ريما». يبدو ملائكي الوجه صافياً كأنه رحل للتو في فراشه. كان أمراً جيداً أن يصل بجثة كاملة غير مشوهة، فكرت «ريما». ثم شتمت نفسها لأنها فكرت على هذا النحو. ليس في الموت أي شيء جيد، فما بالك لو كان قرباناً لنظام فاشٍ!

الجثة تكثّف المكان من حولها، بؤرة تستقطب كل شيء، كأنها تحتلّ مكان «مهند»، شيء مغاير عنه، ليست هو!

«هل تكون روحه حولي في الغرفة الآن؟!»، فكرت «ريما» وهي تدور بعينيها في الفضاء المحيط، تبحث عن خيط نور أو رقّة نسمة تُشعرها بروح «مهند» السابحة حولها بحب، أو ربما بغضب من كل ما حدث لها.

روحه يعني هو، أما هذه الجثة الساكنة فليست هو أبداً!—

كانت الأم قد صمتت، وراحت تبحث عن قدمي ابنها في التابوت لتمرّغ وجهها وشفتيها بهما.

- يموت شبابنا كي يبقى هو!

صاح صوت من الخارج وسط الجموع ثم ساد صمت غامض. أحسّت «ريما» لوهلة بأنه صوت عقلها... هل تكون قد جنّت؟!.

- نعم... يموت شبابنا ليظلّوا هم على الكراسي، ليظل هو على الكرسي... نعم ليش الخوف من الحق؟!

عاد الصوت مجدداً. إذاً ليس صوت عقلها!

كان شاباً من القرية المجاورة، زميل «مهند» في الجامعة، في الدفعة نفسها، وقد استشهد أخوه أيضاً قبل مدة، حسبما همست الأم وهي تنشق بدموعها.

- أنا رأيت بعيني التوابيت مصفوفة فوق بعضها في المستشفى الوطني... أنا رأيت بعيني. توابيت فوق بعضها كانت. عشرات... مئات التوابيت... ليش؟!!

- . . .

- ولك ليش؟!... حدا يقول لي ليش شبابنا يموتون كل يوم، ومن أجل من؟! سيصيرون ثلاثين ألف شاب علوي... ومن أجل من؟! من أجل بشار الأسد؟!

بدا الشاب كأنه فقد عقله، أما الصمت فقد ظل مخيّماً كخيمة سوداء وثقيلة.

حمله بعض الرجال من المعزّين وأخذوه إلى بيت الشعر الذي نصب للتو في الخارج من أجل الرجال. علّقت أم «ريما» بصوت عالٍ كأنها تريد إيصال صوتها إلى المحيطات بها: مسكين اللّه يعينه، مصيبة أكلت له عقله. أخوه الوحيد... اللّه ينتقم من اللي كانوا سبب.

- لكن هو معه حق أمي...

ضغطت الأم على كفّ ابنتها، وعضّت على شفتها أن اسكتي. ثم همست: «كرمى لي يا ريما، خلّي هالعزاء يمضي على خير. من

أجل خيك بس». فصمتت «ريما». كانت النساء المعزيات يتكاثرن ويتكاثرن حولها، و«مهند» مازال يتمدد هامداً في تابوته الخشبي العتيق.

بعد ساعات وعند الباب وقف «عمر يوسف» منتصباً، يكاد يحجب الضوء بقامته المديدة. عرفته «ريما» من بعيد، لن تخطئ تلك القامة الفارعة الفخورة. واجتاحتها نوبة جديدة من البكاء الحارق.

«عمر يوسف» كان الصديق الأقرب إلى «مهند». يبدو اليوم شاحباً حزيناً كأن روحه هي التي سرقت منه وليست روح رفيقه. كانا قد درسا التربية الرياضية سوية في معهد في مدينة «درعا» جنوباً. تخرّجا معاً، وعملا معاً أيضاً بعد شهور من تخرّجهما في منتجع اسمه: «منتجع نبع الحياة» للمياه الحارة، في مدينة «جباب» على طريق «دمشق- درعا». لا أحد يذكر «مهند» إلا ويذكر «عمر» معه. وفي قسم المعالجة الفيزيائية في منتجع «نبع الحياة» كان «مهند» يدير الصالة الرئيسية، فيما «عمر» مسؤول عن المساجات التي يتفنن في إخضاع الزبائن للذّتها.

مرّ وقت طويل لم تقابل «ريما» فيه «عمر»... وقت طويل حقاً، ربما أكثر من سنة ونصف. حتى إنه غادر ذاكرتها في الفترة الماضية! لكنها مازالت تذكر بأنه سبق لـ«مهند» أن سكن معه في شقة يملكها خال «عمر» في نهاية مدينة «جرمانا»، ربما كانت قريبة من بيت «صفوان» و«مريم» اليوم، حسبما تسعفها ذاكرتها المتعبة!

«عمر يوسف» شاب من مدينة «الحراك» في ريف «درعا»، قضى خدمته الإلزامية في فرع المخابرات الجوية في «حرستا»، وظل على علاقة طيبة مع عناصر الأمن في الجوية حتى بعد أن تسرّح من الخدمة. كان يفكر بالعودة إلى منتجع «نبع الحياة» بعد انتهائه من الخدمة الإلزامية، لكن المنتجع توقف، لم يعد هناك من عمل يُذكر! صاحب المنتجع، الذي كان ملياردير معروفاً من مدينة «دمشق»، دأب

على الذهاب إلى منتجعه كل صباح، وفي المساء يعود في الطريق ذاته. مع الوقت صار ذاك الطريق مثيراً للفزع، الاشتباكات مستمرة عليه، معظم المعامل والشركات التي تقع على طرفيه تغلق أبوابها واحدة وراء واحدة، لكنه أصرّ على الغدوّ والعودة يومياً! في إحدى المرات، حين كان يقفل عائداً كعادته كل ليلة، اختفى المليارديرالدمشقي! بعد أيام اكتشفوا جثته مرمية على مشارف «الكسوة» وسيّارته مسروقة، وكذا محفظته وقطع الذهب التي كانت تزيّن نحره ومعصميه. رصاصة واحدة في الرأس كانت كفيلة بإنهاء حياته، وإقفال أشهر منتجع للمياه الحارة في «سوريا».

عاد «عمر يوسف» ليسكن في شقة خاله في «جرمانا». لكنه كفّ عن هوسه اليومي في البحث عن عمل، وقرر أن يتفرّغ للعمل في الثورة! لكنه عمل من نوع آخر، «يعمل مع رفاقه القدامى من عناصر الأمن لمصلحة الطرف الآخر!»، همس لـ«ريما» غامزاً وهما واقفان أمام البيت، فيما المعزّيات تتوافدن إليه بدون انقطاع، والمعزّون يتّجهون إلى بيت الشعر القريب.

كنت أريد أن ألعن كل شيء، لكني لم أقدر على الكلام، غصّت الحروف في حلقي، وشعرت بأني سأختنق! لكن «عمر» عاجلني وأخذني من يدي إلى ركن جانبي بعيد قليلاً عن زحمة النساء: لديّ الكثير لأقوله لك في الأيام المقبلة. سأراك في دمشق وأخبرك بفيض المعلومات الفظيعة، سيشيب رأسك لسماعها... أتيت بها من الداخل!!

- الداخل؟!!

- من داخل الفرع...

همس «عمر» متلفتاً حوله.

عند المساء، حالما فرغ البيت إلا من قلة قليلة من المقربين، راحت أمي تحدّثني بالتفاصيل. كنا ملاصقتين لـ«مهند» نمسح وجهه

وكفيه الباردتين. الدفن سيكون بعد الفجر بقليل، وشيخ القرية، الشيخ «شعبان»، صلّى على جثمان «مهند» قبل أن يعيده الرجال إلى التابوت بانتظار الغد.

الشيخ «شعبان» كان مساعداً أول في الجيش، حين تسرّح من الخدمة قرر أن يصبح شيخاً! خاصة وأن والده كان شيخاً أيضاً، فالمشيخة أمر متوارث في العائلة. لكن الجميع كان يعرف، حتى لو لم يعترف الكثيرون بذلك، بأن ثمة بوناً شاسعاً بينه وبين أبيه الشيخ، شتّان ما بين الإبن وأبيه! في أحداث الثمانينيات كان أبوه أشبه بصمام أمان ضبط معظم ردود الأفعال التي كان من الممكن لشباب «الرمل الشمالي» أن يأتوا بها، «الرمل الشمالي» ذاك الحي الذي كان متطرّفاً آنذاك في مدينة «اللاذقية» وغالبية سكانه من أهل القرى القريبة والبعيدة، وبيت أهلي الآن هناك في المنطقة الغربية منه. حين كانت الانفعالات الغريزية تسيّر شباب الحي كان يقف في الساحة ويصيح عليهم بألا يقوموا بأية خطوة رعناء ستحمّل الطائفة دماء جديدة. هذه الحوادث تتناقلها الأفواه عندنا على مدار الوقت! كما كان الشيخ الأب يحذّر أيضاً شباب القرية من الإتيان بأية حركة تجاه أبناء المدينة للأسباب ذاتها. اليوم يقوم ابنه الشيخ «شعبان» بأفعال معاكسة، شيء يشبه دعوة شباب القرية لحماية أهلهم بمنطق الهجوم لا الدفاع، أما بيته فقد كان مركزاً لتوزيع الأسلحة على شباب الحي والقرية، في حين أطلق أهالي الحي على مضافة بيته: «مضافة الأمن». بسبب من كل ذلك كان الشيخ «شعبان» عارفاً بكل معارض في قريته والقرى المجاورة، كما في حي «الرمل الشمالي» والأحياء المجاورة!

حين لمح الشيخ «شعبان» «ريما العيساوي» مطأطأة الرأس على الكرسي الملاصق للطاولة الخشبية في المنتصف صاح باستنكار: «شو إنت هون؟!» لم تجبه، كانت تعرف بأنه يستطيع إيذاءها لو فتحت فمها بكلمة، فهزّت رأسها فحسب. كانت روحها أكثر تعباً من أن تفكّر فيه

وبما يمكن أن يقوم به. اقترب الشيخ منها، ومدّ ظاهر كفّه إلى الأمام قريباً من فمها إشارة لها كي تبدأ بتقبيلها. كانت عينا أمها تتوسلها أن تقبّل كفّه وإلا... فقبّلتها.

قال الشيخ للأم، الجملة نفسها التي قالها لوالد «مهند» حينما أنتهى من تكفينه: «احمدي ربك يا أم مهند أن ابنك مات مؤمناً...»، هزّت المرأة رأسها وصمتت. همست «ريما»: ماذا يقصد؟!!

- أخوك أنهى تعليم الديانة على يديه قبل وقت قليل من ذهابه إلى العسكرية.

حينما خرج الشيخ من الغرفة بصقت «ريما» على الأرض.

- تعرفين جيداً حبيبتي أنه يستطيع أن يأتي برجال الأمن الآن ليشحطوك... يكثّر خيره سكت!

- اللّه لا يكثر خيره هو وأمثاله... هم الذين خربوه البلد وضيّعوا الناس.

نبرت «ريما». لكن الأم راحت تسرّ لابنتها، وهي تنشق دموعها التي لم تكفّ عن الهطول، بأن «مهند» اتصل بها قبل أيام من استشهاده وكان يبكي: «سألته ليش عم تبكي يا روح أمك؟ موجوع؟ تعبان؟! انشاللّه أنا ولا إنت يا قلبي». فأجابها بأنهم محاصرون في منطقة، لا يخرجون ولا يدخلون، بلا هواتف وبلا تلفاز، مقطوعون عن العالم!.

- وقال لي لا تتصلي فيني لأن الموبايل ليس لي... بس أنا اتصلت فيه كثير والموبايل مغلق. بعدين اتصل شاب غريب وقال لي افرحي يا خالتي، افرحي... ابنك استشهد فداء الوطن... افرحي. ـي واللّه يا أمي ما فرحت، ما فرحت. قلبي انشلع، تنتّف، وحسّيت روحي رح تطلع... ياويلي، مهند الحنون الطيب يموت!! يا قهرة ـي يا بنيي، يا قهرة قلبي...

ودفنت رأسها في الكفن الذي يلفّ جسد ابنها.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشر ليلاً، والشيخ «عبد الباسط عبد الصمد» صمت منذ وقت عن تجويد القرآن من المسجلة، حين دخلت خالة أم «مهند»، عجوز تجاوزت الثمانين أوصلها ابنها إلى الغرفة حيث كانت أم الشهيد وأخته وقريباته يواصلن بكاءهن الحارق فيها. دخلت ناقرة الأرض العارية بعكازها الخشبي العتيق، حانية، مجعّدة الوجه كفستانها الأسود وحزامه المطاطي المزموم على خصرها. لم تبكِ الجدة حين ولوجها الغرفة، ربّتت على كتف ابنة أختها:

«بسلامة راسك»، قالت بصوت عال.

وضعت كفّها العارقة المرتجفة على وجه «مهند» الممدّد على طاولة المنتصف، ثم أغمضت عينيها وهي تتمتم بالأدعية. كانت عيون كل من في الغرفة تتعلّق بها. أنهت تمتماتها، ثم اتجهت ببطء إلى الزاوية لتجلس على كرسي خشبي متكئ على الحائط. أخرجت كيس التبغ من عبّها، وراحت تلفّ سيجارة.

- رزق اللّه أيام السفر برلك يا خالتي...

بدأت الجدة موجّهة كلامها إلى أم «مهند» التي كانت تناظرها، وصمت الجميع منصتاً: بتذكر بيّي كان يقول لي إنهم كانوا يهربوا من العسكر العصملي وقت يجوا لياخدوا الشباب عالأخد عسكر.

تمرّر لسانها على طول السيجارة الثخينة التي لفّتها محاولة ترطيبها: «يهربوا إلى الجبال... يروحوا يهشلوا بهالجبال والمغاور. كان بعضهم يموت من البرد، وبعضهم يأكلهم الضباع».

أشعلت العجوز السيجارة بقدّاحة الحجر التي أخذتها من عبّها.

- لكن كانوا يهربوا، ويرجع كتير منهم سالمين بعد ما يروح العصملّية من الضيعة. اليوم لوين بدهم يهربوا أولادنا يا حسرتي... اللّه يعينا، العسكر اليوم بيعرفوا كل شبر بالجبل، وبيعرفوا عينة

المطلوب وأهله وأصله وفصله، لوين بدهم يهربوا ولادنا يا حسرتي... لوين؟!

- ...

- اللّه يصبرك يا ابنة أختي على بلاك... اللّه يرحم ابنك، ويرحم هالشباب... اللّه يرحم هالبلد.

ومجّت العجوز من سيجارتها بعمق: اللّه يرحم هالبلد...

في صباح اليوم التالي، بعد أن انتهت مراسم الدفن، قفلت جموع المعزّين عائدة من المقبرة باتجاه القرية. كانت بيوتات القرية المقابلة، تلك التي تقبع على سفح الهضبة الحانية قبالتي، تتلامح إليّ من بعيد. أصوات القصف وسحب من الدخان المتصاعد تظهر جلية، فتلك الجارة البعيدة المطلّة علينا تحولت إلى قرية معارضة اليوم، وثمة العشرات من بيوتات ضيعتنا تمركزت على أسطحتها مدفعيات ورشاشات وراجمات صواريخ موجّهة باتجاه القرية المعارضة. دمممممم... ودوّى صوت بعيد لقذيفة.

للحظات تذكرت العم «أبو محمد الطش»، كان الرفيق المقرّب لوالدي من تلك القرية التي يتم قصفها اليوم. سألت أمي عنه، قالت إنه لم يزرهم منذ شهور!

- ولم يأت للتعزية بمهند؟!

- لا لم يأت!

- ولم يتصل؟!

- ولم يتصل!

صامتة بقيت الأم وهي تغذّ السير مطرقة باتجاه القرية، تمسح عينيها المتورمتين ووجهها الذي راح ينضح بكل حزن العالم. أما «ريما» فكانت تتذكر تعابير وجه العم «أبو محمد الطش»، شاربيه الكثين، وكفه الكبيرة الدافئة، وتلك الصورة القديمة التي جمعتهما سوية أمام بيته تحت عريشة العنب الأسود البلدي. صورة قديمة مرمية

في مكان ما من بيت أهلها. وقررت أن تبحث عنها حالما تصل البيت.

لكن كان على «ريما العيساوي» أن تعود من فورها إلى «دمشق» بعد انتهاء مراسم الدفن. الشيخ «شعبان» ومجموعة اللجان الشعبية في القرية خبّروا أباها بأن تغادر المنطقة وإلا سيزعجونها. فهم قدّروا الموقف إنسانياً، لكنهم لن يستطيعوا السكوت أكثر عن وجودها غير المرغوب فيه بينهم، وليشكر «أبو مهند» إنسانيتهم التي منعتهم من تسليمها مباشرة إلى رجال الأمن. وغادرت «ريما» قبل أن ينتصف اليوم، أخذت معها مؤونة الأشهر المقبلة من رائحة أمها، ملمس كفّ والدها الدافئة، ولذعة التبغ... ورحلت.

في الطريق راحت تفكّر بالعم «أبو محمد الطش»، بالجفاء الذي راح يضرب خيامه بين الصديقين، بين القريتين، وبين مناطق البلاد كلها! تفكر بتلك الذكريات الجميلة المشتركة التي تبدّدت خلال شهور قليلة كالسحر. كانت تشعر بشيء ما يشبه الكره يتوغّل في روحها، كره لكل شيء، وغضب من كل شيء.

حين ستخبر «صلاح عباس» بكل ما جرى في صالون بيته في «جرمانا» سيشير إلى الكرتونة البيضاء المعلّقة على الحائط والمكتوب عليها جملة «مارتن لوثر كينغ»، التي صاح بها يوماً على رجاله: «دعوا الذعر جانباً، ولا تفعلوا شيئاً يمليه عليكم شعور الذعر».

- إنه الذعر ربما ذلك الذي يغلق بصرهم وبصيرتهم، ذعر من الآخر، وذعر من رجال النظام، ذعر أن يأتي يوم ويعودوا فيه إلى حياة الذعر السابقة! ومن يتحرّك بإملاء الذعر سيغدو أشبه بوحش مذعور!

- هل يعقل أن يكون الذعر وحده المسبب؟!

- الذعر هو السبب الحقيقي بالنسبة للكثيرين، أما القلّة فبسبب من الذعر أيضاً، لكنه ذعر من أن يفقدوا كل تلك الامتيازات التي

سرقوها يوماً بعد يوم في ظل هذا النظام. . . إنه ذعر، لكن من نوع آخر!

- وهل هو الذعر الذي جعل شاباً علمانياً كمهند يتعلّم الديانة على يدي الشيخ شعبان قبل استشهاده؟!

- لا يوجد ملحدون في الخنادق عزيزتي. وشباب سوريا اليوم كلهم في الخنادق بشكل أو بآخر، في هذا الخندق أو ذاك. . . كلهم أجبروا على النزول إلى الخنادق.

ثم انشغل «صلاح عباس» بصياغة بيان سيصدره تجمعهم، يندّدون فيه بقرار السلطات السورية إبعاد الأب «باولو داليليو»، بعد أكثر من ثلاثين عاماً قضاها في خدمة دير «مار موسى الحبشي». كان ينبغي أن يدقّق في البيان على وحدة الشعب السوري، وتلاحم طوائفه وعدم الانجرار إلى الفتنة الطائفية، هذا ما كان يردده وهو يعيد ترتيب الكلمات في متن البيان، ذاك الذي سيبعثه بعد قليل في نص بريد إلكتروني إلى بقية رفاقه في التجمّع ليصار إلى نشره غداً صباحاً.

لكن سيمرّ وقت طويل قبل أن تستطيع «ريما العيساوي» توثيق ما جرى في القرية، ستحتاج زمناً حتى تستطيع كتابة التفاصيل دون أن تبلل الورق بدموعها. «ليس من السهل أن يوثّق المرء آلامه، يبدو الأمر أشبه بإعادة عيشها مجدداً»، فكرت. «أو يشبه أن تعيد الضحية تفاصيل اغتصابها عشرات المرات، تعيد وتعيد، وفي كل مرة تتحدث عن ذلك كأنها تُغتصب من جديد».

(١٣)

عن مفاتيح المدينة المعلّقة في زنار «أم ياسر»!

ناداني أحد الشباب من أمام باب الحوش، صاح: «يا خالتي يا أم ياسر». كنت أحاول أن أشعل النار تحت الدست الكبير ببقية القرم التي بقيت من تلة الحطب، تلك التي جمعها الشباب في زاوية حوش البيت. رميت بقايا أوراق وجدتها في الصالون تحت القرم، ورحت أنفخ عليها عبثاً، النار لا تشتعل. رطوبة الحطب تطفئ كل بصّة نار أحاول رميها.

«يا خالتي يا أم ياسر». صاح الشاب من جديد.

كان عليّ اليوم أن أعدّ الطعام لأكثر من مئتي شاب من شباب «القصير»، أولئك الذين يسكنون في البيوت المحيطة ببيتي، كان معظم أهاليها قد هجروها. فكّرت بأن أطبخ البرغل، فلم يعد لدي الكثير لأطبخه في هذه الأيام.

جارتي وأولادها الخمسة تركوا «القصير» بعد أن استشهد زوجها برصاصة قنّاص. تركت مفتاح بيتها معي ورحلت. يا لطيف على ذاك المنظر، نصف رأس زوجها طار بتلك الرصاصة! شو هالرصاصة الفظيعة! اللّه يعينها، قلت في قلبي وأنا أعزّيها وأشدّ على جسدها الصغير المرتجف بين ذراعي: كيف ستتحّمل ذكرى هذا المشهد طوالَ حياتها!

أطفالها الخمسة كانوا يتجمعون حول جثّة والدهم، أكبرهم عمره عشر سنوات تقريباً. صرخت عليهم أن يبعدوا الأطفال، سيتذكّرون منظر والدهم طوالَ حياتهم، والد بنصف رأس ودماغه خارج جمجمته، يا لطيف! لكن الفأس وقع بالرأس ورؤوا ما رؤوه. ليس أولاد جارتي وحدهم، كل أولاد «القصير» رؤوا الذي لا يمكن احتماله. ليس أولاد «القصير» وحدهم بل كل المناطق المحيطة بنا! أفكر أحياناً كيف سيكبر هؤلاء الأطفال، على ماذا ستنمو أرواحهم! على الموت، على القتل، على الدماء... على ماذا؟! أنا نفسي مازلت أذكر زوجي رحمه اللّه وقت وفاته، رغم أنه مات منذ سنوات طويلة بحادث سيارة، لم يقتله أحد ولم تكن جثته مشوّهة، لكني وطوال السنوات السابقة لم أستطيع تذكره إلا وهو مبحلق العينين فاغر الفم ممدداً على صندوق سيارة البيك آب التي أتت به من موقع الحادث. كنت في الخامسة والعشرين من عمري، وأطفالي الأربعة ملؤوا كل حياتي، لكن الموت بشع، بشع جداً، أبشع من أن ينساه المرء. دفنوا جارنا في مقبرة الشهداء يومذاك، تلك المقبرة التي لا تبعد كثيراً عن بيتي، وكانت قد بدأت تغصّ بجثث الشهداء المتراكمة حتى لم يعد من متّسع لجثث جديدة. لكن اليوم هناك أكثر من ألف شهيد مدفون فيها، واللّه يستر من أعداد أخرى، فالمقبرة تتمدّد وتتمدّد باتجاه الغرب. في ذلك اليوم قلت: اللّه يعين جارتي على استشهاد زوجها، ولكني بعد شهور قليلة ذقت من كأس أشدّ مرارة: ولدي حبيبي «ياسر» قتل قبالة عيني... بكري وفرحة قلبي قتلوه! يا اللّه حين أذكر اليوم الأسود ذاك أحسّ بأن قلبي سيتوقف! ولدي حبيبي كان الوحيد الذي بقي في البيت بعد زواج أخوته الثلاثة. ولولا أني أخاف أن أغضب ربي لقتلت نفسي بعده. لا أذكر تماماً ماذا فعلت يومذاك، أذكر ملمس قدميه الباردتين وأنا أضمّهما إلى قلبي، أقبلهما. رائحته الحبيبة يطغي عليها زنخة رائحة الدم، وجهه الجميل مازال مثلما هو،

كأنه نائم حبيبي! حاولت إيقاظه، وإيقاظه، لكنه لم يفق! ثغرة واسعة فتحتها الرصاصة في بطنه. لم يسمحوا لي برؤية الجرح، لفّوه بشرشف سريره الأبيض ثم تركوني أقبله... أضمّه، أحضنه، أشمّه، أدخله لآخر مرة في قلبي... لن يعرف أحد ماذا يعني أن تفقد أم ابنها إلا الأم، لن يعرف أحد ذلك، الأم وحدها تعرف ذلك السكين الذي يحزّ الروح كل دقيقة بعد فراقه. واللّه بكيت مرة على شاب مجند من جيش النظام قُتل بعد اشتباك كبير ظل لساعات. كان الشباب يصيحون بأنه عنصر من كتائب الأسد وفطس، أما أنا فبكيت عليه حين اكتشف ابني رسالة في جيب بذته العسكرية كتبها العسكري لأمه قبل أن يُقتل. كان قلبي يغصّ بين ضلوعي. لم أكن أستطيع قراءة الرسالة، فأنا لم أتعلم القراءة ولا الكتابة، لكن ابني، اللّه يرضى عليه، قرأها لي... كان العسكري المسكين يودّعها كأنه يشعر بدنو أجله! يا لوعة قلبها، يا لوعة قلبها! تخيّلت كيف سينكسر قلبها، وضعت نفسي مكانها وبكيت. احتفظت بالرسالة بين أغراضي، إذا قدّر اللّه لي مرة أن أراها سأعطيها تلك الرسالة، ودعوت له، وأنا أصلّي صلاة العشاء، أن يرحمه اللّه ويسامحه كرمى لعيون أمه المفجوعة. حلّفت الشباب أن يدفنوه، ولا يتركونه مرمرياً على الأطراف البعيدة للمنطقة حتى يأتي رفاقه ويأخذوه. لم يسمعني أحد! في الليل خرجت وحدي، كان ليلاً بهيماً يصرخ في أذني، مرعباً، مخيفاً، لكني أكملت طريقي إلى حيث من الممكن أن تكون جثته. حملت معي ليلتئذ رفشاً قديماً كان عندي. لم أجد الجثث وقتها! والظلام يعمّ المنطقة كلها. رحت أرتعد قبل أن أعود مسرعة إلى بيتي. لن يعرف أحد، إلا أم مثلي، كيف سيكون حال أمه الآن! الحمد للّه ابني مات شهيداً وهو يحمل بندقيته، مات بعزّ على أرضه مدافعاً عن شرف مدينته وأهله، فيما رحل ابنها في منطقة غريبة لا تعرفها!

لم أسمح لهم بأن يصوّروا جثمان ابني، لم أسمح! قلت سأغضب

على كل من يصوّره وهو شهيد. أعرف بأنهم سيصوّرونه ويبعثون بالصور إلى القنوات الفضائية... أعرف. لكني لم أسمح لهم. أنا أعرف، تموت الأم مئة مرة وهي ترى جثة ابنها معروضة مشوّهة أمام الناس ليتفرجوا! لم أتخيّل أن أرى بكري «ياسر»، الذي تشهد «القصير» كلها بجماله، مشوّهاً أمام المتفرجين! قالوا لي: كيف سيعرف العالم يا خالة «أم ياسر» ماذا يفعل نظام بشار الأسد؟ قلت لهم: عمرهم ما يعرفوا، بس تبقى حرمة ابني بعد موته. ولم يصوّروه!!

«يا خالتي يا أم ياسر» صاح الشاب مجدداً فخرجت إليه.

كان أحد الثوار في المنطقة، يسألني إن كان باستطاعته أن يستخدم التلفون الأرضي في بيتي ليتصل مع أهله.

- طبعاً يا ولدي اتفضل فوت.. التلفون على اليمين فوق المدة.

لم يكن بمستطاع الشباب أن يستخدموا الموبايلات فالخطوط معظم الوقت مقطوعة، لذلك كانوا يتصلون من تلفوني الأرضي، لتلفون الوحيد في المنطقة المحيطة. بداية حينما كانت البلدة تنضرب بالمدفعيات تركها بعض الناس. كانت جارتي في البيت الثاني إلى اليمين أول المهاجرين، ثم كرّت المسبحة. أخرجت مفتاح بيتها من عنقها وأعطتني إياه، قالت لي وهي تبكي إن مفتاح بيتها أمانة عندي، لن تجد من يحافظ لها عليه مثلي، وحين ستعود تريد أن أكون أنا أول من تراه في مدينة «القصير» لتتبارك بي. هذا ما قالته وجعلتني أبكي. أنا لا أحب البكاء، لكني مؤخراً رحت أبكي كثيراً، كل ما حولي يجعلني أبكي، منذ رحيل حبيبي إلى اليوم.

ثم حين صارت «القصير» تُضرب من الجو بالمروحيات، ازداد عدد المهاجرين كما ازداد عدد الشهداء. معظم جيراني تركوا المنطقة. صار كل واحد منهم يمرّ على بيتي قبل الرحيل، يودع مفتاح بيته عندي، يودّعني ويغيب. ناس بسيارات وناس راجلة، ناس لا تحمل إلا أرواحها، وناس لمّت كل أغراض بيوتها وفرشها ورحلت.

كل مفتاح كانوا يعطونني إياه كان يشعرني بأن صاحبه مازال موجوداً، قريباً مني هنا. صرت أجمع كل المفاتيح في شريطة قماشية خزقتها من شرشف قديم زهري اللون. كثرت رزمة المفاتيح وكبرت، صرت أعلّقها في حزام فستاني كي تبقى قريبة مني لا تفارقني. وكنت أشعر بالأمان حين أتحرك فتتحرك المفاتيح معي، خشخشتها وهبتني الأمان، حتى اليوم الذي أصيب فيه ابني الصغير بالغارة. كان قد بدأ قصف عنيف على «القصير»، المدفعيات البعيدة ترمي قذائفها، ثم راحت الهيلوكبترات تحوم في السماء، قريبة جداً كانت حتى أكاد أشعر بأني أستطيع التقاطها. راح الناس يهربون بعائلاتهم في السوزوكيات والسيارات، على الموتورات والبسكليتات ومهرولين. كان الجميع يهرب باتجاه مدخل المدينة. أصيب ابني الصغير يومها، أخذوه ليسعفوه في «بعلبك»، هذا ما قالوه لي. والحمد للّه نجاه اللّه من الموت. حين أتت زوجته لتودعني، كي تلحق به مع ابنتيها والصغير «ياسر»، الذي كان على حضنها، بكيت كما لم أبكِ يوماً. اسودت الدنيا في وجهي، كان وجوده بجانبي يقوّيني، وابنه الصغير، الذي أسماه «ياسر» على اسم أخيه الشهيد، يبرّد نار الفقدان التي في قلبي. لكني لم أستطع أن أقول لها: لا تذهبوا. في «دمشق» سيكونون في أمان أكثر. أخذت مفتاح بيتهم، ولم أضعه مع بقية المفاتيح في الشريطة القماشية على حزامي، دسسته في عبّي، قريباً من قلبي حيث مكان صاحبه.

ترجّتني زوجته كي أمضي معها، قَبّلت يدي ورأسي، لكني لم أكن أستطيع أن أغادر بيتي، واللّه لا أغادره وفيّ نفس يطلع وينزل! ولدي مدفون بجانبي. أصرّيت على أن أدفنه في حوش البيت، قريباً من عيني وقلبي، أصبّح عليه كل يوم وأمسّيه، وأحسّ بروحه تجالسني وتمرّ على وجهي نسمة رقيقة، أشرب قهوتي معه وأتناول زادي وأسمعه ويسمعني. لم أقبل أن يدفنوه في مقبرة الشهداء، ويضيع هناك

وسط الجثث المتكدّسة. هناك أحسّ بأرواحهم مزدحمة متدافعة فوق القبور تنتظر رحمة ربها! أما هنا فقد زرعت في التراب الملقى فوق جسمه الحبيب سكوبة ورد، أسقيها كل يوم، وأشعر برائحته في زهرها، وبروحه ترفّ مع أريجها. يا حبيبي لو أنه قبل أن يتزوج، لكنت سلوت بابنه أو ابنته، لكن اللّه لم يرد ذلك.. لا يمكنني ترك بيتي، أشعر بأني سأخونه، سأخون دمه الزكي. كما أن كل الشباب حولي الآن أولادي، كلهم يشبهون «ياسر»، كلهم حولي ولا يمكنني تركهم، أشعر بأني حملت بهم وربيتهم وسيكونون أيتاماً بدوني. من ستطبخ لهم؟ من ستعدّ لهم الحمام؟ وتتركهم يستريحون في بيتها؟! لمن سيسرون بآلامهم، وأمام من سيبكون حين تغلبهم الوحشة واليأس والحزن؟! من غيري ستكون معهم؟! أنا أم الكل هنا.

قبل شهور طويلة، حين كان رجال الأمن مازالوا قادرين على دخول «القصير» واستباحتها، أنقذت حوالي مئة طفل قصيري. أذكر بأنه كان اليوم الأخير في المدرسة أواخر أيار ٢٠١١، كان اليوم الأخير بكل معنى الكلمة، فلم تفتح المدرسة أبوابها بعد ذلك لا في تلك السنة، ولا في السنة التي تلتها. في ذلك اليوم قرر الطلاب أن يخرجوا في مظاهرة. أطفالي الصغار يرفعون أيديهم ويهتفون زاعقين. منظرهم كاد يميتني من الضحك والفرح. أضحكوني وأنا لم أضحك منذ زمن بعيد. لكن سمعت صوت صراخ رجال من بعيد، كان عناصر الأمن يلحقونهم! ما كان مني إلا أن خرجت إلى الشارع وناديتهم أن يأتوا إلي. ركضوا كالصيصان فقد كان صوت رجال الأمن المقترب يزرع الهلع في المكان. جعلتهم يختبئون في حوش البيت وأغلقت الباب. وأمرتهم بحزم أن يصمتوا. غريب كيف لبث مئة طفل صامتين بدون أية نأمة، كأنهم تماثيل شمعية متراصة، حتى أنفاسهم لم تعد تخرج! وسط هذا الصمت الغريب اعتقد رجال الأمن بأن البيت فارغ حقاً فذهبوا.

أشعلت النار تحت الدست وسكبت الماء ليغلي. سأطبخ اليوم برغلاً مع اللبن، لم يبقَ لدينا الكثير لتطبخه، المؤونة راحت تتناقص، والحصار يمنعنا من جلب مؤن جديدة، لكن اللّه كريم. دخلت لأرى الشاب الذي يتحدث بالتلفون، واستمتعت بصوت خشخشة المفاتيح المعلّقة في حزامي. كان قد انشقّ منذ فترة قريبة عن الجيش النظامي، ومازال غريباً عن المنطقة فقد كان من قرى «حلب»، نسيت اسم قريته! حينما انشقّ وجلبوه إليّ قلت له: «أولاً ستستحم بماء ساخن وصابون خالتك «أم ياسر»، ثم ستأكل من طبخي»، كنت يومها قد طبخت مفركة بطاطا مع البندورة، ووضعت له من بقايا مخلل الفليفلة الذي تشهد «القصير» كلها لي بلذّته. ثم بعدها قلت له: «اتصل بأهلك وطمئنهم». بعد ذلك قرر الشاب أن يبقى هنا ويشارك شباب «القصير» حربهم!

ليس لدى ثوار «القصير» الكثير من الأسلحة، رغم أنهم كانوا كثر. كانوا يتحدثون بهذه الأخبار يومياً أمامي، وهم يشربون الشاي في صالون بيتي بعد الغذاء. معظمهم من المدنيين والعساكر المنشقّة عن الجيش. مرة كانوا يتحدثون كيف بعثوا وطلبوا من إحدى الكتائب المقاتلة، التي يقولون بأنها منتشرة في المنطقة كلها، بعض الأسلحة. كنت قد رأيت بعضاً منهم قبلاً، يلبسون لباساً موحداً ولديهم الكثير من الأسلحة والذخيرة. طالما همس الشباب أمامي بأن جماعة إسلامية تعطيهم المال والسلاح، واللّه أعلم! حين عاد الشاب الرسول من عندهم قال بأنهم قالوا له «سنعطيكم السلاح الذي تريدونه بشرط أن نصوّر العملية التي ستقومون بها ونتبناها». ويبدو بأنهم كانوا يقولون لكل ثائر في «القصير» نعطيك سلاحاً إذا انضممت إلينا، حلقت شواربك وربّيت ذقنك، وصرت تأتمر بأمرنا. هذا ما قاله الشباب أمامي أكثر من مرة. لكن البعض منهم لم يرض، مع أن نقص الذخيرة والأسلحة كان واضحاً، وكنت أحسّ بحالة متزايدة من

الغضب في أحاديثهم. يعني نحن ناس مؤمنة بربها، والإسلام شريعتنا وإيماننا، لكن هذه المظاهر واللّه غريبة عنّا. مرّ عمري كله لم أرَ شاباً في «القصير» له شكل السلفيين، اللهم إلا القليل. كان هناك شاب في الحارة المجاورة ذهب إلى «العراق» هو وأخوه، ورجع على هذا الشكل، وأخوه استشهد هناك في الحرب ضد الأميركان. ويمكن كان في واحد أيضاً في حارة ثانية رأيته يزور ابن أختي. ولا أذكر غيرهما!

بعد ذلك، وقبل أن يُصاب ابني «ياسر» بزمن، أتى الشباب برجل غريب واجتمعوا به في صالون بيتي. سمعتهم يتجادلون ويتساومون حول المال، الرجل يقول بخمس وسبعين، والشباب يصيحون بخمسين.

- ما بتوفّي معنا... أنتم تعرفون الموضوع يزداد صعوبة والطريق خطيرة من لبنان إلى هنا!

- لكن نحن لا نملك المبالغ التي تطلبها. بخمسين على القطعة يكفي فأنت ستربح الكثير.

في النهاية يبدو بأنهم توصلوا إلى حل، فقد طلبوا مني أن أعدّ القهوة. ذهب الغريب بعد أن اتفقوا على موعد بعد أيام. حين سألت «ياسر» عنه قال لي بسرعة وهو يغادر خلف رفاقه: مهرّب السلاح.

بعد ذلك صرت أرى السلاح بين يدي الشباب.

ثم مرّت مدة قبل أن يجلبوا ابن «الحاج مرعي» مصاباً. قالوا بأنه أصيب حينما كانوا يحاولون أن يغطّوا على مرور السلاح من أحد حواجز النظام. يهاجمون الحاجز فيلتهي بهم وتمرّ سيارات السلاح. هذا ما شرحوه لي بعد أن أتوا بابن «الحاج مرعي». قلت لهم ألا توجد طريقة أخرى أكثر سلامة لكم؟! فصاروا يتضاحكون. ثم قبّلني «ياسر» وقال لي: سلامة يا مو؟! نجلب السلاح بالتهريب، ونقاتل، ويقصفوننا، ونموت كل يوم... حاملين أرواحنا على أكفنا يا مو نحن، وتقولين لنا سلامة؟!

خجلت حينها ولم أجد ما أقوله! دعيت لهم: اللّه يحميكم يا ولدي ويوفقكم وينصركم.

منذ يومين مرّ عليّ الشباب، كان معهم شابان جديدان يحملان رشاشين. بديا لي كأنهما يحاربان مع ثوار «القصير»، وأحسست بأني أعرفهما. حصرت تفكيري وحصرته. ثم تذكرتهما. أخذت قائد المجموعة وحدّثته بيني وبينه، قلت له بأن هذين الشابين اتّهما بالسرقة وسجنا قبل سنوات، ولا ينبغي أن يكونا من ضمن الثوار، هذان عار على الثورة. قلت له: اسمع يا ابني من خالتك أم ياسر، أنا صحيح ما قدّر اللّه لي أني أتعلم لكني أفهم الحياة جيداً، وجود ناس كهذه بينكم ستخربكم. ستخرب سمعتكم وأخلاقكم!

- ما بإيدنا حل خالتي أم ياسر، نحن بحاجة لكل شاب ولكل قرش يساعدنا.

ثم همس لي وهو يرحل: الثورة بتمحي اللي قبلها خالتي.

راح، ولم يسمع مني.

مع الزمن ازداد عدد المنضمّين إلى الثوار، وازداد عدد الشباب الذين لا يمتلكون سمعة جيدة. اليوم أتى ثلاثة منهم إلى بيتي، دقّوا الباب وطلبوا مني أتاوة، قالوا بأن من حقّهم على أهل البلد أن يساعدوهم، وها هم يطلبون ذلك من كل بيوت المنطقة! قالوا لي: نحن نضحّي بحياتنا ونموت من أجلكم، وحقنا عليكم أن تدفعوا.

لم أصدّق أذني، أنا «أم ياسر» التي لم يبقَ ثائر في «القصير» لم يدخل بيتها ويأكل من أكلها يجبروننني اليوم على دفع الأتاوات، ومن؟! مجموعة زعران لا يعرف إلا اللّه ما الذي سبق وفعلوه! أنا... ! غضبت كثيراً، إي واللّه غضبت، وشتمتهم، وصرخت عليهم، حتى سمعنا شاب من الثوار وأتى راكضاً إلينا، ثم رفع صوته عليهم وطردهم من المكان، وراح يعتذر مني ويستسمحني باللّه أن لا أزعل.

- اسمع مني يا ابني هذه التصرفات ستجعل أهل البلد يكرهونكم... أهل البلد أهلكم، لكن إن بقي منكم من يتصرف هكذا سيبتعدون عنكم.

كنت ما أزال تحت وطأة غضبي حين رنّ التلفون الأرضي، اعتقدت بأنه من طرف أهل أحد العساكر المنشقين، وكان ينتظر اتصالهم في الحوش بفارغ الصبر. ناديته ورفعت السماعة. جاءني صوت حبيب من بعيد، كان ابني «أبو ياسر» يناديني ويقول لي: يا مو شو اشتقتلك!

- يا حبيبي، وأنا اشتقتلك يا مو.

قلت له، وغلبني البكاء. حاولت أن أتمالك نفسي ولا أشعره ببكائي. كان صوته مفعماً بالصحة، أسعدني. ثم عاد يترجّاني أن أترك «القصير» وآتي إليهم في «دمشق»، كان رفاقه قد استأجروا له بيتاً يسكنه، وكذلك أتوا له بطبيب ابن حلال. قلت له لا أقدر يا حبيبي أن أترك أخاك، أن أترك البيت والشباب، ولادي كلهم هنا. ومفاتيح كل بيوت المنطقة معي. كيف سيدخل الناس إلى بيوتهم حين يعودون إذا تركت بيتي؟!

- لن يعود أحد يا يمو.. المنطقة كلها بدها تتدمّر..

صرخ ابني بقهر. لم أزعل منه، هو متألم الآن ويتكلم بما لا يقصده. سيمرّ الوقت ويعود الجميع حتى هو. سيأتون إليّ ويأخذون مفاتيحهم. صرخت: انتبه على نفسك يا حبيبي، اللّه يرضى عليك، ومفتاح بيتك بعبّي يا مو، مين رح يحرس بيتك يا ولدي؟! حين تعود سيكون مفتاح بيتك في عبّي وبانتظارك يا حبيبي... اللّه يرضى عليك... اللّه يرضى عليك، قلبي وروحي معك يا عمري.

(١٤)

عن اللجاة وسهلها المتخم بالحكايات

كانت «اللجاة» مفتوحة أمامي يومذاك، هضبة مموّجة كبحر من بازلت هائج. أصوات مسعورة أخرجتني إلى ترّاس بيتي، هذا الذي بنيته مقابلاً لسهل يأسرني بجبروته. دمممم.. دمممم.. أصوات مبهمة هادرة، تبدو كأنها انفجارات بعيدة! أسمعها للمرة الأولى هنا وسط الهدوء الفائض المعتاد! دهمتني أعمدة دخان قاتم تتصاعد من جهة «بصر الحرير»، البلدة المقابلة لقريتي حيث أقطن، تفصلنا كيلومترات من سواد «اللجاة»، وشارع إسفلتي عريض ووحيد كحادٍ صبور.

قائظ الصيف الشديد في العادة قد يجعل المرء يتخيّل سراب أبخرة تتصاعد من الصخور المتراكمة على مدّ النظر، لكننا في شهر كانون الأول، حتى إن البرد القارس يجعل وقوفي منتصباً أمراً صعباً. أعمدة الدخان تلك ليست بسبب الحر بالتأكيد. هنيهات، وتأكّدت من أن «بصر الحرير» تُقصف أمام ناظري! لم أستطع أن أصدّق! في الشهور الأخيرة كانت تتناهى إليّ أصوات إطلاق الرصاص وأنا جالس إلى مكتبي أقرأ أو أكتب، يضخّمها الفراغ الفاصل بيننا، ذاك الفراغ الحجري المسكون بالصمت. أحياناً يكون صوت رشاش دوشكا، في الغالب ذاك المحمّل على سيارات بيك آب مكشوفة، استخدمها رجال الأمن قبلاً لتفريق المظاهرات التي راحت تستعر هناك. حين كانت

المظاهرات ليلية، والصمت سيد الفراغ، تتناهى إلى بيتي هتافات الشباب، وأحياناً تكبيراتهم، كهمسات أرواح هائمة. في الآونة الأخيرة راحت الاشتباكات تزداد استعاراً، والثوار استقدموا أسلحة جديدة على ما يبدو. كانت التكبيرات هي المسيطرة على الأصوات المتعالية، خصوصاً بعد أن يبدأ الرصاص باللعلعة. أتخيّل الشباب وهم يصيحون: «اللّه أكبر»، كما صاح االبلاشفة الحمر يوماً: «هوررراااا..». صيحة تجعل طاقة التمرّد تتكثّف في الأجساد المتعبة، أقرب إلى تعويذة للثورة، ولم أشعر بأنها صرخة تمتّ للدين بصلة، هذا في البدايات على الأقل! لكن مع الزمن تغيّر كل ذلك!

وجدت نفسي أصرخ على «سهام» زوجتي. من الواضح أن صراخي كان هيستيرياً حتى خرجت «سهام» بشعر مبتلّ، تتلحّف رداء الحمام وسط صقيع كانون. كانت تعابير عينيها تنبئ بهلعها، ثم تسمّرت إلى جانبي تراقب أعمدة الدخان البعيدة المتصاعدة.

«يقصفون «بصر الحرير»!!...». ودوّى صوت جديد، خرجت على إثره غمامة قاتمة. «الكلاب...». لثوان تذكرت صديقي الدكتور نافع الحريري»، ما الذي من الممكن أن يكون قد حدث له؟! هل صابت القذائف بيته؟ عيادته؟ أحداً من أهله؟ راحت الأسئلة تركل دماغي وكذا قلبي.

«سهام» بدأت بالبكاء إلى جانبي، وأنا أكاد أجنّ، لا أعرف ما الذي من الممكن أن أفعله! خطر لي أن أبدأ بالركض على الطريق لواصل بيننا. صراخ «سهام» أعادني: خليل.. يا خليل دخيلك!! وين رايح؟!

اندفعت إلى التلفون الأرضي، فقد كانت الاتصالات الخليوية منقطوعة منذ أيام عن المنطقة. تلفون بيته مقطوع، وكذا تلفون عيادته. هذا يعني أنهم قطعوا الاتصالات الأرضية أيضاً. دمممم.. صوت تنيفة جديدة أقوى من سابقاتها.

جلست «سهام» تجفف دموعها وترتجف وهي تلبس ثيابها بجانب المدفأة. غادرتني رغبتي الدائمة في مراقبتها وهي ترتدي ثيابها، مراهقة في الخامسة والخمسين من عمرها، مازالت حتى اليوم تخبئ أجزاءها عن عيني، تواري تفاصيلها التي أحفظها غيباً. إن استرقت النظر أو رميت كلمة غزل تحمرّ خجلاً. تمتعني مراقبتها عادة أما اليوم فأنا كالممسوس. لا أعرف ما الذي من الممكن أن يكون قد حصل للدكتور «نافع»، وأنا أعرف أنه مستهدف منذ فترة من قبل قوات النظام، فعيادته أضحت أشبه بمستشفى ميداني، ليس لـ«بصر الحرير» وحدها، بل لكل البلدات المحيطة، التي كانت الثورة قد انتقلت إليها كعدوى، بلدة إثر بلدة.

- لن أترك البلدة الآن وهي في أمسّ الحاجة إلي!

قال لي آخر مرة زارني فيها قبل خمسة أشهر تقريباً، كان الصيف في أوجه. ركن سيارته بعيداً عن منزلي، ونزل وسط عتمة الليل بصحبة ثلاثة شبان. أحدهم كان يبدو عليه الإعياء، وأحسست به يميل إلى الأمام قليلاً وهو يمشي واهناً. حمل إليّ أيضاً حقيبة قماشية سوداء، وابتسامة ودّ تكاد لا تفارق وجهه.

- خليل يا صديقي، لم أجد مكاناً أكثر أماناً من بيتك ليختبئ محمود فيه. أصيب اليوم بطلقة في بطنه. هو شاب من الحراك، كان يشاركنا المظاهرة وهذا أخوه عمر.

وكشف سترة الشاب، الذي بدا وجهه أكثر شحوباً، لتظهر بقعة قانية تلفّ كامل وسطه: يستخدمون الرصاص المتفجّر خليل! تدخل الرصاصة لتحرق ما حولها. اللّه ستره واستطعت إزالة الشظايا في البيت، ولكنه يحتاج إلى الرعاية والاستراحة.

- أكيد.. أكيد في عيوني.

- وتعرف حملات المداهمة متواصلة على البلدة، ولا أستطيع تركه في أي بيت. إن رأوه مصاباً سيأخذونه معهم.

- أكيد... أكيد دكتور. اعتبره في بيته.

لكني لم أكن متأكداً كما ادعيت. فجيراني يراقبون البيت عن كثب منذ شهور. جيراني في الواقع هم أقربائي، لكنهم لن يتوانوا عن إخبار رجال الأمن عن أي غريب من المنطقة الجنوبية سيأتي إلى بيتي، فما بالي لو اكتشفوا بأنه مصاب من ثوار «درعا»!. رحت أفكر بأني قد أجعله يختبئ في غرفة المونة، فهي محمية وراء المطبخ. ثم فكرت أن آخذه في سيارتي إلى «السويداء»، بضعة كيلومترات ونكون فيها، على الأقل هي مدينة يمكن الضياع فيها. لكن الحواجز كانت تملأ الطريق وكونه من مدينة «الحراك» أمر كفيل باعتقاله. استبعدت الفكرة من فوري. لا أعرف إن كان الدكتور «نافع» قد قرأ ارتباك عيني.

- إن كان ثمة أي إحراج خليل أستطيع..

قاطعته، وطمأنته.

الأخوان «محمود يوسف» و«عمر يوسف» في وضع لا يحسدان عليه، ومن غير الممكن لـ«خليل أبو العزم» أن يفوّت فرصة إيواء وتخبئة ثائرين، ليس لأنه تعاطف معهم فحسب، هو الذي يناصر الثورة بكليته ويشعر بالعجز الكامل حيال ما يجري، بل لأنه رغب في محو شيء من العار الذي أحسّ به بسبب مواقف أهله. ربما شعر بأنه يقوم بعمل فاعل بهذا الاتجاه، ولم يفكر أكثر بعواقب الأمر كله. كان سعيداً.

وضع الدكتور «نافع الحريري» يده على كتف الشاب الثالث الذي جلس بجانب «عمر يوسف»، وربّت عليها تحبباً. كان جسده ضئيلاً لغاية، وتبدو عظامه ظاهرة من تحت التيشيرت حائلة اللون التي يرتديها: «وصديقنا محيمد أبو الدود من الشباب الناشطين في المظاهرات أيضاً»، وضحك.

- من «بصر الحرير» أيضاً؟

- لا محيمد من درعا البلد، أتى إلى بصر قبل أسابيع قليلة. . .

كان «محيمد أبو الدود» يبدو خجلاً وهو يبتسم لتربيتات الدكتور «نافع».

حدّثهم الدكتور عن «أبو الدود»، اللقب الذي ظل ملاصقاً لمحيمد منذ طفولته، لقب يوحي، نوعاً ما، بوضعه الاقتصادي والاجتماعي، فقد عمل منذ نعومة أظافره بالبيتون والبناء وحمل الخفان في «درعا البلد». لكن «أبو الدود» أضحى منذ أشهر واحداً من أهم منظّمي المظاهرات هناك، ومن الشباب الفاعلين في تنسيقياتها. كان يدور على دراجته «الفيسبا» ليخبر أهالي المنطقة بموعد المظاهرة، يطرق كل باب يمرّ في طريقه، يهمس لمن يفتح له الباب: «اليوم في الساعة الثامنة. . .»، ويكمل مهمته بجدّ. «كففنا منذ زمن عن استخدام الموبايلات، يراقبونها دائماً، وفي أوقات كثيرة أخرى تكون الاتصالات مقطوعة».

كان صوت «محيمد أبو الدود» مبحوحاً، ولمسة من تفاخر تطلّ من عينيه وهو يعتذر عن بحّة صوته بسبب مظاهرة أمس الحافلة. فـ«أبو الدود» لم يكتف بالدعوة للمظاهرات، بل كان يقودها ويصيح بهتافاتها. جسده الضئيل مكّنه من أن يبقى معلقاً على أكتاف المتظاهرين. ويكاد لا يراه أحد إلا على الأكتاف رافعاً قبضته إلى الأعالي.

لسبب ما سأله «خليل أبو العزم»: «لماذا تخرج في المظاهرات محمد؟».

ربما وشت كلماته بشيء ما، أو ربما هي نبرته المتغافلة، رغم أنه ناداه باسمه وليس باسم التصغير، إلا أن السؤال استفز «أبو الدود» كما ظهر، فانبرى: «أنتم المثقفون والنظام السوري معكم ترونني أنا ومن يشبهني حثالة!».

- معاذ اللّه. . أبداً!

لكنه أصرّ، ربما كان كل ما سيقوله قد تراكم طويلاً هناك في داخله، وكانت هذه فرصة مناسبة لإخراجه: «لا، أنا أعرف... طبعاً تروننني حثالة. أنا لا أخرج في المظاهرات لأنني أريد الديمقراطية وهذه التي تسمونها... الدولة المدنية. أنا لا أعرف أصلاً ما هي الديمقراطية ولا المدنية! سمعت بهما بعد الثورة! أنا أعرف شيئاً واحداً فقط، أعرف بأني أشعر بكرامتي، ولم أشعر بها يوماً، وأنا محمول على الأكتاف. أشعر بأني إنسان، وأنا أهتف بالحرية والكرامة. المظاهرات هي المكان الوحيد الذي أشعر فيه بإنسانيتي، لذلك لن أعود يوماً إلى البيت حتى لو كانت نهايتي استشهادي... وعلى فكرة الكثير الكثير من الشباب مثلي».

وترك «محيمد» المجلس وعيناه محتقنتان لينتظر الدكتور في الخارج.

- آسف إن كان سؤالي قد فُهم بالغلط... أنا...

- لا عليك خليل، أبو الدود حساس للغاية بشأن منبته الطبقي.

وضحك الدكتور «نافع»: «حسب تعبيراتكم أنتم المثقفون»، ولم يفهقه عالياً.

فكر «خليل أبو العزم» بأن يكتب مقالة ما عن «محيمد أبو الدود» لكي. سيدلّ فيها على المنبت الطبقي له. لكنه سيقول بأن الثورة السورية ثورة لكل الطبقات وليست للطبقات الدنيا وحدها، ثورة اجتماعية سياسية، ثورة عمودية وليست أفقية، كان يفكر فيما شفاه الدكتور «نافع» تتحرك في كلمات لم يتبينها.

لكن «خليل أبو العزم» لن يعرف الذي جرى إثر تلك الزيارة مع «محيمد أبو الدود»، فتلك القامة الضئيلة النحيلة، التي يرشح الفقر منها، تبدّلت هيئتها حينما حملت كلاشنكوفاً جديداً أتاها به صديق مذؤب. لم تتناسب قسوة الكلاشنكوف مع لطافة وضآلة «محيمد»، فسحبه السلاح إلى منطقته ليضفي عليه لمسة مغايرة للمنظر، حقنته

بالمعنى، ونقلت «محيمد أبو الدود» إلى مستوى آخر خلال ثوان. أحسّه ينبض في خلاياه، مستوى مفعم بالتأثير والقيمة، هذا ما شعر به على الأقل بكل كيانه. من يومها لم يعد «محيمد» إلى تنظيم المظاهرات، تشبّث برشاشه حتى قُتل في إحدى معاركه في «اللجاة»!

الحقيبة القماشية كانت مليئة بالشاش والأربطة والمعقمات وأدوية الالتهابات. تركها الدكتور بعد جمل مقتضبة عن كيفية استعمالها. ترك وراءه رائحة قلق، وحملاً ثقيلاً على كاهل «خليل»، وزخّة أسئلة لم يستطع الإجابة عنها. ذهب يومذاك آخذاً معه «عمر يوسف» و«محيمد أبو الدود»، فيما ظلّ «محمود يوسف» في مكانه.

عند الباب انفجر هامساً لهفاً: لم يعد الوضع يطاق خليل، الشباب بدؤوا يفكرون بشكل جدي بالكفاح المسلّح. لم يعد من الممكن أن نكتفي بالبواريد الصدئة التي عندنا، إنهم يدهمون البلدة بشكل شبه يومي، والبلدات المحيطة. الشباب يقتلون كل يوم.. يعتقلون كل يوم. لم يعد الوضع يطاق يا رجل.

- الكفاح المسلّح؟!!

- نعم الكفاح المسلّح، وماذا يمكننا أن نفعل بعد خليل؟ نعود إلى بيوتنا لنعيش كالكلاب أسوأ مما كنا؟! سنستمر وإن أردنا الاستمرار فلا مجال إلا بالتسلّح. على كلٍ يا صديقي هو قرار شبه جماعي. أنت تعرف أن شهوراً طويلة من الموت اليومي كافية... ثم يا صديقي لن نستطيع رد الشبيحة والأمن إلا بهذه الطريقة.

- لكن هذا لا يعني أن نقتلهم كما يقتلوننا.

- لا يوجد سبيل آخر. وإن كان عندك أخبرني به.

- الكفاح المسلّح يا صديقي سينقل الأمور إلى مكان آخر... مكان لن نستطيع أن نسيطر عليه، مكان لا يشبهنا.. ولا يمكن أن نتكهن بتبعاته!

لكن الدكتور «نافع» ودّعني ليلتئذ بعد أن عانقني. أحسست

بروحه بعيدة عني رغم ابتسامته المحببة. تركني مع عبئي وأسئلتي وخوفي من القادم. لم أستطع أن أسرّ بكل ما يتلاطم في داخلي إلا لأخي «عمران أبو العزم» كان وحده الذي من الممكن أن يفهم عليّ. لكن «عمران» كان متعباً، متعباً حدّ الإنهاك من كل شيء، ولم أستطع أن ألقي عليه بأعباء أخرى تتعلّق بقلقي.

الصيف كان قد قدِم، والثوار انتقلوا من إشهار أصواتهم في وجه النظام إلى إشهار رشاشاتهم ورصاصهم الغاضب. لكن هذا كان قبل شهور! وأصوات القذائف اليوم جعلتني أعود إلى تلك الليلة.

ظل «محمود يوسف» مختبئاً عندي حتى التأم جرحه إلى حدّ ما. وجدت «سهام» الحل بأن تضعه في القبو، حيث لا يمكن لأي فضوليّ أن يتسلل. ونقلت التلفاز الصغير الذي كانت تضعه في مطبخها إلى القبو، ووضعته قبالة الشاب كي لا يملّ من الاضطجاع طويلاً دون حركة. قلت له: «تضحية كبيرة منها على فكرة، لقد تخلّت عن تلفاز مطبخها لك!». فاحمرّ وجه «محمود» وهو يبتسم.

قضيت الأسابيع التالية وأنا أقرأ بجانبه على ضوء نوّاسة القبو. بجانبنا تصطف أكياس المؤن التي أجمعها هنا كي ينقلها الثوار إلى المناطق المحتاجة. سمّيناها سللاً غذائية. أكياس الأدوية كذلك: علب لصاقات «الجلفون» وإبر الكزاز والشاش والقطن. تفغم أنفي رائحة الزيتون وعطنة البرغل والطحين، وتفغم رأسي حكايات «محمود» عما يحصل في بلدات وقرى «درعا». كان يبدو جلياً إن الشباب قد قرّروا المضي في طريق مختلفة لثورتهم، و«اللجاة» هي الرحم الذي قد يتّسع لحلمهم الوليد.

راح الوضع الصحيّ لـ«محمود» يتحسّن شيئاً فشيئاً. بعد ثمانية أيام صار يستطيع التنقل في الغرفة، خمسة أيام أخرى صار يتكلم بطلاقة ويضحك. ضحكته كانت تدغدغني. شعرت بأنه أشبه بابن لي. أما أخوه «عمر يوسف» فقد أتى ليزوره مرتين لا غير: المرة

الأولى صحب معه رجلاً غريباً من قرية «طفس»، لم أعرف اسمه. كفّه وهي تصافح كفّي كانت شديدة قوية وخشنة، رأسه كان ملفوفاً بكفّية حائلة اللون، ويرتدي جلابية من اللون ذاته. تهامس الأخوان طويلاً في الغرفة، وبقيت مع الضيف الغريب في الصالون. كان صامتاً ولم أعرف كيف أفتح حديثاً معه! رحّبت به من جديد، فهزّ برأسه ممتناً. جلبت «سهام» الدلّة النحاسية، وقدمت له فنجان القهوة العربية. أطرق برأسه كي لا يلقي ببصره إليها حتى خرجت من الغرفة، ثم تذوّق القهوة بلذّة، قال لي إنها أطيب قهوة ذاقها في حياته، وصمت. بعد دقائق ثقيلة سألته عن وضعهم، فأفلت عدة جمل مكثفة قبل أن يعود إلى صمته:

«شوف خوي... أنا كان عندي ثلاثة أولاد. من يوم حصار «درعا» بآذار الماضي نذرتهم للحرية. جئنا يومها إلى المظاهرة الكبيرة ومعي شبابي الثلاثة. كتبت على بطن كل واحد فيهم اسمه وأنه من طفس. إن استشهد واحد منهم سيعرف أهل الخير من أين هو وما اسمه. مازالت أسماؤهم حتى الليلة مكتوبة على بطونهم. استشهد الأوسط بينهم في مظاهرة بدرعا البلد... الحمد للّه أطعمه الشهادة، وبقي اثنان... اثنان للحرية نذرتهما... للحرية، واللّه وحده سيرعاهما».

ألجم لساني، تلعثمت أريد أن أرد على كلامه! لم أستطع. خانتني لغتي حين احتجت إليها، وأنقذني «عمر» حين خرج إلينا ذاهبا، ولم أرَ ذاك الرجل من «طفس» بعد ذلك، لكنه لن يفارق ذاكرتي ما حييت!

في المرة الثانية أتى «عمر يوسف» وحده. أحسست بأنه أتى ليودّع أخاه! فقد كانت عينا «محمود» حمراوتين حين عدت إلى غرفته، و«عمر» غادر وهو ينشق مدارياً وجهه عني. ذهب «عمر» بدون عودة إلينا. فيما بعد عرفت بأنه سيضطر للمكوث في «دمشق

العاصمة، فقد بدا بأن اسمه مطلوب على الحواجز، وعليه أن يعمل الشيء الكثير في «دمشق». هذا ما قاله لي «محمود».

لكن «خليل أبو العزم» لم يعرف بالذي دار بين «محمود» وأخيه ليلتئذ، فقد ودّع «عمر» أخاه، ولم يكن يعرف متى سيقدّر له رؤيته من جديد! كان عليه أن يتخفّى في «دمشق» بدون أن يقطع علاقاته مع أصحابه من رجال الأمن، الأمر شبيه بالسير على قدم واحدة على حافة هاوية! كان ينبغي أن يبقى عارفاً بالأخبار الداخلية، مطّلعاً على لخطط السرية المغلّفة بجدران السرية الأمنية، لينقلها إلى ثوار الغوطة ونشطائها.

«هذا هو حيّزي الخاص والثمين في الثورة!»، قال لأخيه قبل لفراق، «لا يوجد غيري يتقن تنفيذه، ومن يتاح له هكذا موقع يستطيع عبره فعل الكثير»، أردف.

- لكنه لعب خطير يا خوي.

هزّ الآخر رأسه بصمت.

في المساء كانت مئات من الأفكار المتضاربة تتلاطم في رأس خليل أبو العزم». كان يجلس قبالة «محمود يوسف» المستلقي على سريره في القبو، يفتح كتاباً عن الأسطورة والتراث لـ«سيد محمود لقمني»، يفتحه في حجره منذ ساعة بدون أن يقلب الصفحة، فلم يكن يرى الكلمات! أفكاره وحدها ماثلة أمام عينيه، تتناهشه، وتتصارع في داخله. لكن «محمود» قاطع أفكاره حين قال فجأة: مرة عرف عمر بأن هناك سيارة مفخخة ستنفجر في إحدى مناطق الغوطة... لم أعد أذكر اسم المنطقة! لكنها كانت ستنفجر في جنازة لشهيد هناك. وأخبر الشباب هناك فلم تخرج الجنازة ولم تنفجر السيارة!!

- ثم ما الذي حدث؟!

- يبدو بأنهم صاروا يشكّون به.

- وما الذي سيفعله؟!

- سيكون أكثر حذراً بكثير ويراقب حركاته. لذلك لن يستطيع القدوم بعد الآن إلى هنا!

- . . .

- أستاذ خليل. . . بماذا تفيد كل هذه الكتب التي تقرؤها حضرتك؟! أنا لم أقرأ كتاباً في حياتي إلا كتب المدرسة!

«سهام» التي واظبت على جلب الطعام لنا في الغرفة/ القبو طوال الفترة الماضية جلبته لنا اليوم أيضاً كعشاء أخير، بادلتنا كلمات قليلة ومضت، تركتنا لأحاديثنا المتطاولة. كنت لهفاً لمعرفة تفاصيل المزيد عن تلك المنطقة الغامضة من بلدي. تلك المنطقة التي ازداد غموضها وهجاً حين أشعلت فتيل ثورة. شعرت للحظات، حين كنت أسمعه، بأني لا أعرف الكثير. أسئلة «محمود» بالمقابل تنبئ عن جهله بتفاصيل منطقتنا، رغم أن بضعة كيلومترات تلك التي تفصلنا عن بعضنا بعضاً.

- كأن ثمة جدران سميكة عالية ولامرئية تفصل السويداء عن درعا؟!

لم يبد أنه فهم عليّ تماماً.

- كالجدران التي تعزل معظم مناطق سوريا عن بعضها بعضاً!

لم أر الدكتور «نافع الحريري» بعد ذلك. سمعت بأنه اعتقل ذات ليلة في كمين على مشارف «اللجاة». بعضهم قال لي إنه ترك البلاد وهرب إلى «الأردن». لكن شاباً، بكفية حمراء وبنطال مبرقع، قال لي سريعاً، بعد أن حمّل ستة أكياس من السلل الغذائية في «طرطيرته»، بيد خُطف على يد شبيحة من «السويداء» وأطرقّ، ربما شعر بالخجل يرشح من عيني.

- آسف أستاذ خليل، لا أقصد أي شيء. لا تزر وازرة وزر أخرى أستاذ. . . فضلك وفضل أمثالك من الشرفاء على راسنا. . .

- لا عمي، ولا يهمك هذا واجبنا... اللّه يحميكم.

وقبل أن يغادر مسرعاً في «الطرطيرة» التي يقودها، التفت حوله وقال لي: لو كانوا كل الناس هنا متلك يا أستاذ خليل ومتل رفقاتك كنّا أسقطنا النظام من زمان.

وذهب بلمحة كما أتى. ولم أره بعدها.

في الحقيقة كانت الأيام تمرّ، وأنا أشعر يوماً بعد يوم بالابتعاد عن أهل «اللجاة». تحولت الثورة إلى طريق مختلف بعيد عني! سلاح يغدو سيد الموقف، والتطرف يشتدّ كلما ازداد الموت تصاعداً. لم تكن تلك الثورة التي أحلم بها، كنت أحلم بثورة ناصعة مقابل ظلم النظام وسواده. لكن لم يحدث ما أردت.

بعد أيام أتى شاب آخر ليأخذ أكياس الأدوية التي خبأتها في غرفة القبو حيث أمضى «محمود يوسف» أيام نقاهته. سألته عن الشاب ذاك ذي الكفية الحمراء والبنطال المبرقع الذي يقود «الطرطيرة»، قال إنه استشهد، سقط في مظاهرة الجمعة الماضية رصاصة في رأسه، خرج دماغه إلى الإسفلت ومات من فوره. قالها دون أن يلقي تحية الصباح الاعتيادية على جاره. رمى آخر كيس للأدوية في مستودع السيارة مع آخر كلمة وذهب. حين استدركت، أريد أن أسأله عن الدكتور «نافع الحريري» كان صوت السيارة المغادرة الهادر يطغي على كل شيء.

اليوم دقّ باب البيت فجأة. مرّت أسابيع طويلة لم يدق الباب.

حاولت «سهام» أن تكفكف دموعها وهي تستكمل ارتداء ثيابها على عجل. لم تكن الدقة تنبئ بشيء خطير، لكن «خليل» كان يرتجف تحت الأمتار القليلة التي تفصله عن الباب. يرتجف غيظاً وخوفاً وعجزاً أيضاً. «بصر الحرير» مازالت تُقصف، وجو البيت كئيب قاتل.

كان «أبو مثقال»، ابن عم «خليل أبو العزم» وجاره، على الباب.

- اللّه يقويهم ويعطيهم العافية... اللّه محيي الجيش...

قال بجدية وهو يخلع مشايته عند الباب ويدخل المضافة. حين احتفظ «خليل» بصمته أمام كلماته أكمل مؤكداً: يا اللّه... انشاللّه بيقدروا يخلصو البلد من الإرهابيين والجماعات المسلّحة ويخلصونا... ما عم نقدر ننام من الخوف من شهور... واللّه كل الوقت بفكر أن الإرهابيين سيهجمون علينا وينهبون خيراتنا ويذبحوننا في أسرّتنا!!

- مين الإرهابيين؟

خرج «خليل» عن صمته، فيما كانت «سهام» تحاول أن تومئ له بالسكوت. بدا وجه «أبو مثقال» أكثر قلقاً.

- المندسين!!!

- مين المندسين؟

- الجماعات المسلحة!!

- مين الجماعات المسلحة؟!

- شو إشبك خيي؟! الجماعات تلك التي تخرب البلد وتشيع الفوضى وتقتل شبابنا... صار هناك عشرات الشهداء من مناطقنا، زين الدين وأبو ترابة والخضر وزيدان وغيرهم وغيرهم... كلهم استشهدوا في درعا وحمص... مين قتلهم؟!

- قتلهم نظامك الذي يأخذ الشباب ليستخدمهم في حربه...

- كيف يعني خيي؟! شباب بتخدم بالجيش وبتدافع عن الوطن.

- اللّه يلعنك إنت وسيادة الرئيس.

صاح «خليل».

وجه «أبو مثقال» غدا شاحباً كالحائط الذي وراءه!

- ولك خيي ألا ترى بأنهم يضربون البشر... هؤلاء بشر وبيوت وناس وولاد ونسوان... كلهم إرهابيين؟!

- خيي يا خليل أنا عم احكي عن الإرهابيين المسلحين مش عن سكان بصر الحرير.

- والبيوت التي تُقصف خيي لمن؟ للإرهابيين أم لأهل بصر؟!
- هؤلاء يضربونهم العصابات المسلحة!
- ولماذا لا تضربكم العصابات المسلحة؟!
- لأن الجيش والأمن يحيمنا . . .
- ولماذا لا يحميهم الجيش والأمن كذلك؟!
- . . .

خلال صراخه شعر «خليل» للحظات بالشفقة على «أبو مثقال». كان يتأتئ كطفل تؤنبه أمه، شاحباً قلقاً خائفاً ومرتبكاً. راح يناظر «سهام» التي احمرت وجنتاها خجلاً وارتباكاً، ويتلعثم ببضع كلمات غير مفهومة.

لكن غضب «خليل» لم يبرد. كان يعرف جيداً بأنه وبهذه لكلمات يقطع الخيط الأخير الذي تركه كتقية هنا. فحالما تعثّر «أبو مثقال» وهو يرتدي مشايته ويغادر مضافة «خليل أبو العزم» مسرعاً ومحتقناً، طلب الأخير من زوجته أن تبدأ بحزم حقائبها، فلم يعد لهم مكان هنا، سيغلقون البيت وينتقلون إلى «دمشق»: خيي عمران قال لي إن هناك بيتاً فارغاً فوق الكافيتريا التي كان يديرها بجرمانا، وسيستأجره لنا ريثما تهدأ الأمور. اتفقت معه على ذلك. . . يا اللّه حبيبتي خلّينا نعجّل لم أعد أستطيع البقاء هنا ولا ثانية واحدة.

(١٥)

عن الرجل البخاخ وأحاديث الجدران

رغم أن أخاه الكبير «شيران حاجو» كان قد عاد من مدينة «حمص»، وسكن في بيته الملاصق لبيت أمه في حي «الحجر الأسود»، ولم تعد تكاليف المعيشة هاجساً، إلا أن الأمر كان أعقد من ذلك بالنسبة لـ«ميفان حاجو». المشكلة أن شاباً في الثانية والعشرين من عمره اعتاد ألا يدخل البيت إلا ساعة النوم سيضطر للمكوث فيه معظم وقته بعد إغلاق الكافيتريا التي كان يعمل بها. لكن، ورغم ذلك، أفسح هذا له مجالاً لرؤية الأصدقاء القدامى وسماع عشرات القصص والأخبار الجديدة، كما أفسح له طريقاً لمعرفة ما لم يعرفه: أخبار الثائرين في «حمص» من فم أخيه «شيران»، وأخبار الثائرين في «الحجر الأسود» والمناطق الأخرى المحيطة على ألسنة رفاقه. كل لسان يحكيها بنكهة ورؤيا وتفاصيل مغايرة. كان ثمة فائض من الوقت للاستماع، للمعرفة، ولمشاهدة أخبار سوريا المسفوحة على شاشات القنوات الفضائية طوالَ النهار والليل. ثم كان ثمة فائض آخر من الوقت جعله يتعرف على عالم جديد باهر اسمه: «الفيسبوك». شعر بأن هذا العالم الافتراضي الجديد عوّضه قليلاً عن قصص الأستاذ «عمران أبو العزم» التي كان يتحفه بها أيام عمله في الكافيتريا. كأنه يعيش رغبته في أن يعرف الأشياء من على شاشة الكومبيوتر، أو على الأقل هذا ما كان يشعر به

عميقاً. في البداية دأب على زيارة بيت أخيه ليدخل مجاهل ذلك العالم الافتراضي من على كومبيوتر «شيران» المحمول. ثم قرر الأخير أن يريح رأسه ويعير الكومبيوتر إلى «ميفان». هكذا أضحى يوم «ميفان» مقسّماً بين شاشة التلفاز وشاشة الكومبيوتر واجتماعاته المتفرقة مع أعضاء إحدى تنسيقيات «الحجر الأسود». في الأحيان التي كان الإنترنت ينقطع فيها عن المنطقة، الأمر الذي يتكرر كثيراً في الآونة الأخيرة، كان «ميفان» يشعر بأنه سمكة خارج الماء. عذّبته قصص السوريين وآلامهم، جرّته كهاوية غاوية إلى عمقها، خصوصاً بعد اختياره أن يكون المسؤول عن الصفحة الإعلامية للتنسيقية! لذلك فقد كان بعض وقته، المسفوح أصلاً على شبكة الإنترنيت، يذهب لإدارة تلك الصفحة التي أنشأها على الفيسبوك باسم التنسيقية.

أكثر ما أثار إعجابه كان شعارات الثورة، على الأخص تلك التي تُكتب على الجدران، فقد كانت تأسره. مرة رأى جملة كتبها ثوار «مصياف» على سور شعبة حزب البعث بالبخاخ الأسود: (يا حماة مصياف معاكي للموت). كانت جملة قديمة كُتبت حينما بدأت الضربة الكبرى لمدينة «حماة» في آخر الشهر السابع من عام ٢٠١١. أحسّ بأنها جملة تخزّ القلب، محمّلة بكل تحدي من يكتبون على جدران لنظام عبارات معارضة. محمّلة كذلك برسالة عميقة يرسلها ثوار مصياف» الى ثوار «حماة»، رسالة ضد الطائفية، ضد الانقسام، ضد محاولات تشظية البلاد. هذا ما شعر به «ميفان» دون أن يستطيع لتعبير عنه. لكن إجهار القول المخبّأ على الجدران أمام الملأ، بكل ما يحمله هذا الإجهار من مجازفة، امتلكه. كان يريد أن يشارك بشيء فاعل في الثورة، الصفحة الإعلامية للتنسيقية لم تعد ترضيه، يقرؤها قلة من الناس، والشباب من حوله لم يعودوا يرضون طموحه. «ميفان حاجو» كان يحلم بأشياء أخرى! بعض رفاقه في «الحجر الأسود» بدؤوا بتأمين الأسلحة لينضمّوا إلى الثوار المسلحين، بعضهم الآخر

اكتفى بانشغاله في الترتيب للمظاهرات التي لم تعد تدوم أكثر من دقائق، والباقي يفتّش عمن يدعمهم بالمال. تذكر ميفان الأستاذ «عمران أبو العزم»، لا يوجد أحد غيره يستطيع مساعدته في تأمين عمل له في الثورة، فأصدقاؤه لديهم الكثير من الأعمال المعارضة كما يذكر. قرر «ميفان» رؤية الأستاذ فاتصل به وطلب لقياه. قابله الأستاذ بلكنة مرحّبة ودودة، ثم دعاه ليشربا سوية كأسي شاي وأركيلة في مقهى «الروضة» في شارع «العابد» وسط «دمشق».

- إذا كان الطريق سالكاً حتى ولو بصعوبة.

وقهقه الأستاذ «عمران أبو العزم» على مزحته.

لكن لم يكن الأمر بهذه البساطة بالنسبة لـ«ميفان»، فقد كان عليه أن يقطع عشرات الحواجز العسكرية والأمنية من حي «الحجر الأسود» إلى مقهى «الروضة»! الطريق كان سالكاً لكن بصعوبة بالغة، أما الصالة الرئيسية للمقهى فتغصّ بالزبائن! شعر «ميفان» بأنه انتقل إلى زمن آخر! وقتذاك كان وسط «دمشق» يعيش زمناً آخر لا يشبه زمن حي «الحجر الأسود»!

لكن لقاءه بالأستاذ «عمران أبو العزم» كان خيبة أمل حقيقية بالنسبة لـ«ميفان»! شعر بأن الأستاذ تغيّر كثيراً في الشهور الماضية التي ابتعد عنه فيها. قال له بأن هذه الثورة لم تعد ثورته، كانت ثورته حينما كانت شعبية مدنية وسلمية، لكن حينما راحت تجنح للعنف والتطرف الطائفي لم تعد ثورته، لذلك فهو معتكف اليوم في بيته يراقب الأخبار على التلفاز لا غير، مثله كمثل معظم الناس.

- كيف يعني أستاذ جنحت للعنف والتطرّف؟!

سأله «ميفان».

- يعني صار الثوار يقومون بأفعال النظام ذاتها، فيقتلون من رجاله ويأسرون ويعذّبون!!

- لكن هذا دفاع عن النفس أستاذ!! أليس كذلك؟

- لم يعد دفاعاً عن النفس يا صديقي، تطوّر إلى مبادرات مسلحة ولم يعد دفاعاً فقط... صار هجوماً!

لم يفهم «ميفان» حديثه كما يجب، كان كعادته مليئاً بالألفاظ الغريبة والمصطلحات والاستشهادات التي يجلبها من هنا وهناك. ثم رشف الأستاذ من كأس الشاي الثقيل رشفة طويلة، وغبّ من الأركيلة غبّة عميقة وقال: كان يجب على المعارضة يا ميفان أن تتعلّم لعب البوكر... لا تضحك، المعارضة لا تعرف لعب البوكر! لو كانت تعرفه لما رمت على أوراق النظام أوراقاً مماثلة. ألف باء البوكر ألا تفتّ على أوراق خصمك أوراقاً مشابهة! النظام رمى أوراق الطائفية والسلاح منذ اللحظة الأولى على الطاولة، منذ اللحظة الأولى وهو يزعق بأنها ثورة طائفيين وإرهابيين مسلحين حين كنا من كل الطوائف في الشوارع ولم يكن أحد يحمل موساً كباساً... الآن تغيّر الأمر، الثورة فتّت على أوراق النظام أوراقاً متشابهة، من ذات الصنف، فخسروا جولة اللعب... خسرنا الجولة يا ميفان، وسأنتظر أن تتعلم معارضة قادمة لعب البوكر وحينها...!!

فهم «ميفان» من كل الحديث بأن «عمران أبو العزم» كان محطماً ويائساً ويشعر بالعجز، فقد كانت هالات عينيه غامقة كما لم يرها يوماً، وغابت تلك الضحكة العالية المقهقهة. كان يقول لـ«ميفان» بأنه لم يعد قادراً على تحمّل المآلات التي وصلت البلاد إليها: السوريون يقتلون بعضهم بعضاً؟! يا إلهي، هذا أسوأ كابوس قد يمرّ علينا!

كان منفعلاً غاضباً وهو يهتف أمام «ميفان» منتفخ الأوداج غير عابئ بالزبائن حوله الذين صاروا يرمقونه بفضول: «انتقلت الثورة من حالة التعرّي إلى حالة العري. هل تفهم عليّ ميفان. آه.. التعرّي مثير. كانت الثورة في الشهور الأولى مثيرة، تثير تعاطف العالم. حين يسقط الشهداء تثور القلوب حزناً، وتتعالى الأصوات الرافضة لهذا

القتل اليومي. كانت تلك مرحلة التعرّي!! الثورة اليوم انتقلت إلى مرحلة العري، والعري لا يثير ميفان... لا يثير أبداً يا ابني! يُقتل كل يوم مئات السوريين دون أن يرفّ جفن للعالم... لقد ملّوا، فقدوا اهتمامهم! يجاهد الثوار كي يستثيروا تعاطف العالم عبثاً. يوتيوبات وأخبار وصرخات وبكاء... عبثاً عبثاً. لكن على فكرة، الحق ليس على العالم فقط، الحق علينا! نحن الذين لم نعرف كيف نوصل الحقيقة، نحن الذين لم نعرف كيف نحافظ على ثورتنا، وسكتنا على كل الأخطاء منذ البداية، وها قد وصلنا إلى هنا. العالم يرى ثورتنا مشوّهة! يخاف منها، ولا يرى إلا النقط السوداء وسط اللوحة. سوريا تُدمّر والعالم يتفرّج... يتفرّج علينا فقط دون إثارة حتى!!»

صار «ميفان» يتلفّت حوله خائفاً فصمت الأستاذ. لكنه أكمل بعد هنيهات: «صدقني ابني يا ميفان لم نرَ شيئاً، هذا النظام يستطيع ما لا نتخيله، ولن يكون خيار صدام حسين في رمي الكيماوي على الأكراد مستغرباً أو بعيداً عن النظام السوري! وإن هدد بتدمير المنطقة بأكملها فسيفعل. ومعارضتنا ليست بأفضل حال من هذا النظام، عاجزة مفككة والقسم الأكبر منها غير أخلاقي... واللّه العظيم حين أرى رجال المعارضة على الفضائيات وهم يثرثرون بدون طائل، بدون تفكير، بدون منهجية، أستعيذ باللّه من القادم على هذه البلد. والوحيد الذي سيدفع الثمن هو الشعب المسكين... اللّه ابتلى هذا الشعب بنظام ومعارضة كل واحد منهما أسوأ من الآخر.. وما نراه اليوم سيغدو لعباً تجاه ما سيحدث غداً... تذكر ما أقوله لك اليوم ميفان سنشهد ويلات أكبر، ليس أعظمها الحرب الأهلية وتقسيم البلاد».

...

في تلك الليلة حالما عاد «ميفان» من لقائه مع الأستاذ محبطاً متآكلاً، سأل أمه عن مفتاح غرفة الخرداوات تحت الدرج، تذكر بأن أخاه «شيران حاجو» كان يطلب إليه قبل سنوات أن يذهب لبخّ رقم

هاتفه المحمول على الجدران كدعاية لعمله في حفر الآبار. كان يبخّ جملة واحدة على كل الجدران: (حفر آبار) ثم الرقم. تذكّر بأنه كان قد اشترى صندوقاً فيه دزينة من البخاخات الملونة قبل أن يقرر العمل في مدينة «حمص». بالفعل كان صندوق البخاخات ينتظر «ميفان» في زاوية غرفة الخرداوات، كأنه يناديه ليخلّصه من حالة الجمود القاتل التي يعيشها. كان حلاً سحرياً صندوق البخاخات ذاك، ذلك أن السلطات حظرت بيع البخاخات بعد أن راحت الشعارات المعارضة تملأ جدران المناطق المشتعلة، في «الحجر الأسود» كما في معظم المناطق المحيطة. ثمة وظيفة جديدة راح يعاني منها رجال الأمن، تتمثل في محو الشعارات التي تتخم الجدران. كانت سياراتهم تدور كل ليلة لمحو ما كُتب، يدورون في كل حارة، يبحلقون في الأسوار المتفرقة. في البداية كانوا يدهنون الجمل بالطلاء الأبيض. يحملون سطول الطلاء في سيارات الجيب ومعها الفراشي. ثم لم يعد هناك متسع من الوقت والهمّة للطلاء، فصاروا يبخّون فوق الجمل بالأسود يطمسوا معالم الكلمات. شعار فوق شعار، جملة فوق جملة، تخمت جدران المنطقة بالمساحات السوداء، وتحوّلت إلى بقع سوداء عملاقة.

كان «ميفان» يراقبهم كل ليلة من شباك المطبخ. يطفئ الضوء يسدل الستارة ثم يراقبهم من شقّ صغير في القماش. يأتون بعد منتصف الليل ليقوموا بمحو الأصوات المكتوبة حوالي الساعة الثانية جراً من كل ليلة. هذا يعني أن كتابة الشعارات بعد هذا الوقت قبل شفق بقليل، حيث العتمة أعتى من أي وقت آخر في الليل، ستجعل ـ يُخطّ على الجدران ينتظر الغادين صباحاً إلى أعمالهم أو ـ رسهم. كأنك تصرخ بدون صوت بما تريد قوله، ويسمعه الجميع، ـ يُجبر الجميع على سماعه! هذا بالضبط ما أغوى «ميفان حاجو» في فكرة كلها، اقشعر جسده بالكامل كأنه في لحظة نشوة. كانت الفكرة

التي يبحث عنها منذ زمن دون أن يدري. سيستطيع أن يؤلف الروايات بدل أن يقرأها. لن يكون الأمر بحاجة إلى إكمال التعليم، ستكون الجدران، لا صفحات الكتب، ميدانه. المعرفة هنا لم تعد حكراً على الكتب، صارت معروضة في الشارع ومتاحة للجميع. هذا ما قرره «ميفان» واقشعر جسده من جديد:

أن يكتب ما يريد من الآخرين قراءته، والحيطان صفحاته البيضاء التي تنتظره بفارغ الصبر. لا انقطاع التيار الكهربائي ولا الحصار سيعيق إيصال الكلمات للناس، إنها أمام أعينهم مسفوحة على الجدران!

في بيت «شيران» لاقى اليوم صباحاً أحد أصدقاء أخيه المقرّبين، يطلقون عليه «أبو علي الفهد»، كان فيما مضى شديد الفقر يعمل سائق سيرفيس على خط «الحجر الأسود- البرامكة». قيل بأنه قدِم من ريف «حلب» قبل سنوات طويلة، هارباً من جريمة قتل ارتكبها على تخوم قريته. في «الحجر الأسود» ألفى مكاناً مكتظّاً رحباً مليئاً بالمفاجآت، كان أولها عجوز نازح من «الجولان» زوّجه ابنته العانس وأعطاه سيرفيساً قديماً، كان كل ما يمكله، ليعمل عليه في ورديات ليلية. بعد ذلك قرر «أبو علي الفهد» أن يستقرّ في جنته الطارئة: «الحجر الأسود». لكن زوجته التي تشبه خنزيراً أسود، حسب تشبيهه الدائم لها، جعلته يقضي نهاره في ملاحقة النساء الدمشقيات أينما كنّ. كان لديه صاحبة حبيبة في كل منطقة من ريف «دمشق»، ويحاول جاهداً أن يحصل على صاحبة من أهل المدينة الأوائل: «أينما تريد لدي واحدة. كل امرأة من مكان لديها نكهة خاصة لا تتواجد في الأخرى. نساء المعضمية مثلاً لا يشبهن نساء داريا. وصاحبتي في جرمانا لا تشبه تلك التي أواعدها من ركن الدين». ويقهقه «الفهد» كازّاً بأسنانه على مبسم نبريش الأركيلة.

حينما يسأله «ميفان» عن السبب الذي يحدو بكل أولئك النسو:

لإقامة العلاقات معه، كان يجيبه بصوت فخور: «الفحولة... الرجولة. الرجال يظنّون إنهم بالمال يكسبون النساء! مخطئون، الفحولة هي السبب. تستطيع امتلاك قلب أصعب امرأة إن كنت فحلاً... عقل المرأة بين فخذيها».

ويقهقه بصوت أعلى فيشاركه «شيران»، شقيق «ميفان» الذي لبث يستمع إلى حوارهما، الضحك. فيما لا يستطيع «ميفان» أي يعثر على أي سبب للضحكهما الهيستيري.

لكن «أبو علي الفهد» لم يعد فقيراً كما كان. في بدايات ٢٠١٢ كانت النقود تفيض بين يديه! وتزيد يوماً بعد يوم! لكن «ميفان» لطالما شعر بالخوف منه، جسده الضخم، صوته الغليظ، ومشيته التي تشبه مشية مصارع غاضب. لا يجرؤ أحد على الكلام معه. مرة ضرب رأس رجل بالجدار كاد يقتله. يستطيع حمل رجل بيد واحدة. كان «أبو علي الفهد» من أكثر زعران «الحجر الأسود» شهرة، واليوم هو من أكثر زعماء الكتائب المسلّحة شهرة.

- القتال بقلوب سباع لا تخاف الموت لأمثالنا. هؤلاء المخنثون لن يستطيعوا حمل السلاح. سيظلون هكذا كالحريم يندبون مصيرهم!!

صاح «أبو علي الفهد» إثر «ميفان» الذي ترك الجلسة فجأة.

قبل شهور قليلة مات أهله جميعاً في قذيفة نزلت على بيتهم في ريف «حلب». رحلت العائلة بأكملها، ولم يتبق إلا أخوه الصغير الذي كان في وضع نفسي غير متوازن. قال لـ«شيران» إن من يلتحق بهم في الجيش الحر، ويدافع عن بلده وشرف أهله من السوريين، هو وحده من يستحق صفة رجل، وغير ذلك هو أشبه بعالة يستحسن أن تقبر في البيت.

- إنها الطريقة الوحيدة التي أمامنا، أعداء اللّه أولئك لن يذهبوا إلا بالدم، ونحن لها.

لكن «ميفان» كانت لديه طريقته الخاصة في الثورة.

- وما هي طريقتك يا فهيم؟

سأله «الفهد» متهكماً. «ميفان» ظل صامتاً، لن يبوح لأحد بسره. لكن «الفهد» استمرّ في محاولاته لجرّ «ميفان» إليهم، أخبره عن عملية نوعية سيقومون اليوم بها، سيغيرون على بيت أحد الأثرياء المتعاملين مع النظام في المنطقة، ويستخدمون غنائمهم في حربهم ضد النظام، وطلب من «ميفان» أن يبدأ مشواره معهم بهذه العملية.

- جسمك صغير وخفيف، تستطيع أن تساعدنا بالكثير.

صاح «الفهد» لكن «ميفان»، أيضاً، لم يستجب.

بعد أيام اتصلت حبيبة المعلّم «الفهد». لم يكن من المألوف أن تتصل به، في العادة كان «أبو علي الفهد» هو من يتصل بها حين يشتاق. لكنها في ذلك اليوم اتصلت لتسرّ له باشتياقها ورغبتها المجنونة بعناقه ووصاله. قهقه «أبو علي» قهقهته المعتادة، ووعدها أن يأتي في الغد إلى شقتها أو أن يبعث بشاب يحملها إليه، لكنه اليوم لا يستطيع فهناك عمل مستعجل عليه أن يقوم به.

صباح اليوم التالي اتصلت به من جديد. أخبرته بأنها لم تعد تقوى على غيابه فقد كادت تجنّ من الشوق، وأن عليه أن يأتيها بالتأكيد هذا المساء لأنها ستقيم على شرفه حفلة لن ينساها في حياته. لحظتئذ أحسّ «أبو علي الفهد» بشيء ما يحذّره في داخله، بصوت يقول له: انتبه هناك أمر غير طبيعي! لسبب ما بدا متأكداً من أنه سمع همهمات تناهت إليه من الطرف الآخر، كأن هناك من يلقّن صاحبته ما عليها قوله.

- حسناً سنلتقي اليوم، ولكن ليس في بيتك، سأبعث من يجلبك إلى هنا.

سكتت المرأة قليلاً، صدرت وشوشات بقربها قبل أن تعلن موافقتها الفرحة على الاقتراح.

- جلبها الشباب إلى هنا... بقوا ثلاثة أيام يعذبونها... ابنة العاهرة بقيت ثلاثة أيام حتى اعترفت! تركت كل الشباب يعاشرونها ولم تعترف! بعد ثلاثة أيام اعترفت بأنها تتعامل مع عناصر الأمن وأنهم يريدونني وهي الطريق إلى التقاطي... لم أعتقد بأنها عنيدة إلى هذه الدرجة.

خامر المعلّم نوع مختلط من المشاعر: اغتباط لأن شهرته عمّت الآفاق حتى إن عناصر أمن النظام يريدونه، ثم نوع من الخشية لأن حياته باتت مطلوبة بشتى السبل، لكنه لم يشعر بأي شفقة حين قال لأحد رجاله، وهو يغادر الغرفة، أن يقتل «العاهرة الخائنة تلك» برصاصة مباشرة في رأسها، ويرمي جثتها في البساتين القريبة.

...

في الليلة الأولى أحسّ «ميفان حاجو» بأنه عارٍ تماماً أمام الليل وعناصر النظام، أمام الخوف وقلة المعرفة. خرج بعد الساعة الرابعة صباحاً، حمل أحد البخاخات داخل جاكيته، لفّ رأسه بكفية بيضاء مرقّطة بالأحمر، كانت كفية المرحوم والده وقد فكّر بأنها ستهبه الحظ الطيب ربما. أول جدار لاقاه في وجهه كان جدار المدرسة الابتدائية القريبة. ثمة مساحة لا بأس بها يستطيع أن يكتب عليها ما يريد. أخرج البخاخ وهمّ بالكتابة، لكنه للحظات، لدهشته، لم يعرف ماذا يكتب! تلفّت حوله، كان الشارع خاوياً إلا من الصقيع والكلاب الشاردة! صوت الأذان راح يصدح بصلاة الفجر. فكّر بكل شيء، بوقت الخروج، بثيابه، بالأمان، بتكتيك حركته، بكل شيء إلا بالجمل التي سيكتبها! لكنه، وبحركات سريعة، قرر كتابة أول ما خطر بباله:

«حرية... حرية».

تلكّأ البخاخ قليلاً، فخرجت الأحرف سوداء مجعّدة على السور المطروش بالأبيض. ركض إلى الأمام حيث مجموعة من المحلات

التجارية المغلقة، الغلق المعدني الخالي من اللون أغراه بالبخ فكتب، هذه المرة بحروف أقل تجعيداً:

«عاشت سوريا حرة»، ثم أكمل إلى الأمام مهرولاً.

«عاشت سوريا ويسقط بشار الأسد»، على السور الطويل الذي يحيط بخزان الماء.

صار البخاخ أكثر سلاسة في يد «ميفان»، طاوعه أخيراً بدون تجعيدات. صارت الكلمات تنساب سوداء على الجدران والأسوار وغلق المحلات، على الأبواب والشاخصات واللافتات، حتى على الأرصفة وإسفلت الطرقات. كل مساحة مسطحة كان من الممكن أن تكون صفحة بيضاء تنادي بخاخ «ميفان» أن سطّر حروفك عليّ.

قبل أن يشقّ الضوء بدقائق كتب ميفان: «لن نركع»، وعاد مهرولاً إلى البيت.

في الصباح وهو في طريقه إلى فرن الخبز كانت سيارات الأمن تصطف على جانب الطريق، يمحو عناصرها بانفعال ما كتبه بخاخه الأسود في أرجاء الحارة. أنظار الناس أيضاً كانت تقف لثوان كي تقرأ ما هو مكتوب.

لقد وصلت الرسالة. شعر «ميفان» بهواء عليل مشبع بالفرح يلج جسده بعزم. كان يبتسم رغماً عنه. أحسّ بأن ثمة معنى جديداً لكل ما سيأتي لم يكن له وجود في روحه سابقاً.

في الفجر الثاني تلفّح «ميفان» بكفيته من جديد وخرج ليكتب. كان قد قرر ما عليه أن يكتب:

«طال الزمن أم قصر، الشعب سوف ينتصر».

قرأها في إحدى صفحات التنسيقيات على الفيسبوك. قرر أن يعيد كتابتها بقلمه، ستصبح من إبداعه حينما يضعها على الجدران ويقرؤها الناس هنا.

«القذافي طار طار ضبّ غراضك يا بشار».

مع الزمن صارت الجدران البيضاء تلهمه بكتابات أخرى، بشعارات مغايرة تختلقها روحه بلحظتها، كأنه وحي ينزل عليه بعد الساعة الرابعة فجراً وينتهي بشروق الشمس.

لكن المغامرات الليلية تلك لم تكن تنتهي دوماً بسلاسة. لاقته دوريات الأمن أكثر من مرة، في إحدى المرات اقتربت رصاصات عناصرها كثيراً منه حتى أصابوه في ساقه، شحفتها الرصاصة، لسعته بحرقة مؤلمة. لكنه قفز إلى سور بيت مهجور وغاب في العتمة. اشتم رائحة عرق العنصر الذي رماه بالرصاص، سكنت أنفه، وجعلته يتحوّل من شاب مولع بالكتابات إلى رجل بخاخ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. ذلك الجرح، الذي أحدثته الرصاصة المارقة على ساقه، ترك ندبة لن تمحى في جسده، كما في روحه. عند الفجر عاد مسرعاً وهو يحجل إلى البيت. ضمّد الجرح سريعاً لئلا تراه أمه، واندسّ في السرير. كان عليه أن يتغيّب في الليلة التالية بسبب ساقه المتورمة، وذاك الألم الممضّ الحارق فيها. ليلة واحدة هي، وعاد الرجل البخّاخ إلى بخّاخه من جديد.

بعد أسابيع قليلة راح يخطّ تحت الشعارات التي يكتبها: «رمح»، اسم يميّزه، يعطيه تعريفاً موحداً لكل ما يكتبه. اسم جمعه من لملمة حروف جملة: «ثائر من أجل الحرية».

مع مرور الشهور صار «رمح» الشغل الشاغل لحيّ «الحجر الأسود». ليس الحي وحده بل كل المناطق المجاورة: مخيم اليرموك، القدم، والعسالي.. وراحت صفحات الفيسبوك تضع شعارات الرجل البخاخ «رمح»، والمناطق الأخرى تستقي من تلك الأسطورة التي اسمها «رمح» قصصاً متعددة متشابهة.

«فقط في سوريا يتمنى المعتقل الموت»

جملة كتبها بالبخّاخ الأحمر على جدار المقبرة، أبكت الكثير من الأمهات الغاديات صباحاً إلى سوق الخضار، تذكّرن أبناءهن المعتقلين، أولئك الذين لم يغيبوا عن ذواكرهن يوماً، وفكّرن وهنّ يمسحن عيونهن، للمرة الألف ربما، كيف سيكون حال أبنائهن في عتمة المعتقلات الآن، وهل سيقدّر اللّه لهنّ أن يكحّلن عيونهن بمرأى الأحباب؟!

في الأيام التي سبقت الدعوة لإضراب الكرامة ملأ «رمح» جدران الحي وزواياه:

«إضراب حتى النصر».

كان أصدقاء «ميفان» يحدثونه عن ذلك المدعو «رمح»، يخترعون القصص ويؤلفون الأخبار. يهمس له واحد بأنه رآه البارحة. يسرّ له آخر بأنه كان صديقه المقرّب فيما مضى ولكن السنين الغدارة فرّقتهما. كان «ميفان» يهزّ رأسه ببلادة، ويحلم بالساعة الرابعة فجراً وبملمس البخّاخ الأملس المعدني بين أصابعه.

« البلد يحكمها ولد»

«بالفيتو أو بدون الفيتو. . . بشار الأسد خلص زيتو».

منذ أن قرر «ميفان» ما قرره لم ينبلج فجر بدون أن يخرج للكتابة. مرّت حملات الاعتقال، دوريات الأمن، ليالي قصف المدفعيات، تشييعات، مظاهرات، أيام انقطاع التيار الكهربائي، حصار الجيش الأخير للحي، ولم يتغيب رغم كل ذلك إلا ثلاثة أيام: اليوم الأول حينما أصيبت ساقه، واليوم الثاني كان حينما وصله نبأ «أبو الليث» صديق أخيه «شيران»:

كان «أبو الليث» قد اختفى في ليلة ما. زوجته وأطفاله، الذين أرسلهم إلى أقارب زوجته في لبنان، راحوا يتصلون به مراراً دون أن يصلهم أي رد. أخوه «أبو ليلى»، الذي كان قد انتقل للعيش في حي

«الإنشاءات» في بيت والد زوجته بعد دمار بيته، استطاع الوصول إلى حي «دير بعلبة» عابراً مدينة «حمص». نجا بأعجوبة من رصاصة قناص أزّت بجانب أذنه وهو يركض ملتوياً بين الأزقة الهامدة. اتصل بشقيق زوجته «مصعب محمود» ليأتيه مسرعاً، فتسلل الأخير تحت جنح الليل محتضناً رشاشه ليقبع حتى الصباح إلى جانب صهر لم تغمض له عين. كانت الوساوس تتناهشه بوحوش جائعة: هل يكون «أبو الليث» قد اختطف؟! أم ذهب مع الثوار؟! هل يكون رجال النظام قد نجحوا باعتقاله بطريقة ما؟! أم هو في مهمة سرية لا غير؟!

عند شقّ الفجر خرج الرجال للبحث، «مصعب» مايزال يتشبث برشاشه و«أبو ليلى» استلّ بندقية أخيه، وعبر البساتين القريبة انطلقوا.

هناك على التخوم سحابة من الدخان القاتم ما تزال تتصاعد من غرفة متطرفة كانت فيما مضى مستودعاً لأدوات الزراعة. إلى الغرفة العابقة برائحة لحم محروق وهباب دخل «أبو ليلى» ومعه «مصعب» وشابين من شباب «دير بعلبة». شيء ما جذبهم ليدخلوا تلك الغرفة المحايدة المتضبّبة.

سبع جثث متفحّمة ملقاة على الأرض والدخان يتصاعد منها.

لسبب ما تقدّم «أبو ليلى» يحاول تقليبها، وهو مايزال يغلق أنفه وفمه بظاهر ساعده. لم يتبين أي ملمح من ملامح البشر الذين كانوا قبل الحرق، كانت أيديهم موثوقة إلى الخلف، ويبدون هامدين كأنهم ماتوا قبل الحرق. الجثة الثالثة بدون معالم كذلك، لكن التفاتة سريعة حانت منه استطاع أن يلتقط فيها ساعة فضية اللون في معصم الجثة الأسود. ساعة تشبه ساعة «أبو الليث»!!... لا، إنها ساعة «أبو الليث»، يعرفها جيداً فهو من انتقاها قبل سنتين من محلّ صغير في السوق الطويل وأهداها لـ«أبو الليث» في عيد ميلاده الخامس والثلاثين.

لكن لم يكن هذا «أبو الليث»! لم يكن وجهه هذا المنتفخ

المحروق الملقى على الأرض! لم يكن جسده هذا المشلوح كخرقة مسودّة! لم تكن رائحته تلك القبيحة المثيرة للغثيان.

راح «أبو ليلى» يجسّ الجثة، يقلّبها، لم يعد يشعر بما حوله. تكثّف المكان بها وبرائحتها، رأسه يضجّ، عيناه تحرقانه بالهباب. قلبه ينتفض في صدره ويكاد يختنق بأنفاسه!

كان «أبو الليث» قد مات حرقاً.

اليوم الثالث الذي لم يخرج فيه «ميفان حاجو» ليبخّ شعاراته على جدران حي «الحجر الأسود» كان يوم اعتقاله.

قبل ذلك بيوم ألحّ «سعيد حسين» على باله بإصرار، اشتاق إليه كما يشتاق لأمه. قرر أن يغدو إلى بقاليته في مدينة «جرمانا» ليراه. كانت الطريق صعبة للغاية، حواجز الأمن والجيش تقسّم «دمشق» إلى شظايا صغيرة منفصلة. أصوات القصف على «بيت سحم» و«عقربا» القريبة تهزّ «جرمانا» وطريق المطار، شيء يشبه القلق والرعب يعمّ شوارعها، والازدحام يزداد ويزداد.

«سعيد حسين» كان جالساً وراء المكتب يسرد في الشارع كعادته. بدا لـ«ميفان» أكبر من عمره بسنوات، وترهلات جديدة ومتعبة تخطّ وجهه، لكنه مازال بشوشاً محبباً. حينما لمحه «سعيد» على باب البقالية شهق من الفرح، خرج من وراء المكتب واحتضن الشاب طويلاً. حينما تركه كانت عيناه رطبتين.

قضى «ميفان» ساعات في بقالية «سعيد»، تحدّثا عن كل شيء إلا عما يفعله «ميفان» اليوم ببخاخاته. كلما كان «ميفان» يصمت كان «سعيد» يستحثّه للكلام. حدّثه الشاب عن نهاية «أبو الليث» وبكى. بدا «سعيد» حزيناً. حدّثه «سعيد حسين» بدوره عمّا يحصل، عن الخوف الذي راح يتنامى في دواخل أهله، وعن إلحاحهم عليه بأن يعود إليهم ويترك «دمشق» لويلاتها.

- ولن تذهب؟!

- لا، بالتأكيد لن أذهب... أنا لم أؤذ أحداً لذلك لن يؤذيني أحد.

قال «سعيد» إنه بات مقتنعاً اليوم بأن النظام أخطأ، أخطأ كثيراً، لكنه لا يستطيع أن يقوم بشيء ضده فهذا واجبه الوطني. في النهاية هو نظام قاتل إسرائيل وأميركا، وحمى الأقليات. كان قد سمع بهذه الفكرة من برنامج حواري تمّ عرضه مؤخراً في قناة «الميادين».

- هذا كله كذب صديقي سعيد...

- كيف كذب؟!

- يعني لا هو يقاتل إسرائيل ولا يحميكم!!

- عيب هالحكي ميفان... عيب.

- لا مو عيب... سعيد هذه الحقيقة، بس أنتم تضعون طميشات البغال على عيونكم... وتمشون كالبغال أيضاً...

بدا اللوم في عيني «سعيد»، فاعتذر ميفان من فوره.

- ميفان يا حبيبي أنا اشتقت لك كثيراً، دعنا لا نختلف في هذه الأمور. كل منا لديه قناعاته ولكنا أصدقاء...

وقام ليجلب زجاجتي كولا كي يشربا معاً.

حين عاد «ميفان حاجو» إلى «الحجر الأسود» كان يشعر بالقهر. رؤية «سعيد حسين» أثلجت روحه قليلاً، لكنه بات يقتنع أكثر فأكثر بأن هناك أشياء تتفكك، تنهار، وتتدمّر، وبأنه لم يكن يتخيّل أن يأتي يوم ويتعارك مع «سعيد» أو يشعر بالشفقة عليه. هل كانت البلد ستؤول إلى ما آلت عليه لولا كل ما حدث؟!

في الليل راحت تلحّ عليه جملة ظلّ يرفضها طويلاً، لكنه هذه الليلة كان ممتلئاً بها وهو يبخّها باللون الأسود على الجدران. لون يشبه كقلبه لحظتئذ، قلبه المفعم بالحقد والكآبة والغضب كما لم يكن يوماً:

(الشعب يريد إعدام الرئيس)

(الشعب يريد اعدامك بشار)

في تلك الليلة استطاعت إحدى دوريات الأمن أن تلقي القبض على الرجل البخّاخ «رمح» على مفترق طريق معتم ماضٍ باتجاه الحقول على مشارف حيّ «الحجر الأسود».

(١٦)

عن الهجرة وفجوات احتلت الأمكنة

السابع عشر من آذار ٢٠١٢، تاريخ لا يمكن لـ«أم بيرو شاهين» وابنتها «جولييت شاهين» نسيانه. كانتا ماتزالان تغطان في نوم عميق حين رنّ الهاتف الأرضي! حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً! كانت شقيقة «أم بيرو» تبكي على الهاتف بجنون. بدت أشبه بامرأة مصابة بالهيستيريا، حتى إن «جولييت»، التي تلقّفت السماعة مرتعبة، لم تعرفها للوهلة الأولى. كانت تصيح بأن البيت تهدّم وانهار الزجاج عليهم، تداعى الحائط على ابنها، وكل أثاث البيت كذلك. دوّى صوت الانفجار الهائل في وسط دمشق، سمعته كل الحارات المحيطة حتى «كفرسوسة» و«الميدان»، كما سمعت زخات إطلاق الرصاص إثر الانفجار مباشرة، لكن أياً من ذلك لم يصل «جرمانا»!

لم تعرف «أم بيرو» ماذا تفعل! أيقظت سكان البناء على صراخها وزولولتها. استيقظ «صفوان الشيخ» وزوجته «مريم»، كذلك عائلة «عميد» «بهجت حسون» في الشقة المقابلة لهم، أما «صلاح عباس» فقد اندفع بثياب النوم يدقّ لهفاً على باب «أم بيرو» المواجه له. في الأعلى كان بيت القوادة ساكناً، فهي وصبایاها لم ينمن حتى مطلع الفجر، ومازالت سيارات الزبائن مصفوفة وراء بعضها بعضاً في الأسفل. أما الشقة المقابلة لها، شقة «خليل أبو العزم» التي استأجرها

حديثاً، فقد كانت فارغة، وكان «خليل» قد قضى سهرته في بيت أخيه «عمران أبو العزم»، وبات هو وزوجته «سهام» عنده.

«أم بيرو» تضرب على رأسها، تبكي هي وابنتها، تتحدث بجمل متقطعة مبهمة عن تفجير حدث في حي «القصاع» بدمشق عند الصباح الباكر. تطوّع «صفوان الشيخ» لإيصالها إلى حي «القصاع» حيث منزل أختها بما أنه يمتلك سيارة. رافقه «صلاح» الذي كان مايزال في ثياب النوم.

على الرغم من بكاء «أم بيرو» العالي وصلواتها المحمومة للسيدة العذراء أن تحمي أختها وابن أختها، إلا أن أصوات سيارات الإسعاف كانت طاغية تقتحم صباح السبت الهادئ في هذا الجزء من مدينة «دمشق».

سحابة دخان هائلة راحت تتكشّف لهم وهم ينزلون باتجاه طريق «القصاع». كل الطرق كانت مقطوعة! الاتصالات قُطعت كذلك. فمازالت «جولييت» تحاول الاتصال عبثاً ببيت خالتها. أوقفوا السيارة عند مفرق «باب توما»، وكان الجحيم مستعراً هناك. الناس تنزل من بيوتها باتجاه الانفجار، أصوات سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة تمسك بالفضاء وتشدّ البشر إلى ضجيجها الملحّ الذي يزيد الرعب رعباً.

عناصر الأمن يحيطون بالمكان، وسيارات التلفزيون الرسمي السوري كذلك!!

هلع، لهفة، ارتباك، توتر، ورائحة موت تفغم الأنوف!

لم يسمحوا للمجموعة بالاقتراب! أوقفهم حاجز أمني وصاح بهم أن يبتعدوا. زعق أحدهم بأن هناك إطلاق للرصاص قرب المنطقة والمكان خطير. كانت «أم بيرو» تصيح بأن أختها في الداخل، لكنهم لم يسمحوا لها بالاقتراب. زجاج المباني المتحطّمة يبدو متلألئاً على

طول الشارع على بعد مئات الأمتار، السيارات المحترقة، الأجساد المتفحمة، ورائحة حريق مقززة تسمّم الفضاء الفاصل.

بعد حوالى الساعة استطاعت «أم بيرو» وابنتها الدخول إلى الحي وحدهما، تدوسان شظايا الزجاج وتراوغان الشظايا التي تغطّي المشهد. كان المكان مغايراً تماماً، وشعرت «أم بيرو» بأنها لم تطأه يوماً! كأن ثمة فجوة ابتلعت كل ملامحه وتفاصيله، فجوة التهمت الناس والأشياء وواجهات الأبنية والأشجار والمعنى كله!

إلى ما تبقى من بيت أختها اتجهت. لكن بقايا البيت، الذي بدا كخربة مهشّمة، لم يثر في قلب «أم بيرو» أي ارتكاسة، ولا رائحته الغريبة التي لا تشبه عطور مواد التنظيف وبخاخات إنعاش الجو التي كانت تتصاعد منه دوماً. كان وجه أختها السالمة، كما قامة ابن اختها الفارعة المنتصبة، كفيلان بزرع فرح منسي في أركان قلبها. هذا كل ما كانت تدعو ربها أن تلاقيه، وتترجى العذراء ويسوع من أجله. إنهما سالمان ولتذهب كل بيوت الأرض إلى الجحيم. نسيت فجوة الخارج، نسيت كل الموت والرعب الذي كاد يودي بها وراحت تضحك كممسوسة. كانت أختها تبكي الخراب، تلهج بأنه بيت المرحوم زوجها، بيت شبابها وحياتها، وهكذا خلال ثوان تدمّر كل شيء! و«أم بيرو» تواصل ضحكها، تمسّد شعر أختها المبعثر، وتشكر الرب والعذراء على هذه الأعطية التي لن تنساها.

في اليوم التالي ستفتح السلطات المكان ليتفرّج عليه الجميع، كل من أراد يمكنه معاينة المكان، كمن يعاين موقع جريمة، تكتنفه فرصة لتأجيج الخوف من إرهاب ما انفك يرتكب تفجيراً إثر الآخر، أو نوع من استعراض الجروح لإثارة التعاطف. هذا ما فكّر «صلاح عباس» به وهو يدور مع «صفوان الشيخ» في موقع التفجير. وافقه «صفوان» على تحليله الذي أسرّ به همساً، فرجال الأمن يملؤون المكان.

كانت السلطات تترك مكان الجريمة مفتوحاً للعامة كما لم تفعل

قبلاً!! وليتأمل الجميع كيف يغيّر الإرهاب وجه البلاد التي لا حافظ لها إلا بشار الأسد ونظامه. «لسان حالهم يقول»، قال «صفوان» وهو يراقب وجوه المارة، ويلمح من جديد تلك الشرارة العابرة السريعة من الارتياح وسط تجهمهم، وربما نظرات شكر للّه لأنهم لم يكونوا في هذا المكان بالذات ساعة التفجير، وذهب الموت بغيرهم!

- أو قد يكون الأمر أشبه بتلقين درس، أو بهزّ إصبع التهديد في وجوه السوريين، أو عملية مضاعفة لإخافة المسيحيين.

أضاف إلى تحليلات صديقه، فهزّ الأخير رأسه موافقاً.

- أو ربما ليس للنظام علاقة به؟!

- لا أعرف... ربما. لكني أؤمن بأن كل شرور الأرض تأتي منه... وحتى لو لم يكن هو من فعلها فهو المسبب لها في النهاية.

- في كل الأماكن التي حصلت فيها التفجيرات الأخيرة لم يسمح للناس بالاقتراب. منذ تفجير مقرات الأمن والجمارك في كانون الأول الماضي مروراً بتفجيرات الميدان وحتى اليوم.!! الأمر مثير للتساؤل!!

كأن حديثهما كان أشبه بنبوءة، فبعد الانفجار بأيام قليلة تقرر «أم بيرو شاهين» وأختها أن تتركا «دمشق» من جديد، وتقصدا «بيروت» حيث أقاربهما هناك، ومن هناك سينتظرون السفر الموعود إلى أميركا. «أم بيرو» أغلقت بيتها، وأختها تركت خرابة بيتها كما هي ورحلت. ولكنها قبل أن ترحل عادت لوداع الجيران من جديد.

في ذلك الوقت كان «صفوان الشيخ» و«مريم محمود» و«ريما العيساوي» في البيت. والحوار محتدم كالعادة بخصوص الخيارات المتاحة. «صفوان» يرى اليوم أن التحدى هو في البقاء سالماً، في البقاء على قيد الحياة، في مواجهة كل أسباب الموت المحيطة التي تفرض نفسها بقوة، أسباب الموت المتاحة في كل ثانية. الرهان هو على البقاء، العيش، هو وحده الانتصار في حفل الموت الجنوني

المحيط. ثم يؤكد مجدداً: الشجاعة ليست في الموت، الشجاعة ليست في الموت، حتى ولو كان في بؤرة الضوء المشعّ، الشجاعة في الاستمرار ببساطة، الشجاعة هي الاتكاء على الظل والبقاء حتى القادم لنشهده ونبنيه، هذه هي شجاعتي!

في هذه الأثناء كان الدكتور «خالد الساعي» قد وصل إلى حيث كانت «مريم محمود» و«ريما العيساوي» ما تزالان تتهامسان في الصالون، تتلفّح كل منهما ببطانية صوفية، وتحتسي كاساً من الشاي الساخن علّ الدفء يسري في جسديهما. لكن مزاج الدكتور كان مختلفاً تماماً ليلتئذ، مفعماً بغبطة عارمة تكاد أضلاع صدره تتفتّح بتأثير وهجها! لقد نجح اليوم في إخراج رصاصة من صدر طفل عمره عام! كانت تلك المرة الأولى التي يمسّ فيها جسداً ضئيلاً مثقوباً بالنار، ويضرّج كفيه بدمه. ثم أجرى تفجير صدر له، فصدرت عنه صرخة باكية وعاد إلى الحياة! راح «خالد» يبكي من الفرح كأنه عمل على توليده مجدداً. كتلة اللحم النابضة تلك عادت إلى الحياة!

كان الفرح يشعّ من عينيه وهو يحتضن رأس «ريما العيساوي» في غرفتها الجديدة التي عادا إليها تلك الليلة. فرح لم تره «ريما» في عينيه يوماً منذ عرفته.

«لينا شماميان» تغني من الكومبيوتر المحمول الموضوع على طاولة الخشبية في أقصى الغرفة. صوتها النحاسي يزيده ضوء شمعتين اللتين أشعلتهما «ريما» لتضفي رومنسية منسية على غرفة منعبة رطبة في نهاية «شارع الأمين»، كانت قد انتقلت إليها مؤخراً حين راح شبح الاعتقال يلاحقها كلما وضعت رأسها على المخدة في غرفة «القيمرية». الجميع يعرف الغرفة، واعتقالات الرفاق راحت تتوالى، وقد يذكرها أي منهم تحت الضغط أو التعذيب! لم يكن ثمة من خيار إلا أن تبحث عن غرفة أخرى حتى لو كانت غرفة هرمة بسخة كهذه الغرفة، وفي نهاية حارة ضيقة مغلقة كهذه الحارة!

كانت الشموع تضفي القليل من الحياة على موات الغرفة، رغم أن سعر الشمعة الواحدة صار بعشرين ليرة، إلا أن «ريما» بقيت مصرّة على ابتياع الشموع، لمحة إنسانية دافئة وسط الصقيع.

منذ رحيل أخيها «مهند» لم تعد علاقة «ريما» مع «خالد» مثلما كانت! شابها شيء يشبه التردد. كانت ذكرى «مهند» تلحّ عليها كلما تقارب جسداهما، ذكرى محبطة مؤلمة، لا تبثّ فيها إلا شعوراً يشبه المعصية، يشوبه شيء من الكره والغضب، يجعل جسدها، الذي اشتغل قبل قليل بالرغبة، يهمد بارداً بين يدي «خالد»، فينتقل الخمود إليه من فوره!

اليوم كان «مهند» حاضراً أيضاً بينهما، فيما «ريما» مازالت ترتدي فستانها الأسود القطني وتتكئ على الصوفا قبالة السرير. تمثال القبلة الخشبي يتلألأ في ضباب المكان، اللوحات التي تغصّ بها الجدران تبدو واجمة. لوحة للشعراني مكتوب عليها «الحر للحر يصحب» مؤطرة بالخشب الداكن. تعويذة من أم ريما: كفّ فضية بسلاسل وعين من الفيروز وسطها. لوحة عبدلكي «رأس السمكة»، وبجانبهما أول لوحة مكتملة رسمتها «ريما».

قالت لـ«خالد» إن ظل على حاله هذه يتعلق بالجرحى والمرضى عاطفياً سيتعب كثيراً. من الواضح بأنهم في حرب مفتوحة لا يعرف إلا الله متى ستكون نهايتها، ربما مات الكثيرون، وأُنقذ الكثيرون، وإن ظل هكذا يتعامل مع الجرحى كمشاريع عاطفية سيفقد الكثير من روحه مع كل شهيد يرحل.

هزّ «خالد» رأسه، لكنه لم يكن يستطيع غير ذلك. ليست الشخص الأول الذي ينبّهه إلى هذه المشكلة، فقد تحدّث معه الكثير من الأطباء رفاقه قبلاً حول الأمر ذاته. لم يكن قراراً بيده.

لا أريد أن أعتاد الموت حبيبتي. يبدو الجميع من حولي وقد اعتادوا الموت! يجلب المسعفون الجرحى كأنهم يأتون بمؤن البيت

يحملون أجساد الموتى كأنهم يحملون أكياس البطاطا... الموت، الموت، الموت، أخاف أن أعتاده، أخاف أن يصبح أمراً عادياً بالنسبة لي. أجمل شيء في العالم أن أتمكن من إيقاف نزيف حاد، وأسوأ ما يمر عليّ أن أغلق عيني مصاب قضى نحبه.

إنها طريقتي في الثورة. قال «خالد» وقبّل جبين «ريما» الحار.

قال بأنها المرة الأولى التي يحبّ فيها مهنته، يعشقها كأنها جواز بقائه على هذه الأرض. لم يكن يحبّ الطب قبلاً، ولا دراسته. كان يريد أن يدرس المسرح، وقضى الليالي الطوال يتدرّب على أداء مشاهد «شكسبير» من على خشبة سريره. لكن والده أصرّ أن يدرس الطب، لم يكن مقبولاً أو ممكناً بحال أن يقارن دكتوراً مثقلاً بالفخر بممثّل! اليوم يترحّم «خالد» على والده، يشكره في قرارة نفسه، لأنه أجبره، بديكتاتورية شديدة، أن يدرس الطب!

«بسببه أعيش الآن أكثر لحظات حياتي عمقاً إنسانياً، أكثر لحظات حياتي ألماً كذلك، وحباً»، وقبّل «ريما» من جديد.

كان «خالد الساعي» يشعر في قرارة نفسه بتلك المسافة المزروعة بالشوك التي راحت تتنامى بينه وبين «ريما» منذ مقتل أخيها. كان يشعر بها ويحاول أن يتفهّمها. قالت له «هبة حدّاد» في إحدى المرات التي أسرّ لها فيها عن الأمر: «ليس من السهل عليها أن تتقبّل ذلك... الثوار قتلوا أخاها وأنت منهم بشكل أو بآخر!!».

- لكن أقرباءها قتلوا أيضاً أقربائي ولم أكرهها!!

- الأمر هنا أعمق من ذلك!! إنه أخوها الوحيد يا خالد... ثم هي مازالت في صفوف الثورة. ربما لو كانت امرأة غيرها لكانت تركت نشاطها المعارض من وقتها.

لكنه كان متعباً! فسحة الحب تلك، التي من المفترض أن تكون واحة وسط الجحيم اليومي الذي يعيشه، راحت تتحوّل جحيماً من

نوع آخر، أكثر غموضاً وأكثر إيلاماً في الروح. كان يحاول أن يتفهّم كل ما قالته «هبة»، كل تلك التعقيدات التي لم يغفل عنها.

أما اليوم فقد راح يحدّث «ريما»، وهو يحتضنها، عن أصدقائه الأطباء الذين اعتقل منهم الكثير، وقتل منهم الكثير أيضاً. قامت «ريما» لتجلب له رسالة وصلتها من صديق قديم وعزيز يقضي خدمته الإلزامية في «إنخل»، اسمه «رامي محفوض». الرسالة مؤرخة قبل سنة تقريباً، لكنها لم تصل إليها إلا اليوم حين استطاع أحد الذين نجحوا في الهرب من هناك أن يجلبها معه. اتصل بها اليوم ومرّر لها الرسالة. دسّها في يدها بسرعة أمام محطة الحجاز وشدّ السير بعيداً. كان صديقها يطلب منها أن تساعده في الهرب من الجيش.

- أين هي إنخل؟!، سألت «خالد».

- في ريف درعا.

غريب كيف تعرّفت إلى تفاصيل سوريا في هذه الثورة. لم أكن أعرفها قبلاً! لم أكن أعرف تفاصيلها، أسماء قراها ومدنها. مدن وقرى، منسية مهمّشة ومهملة، صارت الآن تتصدّر المشهد. مناطق كان لها صبغة مكرّسة، تبدلت صبغتها هكذا ببساطة! أماكن كان لها روح منجزة تغيرت، تماماً كما تغيّر حال الشباب المنسيين المهمشين فيها، فغدوا أبطالاً.

ربما هكذا هي الثورات، تقلب الهامش إلى لوح المتن، وتهمّش المتن المكرّس. الثورة إعادة كتابة التاريخ. قالت «ريما».

كانت رسالة العسكري «رامي محفوض» في مدينة «إنخل» تبدأ بجملة واضحة مباشرة: «رأيت كل ذلك بأم عيني». راحت «ريما» تقرأ بعض المقاطع فقد كانت الرسالة طويلة جداً، مكتوبة على ورق مجعلك متّسخ بخط صغير جداً، مليئة بالأخطاء اللغوية، ومفعمة بالخوف والتعب: (*كان المعتقلون يساقون أرتالاً من إنخل، عيونهم معصوبة وأيديهم مربوطة إلى الخلف. فقد كان فوج الدريج قد داهم*

«إنخل» عند الخامسة صباحاً، حيث جاءت باصات الأمن ودخلت البلدة بعد أن دخلت قبلهم عربات B.M.B ورشّت الشوارع والبيوت. فيما بعد، وحينما دخلنا «إنخل»، كانت معظم جدران البيوت مثقبة!!

بعد ساعات حشروا المعتقلين في البرادات وذهبوا إلى جهة مجهولة لم نعرفها، ولم نجرؤ على السؤال عنها حتى اليوم. أنا أخدم في الفرقة التاسعة في اللواء في المنطقة بين «إنخل» و«الصنمين». في الليلة الماضية، وقبل اقتحام «إنخل»، بدأ إطلاق الرصاص على الحاجز العسكري الذي أقف عنده وذلك بعد منتصف الليل، كان إطلاق رصاص غريب وعشوائي، وسمعت قهقهات وضحكات!! شعرت بخوف هيستيري، جعلني ورفاقي نطلق مئات الطلقات باتجاه الصوت حتى ابتعد..

كان هذا الرعب قد امتلكنا بالفعل، حتى إن شابين من السرية الفنية كانا جالسين في الليل يتراهنان إن كانا يستطيعان الرمي على دريئة بعيدة، وما إن خرجت طلقاتهما حتى كان عشرات من عناصر الجيش يرمون الرصاص كالمجانين باتجاه الصوت... ولا أعرف ما الذي حلّ بأولئك الشابين من السرية الفنية فقد اختفيا من فرقتنا! لكني لم أكن أستطيع الحديث بهواجسي إلى أحد، كانت الدبابات معزولة عن بعضها، فهناك أكثر من كيلو متر بين الدبابة والثانية، والحديث ممنوع إلا مع قائد السرية أو الكتيبة. كان علينا حسب الأوامر أن نضرب أي أحد يقترب أكثر من خمسين متراً منا. وأنا لا أثق حتى بأقرب العساكر إليّ، فقد ينقل الخبر إلى القيادة وحينها سأعدم ميدانياً، وفي أحسن الأحوال سأعاقب بوحشية. قالوا لنا في الصباح التالي إن أهالي «الصنمين» سوف يهجمون علينا، لأن هناك مساعد أول قتل، بالخطأ، طفلاً لهم. ووقتها كانت «الصنمين» محاصرة، وفرقتنا هي التي تقوم بالحصار. لكني لم أعتقد بأن الأمر سيكون بهذه

البساطة، فقبل أيام كان أهالي «الصنمين» قد أشعلوا النار في فرع للحزب ومركز للشرطة، وكسّروا صورة ضخمة للرئيس. لكن الذي حدث في ذلك اليوم أن أهالي «نوى» و«إنخل» و«جاسم» اجتمعوا يريدون الذهاب إلى «الصنمين» لفك حصارها، ولكن بوابة «إنخل» كانت مسدودة بدبابتين وكتيبة وسيارتين عسكريتين، فوصل أهالي القرى المجتمعة إلى الساتر، كان كل منهم يحمل كيس مؤنة أو ربطة خبز أو طعاماً ما لنصرة أهالي «الصنمين». فيما كل كتائب اللواء ١٥ قد اصطفوا على الساتر، المشاة المسلحون والدبابات كذلك. هناك سمعت النقاش الدائر بين الأهالي والجيش كلمة كلمة، كان قائد اللواء يقود هذا النقاش معهم، وكانوا يحاولون إقناعه بأن يفتح لهم الحاجز ليتّجهوا صوب «الصنمين»، فقط ليساعدوا أهاليهم هناك بطعام مقطوع منذ أيام طويلة.

فجأة خرجت طلقة مسدس في الهواء! من أية جهة خرجت ومن سلاح من؟! لا أعرف. لكن الأمر برمته لم يحتج إلى أكثر من طلقة واحدة، وبدأ إطلاق الرصاص من جيشنا على الأهالي، مثل مطر مجنون وكله رصاص حي، أحسست بأن الأرض تزلزل من تحتي، كان الناس يتساقطون والدماء تنتشر حولهم، وتخيلت بأني غرقت بالدماء لكني استمريت بالضرب... كنت خائفاً مثل غيري، أطلق الرصاص لأني خائف حتى الموت ولا أعرف من ماذا! كانت هيستيريا جماعية، المجندون الذين اقتنعوا بأن الأهالي يطلقون النار عليهم صاروا يضربون النار على بعضهم! الضباط يصرخون بأن الناس سيقتلونكم ومن تشاهدوه اقتلوه، وبأن عصابات مسلحة آتية من «إنخل» إلينا! أطلقنا وقتها أكثر من ٨٠٠ رصاصة، وكانوا يستبدلون الرصاصات الفارغة على أساس أنها استهلكت في تدريب الرمي...).

ملاحظة أخيرة ذيّل بها الشاب رسالته: (... لا أعرف التواريخ

بدقة، لكني أعتقد بأننا في أواخر شهر حزيران ٢٠١١، مرّت أشهر لم أغادر القطعة ولا يوجد هواتف، أشعر بأني أعيش جهنم على الأرض... ولا أعرف ما الذي سيحدث بعد الآن، أستيقظ كل يوم وأقول هذا يومي الأخير! إذا لم يسرّحوني حتى شهر آب، وإن لم أقتل بيد مسلحين غامضين فسأهرب بالتأكيد... وإلى ذلك الوقت فليعينني الله على القادم...).

كانت رسالة موجعة، رغم أن شهوراً طويلة مرّت على كتابتها، وثمة الكثير مما تغيّر خلال ذلك الوقت الطويل. الأهالي العزّل، الذين قتلوا على ساتر الجيش النظامي في «إنخل»، لم يعودوا عزلاً بعد كل ما مرّ، لكنها كانت موجعة رغم ذلك، تحمل كل ما في الذاكرة من ألم. ذاك الشاب لن يكون في مكانه ذاك الآن، وتلك الأسئلة القلقة الغامضة التي مارت في صدره، وربما في صدور غيره، لم تعد غامضة!

رسالة صديقي «رامي محفوض» هذه جعلتني أسرّ لحبيبي بقلقي المتنامي. خوف يشبه شبحاً بعيداً يقترب، وتتطاول قامته. له وحده أستطيع أن أبوح بما يعتري روحي. كانت الأخبار تتوالى عن الكثير من الانتهاكات التي يقوم بها الثوار المسلحون، وثمة قناعات، كانت ظلاً غير قابلة للنقاش، تتخلخل في داخلي. حدّثته عن ذهابي اليوم إلى حي «القدم» في تشييع أحد الشهداء، عن الأسلوب الذي تعاملوا به معي، عن قصص تهجير العلويين حتى لو لم يكونوا من أزلام النظام. قلت له بأنني أشعر بالانقسام، بالتشظي: «لقد ثرنا على هذا النظام لأنه فاشي. أحسّ بأن البعض راح يتصرف بالطريقة ذاتها... يقتل بالطريقة ذاتها. هذا شيء فظيع».

«حينما تحل لغة الدم تغيب لغة العقل». قال «خالد». ثم أردف بعد هنيهات صمت: والناس ليسوا ملائكة.

توافقه «ريما»، لكنها تعقّب بأن التصرفات الطائفية في الثورة

والتجاوزات ستجهضها، ستضرب أسّها العميق وهو أخلاقها! «إن رحنا نتشبّه بالنظام فما اختلافنا عنه؟!».

- ولا يمكننا أن نطالب بعد كل ذلك بثورة ناصعة كالياسمين، هذه رومانسية عقيمة وسطحية. وإن بقي الوضع أطول من ذلك فكل مخاوفك ستصبح حقيقة، بلغ الدم مستويات ستغرق البلد كلها...

حين صمت الاثنان كان صوت الأذان القريب ينطلق عالياً، ووحدها «لينا شماميان» تغني من الكومبيوتر أغنية أكثر فرحاً.

في ذلك الوقت كان «صفوان الشيخ» و«مريم محمود» مازالا عاريين ومتعانقين على سريرهما في غرفة النوم. انتهيا للتو من ممارسة الحب، حاولا جاهداً ألا يعلو صوتهما، هما اللذان اعتادا أن يطلقا العنان لنفسيهما، فـ«فاديا محمود» وزوجها «أبو ليلى» عادا إلى البيت، وهما الآن في الغرفة المجاورة.

- أشعر بأني سأختنق!

همست «مريم» لزوجها.

- كل ما حولي يمسك برقبتي على الدوام، يكاد يخنقني...

كان هناك شعوران يمزقانها، أولهما إن واجبها هو استقبال أختها وزوجها في البيت، فالوضع في «حمص» خطير للغاية، والثاني إنها تكاد تختنق من وجود صهرها العاتي في المكان، غضبه، نزقه، وحقده. أخوها «مصعب محمود» يلحّ كثيراً على بالها في الأيام الأخيرة. حلمت به البارحة بفجوة أحدثتها رصاصة في وسط جبينه. استيقظت وهي تصرخ منتحبة. هل يعقل أن يكون في خطر؟! هل أصيب لا سمح اللّه؟! فكّرت قلقة. أرادت أن تخبر «صفوان» بقلقها. برغبتها العميقة في أن ترى «مصعب» سالماً، لكن كلّ ما ندّ عنها كان سيلاً من الدموع المكبوتة. «صفوان» الذي أحسّ بارتعاشة جسدها الباكي بين يديه لم يندّ عنه حرف بدوره، احتضنها وراح يمسّد شعرها

الطويل الرطب بالعرق، ويربّت بيده الثانية على كتفها. كان يشعر بكل ما يعتمل داخلها! الشعور ليس كلمة دقيقة، لا يشعر بل يكاد يتيقّن، رغم أنها لا تتكلّم بكلمة عن ذلك. أربعة عشر عاماً من الحب ليست زمناً قليلاً، ستة أعوام منها في بيت واحد! يكاد يعرف تفاصيل روحها بدقائقها.

- ألم يحن الوقت حبيبتي كي نفكّر بطفل؟!

- في هذه الظروف!

- في هذه الظروف تماماً، أشعر برغبة في حياة جديدة تعيننا على كل هذا الموت المحيط... أرغب بطفل، ما رأيك؟! هذه هي الشجاعة متكثّفة، أن نبذر الحياة حولنا بدل أن نزيد من الموت المتصاعد... أليست هذه هي الشجاعة حبيبتي، أن نصرّ على الحياة وليس على الموت؟!

هزّت «مريم» برأسها قبل أن يقفز وجه «مصعب محمود» في وجهها فجأة، لكنه هذه المرة كان يبتسم. فجأة جُنّت أصوات اشتباكات تقترب قادمة من أتوستراد المطار المجاور. قفز كل من «صفوان» و«مريم» من على السرير الملاصق للشباك، حاولا أن يسترا جسديهما العاريين بأي خرقة وهرولا باتجاه الداخل، فقد كان من الممكن لأي رصاصة طائشة دخول الشباك الواطئ!

- هذا صوت دوشكا.

همس «صفوان» قبل أن تهدر مروحية قريبة فوق المنطقة، تكاد تلامس أسطح البنايات، وتبدأ بإطلاق الرصاص باتجاه الطرف الآخر من الأوتوستراد.

- الثوار في بيت سحم يطلقون الدوشكا على المروحية، والمروحية تردّ عليهم.

يهمس مجدداً وهو يرفع حاجبيه منصتاً إلى الخارج. يبدو كمعلّق

رياضي على مباراة حامية: «أو ربما من منطقة سيدي مقداد، أو من أطراف ببيلا!!»، يستدرك!

المروحية تحوم فوق المنطقة بغير انقطاع وهي تطلق الرصاص باتجاه الغرب. بعد لحظات هدأت أصوات الطلقات القادمة من الأسفل، من جهة الثوار، وبقيت قذائف المروحية وحدها تلعلع في صمت الليل.

- لم لا يطلق أحدهم رصاصة على هذه المروحية؟! يخلّصنا منها ومن الموت الذي أحسّ بها تحمله كل ليلة!

- لو لم يكونوا متأكدين بأن رصاصة واحدة لن تنطلق من هنا لما قضوا لياليهم يحومون بالمروحيات فوقنا ويطلقون النار على غيرنا.

قال «صفوان» وهو يتوسّد مخدته على البلاط في الكوريدور الداخلي المفضي إلى الصالون.

كانت «مريم» قد جلست على البلاط وهي تلتفّ بشرشف مزهّر. طوّقت رأسها بكفيها مغلقة أذنيها عن الأصوات التي تقتحم صمت المنطقة: «الآن سيكون هناك الكثير من النازحين القادمين إلى جرمانا. ينبغي أن نتصل بالشباب لملاقاتهم... سيكون منهم الكثير من الجرحى أيضاً!! هل تعتقد بأن شبيحة جرمانا سيمنعوننا هذه المرة من استقبالهم؟!!».

- تعالي ونامي على زندي، ليس بيدنا شيء نفعله حبيبتي الآن. نحن قبل الفجر بقليل، اللّه يحمي الناس هناك وسنرى غداً صباحاً ما يمكننا فعله!... هذا أفضل مكان وأأمن مكان في البيت، لن تستطيع الطلقات الطائشة اختراق عدة جدران والوصول إلينا... ثم لنتابع نقاشنا الذي انقطع... ما رأيك أن نجلب طفلاً رائعاً جميلاً يشبهك؟

في هذا الوقت كان «مصعب محمود» يقبع مستنداً على رشاشه في بيت مهجور على تخوم مدينة «حمص». المتاريس من أكياس الرمل

والبراميل المعدنية تحيط بالبيت، «ومصعب» يستريح كما بقية رفاقه من ساعات طويلة من الاشتباكات مع قوات النظام. اليوم استطاعوا تحرير مبنى شعبة حزب البعث في حي «الحميدية»، ودمّروا دبابتين للنظام كذلك مع العناصر التي فيها. قُتل أكثر من ستين عنصراً نظامياً وتُركت جثثهم في المبنى. اثنان من الرجال الخمسة عشر الذين أطلق سراحهم من الحجز انضموا إليهم، كانوا يجلسون الآن في زاوية المكان يتلقّون التعليمات من قائد المجموعة ومعاونه. المُحرّرون الباقون، وعددهم ثلاثة عشر، اختاروا أن يعودوا إلى أهاليهم ومناطقهم إن كان قد بقي لهم أهل ومناطق. كانت عملية طويلة ومتعبة، وها هو «مصعب» الآن يحاول نفض صوت الرصاص وفرقعة الانفجارات من رأسه. كانوا قد انتقلوا إلى هنا بعد أن تدمّر بناء «أبو الليث»: «فندق الثوار» تماماً. في ذلك اليوم تدمّرت معظم أبنية المنطقة وليس فندق الثوار وحده.

الوضع في «حمص» يزداد صعوبة، الذخيرة تقلّ، والأسلحة التي تصلهم لم تعد تكفي. لم يبق لدى «مصعب» من حصته ذخيرة تذكر! قوات النظام تزداد قوة على الأرض بعد أن ازداد عدد مقاتلي حزب اللّه في صفوفهم، وخصوصاً هنا في «حمص». القائد الجديد للمجموعة، التي يقاتل «مصعب» في صفوفها، أخبرهم بأن التمويل قادم قريباً، كان هناك كتائب أخرى جاءها الدعم من فترة، وبقي من ينتظر مثلهم. لم يكن هذا القائد قد استلم قيادة المجموعة من فترة بعيدة، عدة أسابيع لا غير، ففي يوم ما عرفوا بأن القائد القديم أخذ التمويل وهرب به. إلى أين؟ لا أحد منهم يعرف! من أين؟ لا أحد منهم يعرف كذلك. كان كل ما حول «مصعب» مشوّش ومقلق، ولم يعد الدعم من رجال المنطقة يكفي! تذكّر رفيقه «أبو الليث»، ثم طلب الرحمة لروحه، كان قد باع كل ما يملك تقريباً لكن هذا لم يكفِ أكثر من ذخائر ثلاثة أسابيع! و«مصعب» يشتاق لـ«أبو الليث» ويشتاق

للبيت، يشتاق لـ«مريم» و«فاديا»، يشتاق لأبيه الراحل ولأمه التي لم يبق له منها شيء إلا ذكرى دافئة قديمة، وعلامة حمراء ظلّت محفورة في عنقه من آثار احتكاك السلسلة الذهبية التي أهدته إياها يتدلّى منها نقش ماشاء اللّه، تلك الهدية التي باعها على حلم شراء السلاح. كان يشتاق رائحة طبخ البيت ودفئه، والنوم في سرير نظيف في غرفة هادئة وحميمية. كان يشتاق لكنه لا يملك القرار، لقد اختار أن يقاتل النظام وعليه أن يستمر في خياره إلى النهاية. كان ثمة الكثير من العناصر المنشقّة من الجيش النظامي في مجموعتهم، كما هناك الكثير من المدنيين مثله. الشباب يتكئون حوله، يلملمون راحة طارئة كالتي يحاول لملمتها. «عبد الرحمن» يحاول النوم على فخذه، يغلق عينيه ويبدو تنفسّه منتظماً كأنه غفا! لكنه مازال يمسك بالرشاش. «عبد الرحمن» من حي «القرابيص»، كان يملك ورشة صغيرة لتصنيع البلاط بجانب بيت أهله في الحي، في القصف الأخير على الحي دمّرت قذيفة جزءاً من بيت أهله، وقذيفة ثانية جزءاً من معمل البلاط، لكن لم يكن هذا هو السبب في انضمامه للجيش الحر، حسبما قال لـ«مصعب» حين لقائهما أول مرة، ولكن لأنه فقد في السنة المنصرمة شقيقاً مات في المعتقل، وابن عم سقط برصاصة وترك لينزف حتى الموت، وابن أخ برصاصة قنّاص في رأسه، ووالد انجلط من الحزن. وأم لحقته بعد أسبوعين، ومستقبلاً أضحى بلا أمل.

لم يكن «عبد الرحمن» نائماً فقد طفق يغني وهو يغلق عينيه:

«يا يمّا أنا طالع أخلع ثوب العار

والبس ثوب الكرامة مع جيش الأحرار... يا يمّا...»

فراح الشباب المتفرّقون حوله يردّدون:

«يا يمّا لا تبكي عليّ إن شالوني الثوار

زغردي وافرحي بي ورشّيلي الأزهار... يا يمّا»

راحت الأصوات تتحوّل إلى جوقة مختلفة الأصوات، مبحوحة

محشرجة، بعضها يدمدم وبعضها يصيح. و«مصعب»، لسبب ما، تذكّر مشهد الجثث المتراكمة قرب مركز تجمّع للجيش النظامي اشتبكوا قربه اليوم. كان يحاول أن يسحب جثة رفيق له من هناك حين رأى عينين مسلّطتين عليه بحدّة! عينين ناريتين تتأملانه في رأس يتوسّد أرضاً مبقّعة بدم لزج وغامق. كان شاباً من الجيش النظامي! حاول «مصعب» الاقتراب منه، فقد شعر بأنهما عينان حيّتان وليستا عينيّ ميّت. صاح قائد المجموعة: «اتركه، ماذا تريد به؟! اتركه... سيأتي رفاقه ليأخذوه، اتركه وأسرع...». فتركه وحمل جثة رفيقه ومضى. لكن تلكما العينين لم تغادرانه!

«يا يمّا أنا طالع اخلع ثوب العار
البس ثوب الكرامة مع جيش الأحرار... يا يمّا»

الشباب ما زالوا يدندنون.

فجأة همس له «عبد الرحمن» وهو مازال يغمض عينيه ويتوسّد فخذه: «لنذهب إلى حلب...». لم يجب «مصعب».

- يقولون ستبدأ المعركة الحقيقية هناك. وهناك سيكون سلاح وذخيرة وجيش حقيقي، وليس كما نحن هنا نشحذ السلاح والذخيرة ونموت بالمجان!! لنذهب سوية إلى هناك، سنشارك في دحر جيش الأسد ونحرر سوريا... اذهب معي...

(١٧)

عن حماة، ومدينة تستيقظ ذاكرتها بعد عقود

أنا من رتّبت للرحلة كلها، بالأحرى أصدقائي في مدينة «سلميّة» هم من رتبوها، لكني كنت من اقترح الأمر: زيارة إلى مدينة «حماة». أغراني تاريخ «حماة» مع كل ما من الممكن أن تحمله الزيارة من استعادة له، ذلك التاريخ الطويل الذي يربو عمره على الثلاثين عاماً! كما أغرتني أخبارها الجديدة ومظاهراتها العارمة التي راحت اليوتيوبات تنقلها من «ساحة العاصي» كل ليلة. «هبة حدّاد» حبيبتي كانت معنا، وجهّزت هذه المرة كاميرا جديدة اشتريتها بتقنيات عالية تستطيع أن تلتقط لي الصور والفيديوهات التي أحلم بها.

«حماة» كانت في ذلك الوقت شبه خالية من قوات النظام، شهر لا ينسى بالنسبة إلى أهالي المدينة، فالمظاهرات التي تعقد كل مساء كانت أشبه بكرنفالات يشارك فيها القسم الأكبر من المدينة! كأنهم يستعيدون عقوداً طويلة من الركود الذي أجبروا على التحنّط فيه. البث المباشر، الذي كانوا يبعثون بصوره إلى الفضائيات، كان يُظهر «ساحة العاصي» متخمة بالجموع الصادحة. الساعة الكبيرة وسطها مزدانة بشعارات الثورة. لن أنسى ما حييت تلك المظاهرة في «ساحة العاصي»، ولا أصوات الناس الهادرة كنهر غاضب. للأسف فكاميرتي لن تستطيع تصوير كل تلك الأصوات حتى في سلسلة تكاد

لا تنتهي من اليوتيوبات، فالتفاصيل الدقيقة والأصوات والكلمات والشهقات واللهاث، تلك التي يكمن فيها خليط متشابك من الفرح والفخر والغضب والخوف والمتعة والحزن والترقّب، لكن كاميرتي التقطت كل ما أردت إيقاف الزمن عنده، كل شفاهٍ صرخت، وأيادٍ ارتفعت بعلم الثورة العملاق، التقطت الشعارات واللافتات، والأطفال المحمولين على أكتاف أهلهم. صوّرت المئات من نساء «حماة» بملاءاتهن السوداء التي تغطي أجسادهن كاملاً يقبعن جانباً ويراقبن. تلك اللقطة التي أظهرت إحداهن ترفع يدها، ويبدو أنها تصرخ من تحت الخمار الأسود الكتيم، كانت تحفة، لكأنها تثور ضد النظام السياسي والاجتماعي كذلك. من يرى تلك الصورة سيظن بأنها من سنة ١٩١٩، والمصريات يشاركن في ثورة «سعد زغلول»! كما التقطت كاميراتي كل زجاج المباني المثقّب بالرصاص، والشظايا التي ماتزال متناثرة في الدروب.

على مشارف «حماة» كان «أبو حمزة» بانتظارنا، بقي ملازماً لنا حتى غادرنا. كانت أغنية «ابراهيم القاشوش» تصدح في مسجلة السيارة، «يا اللّه ارحل يا بشار»، ولم أسمع طوالَ اليوم إلا أهازيجه. ثم قدّم «أبو حمزة» لكل منا ورقة مطوية عليها قصيدة «القاشوش» بخط يده.

(هنا حماة وليست تل أبيب إسرائيل... الشعب يريد إسقاط النظام).

لافتة بيضاء مكتوب عليها بالأسود، منصوبة على سور حديقة صغيرة في إحدى ساحات المدينة. بجانبها تماماً ثمة تلة من الحجارة متروكة جانباً تشير إلى أطلال حاجز كان منصوباً قبل أيام قليلة.

قال «أبو حمزة» لـ«فراس الصفدي»: «يمكنك البدء بالتصوير، هذا أحد الحواجز الأهلية التي نصبها شباب حماة...». لكن الخوف جعل «فراس» لا يجرؤ على رفع كاميرته إلى سويّة شبّاك السيارة، فقد

اعتاد في الشهور الماضية على التعامل مع الكاميرا كسلاح فتّاك، إن انكشف فتلك نهاية حامله. ربما التقط «أبو حمزة» خوفه فضحك قائلاً: «لا تخف... هنا حماة المحررة، صوّر قدر ما تريد... انظر لا يوجد ولا عنصر أمن أو عسكري في كل المدينة. هذه حماة المحررة يا أصدقاء...». قالها بفخر، وبالفعل أوقف السيارة ليبدأ «فراس» بالتقاط الصور.

- لِم تبدو الحواجز مرفوعة؟

سألته «هبة حدّاد» فقال بأن السلطات وعدتهم بإطلاق سراح معتقليهم، الذين يفوق عددهم الستمائة معتقل، إن هم رفعوا الحواجز. فقررت تنسيقيات المدينة الامتثال للوعد لمدة يومين. لنرى إن كانت السلطات صادقة بوعودها!!

- ستعود الحواجز غداً بعد الظهر إن لم يعد شبابنا...

بدا واثقاً حازماً وفخوراً وهو يكمل قيادة السيارة.

ابراهيم القاشوش يغني: «يا بشار ويا جبان، ويا عميل الأمريكان، الشعب السوري ما بينهان، ويلّلا ارحل يا بشار»، وأطلال الحواجز الأهلية تبدو لنا من بعيد. رغم أن الكثير من الحواجز، التي كانت منصوبة على مفارق الحارات والشوارع الرئيسية وحتى الأزقة الفرعية، كان قد تم رفعها إلا أن الأدوات المستخدمة في صنع تلك الحواجز، سواء من قطع الطوب والحجارة أو من أكياس الرمل وبراميل القمامة والخرداوات أو السيارات الصدئة والباصات المحروقة وحتى التريكسات، مازالت متروكة جانباً. التقطت عشرات الصور لتلك الحواجز الأهلية وحراسها. شكل عفوي من أشكال العصيان المدني، لكن كيف تركت السلطات المدينة هكذا في خضم عصيانها دون عقوبات طبقتها مراراً على المناطق العاصية؟!

(حاصر حصارك لا مفر...)

نمرّ من أمام الجدار القديم ذاك، وألتقط له صورة. كانت قصائد

محمود درويش» تملأ جدران المدينة. «أبو حمزة» يسرد قصة العصيان وكيف أفاق أهالي «حماة» على جثتين مرّت الدبابات على جسديهما على تحويلة «جسر المزارب»، وكيف أُقيل المحافظ المعروف برأفته بـ«الحموية»، وبعدم سماحه بقتل أي متظاهر منهم، وكيف بدأ الحصار ومعه بدأت الاعتقالات والمداهمات منذ الخامسة فجراً، ولم تسلم منها حارة في المدينة. حينئذ بدأت تلك الخطة الذكية، غير المخطط لها، والتي عمّت كامل المدينة بشكل عفوي: خطة الحواجز الأهلية والإطارات المحروقة والمظاهرات اليومية. أما علم الثورة الكبير، ذاك الذي زيّن ساحة «العاصي» في المدينة، فكان السبب لاعتقال ومقتل الكثيرين، ومنهم الخياط الذي عمل على درز شقف قماش ذلك العلم العملاق الذي التقط له «فراس الصفدي» صورة جليلة تشبهه.

لم يصمت «أبو حمزة» لثانية! كان يشعر بأن لديه رسالة يجب أن يوصلها خارج أسر المدينة، رسالة سيلتقطها ناشطون قادرون على إيصالها في حال اقتنعوا بها، وعليه واجب إقناعهم.

(حماة ٢٠١١ ليست حماة ١٩٨٢)

جملة تلتمع من على جدار آخر قريب من قسم للشرطة.

قسم الشرطة ذاك، الذي يحدّه حاجزان أهليان واحد أمامه وواحد وراءه، كان عناصر الشرطة يجلسون أمامه على كراسيهم البلاستيكية، يحتسون المتة كأن شيئاً لم يكن! لا يغادرون أماكنهم أبداً، يطلبون من شباب الحواجز أن يأتوهم بما يريدونه من الحارات القريبة. في ذلك الوقت كان السكر قد نفد لديهم، وكان شاب يحيط رأسه بكوفية بيضاء يحمل إليهم كيساً من النايلون الأسود فيه بعض السكر!! العدد الأكبر من موظفي الشرطة دخل في حالة من التواطؤ العلني أو الخفي مع ثوار «حماة»، وبعضهم غادر المدينة فور بدء «التحرير»... هناك كان ثمة جملة دالة للغاية، تتلألأ بالبخاخ الأحمر

على طول الجدار الأبيض: (أهالي الريف هم أصحاب المدينة، وأهل المدينة هم ضيوف عندهم... حماة مقبرة الأمن).

صورة زوم على فتحة في جدار صنعتها قذيفة، أعتقد بأنها ستكون لقطة معبّرة!

(خذوا ما شئتم من دمنا وارحلوا) نمرّ من أمام أحد الجدران. ألتقط صورة للجملة، فيما «هبة» تغني قصيدة «محمود درويش» تلك: «أيها المارّون بين الكلمات العابرة... اجمعوا أسماءكم وانصرفوا...».

ربما كي يخرجنا من كآبة بادية جثمت على وجوهنا صار «أبو حمزة» يحدّثنا ساخراً بأن كل التقارير الطبية التي صدرت من مشافي «حماة» تقول إن جميع الشهداء سقطوا بالسكتة القلبية، حتى إن ثمة لافتة ساخرة على أحد جدران المدينة تقول: (فقط في حماة يموت الناس أيام الجمعة بالسكتة القلبية)... وضحك، لكن ضحكته تلك كانت مثقلة بألم مرّ.

كان الظلام قد بدأ يخيّم حين قررت أن أبوح بالسؤال الذي ألحّ عليّ طوالَ اليوم، فسألتهم: ماذا لو اقتحم النظام المدينة.. ماذا ستفعلون؟!

كأن السؤال استفزّه، فجاء ردهم سريعاً ويقينياً: حماة لا يمكن أن تُقتحم... لا يجرؤون. سيظلّ النظام السوري خائفاً من ردة الفعل العالمية، ووضع حماة الخاص والحسّاس.

لكن بعد أيام قليلة، في صباح ٣١ تموز ٢٠١١، اقتحمت دبابات الجيش النظامي ومدرعاته مدينة «حماة» تزامناً مع قصف شديد ومتلاحق، معيدة بذلك جزءاً من تاريخ المدينة في العام ١٩٨٢.

الأماكن السكنية، الحدائق، المدارس، المساجد، المشافي، والجدران التي كانت متخمة بالشعارات الثائرة كأنها دفتر مذكرات وردي للمدينة، كلها حُرقت. وأهل «حماة»، الذي كانوا يتّجهون إلى

الغد آملين في تظاهرة كل مساء، حملوا أكفانهم وأجساد أحبائهم واتجهوا إلى المقابر.

الاجتياح ذلك الصباح بدّل المشهد تماماً. التيار الكهربائي مقطوع، وخزانات وقود المشافي تم ضربها، حتى إن أسطحها بدت أقرب إلى خرابات يتصاعد الدخان منها، وأولها مشفى «الحوراني» ومشفى «البدر» اللذان عرفا قبلاً بإسعافهما لمصابي المظاهرات، لذلك كان من غير الممكن وضع جثث الشهداء في البرادات، كما منع أهالي المدينة من الذهاب إلى المقبرة الكبيرة بجانب «جسر المزارب»، كل من يذهب إلى هناك كان أقرب إلى مشروع شهيد سيحقّقه الرشاش المنصوب عل الجسر، مجرد الاقتراب من المقبرة يعني الالتحاق بالشهيد الواجب دفنه.

وعدت إلى «حماة». كنت أريد أن أراها بعد ٣١ تموز، صوّرتها قبل وأريد أن أوثّقها بعد. أتيت وحدي هذه المرة، لم أقل لـ«هبة» شيئاً. بصمت أتيت صباحاً وعدت في الليل. حرّ آب الشديد جعل جثث الناس تتفسخ بسرعة في الطرقات والبيوت. من كان حظه طيباً دفن شهيده في حديقة المنزل، ومن لا يملك حديقة في منزله اضطر، كما المئات غيره، إلى الدفن في الحدائق العامة وحدائق الطرق، كل فسحة من رمل وعشب كانت مؤهلة للتحوّل إلى ما يشبه مقبرة جماعية معلنة. في إحدى تلك الحدائق عشرات القبور المردومة بالتراب الأحمر كيفما اتفق، ذلك أنهم دُفنوا تحت زخّ الرصاص والقنابل... قطع الحجارة والطوب هي التي تحدّد مكان الجسد المسجّى، وأزهار القبور سعف نخيل مقصوصة بسرعة من الشجيرات المجاورة. صوّرت أغصان زنزلخت ذابلة تفيء على الأجساد المستلقية تحت التراب. صوّرت براميل بلاستيكية مختلفة في المقبرة الجديدة تلك، وإطارات سيارات قديمة وممزقة جنباً إلى جنب مع الشواهد المرتجلة. وفي الجانب الآخر من الحديقة حفرة كبيرة دفنت فيها الأجساد تراكماً،

فالزمن لم يعد متاحاً لدفن كل جثة على حدة. كانت شواهد القبور من الخشب والحجر وحتى ألواح الكرتون. عبوات كولا معدنية، فردات أحذية مختلفة، أكياس نايلون سوداء، كؤوس بلاستيك بيضاء، وأغلفة بسكويت وشوكولا ملونة.

حتى ذلك الوقت وعلى جدار مجاور للمقبرة مغامر كتب بخط أسود عريض وملتوٍ:

(حماة تتحدى الأسد وأعوانه

حماة ضحت في ١٩٨٢ بـ ٥٠ ألف شهيد

وسوف تضحي في ٢٠١١ بنصف مليون شهيد).

لم يكن «أبو حمزة» متواجداً كي أواسيه، فقد انقطعت أخباره. صورت كل شيء وعدت إلى بيتي في «شارع العابد» بدمشق. على كومبيوتري وضعت ملفاً جديداً سميته «حماة بعد المجزرة». أما ملف «حماة» السابق فقد صار «حماة قبل المجزرة»، والفرق كبير كبير. انتظرت والدي لأحدّثه عمّا رأيت، سأقنعه بأن أمانه كاذب، وبأن ثمة رجال ونساء وأولاد ماتوا في بلده سوريا، فيما هو مصرّ على إبقاء شركة الاستيراد والتصدير خاصته عاملة وفاعلة كأنه يعيش في زمن آخر! عادت إليّ كذلك رغبتي الملحّة في الزواج من حبيبتي. لا أعرف لمَ تأسرني هذه الفكرة حالما آتي من الموت محمّلاً بصوره. أشعر بأنها لو كانت موجودة، ومعها أطفالنا، لكان الأمر أهون بكثير عليّ. ثم قررت أن أفاتح أمي بالموضوع، سأقول لها بأني سأتزوج فتاة مسيحية دمشقية أموت في حبها وليكن ما يكون، في النهاية سترضخ أمام إصراري المجنون.

كان هوسي بتصوير كل شيء يكبر فيّ. التصوير في بلدي اليوم فعل غير مكرّس، جديد، غير متوقع ولا معروف! تفاجئك صورة. لقطة، مشهد، فيديو، حدث، حركة، عليك تثبيتها وإلا ضاعت إلى الأبد. الكلمة اليوم للصورة، للصورة وليس للكتابة. أستطيع أن أكتب

عشرت الصفحات بصورة، أن أبثّ ما أريد بثّه، أن أجهر بالذي أريده، وهذا ما أردته دوماً. سطوة الصورة، تلك القدرة العجيبة على التذكّر وتثبيت الزمن وحفظه من النسيان. قدرة عجيبة أملكها في كبسة على زر كاميرتي، كبسة واحدة وأصير خالقاً للحدث الذي أوثّقه. شعور لم أختبره يوماً، شعور يشبه النشوة، الحب، يشبههما معاً!

(١٨)

عن المراجيح المنصوبة على الدباباب، وقوافل الجنازات

أمام باب البناء مجموعة من أطفال الحارة يلعبون. أصواتهم المزقزقة الفرحة أخرجت «صلاح عباس» إلى شرفة البيت ليراقبهم علّه يصيب القليل من الفرح.

التيار الكهربائي كان مقطوعاً، صمت غريب طارئ يلفّ الحارة بالعموم، يلوّثه صوت مولدات كهرباء هادرة من الحارة المجاورة. حتى أصوات السيارات في يوم الجمعة هذا كانت نادرة، ونيسان ٢٠١٢ يأتي هذا العام دون أن يتذكّر أحد استقباله، وحدهم الأطفال رغم كل شيء يحتفلون به على طريقتهم.

الصغيرة «دلع» ابنة أخت «مريم محمود» كانت تتقافز بقامتها الضئيلة وراء جمع الأطفال. ناداها «صلاح» مداعباً لكنها لم تردّ عليه، كانت مشغولة بصفّ أشياء على الأرض. الأطفال جميعهم كانوا مشغولين بصفّ أشياء يحملونها، كل في حيّزه الخاص الملاصق لحيّز رفيقه. تبيّن «صلاح» بعد دقائق ما هذه الأشياء!! كانت فوارغ رصاص ذهبية وفضية مختلفة الأشكال والأحجام. صاح بأحدهم وكان الأطول قامة ليسأله عنها.

- جمعناهم من الشارع الثاني قريباً من طريق المطار عمو... مبارح صارت اشتباكات كتير هناك.

صاح الطفل فخوراً وعاد إلى لعبته مع بقية الأولاد. «دلع» كذلك كان لديها مجموعتها الخاصة من فوارغ الرصاص، قايضتها بمجموعة من السكاكر والشوكولا، علّقها جامع الفوارغ فخوراً على خصره في كيس خيش صغير وأكمل اللعب.

لحظتئذ دوّت أصوات انفجارات ليست ببعيدة، خرجت «فاديا محمود»، أم «دلع»، من فورها إلى الشرفة تتفقد ابنتها. كانت تضع على رأسها منشفة بيضاء كحجاب، يبدو بأنها ألقتها كيفما اتفق حين سمعت الأصوات القوية.

ألقى «صلاح» السلام من فوق، فردّت مبتسمة.

- من أين يأتي الصوت؟!

سألته.

- أعتقد بأنه من جهة المليحة!!

- اللّه يجيرنا ويحمي هالعالم ويكسّر إيدين من يقصف...

- تخيّلي يا أم دلع الأولاد يلعبون بفوارغ الرصاص!

قاطعها «صلاح» مفجوعاً.

- أمر طبيعي أستاذ صلاح، في حمص كانوا يلعبون بشظايا القنابل وينصبون المراجيح على سبطانات الدبابات...

أجابت «فاديا» بتحدّ وحزن. لكنها حاولت الابتسام مجدداً وهي تنظر إلى الأعلى لجهة شرفة «صلاح»، تمسك بأطراف المنشفة تحت ذقنها لتثبتها فوق رأسها، وتغطّي عينيها بكفّها اتقاء أشعة الشمس.

- كيف الأستاذ أبو ليلى؟! انشاللّه بخير!

سألها «صلاح» محاولاً تمييع الموضوع.

- كان مريض المسكين لكن الحمد للّه صار أحسن.

- تفضلوا شرفونا أنت والأستاذ أبو ليلى، سأكون سعيداً لو زرتوني.

- انشاللّه أستاذ صلاح، انشاللّه... تضل بخير.

ثم لوّحت بيدها لابنتها التي كانت تبادرها بتلويحة، فيما عادت الصغيرة منهمكة إلى اللعبة الشيّقة.

«صلاح عباس» بقي وحده على الشرفة، فكّر بجيل كامل من أطفال سوريا يضيع في خضم حرب لا يبدو بأنها ستنتهي ببساطة. هذا ما أوصله للتفكير بوضعه الشائك، فلم يتخيّل يوماً أن يرمي به القدر إلى هنا: بناية مهملة من بنايات مدينة «جرمانا» على أطراف مدينة «دمشق»! كان لديه الكثير من الرفاق في «دمشق»، العديد منهم في «جرمانا» كذلك، وثمة حيّز جديد من الزمن والجغرافيا لنضال جديد طال انتظاره، لكنه بقي يشعر بشيء يشبه الغربة في هذا المكان المفاجئ بكل تفاصيله الجديدة. باستثناء «ريما العيساوي»، قريبته التي استأجرت البيت له، وجيرانه «مريم» و«صفوان» لم يزره الكثيرون بعد. كان قد اتفق مع الرفاق على بيت سريّ لاجتماعاتهم المتكررة التي راحت تتكثّف يوماً بعد يوم، بيت آمن غير معروف بالنسبة لعناصر الأمن. عادت ذاكرة الاجتماعات والعمل السياسي السرّي سنوات إلى الوراء، كأن كل هذا العمر لم يمضِ. لكن رغم ذلك كان الأمر برمته أشبه بتجريده من مجدافيه الثمينين في عرض البحر حين انتقل إلى «دمشق». حتى سنوات السجن لم تمرّ عليه بكل تلك المرارة، حتى عرّفته «ريما» على عائلة «صفوان الشيخ» التي تقطن البناء ذاته، الأمر الذي هوّن عليه غربته الشديدة المفاجئة.

الأمر كله بدأ حينما اتصلت بي إحدى المحطات الفضائية. عرّفوني باعتباري ناشطاً وسياسياً معارضاً، كان ذلك في البدايات على ما أذكر، أوائل أيار ٢٠١١. قلت لهم ما أنا مقتنع به: لم يكن هناك من عصابات إرهابية مسلحة تعيث فساداً في البلاد، إنها حجة كاذبة لتبرير كل القتل الذي يمارسه النظام بحق الثائرين على ظلمه، وعليه أن يتحمّل مسؤوليات ما اقترفه طيلة عقود.

هذا تقريباً ما قلته، أو بما معناه. يومذاك صرّحت بقناعتي بكل

فخر. لكن لم تنقض نصف ساعة على مقابلتي الصوتية على الهاتف حتى كان باب البيت يطرق بوحشية. لم أتخيّل أن تسفر كلماتي القليلة على الهاتف عن كل ما سيحدث. رأيت من عين الباب مجموعة من الرجال المسلحين. كانوا يصرخون ويضربون على الباب أن أفتحه وإلا سيفجّرونه. أخي الأصغر انكمش في زاوية الصالون يرتجف كفأر. أمي صار لونها بلون الحائط، وعيناها مرعوبتان كما لم أرهما يوماً، كأنها كانت تسألني بصمت هلع ماذا سنفعل؟!

لم يخطر ببالي في هذه اللحظة إلا أن أنقذهما، فأخرجتهما إلى الشرفة. لكن على شرفة البناء المقابل كان ثمة مجموعة من المسلحين أيضاً يشهرون رشاشاتهم في وجوهنا ويصيحون. عرفت منهم شاباً من شباب حارتنا، وعرفت: كان المسلحون هم لجان الحارة الشعبية! لكن لماذا يهاجمني مسلحو حارتي؟!

للحظات أسقط في يدي، فكرت أن أفتح الباب وأستسلم لقدري. كان المسلحون في البناء المواجه يصرخون أن أسلم نفسي لهم، يشتمونني، ويسمونني بالخائن وعميل الإرهابيين، وبأني أتعامل مع العصابات المسلحة. للحظات فهمت. كان حديثي مع الفضائية هو السبب. مسلحو حارتنا قادمون ليأخذوا بثأر النظام مني! أمي تتعلّق بقميصي مترجّية وأنا أتجه صوب الباب لأفتحه وأسلمهم نفسي. تصيح باكية بأنهم سيقتلونني، ويقتلوهم معي، لو فتحت الباب. أخي المراهق يبكي كالأطفال، لكنهم كانوا يوشكون على خلع الباب في كافة الأحوال خلال ثوان. أتى رجال الأمن وصاحوا من الخارج بنبرة هادئة حازمة أن أفتح الباب فقد أتوا لحمايتي. «قدموا ليخلّصوني من الشبيحة!!»، كانت هذه أطرف نكتة حصلت معي في حياتي، كأني لا أعرف، كما يعرف الجميع، بأنهم من أعطوا الأسلحة إلى شباب الحارة وسهّلوا الدروب أمامهم كي ينالوا السطوة التي نالوها!!

خلّصني رجال الأمن، حموا أمي وأخي من وحوش حارتنا،

لكنهم أجبروني على دفع ثمن ذلك ثمانية أشهر من الاعتقال في فرع الأمن العسكري.

. . .

لم يختر «صلاح عباس» أن يغادر «حمص»، كان لا بد له من ذلك. فقد كان من الصعب أن يعود للسكن في حارته أو إلى بيت أهله، فقد بدا الاتصال الأخير مع والده بمثابة رسالة قاطعة وحازمة: «لا تأت، فأنت غير مرحب بك هنا». وحدها أخته «نوال عباس» من اتصلت به باكية، رجته أن يغادر المدينة ويذهب إلى «دمشق». «الضياع هناك أسهل». قالت له. ولم تنس أن تخبره كم تحبه وكم تحترم شجاعته، وأغلقت السماعة.

ألم اقتلاع الجذور في لحظة. هذا بالضبط ما شعر به «صلاح عباس». كما تُقتلع جذور الآلاف كل يوم من مناطقهم المتفرقة في سوريا!

أخوه الكبير «عادل عباس»، وهو أستاذ يدرّس علم الكيمياء في جامعة «البعث» بحمص، كان يصيح بغضب وهو يودّعه، يسأله نزقاً عن السبب الذي جعله يعارض نظاماً يحارب الإرهابيين الطائفيين الذين يهدّدون حيواتهم، نظاماً من الطائفة وإليها، حسبما عبّر.

- إنهم يقتلون الناس. . . يقتلون كل من يقول لهم لا! لهذا أنا معارض.

بادره «صلاح» مبرراً.

- يقتلون إرهابيين يا صلاح. هؤلاء الإرهابيون يغتالون أساتذة الجامعات يا أخي!! قبل أقل من أسبوع قُتل أستاذ في الجامعة! من يقتلهم؟! هؤلاء المتطرفون أعداء العلم والنور يقتلونهم. وأنت تقف في صفّهم؟!!

كان الذعر المطلّ من عيني «عادل عباس» يبدو جلياً بالنسبة لـ«صلاح» الذي يراقب حركات أخيه المتوترة!

- كذب خيي... كذب. ثم أنا كل عمري معارض لهذا الحكم الديكتاتوري، أنت تعرف هذا، دفعت سنوات شبابي في السجن، ولست معارضاً طارئاً قررت هذا اليوم!

- ليك خيي صلاح، إنت خيي وقطعة من قلبي لكني اليوم لست راضياً عن كل ما تفعله... أنت شيوعي طوال عمرك، والآن تقف مع قطر والسعودية وأميركا ضد المقاومة؟! الموقف الوطني اليوم يقتضي بأن نقف بجانب النظام في حربه... هذه هي الوطنية اليوم وغيرها خيانة... ما مضى شيء آخر!!

- أنا أرى أن الوقوف بجانبه هو خيانة للوطنية. ثم ما هي الخيانة؟ ما تعريف الخيانة؟ وكيف يصبح المرء بين ليلة وضحاها خائناً؟!

لكن غضب «عادل عباس» تصاعد، قال بأنه يتمنى أن يقتل النظام كل المعارضين لنرتاح: «لن ينصلح حال البلد ما لم ينتهوا منهم كلهم، سيعودون بالبلد مئات السنين إلى الوراء، سيقتلون الأقليات، ويقيمون دولة إسلامية تقيم الحدّ على كل مختلف»، وغادر دون أن يودّع أخاه. كان الأخير يتساءل وهو يراقبه عن الأسباب التي حدت برجل لطيف مثله كي يغدو مؤيداً للقتل! هل هو الذعر حقاً أم سطوة الإيديولوجيا؟! أم كلاهما معاً؟!

«عادل عباس» كذلك كان يتساءل كيف لـ«صلاح» أن يتّخذ موقفاً متخاذلاً لاوطنياً هكذا في مثل هذه الظروف العصيبة!! هل هذا غباء وتصديق لادعاءات المعارضة ومن يدعمها، أم استعماء عما يحدث، أم أن «صلاح» غيّر قناعاته حقاً؟!

لم يتقابل الشقيقان بعد ذلك، حتى حينما سافر «صلاح» إلى «دمشق»! كان الأخير يفكّر بأنه من الممكن لـ«عادل» أن يخابره هاتفياً على الأقل، لا يعقل أن تنتهي علاقة الأخوّة بسبب من الموقف السياسي! لكن الشهور راحت تمضي ولم تأته أية مكالمة من «عادل»!

كما أنه لم يكن مستعداً للمبادرة باتصال، فقد أهانه «عادل» في آخر نقاش بينهما في شرفه الوطني. لكن حينما راحت اتصالات متوالية من أرقام غريبة تصل موبايله، مكالمات تشتمه وتهدده وتتوعده بالويلات، ألغى بطاقة الهاتف، وانقطع عن مكالمة أهله. وحدها أخته «نوال عباس» من اتصل بها من رقمه الجديد الذي أعطاه «صفوان الشيخ» له. كان صوتها البعيد الدافئ كفيلاً بإزاحة همومه المتراكمة، وحده رقمها هو الذي كان محفوظاً على ذاكرة الأرقام في موبايله. من هذا الرقم جاءه اتصال ذات عشية. كان جالساً على الكومبيوتر في غرفة النوم يقرأ بعض المقالات ويتصفّح أخبار الفيسبوك وتعليقاته. حين لمح اسم «نوال» على الشاشة أشرق قلبه وفتح الخط بسرعة. كان متلهفاً لسماع صوتها. لكن صوتاً ذكورياً عريضاً تناهى إليه من بعيد! كان الاتصال متقطعاً ومشوشاً، لم يعرف من المتكلّم، استطاع أن يلتقط بعض الجمل المتفرقة لا غير، وفهم بعد لأي أن أخته «نوال عباس» قُتلت في حادث إطلاق رصاص من مسلّحين مجهولين على السيرفيس الذي يقلّها مع بقية أهل الحارة من عملها إلى البيت ظهر هذا اليوم!

لم يفكر «صلاح» بعد أن استفاق من الصدمة. لبس ثيابه على عجل ويمّم شطر كراجات البولمان، ثم قطع تذكرة أخيرة في البولمان المتّجه بعد ساعة وثلث إلى مدينة «حمص». «نوال» قتلت وهو بعيد، لكن أن يدفنوا جسدها الغالي دون أن يودّعه فهذا ما لن يحدث.

أمام بيت أهله كانت خيمة العزاء الشاسعة تقطع الطريق. صوت تلاوة القرآن يصل كذلك إلى خارج الحارة. ثمة لغط وضجة وتمتمات عالية، شخوص وشخوص، ومجموعة من شبان مسلحين يقفون عند مدخل الحارة يدققون في الهويات الشخصية لكل من يدخل. لم يطلبوا هوية «صلاح» حينما قطع حاجزهم الطارئ. كان على استعداد للعراك معهم إن طلبوها، لكنهم رمقوه بنظرات متجهمة عارفة لا غير.

كان والده منتصباً أمام باب خيمة العزاء، ونظرة انكسار في عينيه لا تخفى على «صلاح» مهما بدا مظهره جباراً. أخوه «عادل» يقف بجانبه ذقنه غير حليقه وأنفه أحمر، وزوج «نوال» يقف بجانبهما يستقبل المعزين، نظراته شاردة، وجهه بلون الطحين الرطب، وهيئته مهملة.

لم تتغيّر وقفة والدي حين لمحني أقترب من أول الحارة باتجاهه، تماسك محافظاً على انتصابته الشامخة، مدّ يده مصافحاً إياي كأي معزٍ آخر قادم إلى خيمة العزاء، وأحسست بيدي ترتجف في يده، لكني لم أتبين إن ارتجفت يده أيضاً. لم يحاول احتضاني. زوج «نوال» ضمّني وطفق ينتحب بصوت عالٍ. يداي تحسستا جسده النحيل. أما «عادل» فقد قبّل وجنتي وهو يقول لي أسيان: «العمر لإلك خيي...». بدا كل شيء ككابوس مقيت، الشخوص حولي أشباح تروح وتذهب، الكلمات تمتمات مبهمة من عمق الغيب. لا أسمع، لا أرى، لا أفكر، وحده وجه «نوال» لا يفارق مخيالي. للحظة تذكّرت أمي، تخيّلت الوضع الذي من الممكن أن تكون عليه الآن، ونظرت جهة بيت أهلي القريب. كانت النسوة تتوافدن إليه مجللات بالأسود والشلحات البيضاء.

فجأة لمحت، وأنا ألج المكان إلى عمقه، صورة «بشار الأسد» معلّقة في إطار ذهبي ثخين في صدر خيمة العزاء. بدت مقحمة على المكان، وبدا الرجل الذي فيها، وهو يضع يده على ذقنه وينظر جانباً كي يظهر بمظهر من يُعمل التفكير، تافهاً مقززاً. أحسست لحظتئذ بأنه عدو شخصي لي، يحاول إهانتي في عزاء أختي! لم يكن لدي سابقاً مشكلة معه بشخصه، اعتقدت دوماً بأن مشكلة الطغاة في سوريا مشكلة أعقد من شخص الرئيس، أمر يتعلق بنظام طاغٍ كامل متشابك متداخل، آلية القمع والفساد فيه ممنهجة ولا تتعلّق بشخص واحد منها حتى لو كان رأسها. لكنني اليوم في عزاء حبيبتي «نوال»، بعد

كل ما مرّ معي، شعرت بأنه يستهدفني شخصياً بوجوده هنا، مدنّساً مكاني وأحبّتي وذكرياتي. رأيت أرتال الرجال حولي كأنهم خلقوا فجأة، كانوا يناظرونني وأنا أقف في منتصف الخيمة شارداً في الصورة، يراقبونني وعيونهم معلّقة بتفاصيلي. قفلت راجعاً إلى حيث يقف والدي في باب خيمة العزاء ويتلقى وفود المعزين. لم أتبيّن ما قلت له، ربما شتمت، صرخت غاضباً، أو قلت بلهجة الآمر أن يرمي الصورة البغيضة من هنا.

- لن أزيح الصورة من مكانها...

أكد بإصرار وحزم، ونظر في عيني. حاولت أن أذكّره بسنوات سجني، بمَ كان يلهج من وراء شباك السجن حين يأتي لزيارتي. لكنه لم يكترث، لم يتأثر وجهه حتى! كانت عيناه صارمتين.

- هو وأزلامه من قتل أختي وأنت تضع صورته في عزائها؟!

- من قتل أختك هم معارضوه، الإرهابيون الذين تدافع عنهم... اسأل من تريد في العزاء، في المدينة كلها. المسلحون قتلوا أختك ومن معها في السيرفيس لأنهم علويون. اسأل من تريد سيؤكد هذا الكلام... أفق من نومك انظر حولك هل أنت أعمى.. أعمى!!

- إن لم ترفع هذه الصورة من خيمة العزاء لن أحضر عزاء أختي.

- أفضل أن يبقى هو على أن تبقى أنت...

قالها، والتفت إلى الرجل الذي قدم من ورائي للسلام عليه مجيباً: «اللّه يرحم أمواتك».

لم أتوقع هذا الرد أبداً! لم أعرف للحظات كيف سأتصرف! وقفت كالمصعوق وحدي، وحدي في صحراء شاسعة تمتد حولي ملتفة. لم أجد نفسي إلا وانا ألتفت وأعود من حيث أتيت. زوج «نوال» هرول ورائي وصار يرجوني أن أعود. قال لي: «ألن تودع حبيبة قلبك، سيدفنون نوال بدون أن تراها؟!!».

- ستبقى طوالَ عمري في قلبي وروحي وعيوني... لست بحاجة أن أراها لأتذكر.

- ألن ترى الصغار، أولاد نوال. اشتاقوا لك كثيراً!!

- قبّلهم عني، سيأتي يوم وأراهم... انتبه على حالك وعليهم.

- وأمك؟! امرأة عمي ستجنّ إن لم ترك!!

لكني تركته باكياً مشدوهاً ومضيت. ولأول مرة راحت تفاصيل حارتي تتضبب أمام عيني، الناس والشوارع والمباني والأشجار والحجارة والدنيا تهتز وتتموج. ألفيت نفسي لأول مرة، بعد كل ما عشته، أبكي!

مساء اليوم التالي أتى «عمر يوسف» بصحبة «ريما العيساوي» إلى «جرمانا». كان يبدو مرتبكاً محمراً ومتقطع الأنفاس. جلس صامتاً بعد أن قدّم عزاءه إلى «صلاح عباس»، قرأ الفاتحة ماسحاً وجهه مترحماً على «نوال عباس» وعلى أعزّ أصدقائه «مهند العيساوي»، ثم رمق «صلاح» بودّ ممزوج بالشفقة. تعابير الموت كانت ماثلة على وجه الأخير، صامتاً، منكسراً، ولا يشبه «صلاح عباس» في شيء إلا بسيجارة الحمراء الطويلة التي تحترق بين شفتيه. حتى حين سأله عن أهله في «درعا»، وعن أخيه «محمود» الذي أصيب قبل شهور، كان يبدو بأنه يسأل من مكان بعيد قصيّ، والاهتمام، الذي طالما طبع كلامه، تبدّد!

بالنسبة لـ«ريما» فقد بدا «صلاح» محطّم الروح لأول مرة، الأمر الذي جعلها تغلق باب الحمام على نفسها وتدخل في نوبة طويلة من النشيج.

مازال «عمر يوسف» محافظاً على علاقاته الطيبة مع عناصر الأمن في المخابرات الجوية، المكان الذي سبق وقضى فيه خدمته الإلزامية. منذ أواسط سنة ٢٠١١ حاول جاهداً أن يقوّي علاقاته تلك أكثر، كان يفكر بأنه سيحتاجها يوماً، لم يعرف بالضبط بماذا سيحتاجها، لكن

إحساسه، الذي دلّه دوماً إلى مواطن الفائدة، قاده هذه المرة أيضاً! سيحتاج تلك العلاقات المتداخلة في لحظة ما! وها هو يحتاجها اليوم بشدة! في الفترة الأخيرة اضطر أن يقلّص حركته ويراقب محيطه جيداً. فقد وصلته أخبار بأنهم كشفوا أمره. بقي يعمل ولكن بحذر أكبر.

صباح هذا اليوم لاقى خمسة من عناصر أمن الجوية في موعد اتفقوا عليه مسبقاً. هؤلاء الخمسة بالذات كانوا قد دأبوا على الاتصال بـ«عمر» منذ شهور كي يعثر لهم على بيوت لأثرياء في الغوطة، فقد كان معروفاً بعلاقاته المتشعّبة والكثيرة. أثرياء في «دوما» أو «حرستا» أو «المليحة» أو في أي مكان يستطيع العثور فيه على رائحة المال. أسرّوا له، وهم يحتسون الشاي في أحد مقاهي «جرمانا»، بأنهم يخططون منذ زمن لمداهمة تلك البيوت وسرقتها، بما أن الأوضاع الأمنية المنفلتة من عقالها ستتيح لهم فعل ما يريدونه دون محاسبة.

قالوا له: ما سنجنيه سنقسمه بيننا مناصفة... لا تقلق.

لكن «عمر يوسف» لم يشعر ببأس حين كان يستجيب لطلباتهم، ثم يتصل فور ذهابهم بمجموعات الثوار التي يعرفها في مناطق الغوطة كي يجدوا له بيوتاً ميسورة. كان كل هذا بالنسبة إليه شكل آخر من أشكال العصيان! اليوم حدّد له ثوار «دوما» بيتاً هناك، والاتفاق يقضي بأن يقوم «عمر» باصطحاب رجال الأمن معه، وسيتكفّل الشباب هناك بما تبقّى.

لاقاهم وغباشة المساء الصيفي تسدل ستائرها على المدينة. خمسة عناصر أمن مسلحين وهو السادس بينهم، حسبوا حسابه وجلبو له معهم كلاشنكوف لامع. في السيارة المدنية التي أتوا فيها انحشر الستة، ويمّموا شطر «دوما». البيت الذي حدّده الثوار كان على أطراف المدينة، بناية عالية فاخرة ونائية. في الوقت الذي كانت السيارة تمرّ فيه على الحواجز الأمنية النظامية المبعثرة على الطريق. كان رفاق «عمر» يرفعون رشاشاتهم ضاحكين محيّين عناصر

الحواجز، و«عمر» يضحك معهم. مرّوا بسرعة وهمّة، وبعد أقل من نصف ساعة كانوا أمام البناء المتّفق عليه. ثوار «دوما» فرّغوا البناء من ساكنيه، فقد كان الصمت طاغياً كما هو الظلام، لكن عناصر الأمن لم ينتبهوا إلى سطوة الفراغ!

- سأبقى في الأسفل لأحرس البناء وأراقب المحيط.

همس «عمر يوسف» لهم ورفع رشاشه علامة التأييد. وافقوه بإيماءات متلاحقة، صعدوا إلى الأعلى باتجاه الشقة التي حددها «عمر» لهم بدقة، الطابق الثاني إلى اليمين، باب بني فاخر. وعلى جهة اليمين كان هناك لافتة مشقّقة مازالت ترفّ في الريح بجانب الشارع، تتلامع كلماتها تحت الضوء العالي، مكتوب عليها: «عيدنا أحلى عيد، قصف وقتل وتشريد». لافتة عمرها شهور طويلة!

لم يكن ثمة من أحد في الشقة الفارهة التي دخل عناصر الأمن إليها مشرّعين أسلحتهم. الصمت يعمّ المكان والظلمة دامسة. ما كان منهم إلا أن أسدلوا الأسلحة وأشعلوا المصابيح اليدوية، ثم راحوا ينهبون البيت: ثلاثة منهم اتجهوا إلى غرفة النوم، كان صندوق الصيغة ينتظرهم مغوياً على البيرو الخشبي الأبيض. لكن الوقت لم يهبهم فسحة كافية لأخذ ما تشتهيه أنفسهم، فلم تنقضِ دقائق قليلة حتى سمع «عمر يوسف» أصوات إطلاق النار تلعلع من الطابق الثاني على اليمين. أصوات متلاحقة ومتداخلة وصلت إليه جليّة. ثم ساد الصمت من جديد. دقائق أخرى ونزل ثوار «دوما» على الأدراج يحملون رشاشات عناصر الأمن التي غنموها بالإضافة إلى رشاشاتهم، وكانوا يكبّرون بصوت واحد «اللّه أكبر... اللّه أكبر».

المجموعة تلك مؤلفة من تسعة شباب، أربعة منهم اقتحموا البيت/ الغنيمة، غيرهم انتشر في أنحاء البناء، على السلالم وفي البيوت وعلى السطح. راحوا يقبّلون «عمر يوسف» ويشكرونه على عمليته الأولى معهم. قالوا له إن كان يفضّل أن يظل معهم، ينضمّ إلى

صفوفهم ويجاهد في سبيل اللّه، حينها سيدعون رشاشه معه كي يستخدمه. أما إن كان يفضّل أن يعود إلى بيته فسيوصلونه إلى أول الطريق بسلام، لكنهم سيغنمون الأسلحة كلها بما فيها رشاشه.

- أفضل أن أبقى هكذا. . . أساعدكم من بعيد.

- مثلما تريد. اللّه يعطيك العافية.

هكذا انتهت المهمة.

لم يحاول «عمر» أن يرى جثث رفاقه عناصر الأمن. لكنه طلب من الشباب أن يدفنوا الجثث كما يليق بمسلمين، ووعدوه خيراً. خطر لـ«عمر» لثوان بأنهم يعدونه مجاملة، وربما ألقوا بالجثث على تخوم المنطقة كنفايات حالما يغادر المكان. لكنه حاول ألا يستزيد من التفكير في الأمر.

لم تكن كل المجموعات المسلّحة الثائرة في المنطقة منتمية إلى قيادة الجيش الحر. كما لم يكن لهذه المجموعة صلات مع المجموعات المسلحة الأخرى في المنطقة. أصرّوا منذ البداية ألا ينتموا لقيادة الجيش الحر الذي تتبع له كتيبتان من المنطقة. كان الأمر يأسرهم، ويحوّلهم من ثوار إلى مجرّد منفّذين لأوامر عسكرية، كما عبروا أمام «عمر» وهم ينقلونه في سيارة خاصة إلى خارج «دوما». الأمر يعرّضهم أحياناً لمناوشات مع المجموعات الأخرى، وخلافات لكن ضمن حدود السيطرة. ثمة الكثير من المنشقّين في كتائب «دوما»، وهناك مدنيون أيضاً. في الطريق أخبره أحدهم عن عملية نفّذوها قبل مدة تصيّدوا فيها من يُشكّ بتعاملهم مع النظام، أي «العواينية» الموجودين في المدينة، حسب تعبيره، وكانوا ثمانية رجال منهم طبيب عام. أقاموا لهم محكمة ميدانية في بيت الزعيم، واكتشفوا بأنهم كلهم مذنبون، كما اتهموا الطبيب بسرقة أعضاء الشهداء وبيعها إلى بعض المشافي في «لبنان». صفّوهم في الساحة العامة وأعدموهم جميعاً رمياً بالرصاص. ثم تركوا جثثهم المثقّبة لساعات طوال

مشلوحة على الأرض والدماء تسيل منها كي يراها الناس ويعتبروا. دفع المحدّث بموبايله أمام وجه «عمر يوسف» ليريه الفيديو المصوّر عن العملية، كان مشهد الجثث المرمية على الإسفلت أقسى من أن يستطيع «عمر» احتمالها. أراد أن يسألهم إن تأكدوا من أن جميع الذين أعدموهم مذنبون، لكنه أحجم في اللحظة الأخيرة عن السؤال.

- كتائب الجيش الحر أبدت انزعاجها ورفضها لهذا، قالت إن ما فعلناه لا يناسب أخلاقنا كثوار... وما الذي يوافق أخلاقنا كثوار؟! أن نترك العواينية يسلّمون أولادنا للأمن ليموتوا؟! هؤلاء العواينية ساهموا بقتل مئات من أولادنا.

قال السائق من جديد غاضباً.

أوصلوه إلى مشارف «جرمانا»، كانت السيارة تتلوى بين الأزقة والشوارع الفرعية الجانبية، شوارع كاملة ليس فيها أي حاجز نظامي.

«هذه الطرق لا يجرؤ رجال النظام على دخولها». قال السائق الذي كان فرداً من المجموعة.

حال وصوله إلى «جرمانا» اتصل «عمر» مع «ريما العيساوي» التي كانت تنتظره في بيت «صفوان الشيخ» وصعدا سوية إلى «صلاح عباس».

لم يخبر أحداً بما جرى. لكن «صلاح» أحسّ بشيء ما رغم الحالة النفسية المزرية التي هو عليها. لم يسأله، لكنه أحسّ بالقلق الذي يضيّق على روح الشاب. عيناه حصانان هائجان مسجونان في قفص. ربّت على كتفه، سأله إن كان يحبّ أن يشرب القهوة «من تحت يديه» وابتسم. أحسّ «عمر» بشيء من الطمأنينة، وهزّ رأسه مبتسماً. همّ أن يتكلم، أن يزيح عن كاهله أسئلة تتناهشه، أن يتأكد من أن ما فعله صحيح أم خاطئ، أن يحكي ويحكي كل شيء. لكنه في النهاية فضّل الصمت!

- أنا جائع كضبع.

قال «عمر»، فأجابته «ريما» بأن «خالد» سيصل بين لحظة وأخرى وسيجلب معه الطعام. اصبر قليلاً.

- مشتاق لطبخ أمي.

- وأنا مشتاقة موت لطبخ أمي... ومشتاقتلها.

ربّت «صلاح» على كتفه وهو يقوم إلى المطبخ ليفرغ منفضة السجائر الممتلئة: «هل مازالت ملكاتك في التدليك والمسّاج حاضرة؟!»، صاح «صلاح» من المطبخ.

- طبعاً... حاضرة بشدّة. هل نسيت بأني كنت المسؤول عن المسّاج في أشهر منتجع للمياه الحارة في المنطقة؟! هل تريد حفلة تدليك عظيمة؟!

هذا الصباح وحينما أتت «ريما العيساوي» إلى بيت «مريم محمود» لاقتها الجارة «سميرة السليماني» زوجة العميد «بهجت حسون» على الدرج. كانت «ريما» ترتدي فستاناً أسود ربيعياً وبدون أي مساحيق تجميل. سألتها الجارة عن السبب، فأجابتها «ريما» بدون تفكير بأن أخاها استشهد في الجيش قبل شهور، وشقيقة «صلاح» كذلك توفيت. ثم لامت نفسها على حماقتها فيما كانت «سميرة السليماني» تترحم عليهما، وتشتم أولئك الذين كانوا السبب في خراب هذه البلاد الآمنة المطمئنة. ثم وعدتها أن تأتي اليوم لتقديم العزاء لها ولزوجها برفقة زوجها العميد.

لم تخبر «ريما» أحداً بذلك، فضّلت الصمت على أن تتلقى احتجاجات «صلاح» و«خالد» لأنها تسببت بهذه الزيارة. كانت تتمنّى أن تنسى الجارة وعودها. حين دقّ الباب كان «عمر يوسف» منهمكاً في تدليك كتفي وظهر «صلاح» المنهك المتمدد على الصوفا. اعتقدت «ريما» بأن «خالد الساعي» أتى ومعه الطعام المنتظر، وقامت إلى الباب لهفة مشتاقة، لكن وجه «سميرة السليماني» الباسم وهي ترتدي الأسود واللحشة البيضاء، لباس العزاء التقليدي، فاجأها أمد

الباب! كان العميد «بهجت حسون» واقفاً خلفها أيضاً متعرّقاً محمرّ السحنة.

خلال ثوان ساد التوتر جوّ البيت، انكمش «عمر يوسف» في مقعده خائفاً، وبدت حركات «صلاح عباس» مربكة قلقة وهو يؤهل بالضيوف، وبالسيد العميد على وجه الخصوص! «ريما العيساوي» قيّدها شعور عميق بالذنب، جعلها تخفق في لملمة شتات خطئها، فراحت تثرثر وتثرثر لتبديد الارتباك العام.

قاطع العميد الثرثرات النسائية بحزم، ليقدّم تعازيه إلى الأستاذ «صلاح عباس»، ترحّم على الشهداء وطلب من ربه أن يشلّ يد من يتسبب بكل هذا الخراب للبلد. ثم التفت إلى «عمر يوسف» سائلاً إياه: من أين الأخ؟!

تردد «عمر» لثوان ثم أجابه: من درعا.

بدا الانكماش واضحاً على وجه العميد وزوجته، كما بدا القلق متزايد واضحاً على وجه «عمر». لحظتئذ دقّ «خالد الساعي» الباب ودخل صائحاً بأن الطعام قد وصل. حين لمح الضيوف قطع جملته بفرحة ودخل بهدوء.

- الدكتور خالد... صديقنا.

قالت «ريما» محاولة الابتسام. ثم لامت نفسها على التعريف السخيف الذي لم يكن ضرورياً البتة.

- من وين الدكتور؟!

سأله العميد بدوره رغم أن اسمه كان كفيلاً بتقديم هويته.

- من المليحة.

وخفت صوته، ثم انكمش في مقعده حين راح العميد يرمقه بنظرات بين الفنية والأخرى.

لم تطل الأحاديث. شرب العميد وزوجته فنجاني القهوة على عجل، قدّما تعازيهما من جديد، وانسحبا بصمت. وفي الوقت الذي

كان الشبان الثلاثة في الشقة العليا يلقون بلومهم على «ريما» لأنها تسبّبت بهذه الزيارة، كان العميد «بهجت حسون» يدخل شقته متجهماً وهو يلوم «سميرة السليماني» لأنها جعلته يطأ بيت رجل يتضحّ بأنه معارض، معارض بالتأكيد، وكل رفاقه من المناطق المتمردة، ثم أنه لم يبدُ عليه بأنه سعيد بزيارة عميد مثله له.

- هذه المرة الأخيرة التي تدخلين بيتهم فيها.

قال لزوجته التي هزّت برأسها موافقة، ثم قررت أن تنسى واقع وجود جيران من الطائفة ذاتها يقطنون فوقهم.

كانت «سميرة» ماتزال مبلبلة الفكر حين رنّ الهاتف الأرضي. شقيقها «فاطر السليماني» هو المتصل. مرّت أيام لم تسمع صوته، أحسّت فجأة بالشوق إليه، وعاتبته بسبب من جفائه الطويل. صوت «فاطر» كان جافاً كعادته في الشهور الأخيرة. دعته لتناول الغداء معهم غداً فقد قررت أن تطبخ برغل بحمص بلحم الغنم، لكن «فاطر» مشغول للغاية، «ليس لديه وقت ليحكّ رأسه»، كما عبّر لأخته. ثم أغلق السماعة مستعجلاً.

كان «فاطر» قد انتقل مؤخراً من شقة صهره العميد في مساكن «المعضمية» ليسكن مع رفيقه «أبو علا هايل»، فشقّته أكثر قرباً من مدينة «دمشق» على أطراف حي «المزة شيخ سعد».

«أبو علا هايل» كان عازباً ومتطوّعاً في المخابرات العامة. منذ أن بدأت الأحداث انتقل من عمله في فرع المخابرات ليعمل قنّاصاً في «ريف دمشق»، فقد سبق وخاض دورة تدريبية على القنص، يتنقّل بين مكان وآخر وبين مدينة وأخرى حسب الحاجة. مؤخراً أمضى جلّ الشهر الأخير من عمله في حي «القابون»، مسيطراً على جزء من سطح المول العالي الذي يشرف على الحي بمعظمه. قبلها كان في «عربين» و«حرستا»، وقبلهما في مدينة «المعضمية» ثم في «برزة»، فلم يكن لعمله مكان ثابت ودائم.

- هكذا لا أشعر بالملل أبداً!

قال «أبو علا هايل». كان يغدو بعد كل فجر، عند الساعة السادسة صباحاً، حاملاً قنّاصته، ولا يعود حتى منتصف الليل تقريباً. يحمل معه خوذته المتينة زيتية اللون وزجاجة ماء بلاستيكية كبيرة. أحياناً كان يأخذ زاده، الذي قد يكفيه لبقية اليوم، وأحياناً كان الشباب رفاقه يجلبون طعاماً من مطعم قريب إن كان ثمة مطاعم تعمل في المنطقة. في الفترة الأخيرة كان يأخذ زوادته معه كل يوم، فالمنطقة القريبة منه في حي «القابون» لا يوجد فيها دكان واحد مفتوح. أحياناً كان يحتلّ، مع رفاقه من القنّاصة الآخرين، سطح بناء حكومي، يصفّون أكياس الرمل ليصنعوا منها متراساً عالياً ويقبعون خلفه، في أحيان أخرى يتمركزون أعلى بناء سكني ما زال على الهيكل، في بعض الأوقات كانوا يضطرون للقنص من سطح بناء سكني مأهول، في هذه الحالة كانت مجموعة من رجال الأمن تحميهم مخافة أي اعتداء، يتوزع عناصرها بسلاحهم من أسفل البناء وحتى الباب المفضي إلى السطح مروراً باستراحات السلّم وأبواب الشقق السكنية.

كان «أبو علا هايل» يحدّث «فاطر» على الدوام عن ذلك الشعور الذي يصيبه حين يستطيع بضغطة على رزّ قناصته أن ينهي حياة رجل على بعد مئات الأمتار. الأمر لا يكلّفه أكثر من تدقيق في منظار القناصة، تحديد للهدف، وضغط على الزر! فعمله «النظيف» أسهل بكثير من عمل بقية الشباب الذين ينزلون إلى المناطق العاصية.

- «تشعر بأنك قويّ، محلّق في السماء كنسر، تصطاد أعداءك بنظرة نقرة، وتسيطر على كامل المنطقة أمامك، وأنت مضطجع على السطح!!».

سكان المنطقة يعبرون مهرولين بأقصى سرعة ممكنة، يراقبهم من منظار القناصة: فئران تركض أمامه. في أحيان كانت تخرج من بين

البنايات طلقات متلاحقة تستهدفه وهو وراء قناصته، يردّ عليها ورفاقه المنتشرون حوله بوابل من الطلقات. لكن اصطياده من وراء أكياس الرمل وهو على هذا العلو كان أمراً صعباً للغاية!

كان «فاطر السليماني» يستمع إلى رفيقه وهو يدعو اللّه في قلبه ألا تتبدّد هذه اللحظات أبداً! في الشهور الأخيرة راح يعيش أجمل فترة من فترات حياته، هي بالتأكيد فترة محفوفة بالذعر الدائم والترقب ولكنها محفوفة أيضاً بشعور طاغٍ بالقوة! كان يتبختر في الشوارع وهو يحمل رشاشه، يشعر بأن كل هذه الشوارع ملكه، ويشعر بالاحترام المذعور الذي يتقافز من عيون الناس! صاحب البقالية القريبة يناديه «المعلّم»، صاحب دكان العصير كذلك! كل أصحاب الدكاكين، وسائقي سيارات الأجرة! حتى رجال الشرطة كانوا يحيّونه ونظرات مذعورة ومربكة تطلّ من عيونهم. كيف كان قبل سنة وكيف صار الآن؟! مع الزمن علّمه رفاقه ألا يدفع مقابل ما يأخذه، ففي النهاية هو يحمي البلاد وناسها. لذلك كان يستطيع أن يشرب العصير مجاناً حين يحلو له، وكذلك يتناول المثلجات بالقدر الذي يشتهيه، ولن يكون صاحب الدكان مزعوجاً، على العكس سيشيعه بابتسامات مربكة ويودع «المعلّم». صار يستقلّ سيارات الأجرة مجاناً أيضاً، وإن حظي بسائق سيارة وقح، يسأله أن يدفع الحساب المترتب عليه، سيسكته صارخاً ببضع كلمات، وقد يدفع في وجهه هويته الأمنية الجديدة ليلوّح برشاشه! قد يخطر له كذلك أن يدعو صبية ما إلى مطعم أو كافيتريا، ويطلب ما يريده دون أن يدفع الفاتورة، ولن يزعجه أحد. الجميع سيشيّعه بنظرات مذعورة مليئة بالاحترام! وفي الآونة الأخيرة كلما ازدادت غزواته كثافة كلما ازدادت رغبته في زيارة بيت صاحبته ذاك الذي يحتل زاوية قصية في الحارة. كانت فتاته سمراء ممتلئة تشبه زميلته في الصف السابع في مدرسة القرية، ويتردد على غرفتها دوماً. مؤخراً أراد أن يغيّر طعم فمه، ولم يتردد حينما تأبط «أبو العز

هايل» ذراعه ذات ليلة، واصطحبه إلى بيت أكثر فخامة وإشراقاً، وفتياته لا يفوح منهن إلا رائحة العطور الباريسية الثمينة وليس كالروائح الرخيصة التي كانت تفوح من فتاته السمراء، روائح تطغى عليها لذعة الكحول أكثر من نسمة العطر. هناك جرّب معاشرة البيضاوات والشقراوات والحنطيات، وكلهن كن خبيرات متمرسات، ترتدين ملابس داخلية مطعّمة بالدانتيلا والريش بخيوط وربطات وموديلات تمسّه بالشبق وتذهب بعقله!

تلك القوة المفاجئة الطارئة، التي حلّت على حياته، جعلت «فاطر السليماني» مفعماً برغبة العيش طويلاً كما لم يكن يوماً، وكان مستعداً أن يبذل حياته كي يحافظ عليها! حتى «معلّمه» لم يعد يشعر بهذا الخوف منه. كانت ضربات قلبه قبلاً تضجّ في غرفة فرع الأمن حالما يلجها، ويسيح عرقه بارداً على ظهره حين يلمح «المعلّم» وراء مكتبه الفاخر ببذّته الرسمية الكحلية! لكن اليوم صار يدخل أكثر وثوقاً، رغم أنه بقي مضطراً لمعاملته باحترام مبالغ به، فهو في النهاية المسؤول عن وجوده، لكن ذلك الخوف القديم تبدّد، صار يعرف بأن «المعلّم» و«معلميه» الأكبر منه بحاجة له ولأمثاله، وأن اليوم الذي قد يستغنون فيه عنه بعيد بعيد، وربما لن يأتي أبداً!

في صباح اليوم التالي نزل العميد «بهجت حسون» إلى البقالية المواجهة للبناء الذي يسكنه في مدينة «جرمانا»، طلب من صاحبها «سعيد حسين» أن يراقب شقة الجيران التي فوقهم، شقة ذاك المسمى «صلاح عباس»، ويخبره عن تحركاتهم لأنه يشكّ بأنهم معارضون: «لا أثق بك خيي سعيد، ولكني أشكّ بهؤلاء الذين فوقنا».

هزّ «سعيد» رأسه، ووعده خيراً وهو يزن له نصف كيلو لبن مصفّى وكيلو جبنة بلدية. ثم طلب من سيادة العميد ألا يقلق وليذهب إلى أشغاله وسيوصل «سعيد» حاجيات البيت بنفسه إلى الست «منيرة». حالما توارى شبح العميد وراء البناء الأخير في الشارع

أغلق «سعيد حسين» باب البقالية الزجاجي على عجل، حمل الحاجيات التي طلبها العميد وتوجّه إلى البناء المقابل، إلى شقة «صلاح عباس» مباشرة. حالما فتح له الأخير الباب رمى «سعيد» هامساً بكلماته المحذّرة: «العميد بهجت حسون أراد مني مراقبتكم، وبالتأكيد سيطلب من غيري... انتبه أستاذ صلاح على حركاتك بهالفترة وما تخلّي حدا يزورك...». ثم نزل من فوره على رؤوس أصابعه، وقف قليلاً أمام باب العميد ثم دقّه بقوة كأنه وصل للتو.

كانت الست «سميرة» تلفّ رأسها بشال ملون وترتدي ثياب العمل، والمياه تملأ الأرض والكراسي والطاولات الصغيرة موضوعة على الصوفايات: «لاتواخذني خيي سعيد عم نعزّل البيت. بتعرف أبو علي يفكّر بالانتقال إلى الضيعة انشاللّه».

وافقها «سعيد»، وتمنى لهم الخير والسعادة والأمان، أعطاها الحاجيات وقفل عائداً إلى بقاليته. أغلقت «سميرة السليماني» الباب، ونادت «أم عفراء» التي كانت تنظّف أرض المطبخ بالكلور وسائل التنظيف، طلبت إليها أن تسرع في إنهاء تنظيف المطبخ لتنتقل إلى الشبابيك التي كانت مكلّلة بالوحل.

«أم عفراء» امرأة في نهايات خمسينياتها، وجهها يبدو أقرب إلى وجه عجوز منهكة، والفستان البالي الذي ترتديه يظهر جسدها أشدّ نحولاً وضآلة. «أم عفراء» في الأصل من قرية صغيرة من قرى «سهل الغاب». جاءت مع زوجها، الذي كان مساعداً في سرايا الدفاع، إلى «دمشق» في أوائل التسعينيات. وكمعظم العاملين في سرايا الدفاع سكن زوجها وعائلته المكوّنة من ست فتيات وأمهم في حيّ «السومرية» نهاية أوتوستراد «المزة» باتجاه الجنوب الغربي.

في إحدى مدارس البنات في «داريا»، في الجهة المقابلة لحيّهم. عملت «أم عفراء» كمستخدمة منذ سنوات. تنظّف الصفوف والمراحيض العامة، تكنس الباحة بعد أن تعود الطالبات إلى

صفوفهن، تعدّ الشاي والقهوة للمعلمات في أوقات الاستراحة، وتقضي ما تبقى من الوقت في ترتيب الملفات المغبرّة والكتب في مكتبة المدرسة الكبيرة والمهملة. في أيام الدوام العادية تخرج «أم عفراء» من بيتها قبل السادسة صباحاً، تقطع الطريق العام الذي يقطع حي «السومرية» اتجاه كراجات السرافيس في بدايته قريباً من الأوتوستراد، ولا تعود إلى البيت قبل الساعة الخامسة عصراً. الأبنية المتلاصقة في الحي تحوّلت مع الزمن إلى كتل متلاصقة من بيوت تصفيح، شوارع متخمة بالقمامة والذباب وروائح حامضة. أما أنابيب الصرف الصحي الظاهرة للعيان فترشح على جدران الأبنية لوناً بنياً مخضرّاً يعزّز من رائحة العفن في الفضاء. لكنها اليوم لم تذهب إلى المدرسة، كان المزاج العام في «داريا» قد راح يشتعل منذ بدايات هذه السنة ٢٠١٢، لا يكاد يمرّ يوم بدون مظاهرة كبيرة أو حتى مظاهرة صغيرة تستمر لدقائق. هذا ما جعل صورة «بشار الأسد»، تلك التي تتبع على صدر الحائط الأساسي في المكان، تختفي ذات صباح من غرفة المعلّمات دون أن يعرف أحد من رفعها. لكن «أم عفراء» تصرّفت بسرعة بديهة، وجاءت بصورة أخرى لتلصقها على الحائط العاري مكان الصورة المفقودة. «لن يكون للغرفة بركة بدون وجهه النوراني»، تؤكد لنفسها. وكانت غرفة المستخدمين قد تحوّلت بمجهودها إلى معرض لصور الرئيس بكافة الوضعيات ومن مختلف الأحجام والألوان. لكن حيطان المدرسة راحت مع مرور الأيام تمتلئ بالشعارات والكتابات المناهضة للنظام. «أم عفراء» كانت تجاهد لتقوم بما تستطيعه، تركت أعمالها المتراكمة في المدرسة وطفقت تحمل سطل الدهان وتمسح بالفرشاة كل الكتابات تلك التي تشعرها بالخجل والعار. كانت تمسح الكلمات بالدهان الأبيض وتشتم الخونة الذين يجلسون في بلد السيد الرئيس ويسبّون عليه... كلاب». أما المناشير المكتوبة بخط اليد، التي راحت جدران الباحة

تُتخم بها، وكذلك زوايا الباحة والممرات الطويلة، فقد حمّلت «أم عفراء» جهداً إضافياً في لمّها وهي مبعثرة هنا وهناك.

كانت تحكي اليوم للست «سميرة السليماني» عن كل ما مرّ معها في المدرسة وتكحّ كحّة عميقة ومثقلة بالتعب بين الجملة والأخرى.

- سعلتك شديد أم عفراء... مابك في الفترة الأخيرة لا أراك إلا مريضة ومتعبة؟!

بادرتها «سميرة» وهي تقطّع قرون الفول في الصالون، فيما «أم عفراء» تتطاول لتمسح زجاج النافذة من الأعلى: «واللّه يا ست سميرة بردنا بهالسنة عن كل عمرنا. بلا مازوت وبلا كهربا. والأسعار كل مالها ترتفع»، زفرت «أم عفراء».

- بس الحمد للّه اللّه يديم البلد بسلامة ويدملنا سيادة الرئيس ونحن بخير.

وافقتها الست «سميرة» بإيماءة شغوفة وبدعوات متلاحقة إلى اللّه ليحمي البلد.

منذ شهور راحت «أم عفراء» تغدو إلى المدرسة بالحجاب. الأمر الذي كان مستغرباً على النساء في طائفتها. سألتها مرة معلمة العلوم الاجتماعية عن السبب الذي جعلها ترتدي الحجاب؟! فدمدمت على عجل بأنهم قالوا لها إنهم يقتلون في هذه الأيام كل النساء غير المحجبات!

- ليس صحيحاً أم عفراء، الجميع يحبك هنا، من سيقتلك؟

- ومن يعرفني خارج المدرسة؟ ثم أنا أرتديه كي يقف لي السيرفيس، لأنه لا يقف إلا للمحجبات.

تدمدم «أم عفراء» وتمشي. عند انتهاء الدوام تضع حجابها البني الجديد وتتّجه إلى «السومرية». كان خوفٍ «أم عفراء» وأخبارها المتلاحقة التي تنقلها «قيلاً عن قال» قد بدأت تثير السأم والتبرم بين المعلمات، فهي لا تملّ من إعادة حديثها عن مجموعات من

المسلحين تستهدف أهل حيّها. مع مرور الزمن كفّت «أم عفراء» عن أحاديث خوفها في صباح غرفة المعلّمات، كما كفّت عن إعداد الشاي والقهوة لهن، وصار دخولها إلى غرفتهن نادراً.

- صرت أحسّ طريقة تعامل المعلّمات المسلمات معي تغيرت!!

قالت للست «سميرة» وهي تبدأ بفرك الحيطان بالماء والصابون. فيما كانت الست «سميرة» تهزّ برأسها وهي ماتزال تقطّع قرون الفول.

- صرت أتسلل إلى غرفة المعلّمات على أطراف أصابعي دون أن ينتبهن وكشفت الكثير من أحاديثهن. أحياناً كنت أختبئ تحت شباك لغرفة المطلّ على الباحة وأتنصّت إلى الكلام... تخيلي يا ست سميرة كانوا يشتمون الرئيس ويتحدثون عن أنه يقتل أبناء البلد... تصوري يا ست سميرة. واللّه أنا اسودت الدنيا بعيوني وماعدت عرف شو بدي أعمل.

- قولي للعميد بهجت زوجي... قولي له عن أسمائهن وهو يتصرف.

أكدت لها الست «سميرة».

- أقول لهن إنها العصابات المسلحة الإرهابية هي من تقتل الناس وليس السيد الرئيس والجيش... هذا جيش الوطن، ولا يصدقونني!!

ذات صباح كان ثمة جملة بالخطّ الأحمر العريض مصبوغة على جدار المدرسة: «دم الشهدا ما يروح هبا». كان على «أم عفراء» أن تهرع إلى غرفة المستخدمين لتأتي بسطل الدهان الأبيض وتمسح الجملة المتوهّجة. فجأة صدح صوت صفرة من شاب خارج المدرسة، فما كان من إحدى الفتيات إلا أن خرجت من جهة الصفوف الدراسية وهرولت في الباحة، فتحت باب الحديد وهي التفت حولها ثم عادت إلى مبنى المدرسة مهرولة. خلال لحظات كانت باحة مدرسة البنات ممتلئة بعشرات الشباب، و«أم عفراء» ذاهلة

في زاوية الباحة وسطل الدهان بيدها. أنزلوا العلم الرسمي ورفعوا علم الثورة، ثم أتخموا الجدران بشعارات مضادة للنظام بالبخاخ الأسود. الحيطان الناصعة تحوّلت أمام عيني «أم عفراء» خلال لحظات إلى دفتر يغصّ بالكلمات المسيئة. ثم بلمح البصر، كعصافير خفيفة، خرجوا من المدرسة كما دخلوا. لم تجد «أم عفراء» نفسها إلا وهي تبكي بحرقة. وفي الاستراحة خرجت بنات المدرسة في مظاهرة عارمة، من امتنعت عن المشاركة قبلاً انخرطت بكل عنفوانها في المظاهرة، خصوصاً وأن تعداد الطالبات يكاد يصل إلى ألف وخمسمائة طالبة.

«حرية للأبد غصباً عنك يا أسد...».

تعلو أصواتهن في الأرجاء.

ثم نجحن، للمرة الأولى، في تمزيق الصورة الكبيرة للرئيس تلك التي تتصدّر الفناء الرئيسي مرفوعة على عوارض خشبية. مزّقنها إلى عشرات القطع، ودسن عليها ثم أكملن مظاهرتهن. حين انتهى كل شيء، ولم يبق في المدرسة إلا صدى الهتافات وأوراق مبعثرة وغضب في الأجواء، وحدها «أم عفراء» بقيت، مرتمية على أرض الكوريدور الطويل كانت، تحاول تجميع نتف الصورة الممزقة وهي تنتحب. لا تكاد تلصق قطعتين على بعضهما حتى يتمزق ما بقي من الصورة من ناحية أخرى. كانت تنشج وتشتم الخونة الذين مزقو صورة الغالي ابن الغالي. لحظتئذ فاجأتها معلمة اللغة الإنكليزية وهي على هذه الحال. كانت سيدة أربعينية من مدينة «داريا» ولطالما ساعدتها «أم عفراء» في تنظيف بيتها وإعداد طعام العزائم، حين كانت تقصد بيتها يوم الجمعة من كل أسبوع. تجرأت المعلّمة معتمدة على العلاقة الحميمة التي تربطها بـ«أم عفراء» وسألتها بانفعال غاضب: «لماذا تحبينه إلى هذا الحد؟... ما الذي فعله لك؟! تعيشين عيشة الكلاب؟!».

تحوّل وجه «أم عفراء» إلى وجه حانق قبل أن تعود إلى محاولاتها
ي إلصاق مزق الصورة، وهي تحلف الأيامين المعظمة في قلبها ألا
ـوس بيت معلمة اللغة الإنكليزية ثانية.

حينما صدرت الأوامر من وزارة التربية في إغلاق مدرسة البنات
ي «داريا»، بعد أيام من تلك المظاهرة الضخمة، فقدت «أم عفراء»،
كل المستخدمين في المدرسة، وظيفتها غير الثابتة. كانت تهمهم من
بن دموعها وهي تحدث الست «سميرة» بأن العائلة ستجوع دون
اتبها، ثم تعود لتشتم أولئك الذين خربوا البلد حين طالبوا بتلك البلية
تي اسمها: الحرية. تعود لتدمدم ثم تنشق ماسحة أنفها بكم فستانها
هي لا تكفّ عن فرك الحيطان بالإسفنجة المضمّخة بالماء
الصابون. أما الست «سميرة»، التي كانت قد انتهت من تقطيع الفول
بدأت بلفّه بأكياس النايلون النظيفة، فقد وعدت «أم عفراء» بأنها
تحدّث زوجها العميد «بهجت» عن حالها، عسى أن يستطيع
ساعدتها بطريقة ما.

(١٩)

عن تلك الصحارى التي بيننا

تحوّل الصالون في بيت أهل «هبة حدّاد» منذ شهور إلى مستودع للسلل الغذائية، الأدوية، والأغطية والبطانيات. بعد الظهر ستأتي «ريما العيساوي»، وستوزعان السلل الغذائية على الأسر النازحة، تنقلانها على مراحل في سيارة «هبة حدّاد» التي لم يفكّر أحد من عناصر حواجز النظام المنتشرة أن يفتّش فيها حتى الآن، ففتاة سافرة تقود سيارة تتصاعد الأغاني الفرحة من مسجلتها مشهد لن يشكّ بأمره أحد من عناصر الحواجز. كما لم يشكّ أحد من الحارة بالأمر! كانت ابنة البيت الشيوعي الموالي للنظام.

«هذا أفضل ما جناه والديّ من بقائهما في الحزب الشيوعي السوري إلى اللحظة». تردد «هبة» على الدوام. مازلت أداوم في عملي، هذا أمر ساعدني أيضاً، لكنه راح يغدو أصعب فأصعب. تحولت المديرية إلى ما يشبه ثكنة عسكرية أكثر مما كانت. لم يعد بإمكان المرء أن يتحدث بينه وبين نفسه. «ديانا» زميلتي الأثيرة لم تعد تزورني منذ شهور. قبل أيام قدّمت طلباً رسمياً لنقلها إلى أقرب فرع للوزارة من قريتها «مرمريتا» في منطقة «وادي النصارى» حيث قررت أن تقيم، ولم تستغرق الموافقة على طلبها أكثر من ثماني وأربعين ساعة! قبل أن ترحل حزمت أمري وقررت ألا أدعها تغادر أيامي بدون وداع.

اليوم وبعد أن انتهى الدوام لم أعد إلى البيت، اتجهت من فوري إلى حيث بيت «ديانا» في حي «المزة ٨٦». الحواجز الأمنية والعسكرية تقطع الطريق إليها، عشرات من الشباب المسلّحين في كل مكان من المنطقة. حينما كان اثنان منهم يفتّشان سيارتي لمحت شاباً يحمل على كتفه رشاشاً وينتقي حبات البندورة من محل للخضار! مجموعة أخرى منهم يحتسون المتة أمام أحد المحلات، واحد منهم يركي رشاشه على حضنه والآخر يعلّقه على كتفه. صور «بشار الأسد» تملأ الأرجاء بكافة الأشكال الأحجام، صور لأبيه وأخيه كذلك، لافتات تمجّده، لافتات تحييه، ولافتات تشتم أعداءه. كنت أفكّر في الطريق بأني طيلة الشهور الماضية كرهت «ديانا»، كرهتها حقاً! شيء لم أكن أقوى على لجمه يتنامى داخلي، كم من الصداقات والرفقة والزمالات وعلاقات الحب والقرابة والجيرة تهشّمت في شهور قليلة!كانت سوريا بيدر قمح أتت آلة الحصاد ومزّقته نتفاً!! لم يكن حقل قمح صافٍ بالتأكيد، لكن من البعيد لم يكن أحد ليشكّ بأنه بيدر قمح ذهبي يتلألأ تحت الشمس. اليوم هو عبارة عن تلال من القش المعفّر، البذار المطمور، والوحل. . . الوحل الوحل الوحل يطمر كل شيء!

حين وصلت بيت «ديانا» لاقتني مغتبطة. أحسست بغبطتها خفقات في صدرها وهي تضمّني. لم تكن تشبه نفسها أبداً: وجه ذابل وهالات سوداء كاحلة حول العينين. قالت لي: «كنت أحلى زميلة يا هبة طوالَ سنوات. أتمنى أن تنتهي هذه الأزمة على خير ونعود للقيا بعضنا». مسحت عينيها وهي تنشق. حين سألتها عن سبب قرارها بالانتقال إلى «مرمريتا»، أجابتني بأن قريتها أكثر أماناً من هنا. «ربما صارت انتقامات كثيرة بعد كل الذي حدث».

- إذاً فأنت تعترفين بأن هناك ما حدث؟!

- لم أعد أجرؤ على استخدام السيرفيس في تنقلاتي، أخاف أن يكون ملغّماً. . . وإن اضطررت أظل أصلي أبانا الذي في السموات

طوالَ الوقت، وأدعو السيدة العذراء أن تحمينا... من فترة انفجر سيرفيس هنا أمام المدرسة لن تتخيلي منظر الناس. كانوا قد لغّموه.

لم أعلّق، لم أحاول أن أسألها من لغّمه ولمَ لغّمه؟! بكيت معها، كانت تجهش بألم وهي تحتضنني. ذعر له رائحة حامضة كان يتضوّع منها ويرشقني، كنت أشعر الشعور ذاته، ويمكنني أن أتكهّن بألمه. تبدو الأمور بالنسبة لي ذاهبة من سيء إلى أسوأ، وأشعر بأن ثمة جزءاً من قلبي سينخلع معها. قالت لي وهي تنشق: «لم تعودي تحبينني في الشهور الماضية! لم تعودي تسمعينني... كنت بعيدة وغريبة عني!!»، وانخرطت في النشيج مجدداً.

انتهت زيارة «ديانا» في وقت متأخر، وقفلت «هبة حدّاد» إلى البيت بعينين منتفختين وقلب مثقل. في البيت كان صديق والدها ورفيقه في الحزب الأستاذ «صفّوح» منجعصاً على إحدى أرائك طقم الستيل في الصالون. عرفت بوجوده قبل أن تقع عيناها عليه، فرائحة تنباك غليونه تعبق في البيت. استعاذت «هبة» من الشيطان في قلبها، فسيبدأ نقاش حاد بينهما ينتهي بمشّادة كالعادة. الأستاذ «صفوح» معادٍ عتيد للثورة، في كل مرة يزورهم فيها تتعارك «هبة» معه، وفي نهاية كل نقاش من نقاشاتهم يبتسم في وجهها ويقول: «مازلتم صغاراً. حينما تكبرون ستفكرون بشكل أكثر عمقاً وذكاء. أنتم اليوم منفعلون بالحدث ومأخوذون به»، وقبل أن يذهب يربّت على رأسها، ويقبلها بعجالة علامة الصلح.

كان الأستاذ «صفّوح» يؤكد، منذ بدايات الإرهاصات شباط ٢٠١١، بأنهم في الحزب مجبرون على وقوفهم إلى جانب النظام وليسوا مخيّرين، ليسوا هم فحسب بل كل الأطياف اليسارية والعلمانية، فالقادم للإسلام والرجعيين وليس لهم. «سيسيطر الإسلام السياسي على الساحة ويرمي بنا بعيداً»، يؤكد الأستاذ «صفّوح»، ويهزّ رأسه طويلاً!

ولجت «هبة» الصالون، كانت طاولة المنتصف المعتّقة والمطعّمة بالصدف متخمة بزجاجات الويسكي وبأصناف المازوات التي تتفنن «أم هبة» في إعدادها، أما صحن الروبيان المتبّل بالفلفل الحار فقد كان يزدان في المنتصف. الأستاذ «صفوح» منهمك بشرح المشكلة التي تكمن في كون المكون الأساسي للثورة هو قاع المجتمع، لا قيادات لها ولا أحزاب ولا مشاريع سياسية، بالتالي لا وعي وفكر سياسي يجعلها ترتقي إلى مرتبة الوعي الثوري الحقيقي القادر على الإنجاز. لذلك تتلاعب بها الأجندات والمصالح والدول الإمبريالية.

- من السهل أن تتلاعب بهم قوى الإسلام السياسي بالمال وبالعزف على الوتر الديني والطائفي الفطري...

ثم حرّك مكعبات الثلج في كأس الويسكي المحجّرة ورشف رشفة قبل أن يمجّ غليونه.

- عمو صفوح أنا أعتقد بأنكم نسيتم اللبنة الأساسية في النظرية الشيوعية اليسارية التي تؤمنون بها وهي البروليتاريا... مسا الخير.

- مسا النور عمو هبة، كيفك؟

- أليست البروليتاريا، التي تسمّيها الرعاع اليوم، هي التي قامت بالثورة البلشفية؟!

الأستاذ «صفوح» يبتسم معلناً بدء المشادّة، ثم يرمي بشوكته ليلتقط قطعة جبن روكفورد من الصحن الذي أمامه: «ولكن البروليتاريا كانت منظّمة ومسيّرة من قبل فكر ثوري للحزب ولقياداته ومفكريه، ولم تكن متروكة لتخبطاتها وارتهاناتها وإمكانيات اللعب الإيديولوجي بها».

- وماذا يفعل الشعب إن خذله مفكروه وقياداته؟ وفي الأساس ليس لديه ثقة بهم؟... ها؟! هل يتوقف عن الثورة بانتظارهم؟ ينتظركم أستاذ صفّوح حتى تفرّغوا وقتكم الثمين وتكتبوا له نظرية ثورية تدلّه كيف سيسير في ثورته؟!

هنا يتدخل والدها محاولاً أن يكون عنصر سلام في الحوار الدائر، وهو يمضغ قطعة كاجو كبيرة رماها في فمه: «ليس النقاش هكذا بابا هبة!!»، لكن الأستاذ «صفوح» ينبر منفعلاً: «الشارع غير مهيأ للثورة عمو هبة، لذلك تتلاعب به المقولات والشائعات... يتلاعب به الدين والمال، تتلاعب به أميركا والمعسكر الإمبريالي الرجعي وأهمها السعودية وقطر... هؤلاء همّهم الوحيد السيطرة على المنطقة وضرب كل مقاومة موجودة فيها».

بدت «هبة» متبرمة من جمل تعاد وتكرر كلما أتى الأستاذ «صفوح» إليهم. لكن وجهها المنزعج جعله ينفعل أكثر فأردف صائحاً: هل تعتقدين بأن أميركا يهمّها حرية الشعوب العربية أو ديمقراطيها؟!!... أبداً! همّها مصالحها فقط... كما أن دول الخليج همّها مصالحها فقط.

- وما ذنب الشعب السوري إذا كانت أميركا وحلفاؤها هم وحدهم من يدعمونه في ثورته؟! ماذا تريد منهم؟! أن يقبلوا بالديكتاتور كيلا تساعدهم أميركا؟!... عمو أرجوك كن منطقياً وفكر حقيقة بمشاعر البشر!.

- وهل تعتقدين عمو بأن الإسلام السياسي سيأتي بالحريات حين يسيطر على كل شيء؟! مخطئون، لتنظروا إلى إيران وأفغانستان والعراق، لتنظروا إلى التاريخ سترون مستقبلكم!!

هنا تدخل «ريما العيساوي» إلى الصالون مترددة. كان النقاش المحتدم العالي قد وصلها وهي تقرع باب البيت. رائحة الويسكي وعسل الغليون فغمت أنفها. لمحت عيني «هبة» المحمّرتين وأحسّت بغضبها. لكن مجيئها جعل النقاش ينتهي. رمت «هبة» آخر جملة عالقة في حلقها قبل أن تسحب صديقتها من يدها إلى الغرفة الداخلية: تخليكم عن الشعب السوري والتحجّج بسطوة الإسلام، وبأن القادم ليس لكم، سيجعلكم حقاً خارج القادم.

في الغرفة سألت «ريما» لهفة إن كان ثمة شيء جعلها تأتي بدون ن تخبرها في هذا الوقت المتأخر!

- اشتقت لك وأريد أن نتكلم قليلاً. أريد أن أنام عندك ممكن؟!

- طبعاً حبيبتي طبعاً، يا ريت أنا بأمس الحاجة للثرثرة معك... لأستاذ صفوح سيجعلني أفقد عقلي يوماً ما! هل تحتاجين إلى المال؟!

- لا هبة، ما أعطيتني إياه في الأسبوع الماضي يكفيني حتى آخر الشهر. أنا أُثقل عليك كثيراً.

- لا تقولي هذا. في المستقبل حين ستنجح الثورة وتعودين للرسم والعمل ستصرفين أنت عليّ... ستُباع لوحاتك وقتها بالملايين!!

وضحكت.

تمددت «ريما» على السرير الذي يمتد متطاولاً باذخاً في الغرفة الفسيحة، وتناولها الفراش رفيقاً وثيراً. كان أثاث غرفة «هبة» يشبه بقية أثاث البيت الفاخر: خشب أبيض مطعّم بالصدف والرسومات اليدوية المتقنة. غرفة مليئة بالتحف واللوحات كبقية البيت الشاسع أيضاً. حينما تنتقل «ريما» من غرفتها المتواضعة في «شارع الأمين» إلى هنا تشعر بأنها انتقلت من زمن إلى آخر، من زمن الفلاحين والعامة إلى زمن نبلاء القرون الوسطى، ودائماً تحسّ بلفحة من الغربة تجتاحها، حتى تحتلّ «هبة» المكان فتتبدد فلول تلك الغربة.

- أحلى كأس ويسكي لعيون أحلى رفيقة وصحنين مازة كمان.

عادت هبة إلى الغرفة، ووضعت الصينية المتخمة بتشكيلة موالح وصحون جبنة وسمك وخضار وكأسي ويسكي على الطاولة الزجاجية في طرف الغرفة.

- إلى متى سنبقى على هذه الحال ريما؟!... تعبت.

- يبدو أن النهاية ليست قريبة حبيبتي. أشعر بأننا نغوص في مستنقع آسن، والبلد ذاهب إلى الخراب.

كان «خالد الساعي» قد بعث إلى «ريما» بإيميل اليوم عند الظهر. بعثه من مدينته «المليحة» حيث كان يساعد في علاج دفعة كبيرة من الجرحى. رغم أن الاتصالات وشبكة الإنترنيت كانت مقطوعة هناك إلا أنه بعثه عن طريق النت الفضائي الذي كان شباب المنطقة يملكونه. كتب لها عن شاب اسمه «منير»، أصله من مدينة «درعا» وعمره ٣٥ عاماً، «لكنه كان يسكن حي «القدم» جنوب دمشق. استشهد قبل مدة وربما أمكن لـ «ريما» أن تذهب إلى بيت أهله لتوثّق قصته».

في صباح اليوم التالي حينما استيقظت «ريما» كانت «هبة» قد غادرت البيت إلى عملها. اتصلت بالرقم الذي بعثه «خالد» لها، واتفقت مع الصوت الذكوري الذي ردّ عليها بأن تلاقيه عند أول العصر قريباً من «بوابة الميدان». «منير» كان يعمل شرطياً في شرطة النجدة في فرع «حرستا» بدمشق، مسؤول عن مستودع الأسلحة في قسم الشرطة. في أواسط آب ٢٠١١ ألقي القبض عليه في البقالية المجاورة لبيته. رموه في باص صغير نوافذه شبك حديدي. فهم وهو في الطريق بأن مظاهرة قد خرجت في الحي قبل دقائق من اعتقاله، وقد اشتبهوا به أن يكون واحداً من المتظاهرين. «لكن أنا شرطي... واللّه أنا شرطي...»، يزعق «منير»، فيردّ عليه العنصر بضربة من أخمص الرشاش على ظهره: «يا كلب، شرطي وعم تتظاهر... عم تعضّ الإيد اللي بتطعميك».

لم يصدقه أحد منهم بأنه لم يتظاهر، بل لم يسمع بأن هناك مظاهرة! ظل «منير» ثلاثة أيام في المنفردة في فرع التحقيق. عذّبوه خلالها حتى تمنى أن يموت ويرتاح. علّقوه من قدميه وتركوا رأسه متدلّية لساعات إلى أسفل. حين أغمي عليه، وبدأ الزبد يسيح من فمه

فكّوه، ربما كانت ثوان قليلة تلك التي فصلت بينه وبين الموت! ثم حوّلوه إلى فرع الأمن السياسي، وهناك ظل واحداً وعشرين يوماً معتقلاً فيه، ثم حوّلوه إلى «حرستا»، إلى قسم الشرطة هناك حيث كان أمر تسريحه محضّراً، وسرّحوه. رموه بدون أي تعويض عن سنوات خدمته في سلك الشرطة، وكان ينبغي عليه أن يحضّر المستودع الذي بأمانته ليتم تسلّمه تماماً مثلما استلمه قبل عشر سنوات. كان العقيد المسؤول عنه يزعق في وجهه بأن أمه راضية عليه حتى تركوه هكذا، يجب أن يحمد اللّه بأنهم تركوه دون أن يقطّعوا جسده قطعاً قطعاً ويشووها على سيخ الشوي! لكن «منير» طلب من العقيد مهلة أيام قليلة، حلّفه بأولاده وأهله وكل عزيز وغالٍ أن يمهله ثلاثة أيام لاغير، كي يُخطر العناصر الباقية بإعادة ما أخذوه، وكي يقوم بجردة كاملة للمستودع قبل تسليمه، فهو لا يريد أن يرحل والقيادة غير راضية عن عمله في حراسة مستودع الذخيرة. أعطاه العقيد ثلاثة أيام، لسبب ما أمهله العقيد ثلاثة أيام! وليلتئذ لمّ «منير» كل الأسلحة الموجودة في المستودع، وهرّبها بمساعدة أصدقائه، ثم اتجه بها من فوره إلى بلده «درعا».

أم «منير» كانت تجلس في حضرة المجتمعين لعزائها، في صالون بيتها في «العسالي»، كأنها في مكان آخر. لا تسمع ولا تتكلم وعيناها غائمتان، فيما يتناهش أصدقاؤه الحديث، جملة من هنا وتعليق من هناك: «سمعت بأنه شارك في ضربة الجوية بحرستا».

يقاطعه آخر: «لا، لولاه لما استطاع الجيش الحر ضرب الجوية أصلاً».

يدخل ثالث على الحديث: «لا هو لم يشترك، بل مدّهم بالسلاح فقط...».

- «هه... وما قيمة الهجوم كانت لولا السلاح، لولاه لما حدث الهجوم أصلاً».

- «لا يا جماعة هذه مبالغة، الشباب كان عندهم سلاح كمان. لكن هو ساعدهم أكثر».

لكن ما هو مؤكد أن «منير» عاد إلى «بصر الحرير»، تلك القرية الثائرة في أحضان اللجاة، وقرر أن يخوض ثورته من هناك. وفي الحصار الأخير لـ«بصر الحرير» قتل هناك في الاشتباكات الدائرة بينهم وبين عناصر النظام.

الجمل المتلاحقة المجعلكة التي كتبتها «ريما» بعجالة على ورقة فاتورة «سيريتل»، الورقة الوحيدة التي ألفتها في حقيبتها، كانت أشبه بقصة، لكنها قصة تشبه مئات، بل آلاف، القصص التي راحت تتولد في البلاد اليوم. وهي تهرول في الأزقة الضيقة لحي «العسالي»، هرباً من المداهمة القادمة من الاتجاه الآخر، كانت تفكر بأنها ينبغي أن تعيد زيارة ذاك البيت من جديد، ليس لشيء إلا لرؤية تلك العجوز الصامتة الساردة من جديد. القصة الحقيقية كانت هناك في البيت، في عيني أم ثكلى فقدت ابنها الوحيد برصاصة ذبحت عنقه، ودفنته بعيداً في أراضي «السويداء»، حين لم يتمكنوا من نقل الجثة إلى «درعا».

خرجت «ريما» من المنطقة، وضعها الشاب الذي رافقها عند «بوابة الميدان»، ثم قال لها مودعاً: «شكراً لك آنسة ريما، من هنا سيكون طريقك آمناً... اللّه يحميك»، وذهب. رغم أن الجو المحيط كان مثيراً للرعب بالنسبة لها، فالطرقات فارغة وعتمة ما بعد الغروب راحت تسدل غموضها ومن الممكن أن تجنّ الاشتباكات في أية لحظة في منطقة مشتعلة كـ«بوابة الميدان»، إلا أن شيئاً ما جعلها تقف وتعيد تشغيل موبايلها الذي أقفلته قبل أن تدخل حيّ «العسالي». حالما عملت على تشغيله رنّ الموبايل، كان «صفوان الشيخ»، بكلمات مموّهة مقتضبة وسريعة استطاعت أن تلتقط منه بأن ثمة جريحاً جديداً وصل للتو إلى «جرمانا»، وضعه خطير للغاية، آت من مدينة «القصير»

على أطراف «حمص»، عليها أن تخبر الدكتور «خالد» على الفور وأن تأتي بأقصى سرعة تستطيعها.

- لكن خالد في المليحة ولن يأتي إلى الغد.

صاحت «ريما» وهي تهرول وراء سيارة تاكسي بعثها القدر إلى هذا المكان الموحش فجأة. لكن «صفوان» كان قد أغلق الخط ولم يسمع جملتها الأخيرة. ركبت السيارة لاهثة، طلبت إلى السائق، الذي أبدى استغرابه من وجود شابة مثلها في هذا المكان وهذا الوقت، الإسراع إلى «جرمانا»، ثم راحت تحاول الاتصال بـ«خالد» رغم علمها بأن الاتصالات كانت مقطوعة في «المليحة». لكن الهاتف رنّ، وردّ صوت «خالد» منهكاً متعباً.

- مابالك حبيبي... في شي؟

- لا حبيبتي أنا آت إليك.

- لا حبيبي اسبقني إلى بيت مريم وصفوان سألحقك إلى هناك.

في عتمة «جرمانا» كان «صفوان الشيخ» و«مريم محمود» ومعهما «صلاح عباس» يحاولون جاهداً نقل الجريح إلى الطابق الثالث فوق بيت «صلاح» بهدوء، لئلا ينتبه إلى أمره أحد فيتورطون جميعاً. مظهره يشي بكثير من الأسرار. شاب شاحب شحوب الموت، نحيل كخيال، يطوي جسده على جرح عميق في خاصرته اليسرى ويضغط عليه بكلتا يديه. «أبو ياسر» كان اسمه. الصعود إلى الطابق الثالث لم يكن أمراً بهذه البساطة، بيت الدعارة كان قد فرغ منذ مدة قصيرة منذ أن قررت صاحبته نقل عملها إلى بيروت، أخذت صباياها ورحلت. «دمشق» لم تعد قادرة على تأمين الجو المناسب، قالت لصاحب البقالية المقابلة «سعيد حسين» بعد أن أودعت عنده أجرة الشهر الأخير.

«أبو ياسر» الذي وصل بعد عناء إلى الطابق الثالث، متكئاً على «صفوان» و«صلاح»، ارتمى لاهثاً على الصوفا العتيقة الملونة في الصالون، فيما التمّت ابنتاه الصغيرتان حوله، ووُضع الصغير «ياسر»

على الصوفا بقربه. راحت زوجته ترتّب أغراضهم القليلة. كانت «مريم» و«فاديا» قد حاولتا ترتيب فوضى البيت وقذارته قبل وصول العائلة. موافقة صاحب البناء على تأجيرهم الشقة لأقرباء من «حمص»، كما ادعوا أمامه، كان حلماً يتحقق، وليس من الممكن الطلب إليه أيضاً أن يأتي بمن ينظّف الشقة. لذلك فقد انسفحت أمامهما كل تركات الفتيات اللواتي عملن فيها قبلاً: مساحيق تجميل قديمة، ثياب بالية، شقف، محارم متسخة، قطع «سكر» مطبوخ لنزع الشعر، علب كوندومات، بقايا طعام، زجاجات عطر فارغة، علب سجائر، كؤوس غير نظيفة، طاسات، زجاجات ويسكي ونبيذ فارغة... كانت الشقة محمّلة بكل ما مرّ فيها، حتى رائحة الرجال الذين مرّوا استطاعت «مريم» أن تشمّها في طيات الأسرّة التي لم يبدّل أحد شراشفها القذرة المبقعة بالسوائل.

فيما بقيت «مريم» لتتفقد آخر ما يمكن تنظيفه كانت «فاديا» في الأسفل تطبخ منزلة باذنجان مع الرز. لم يكن شيئاً قليلاً، فكيلو الباذنجان بمئة وخمسين ليرة. صاح زوجها «أبو ليلى» حالما دخل باب البيت قادماً من الدكان في الحارة المجاورة. سمعت «مريم» صراخه إلى الطابق الثالث واستعاذت من الشيطان. كان جو البيت قد غدا جحيمياً بعد سكن أختها وزوجها في بيتهم. يكاد «صفوان» يقضي معظم نهاره في الخارج، فيما تحاول «مريم» أن تشغل وقتها كله بإيصال المساعدات وزيارة الصديقات ومحاولات العمل بأي شيء يطلبه الرفاق منها كي لا تمكث في البيت. «أبو ليلى» غاضب دوماً، نزق، متوفّز، قلق وحزين. «فاديا» تبذل كل ما تقدر عليه لترطيب الجفاف الذي يسببه مزاج زوجها المكفهر على البيت. «صفوان» يلحّ عليها كي تقطع حبوب منع الحمل وتحبل بطفل. كان يهمس لها في كل ليلة وحالما يهجعان إلى غرفتهما بأنه يريد حياة جديدة وسط كل هذا الموت.

حينما وصلت «هبة حدّاد» إلى الطابق الثالث من البناء، حيث كادت «مريم» تنتهي من تنظيف البيت، ألفتها تنشق بدموعها في الحمام الذي كاد يعجّ برائحة مساحيق التنظيف. حضنتها، شدّت عليها، ولم تسألها سبب بكائها بل تركتها لتبكي ثم تبكي وتبكي حتى هدأت أخيراً وابتسمت: «هل سافر فراس؟».

- نعم فراس في حمص الآن، يصوّر في الخالدية، ينبغي أن يعود بعد يومين.

- اللّه يحميه ويكون معه، وانشاللّه يقدر يلاقي مصعب ويطمني عنه.

- آمين.

في المساء دخلت «ريما العيساوي» الشقة، كان الجميع جالساً في الصالون ينتظر انتهاء «خالد الساعي» من إجراء الفحص على الجريح في الغرفة الداخلية. بعد دقائق قليلة خرج «خالد» شاحباً وهمس بأن وضعه صعب للغاية. كان أطباء المشفى الميداني في «القصير» قد أجروا له عملية سريعة بما أمكنهم من وقت بين القذيفة والقذيفة. استأصلوا جزءاً من أمعائه، ووصلوها مع الباقي كيفما اتفق، فقد كانت الشظية قد اخترقت أحشاءه مهشّمة ما مرّ في طريقها. كان من غير الممكن التفكير في أخذ «أبو ياسر» إلى أي مستشفى في دمشق»، فالاعتقال هو الذي ينتظره وينتظر المجموعة كلها، لذلك كان عليهم تحويل البيت الجديد إلى مستشفى ميداني.

لكن جرح «أبو ياسر» البليغ لم يمنعه من قصّ القصص عن مدينته «القصير». كان يحكي ويتوجّع: لم أعد قادراً على البقاء مع الشباب في حربهم ضد النظام. لدي أطفال لا أريدهم أن يتيتّموا، وأمي التي فقدت ابناً شهيداً صارت ترجوني ألا أبقى مع سلاحي في «القصير»، فهي لا تريد لابن آخر أن يُستشهد. وضعت أطفالي يومذاك في سيارة وحاولت إخراجهم من المنطقة. أمي لم تقبل أن تغادر «القصير»،

قالت سأبقى هنا ولن أغادر بيتي، واذهب أنت يا ابني اللّه معك. أمي يسمونها كذلك «أم ياسر»، لأني سمّيت ابني باسم أخي الكبير، استشهد قبل شهور في شظية اخترقت بطنه قبل ولادة ابني بيومين، تماماً كالشظية التي أصابتني ليلة هربنا، حين جنّ القصف من الجو على منطقتنا.

استيقظت في غرفة شبه معتمة صغيرة وخانقة، كان السقف البيتوني العاري أمام ناظري، وشاب يمسك بيدي، وآخر يعبث ببطني. شعرت بألم فظيع، صرخت بهما أن يسعفوا خالي. لاحظت شاباً ثالثاً يحاول أن ينزع حذائي من قدمي، نزعه وقلبه باتجاه الأرض فاندلقت دمائي منه وسمعت صوت السائل المرتطم. قال لي: انظر كم تنزف! انتبه لنفسك فقط وأهدأ، فالشظية مزّقت أحشاءك.

حين كانت تستمع إلى الحديث فكّرت «هبة حدّاد» وعيناها تترغرغان بالرطوبة بأنها في كابوس ولا بد. فكّرت وحدها وبصمت، لم يكن من الممكن أن تجهر بما يعتري روحها على الملأ، فالساحة اليوم ليست للكلام، الساحة اليوم للعنف وباسم كل المسمّيات. وحده حبيبها «فراس الصفدي» سيستمع إلى هواجسها، سينصت إلى ثرثراتها تلك بدون عتب أو تخوين. تذكرته، ودعت العذراء أن تحميه وهو في «حمص» من كل مكروه، وأن تعيده إليها سالماً. «لتجيرنا العذراء»، تمتمت ورسمت شارة الصليب بحركة صغيرة من إبهامها، ثم تلفتت حولها لئلا يكون أحد من الحاضرين قد انتبه إلى حركتها. لم ينتبه إليها أحد. لو لمحتها «ريما» فستعلّق ساخرة على ارتدادها الديني المفاجئ هي بنت العائلة الشيوعية العتيدة، وستتهكم «مريم» كذلك على مبالغتها في الطهرانية السلمية، فتضمّ كفّيها تحت ذقنها، وتقلّد نساء الأفلام الأميركية الدينية «احمنا يا يسوع المسيح... هبة حبيبتي هي تبع أدير له الأيمن لو ضربني على الأيسر بالكتب بس. لأني سأظل أدير لهذا الوحش الخد تلو الآخر حتى يقتلني من الضرب».

تقول «مريم» حين تعلّق «هبة» على ما يحدث من عنف متبادل في الشارع السوري بعد تسليح الثورة: هؤلاء لن يفهموا إلا بالسلاح ذاته يضربنا فنضربه، يقصفنا فنقصفه... هكذا...

- لكن كل الذين يموتون سوريين.

- صحيح وهذا أمر مؤلم وفاجع، ولكن ما باليد حيلة إن لم أقتله سيقتلني والبادي أظلم.

تنهي «مريم» النقاش هنا، وتصمت «هبة» باقية على ما بداخلها.

لم يستطع أطباء المستشفى الميداني في «القصير» أن يفعلوا الكثير. وضعوا «أبو ياسر» في سيارة ستنطلق باتجاه مدينة «بعلبك» اللبنانية عبر الحدود القريبة. كان يستيقظ كل حين، يلهج بعائلته وأبنائه ويعود للإغماء. السائق كهل من «بعلبك» كان يصبّره صائحاً: «شدّ حيلك يا بني، اللّه كبير... قرّبنا نوصل». أخيراً وصلوا إلى مستشفى «بعلبك»، تركه السائق وحده هناك ومضى. بعد جلوسه في الغرفة بدقائق راحت دوريات الأمن تتوالى، و«أبو ياسر» غائب عن الوعي. بعد منتصف الليل جاءت الممرضة المسؤولة إليه، وكان قد بدأ يستردّ وعيه شيئاً فشيئاً. غيّرت له كيس السيروم المربوط إلى كفه بتؤدة، تباطؤها بدا واضحاً، ثم حين تأكدت من خلو المكان همست في أذنه بأنه يجب أن يخرج من المستشفى حالاً، وإلا سيعتقلونه عند الصباح. «اتفقت مع ممرض من الصليب الأحمر لتهريبك... اللّه يكون معك».

«أبو ياسر» لم يعرف حتى اللحظة ما الذي حدا بتلك الممرضة لمساعدته.

- «الإنسانية»، تقول له زوجته التي تهزّ صغيرها بين يديها.

- ربما... ولكنني سأعود إلى ذلك المستشفى لو بقي يوم بعمري كي أقبّل يد تلك الممرضة التي أنقذت حياتي.

- بس ما تفكّر تكافئها وتتزوجها مثلاً.

علّقت زوجته بغيظ أضحك كل الموجودين.

قالت له الممرضة همساً ليلتئذ بأن يدّعي رغبته الملحّة بالتدخين، حينها ستحمله على الكرسي المتحرك وتقلّه إلى أمام باب المستشفى، فخروجه من المكان ممنوع حسب الأوامر التي أتتها. دسّت باكيت مالبورو في جيب مريول المستشفى، ساعدته في الجلوس على الكرسي المتحرك، وساقته إلى الباب الرئيسي. همس لها قبل الخروج: سأذهب في المريول؟!

- هذا الحل الوحيد.

همست حازمة، ودفشت الكرسي بعزم. لم يشعر «أبو ياسر» ببرد الشتاء الذي راح يلفح جسده من تحت المريول الخفيف، كان يرتجف من الخوف. سيارة الصليب الأحمر مركونة عند زاوية الشارع تراقبه، حالما دخل الحارس هرول شاب من السيارة، قاد الكرسي على عجل إليها، وانطلقوا.

- ثم لحقتني زوجتي مع أطفالي إلى بيت خالها في العسال. ومن هناك أتينا إلى «دمشق» عبر طرقات البادية المقفرة. ثم جلبني الشباب إلى هنا لألاقيكم... شكراً. لولاكم كنت الآن ألاقي ربي.

قامت «مريم محمود» لتساعد «هبة حدّاد» في نقل السلل الغذائية من سيارتها إلى بيت «مريم»، ذلك أن آخر سلة أخذوها البارحة إلى أسرة من «بيت سحم» نزحت إلى «جرمانا». وكان عليهما أن تكونا حريصتين جداً لئلا يلمحهما أحد وسط العتمة وهما تنقلان السلل إلى فوق. اختارت «هبة» سلة منها وحملتها إلى بيت الجريح. كان «خالد الساعي» قد وصل ومعه طبيب آخر ليعاينوا جرح «أبو ياسر» بشكل أكثر دقة.

- أريد أن أتصل بأمي... هل يمكنني؟!

سأل «أبو ياسر»، فدفع «صفوان الشيخ» بموبايله إليه.

- لكن الاتصالات الخليوية مقطوعة سأتصل إلى التلفون الأرضي.

- بالطبع، لا تهتم.

- أمي وحدها في القصير. حين ترجّيتها أن تأتي إليّ قالت لي كيف أرحل وأترك آلاف الأبناء لي هنا... تقصد شباب الجيش الحر!! أمي امرأة عظيمة.

(٢٠)

عن صلاة لم تستجب العذراء لها

في ذلك الوقت الذي كانت «هبة حداد» تصلّي فيه للسيدة العذراء كي تحمي حبيبها، كان «فراس الصفدي» في حي «الخالدية» بمدينة «حمص».

الشباب هناك أعدّوا لسهرة عارمة بعد أن انتهوا من عرض مسرحية لأطفال الحي، رسم الصغار بعدها عشرات اللوحات الملونة وعلّقوها بملاقط الغسيل الملوّنة على حبال من قنّب نصبت في ساحة الحي، وكان يتملّى في تلك الرسومات ويلتقط لها الصور. أوراق الصغار المعلّقة كانت متخمة بالبقع الحمراء والأجساد الممددة وبزّات الجيش والبواريد!

«فراس» أتى بصحبة «عصام طعمة» صديقه من مدينة «دوما»، وكان الاتفاق قد رُتّب بينهما وبين «مصعب محمود» شقيق صديقته «مريم»، ذاك الشاب الحمصي الذي انتسب قبل شهور إلى الجيش الحر. أوصته «مريم» قبل ذهابه أن يقبّل «مصعب» من عينيه، فقد مرّت شهور لم تتنسّم رائحته، قالت «مريم» وغصّت بالدمع.

- أعدك أن أغرقه بالقبل بدلاً عنك.

قال «فراس» وضحك.

قبل أن ينطلقا من «دمشق» باتجاه الأوتوستراد الدولي الغادي إلى «حمص» امتلكت «فراس» رغبة مجنونة في التجوّل في شوارع

«دمشق»، التملّي في تفاصيلها، الغرق في دقائق أماكنها. رغبة ملحّة جعلته يتفرّس طوالَ ساعتين ونصف في معالم المدينة كأنها المرة الأخيرة التي سيراها فيها. قال لـ«عصام»: بعد أن تنتصر الثورة سنعيد تسمية كل الأماكن في بلدنا.

- سنتعب كثيراً بما أن كل صرح مرفق بالأسد.

- مكتبة الأسد ستغدو المكتبة الوطنية... ما رأيك؟

- تمام... وجسر الرئيس؟!

- سنسميه جسر دمشق.

- رائع... ومستشفى الأسد؟!

- إممم... سنفكر في تسمية ما. كل الساحات والشوارع المسماة باسمه ستتغير، ستصبح بأسماء الشهداء. مثلاً ساحة حمزة الخطيب، شارع غياث مطر، صرح القاشوش الوطني... يا عيني. تخيل يا أبو العصم لو كل شارع فيه الأسد أو البعث أو تشرين أو الحركة التصحيحية يصير باسم شخصية وطنية سورية، أمر جميل أليس كذلك؟!

هزّ «عصام» رأسه قبل أن يذكّر «فراس» بأن عليهم الانطلاق باتجاه «حمص» فموعدهما مع شباب «حمص» قبل أن تغيب شمس شباط. في الطريق أسرّ «عصام» لصديقه بالكابوس الذي يلحّ على نومه بشكل متواتر، كان يحلم بأن رصاصة ثقبت جبينه وأردته قتيلاً. يشير إلى وسط جبينه الذي يبدو متصلاً برأسه الحليقة.

- لا تجلب القلق إلى حياتك بهذه الأفكار يا صديقي. لا تفكّر بالموت حتى تستطيع أن تعيش... ثم لمن ستترك الثورة؟!

وضحك «فراس». لكن «عصام» رد بتجهّم: لا أخاف من الموت... لا أخافه. مؤمن بأن الأعمار بيد اللّه! ثم إن قُتلت سأموت شهيداً! وأعرف أيضاً بأن هناك الكثير من الشباب سيكملون

بعدي. . . لكن هذه الرؤيا تلحّ على ذهني دوماً. لكن لا عليك أردت إخبارك كي يكون هناك من يشاركني كوابيسي في هذا العالم!!

ظل «عصام طعمة» صامتاً سارداً حتى وصلا إلى «حمص». فيما كان «فراس» يفكر بأنه سيفاتح أمه وأباه بموضوع زواجه حالما يعود إلى «دمشق»، سيتجاوز تردده وقلقه وسيجابههما وليكن ما يكون. نظر إلى السماء وألقى بوعده إليها، ثم راح يتذكّر رائحة إبطي «هبة»: رائحة الجنة.

قبل أن يصلا مشارف «حمص» همس «عصام» كأنه يكمل الحديث المنقطع منذ ساعتين: «الجسد غير مهم، مجرد محفظة للروح التي ستتجه إلى ربها مهما طال الوقت!»، وصمت. أراد «فراس» أن يقول له بأن هذه المحفظة مهمة جداً الآن كي تقوم بالعمل المنوط بك، لكن مجموعة الثوّار التي تنتظرهما بانت على مفترق الطرق القريب فأجّل «فراس» ما أراد قوله. في المكان الذي اتفقا عليه كان «مصعب محمود»، مع ثلاثة شبان آخرين، ينتظرونهما في سيارة سوداء اللون. حالما رآهما «مصعب» ترجّل من السيارة مسرعاً، وصعد معهما ليتبعا السيارة السوداء التي انطلقت قبلهما تدلّهما على الطريق.

«الشباب يعرفون الطرقات التي لا يتواجد فيها حواجز جنود الأسد لذلك سنتبعهم»، بادر «مصعب» قلقاً. كان شكله قد تغيّر كثيراً منذ رآه «فراس» آخر مرة في الربيع الماضي. كان يبدو يافعاً للغاية آنذاك بقميصه الملوّن وبنطال الجينز الضيّق. الآن يبدو مختلفاً، كبرت تفاصيله سنوات في أشهر، ونمت لحيته بعشوائية، أما شارباه فقد حُلقا على عجل! لم يتسنَّ لهما الوقت للحديث، كانت الطرقات ملتوية مليئة بالطين، والجو ينتح بالريبة والترقب. أصوات إطلاق رصاص بعيد، وأصوات قصف بعيدة كذلك. حين وصلا البيت الذي من المفترض أن يلتقي «فراس» فيه الناشطين، ودّعه «مصعب محمود» على الباب بعد أن حمّله سلامات إلى أهله إن لم يقدّر له

أن يلتقوا، أما إن قدّر اللّه فسيكون هنا غداً كي يؤمّن خروجه من المنطقة سالماً كما أوصله إليها.

في صالون البيت في «الخالدية» كان ينتظرهما شاب شيوعي مسؤول الشباب الشيوعي الموحد في «حمص» منذ أن كان عمره أربعة عشر عاماً، كما عرّف عن نفسه، اسمه «أسامة حمادة»: «لكني تركت العمل مع الحزب بسبب موقفه الرافض للثورة.» دخل «أسامة» إلى صلب الموضوع بسرعة ومباشرة. «ثم أنشأنا الائتلاف الإسلامي المسيحي العلماني، وجعلنا اختصاره فجر».

ضحك «فراس» بإعجاب، قبل أن يخبره عن حبيبته «هبة» التي ينتمي أهلها إلى الحزب نفسه. ثم تمنى في قرارة نفسه لو كانت معه، ومنّى نفسه بساعات من الحديث معها عن كل ما رآه هنا.

في تلك الليلة اجتمع الشباب ومعهم «فراس الصفدي» و«عصام طعمة» في بيت «مالك الطبري» على تخوم حي «الخالدية». انضم إلى المجموعة ثلاثة صحفيين أجانب، اثنان منهم ألمان من صحيفة «الديرشبيغل» والثالث فرنسي يعمل كصحفي حرّ. كان «مالك» يتحدث إليهم بفرنسية طليقة، فيما حدّث «أسامة» «فراس» عن الطريقة الغريبة التي تمكن فيها أولئك الصحفيون الأجانب من الوصول إلى «الخالدية» بحماية من رفاقه شباب الجيش الحر.

- هل تعرف أن ثلاثة شباب بعمر الزهور ماتوا كي يصل هؤلاء إلى هنا... عسى ولعل أن يستطيعوا نقل حقيقة ما يحدث إلى حكوماتهم!! وألا تذهب شهادة الشباب هباء...

زفر «أسامة» بقهر.

طفق بعض الحاضرين في الغرفة يتبادلون أطراف الحديث، بعض الآخر يغني أغنية الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم بتعديل طفيف: سوريا يمه يا بهية». فيما كان «عصام» ينقر على عود «مالك»، وبعضهم يحاول إنهاء العمل الذي ينبغي تقديمه في الغد إلى وكالة

الأخبار الفرنسية. فقد بدؤوا منذ شهور في إعداد أفلام قصيرة وتقارير أسبوعية عن كل ما يحصل في منطقتهم. كانوا حوالى خمسة عشر شاباً استطاعوا تغطية الكثير من أخبار «بابا عمرو» و«الخالدية» و«باب السباع»، وغيرها من أحياء «حمص» لكن بأسماء مستعارة. كما حكى لي الشباب عن مظاهراتهم التي بدؤوا بتنظيمها منذ الشهر السادس العام ٢٠١١، اشترك فيها شباب من اليسار واليمين، كما اشترك أكراد وعرب وشركس وتركمان، وفي إحدى المظاهرات رفع الشباب المسيحي الصلبان في حارة إسلامية محافظة كـ«الخالدية». أسفت لأني لم أستطع أن أكون هناك لألتقط صورة، لو قُدّر لي التقاطها لكانت صورة نادرة لن تُنسى!.

- كان لدينا مظاهرة أسبوعية كل يوم أربعاء بعد الظهر، تشترك فيها تنسيقية مصياف، تجمع نبض، مسيحيين وعلمانيين، كل هذا في الخالدية الحاضن لنا. ويحضر معنا اتحاد الطلاب الأحرار، وطلاب جامعة خالد من الوليد وهي تنظيمات طلابية صغيرة. . .كان هناك كثير من المظاهرات المشتركة بيننا.

طفق «أسامة» يسرد تفاصيل عملهم عليّ بفخر لا يمكن تجاهله.

بدا لي أن «مالك الطبري» هو المسؤول الإعلامي للمجموعة، يبعث بكل الأخبار باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وكان يدرس في كلية الهندسة المدنية في السنة الأخيرة. أما «اسامة حمادة» فهو المسؤول عن كتابة الرأي السياسي للمجموعة والنشاطات الفنية وصياغة المناشير واللافتات. أعطاني «أسامة» مجموعة أوراق مطوية على بعضها، كانت صحيفة مطبوعة تصدر في حي «بابا عمرو» قبل أن يُمحى الحيّ عن وجه الأرض. كان يصدرها شاب يسكن هناك. يطلقون عليه «ماركس» لأنه كان شيوعياً، يكتب المقالات ويجمعها في هذه الجريدة. كان «مالك» يحدّث الصحفي الفرنسي عن أفكار مسبقة يتم ترسيخها إعلامياً، حين شنّف «أسامة حمادة» أذنيه ليسمع

حديث رفيقه مع الفرنسي، ثم تدخّل بإنكليزية مجعلكة: من لم يكن مع ما يفعله النظام تمّ تحييده، ليس الآن فقط بل قبل الثورة بكثير. تمت معاقبة كثير من الضباط الكبار لأنهم لم يكونوا يملكون البنية العنفية ذاتها للنظام، أو لأنهم ليسوا فاسدين. زوج عمتي علوي في الجيش جعلوه يقدّم استقالته منذ زمن وهو مشلوح اليوم في البيت بدون أية قوة!!

«لكن الحقد صار بين الطرفين كبيراً». قال الصحفي الفرنسي.

- طبعاً، في مناطق التماس بين الحارات بيوت العلويين تستخدم كأماكن للقنص منها إلى الحارات السنية. يؤتى بشباب علويين تم انتقاؤهم ليقتلوا في حارات السنة! بعد كل هذا العنف الذي استمر سنة صار من الصعب إقناع الناس أن الطائفة ليست متشابهة كلها. الناس يحقدون، والخطف متبادل بين الطرفين!!

وزفر «مالك الطبري» حال إنهاء حديثه.

كنت أنصت بكلّيتي إلى الحديث الدائر، وتذكرت صديقتي «ريما العيساوي»، ثم فكرت بالطريقة التي أستطيع بها أن أصوّر كل هذا الكلام... هل من طريقة؟!!

فجأة سمعنا صوتاً قوياً. كان انفجاراً ضخماً آتياً من داخل حي الخالدية»! ثم أعقبه صوت آخر أكثر عنفاً. خلال دقائق ارتبكنا، لم نعرف ما الذي يحدث! صاح أحدنا إنه قصف... النظام يقصف الخالدية. وشحبت وجوه الصحفيين الأجانب. خرج «أسامة» و«مالك» إلى الشرفة ليتبينا مصدر الصوت، كانت الأدخنة تتصاعد من «الخالدية»: «إنهم يقصفونها». الجوامع راحت تكبّر، تدعو الشباب للتبرع بالدم لأهالي «الخالدية»، وتوالى هدير الانفجارات. استدركت الأمر في اللحظة الأخيرة، وإلى الشرفة أخرجت كاميرتي، رحت أصوّر أعمدة الدخان البعيدة المتصاعدة هنا وهناك تصل السماء بالأرض، تزيدها عتمة الليل غموضاً وضبابية.

- هناك عائلة في الخالدية في ساحة العلو قُصف بيتهم. . . الفزعة يا شباب.

صاح صوت من أسفل البناء. فما كان منا إلا قمنا جميعاً وهممنا بالنزول. «مالك» طلب من الصحفيين البقاء في البيت، لكنهم أبوا. جهّز أحدهم كاميرته ونزل معنا، وأنا شرّعت كاميرتي، التي وضعتها على ميّزة التصوير الليلي، ونزلت خلفهم. صديقي «عصام طعمة» كان يستحثّني للإسراع، وهو يلفّ كفّيته المرقطة على رأسه الحليقة، ويساعدني في حمل حقيبة معداتي.

البناء الذي تمّ قصفه وقع معظمه، الغبار يتطاير، الأحجار مشلوحة هنا وهناك، ومئات من الشباب المتجمعة تحاول إخراج الناس من تحت الأنقاض. صراخ وأشلاء، يد بادية من تحت الحجارة، قدم أخرى، رأس مغبر، وليل شباط المعتم زاده الدخان القاتم عتمة وضبابية. وقفنا على الزوايا، والشباب تسعف الجرحى. في الواقع لم أر جرحى، رأيت أشلاء بشر، وأطفالاً محمولة، وامرأة يسحبها الشباب من كتفيها كان وجهها غارقاً في الدم. حاولت السيطرة على ارتجافة يديّ كي أستطيع التصوير، فاللقطات أقسى من أن أحتملها. كنت أصوّر فيديو، وأحاول أن ألتقط عدداً لا يحصى من الصور للمشهد نفسه، علّني أنقذ صورة واحدة من ارتجافة يديّ.

«مالك» كان يحمل رجلاً عجوزاً بمساعدة «أسامة»، لم ينتبهوا إليّ وأنا ألتقط الصور. فكرت لحظتئذ أن الصور لا تقلّ أهمية عن إسعاف الجرحى وانتشال المصابين. رحت ألاحق خيالات الناس وهي تتجه إلى السيارات لإسعاف الجرحى. التقطت صورة لشاب قطعت ساقه وراحت الدماء تفرّ منها، مدّده «عصام» على مقعد خلفي لسيارة ما كانت واقفة قريباً، قبل أن يهرول لإسعاف غيره. كانو يصيحون: «إلى جامع الإيمان. . . إلى جامع الإيمان. . .»، حيث يسعفون الجرحى هناك.

فجأة سمعت دوياً هائلاً قربي. حين نظرت ناحية الصوت كانت لقذيفة قد سقطت على جمع الشباب المسعفين. قذيفة هاون أو قذيفة ب.م.ب صاروخية أو لا أعرف. ركضت لأتبيّن الذي حدث لرفاقي وضباب له رائحة الحرائق والبارود يعميني. «عصام» مرمي إلى اليمين، لكنه يتحرّك نافضاً الغبار عن وجهه بكفّيته. هذا يعني بأنه مازال حياً. ثمة شاب وجهه ملطّخ بالدم، اقتربت منه ممحّصاً، كان «أسامة حمادة» عرفته بصعوبة. عينه خرجت من مكانها، وانكشط الجزء الأيمن من وجهه. هرعت هلعاً إليه، حاولت أن أحرّكه، كان يئن. صرت أصيح «يا ناس إسعاف... يا ناس إسعاف»، حين سمحت شاباً آخر مرمياً بقربي. الشظيّة استقرّت في رأسه. يرتدي كنزة صفراء اللون ككنزة «مالك الطبري»! للحظات غاب كل شيء حولي وأنا أدنو منه. الشظيّة شقت رأسه نصفين، واستقرت في الوسط. كان «أسامة» يئنّ خلفي: «شوف مالك... شوف مالك». هززت ذاك الذي من المفترض أن يكون «مالك»، هززته وأنا أصيح «مالك... مالك!»، كان جثة هامدة.. «مالك» استشهد!!

في الوقت الذي كانت القذائف تتساقط على جمع المسعفين في حي «الخالدية»، كان «فراس الصفدي» قد رمى كاميراته على الأرض دون أن يعي ذلك وراح يهزّ جسد «أسامة حمادة» كي يتأكد من أنه مازال على قيد الحياة. ثم حاول حمله ليبعده عن المكان، وكان شباب آخرون يحملون جثة «مالك الطبري» بعيداً. لثوان لم يعِ إلا صوتاً قوياً أصمّه، وضوء أبيض باهر ملأ عينيه قبل أن تُغمضا. قذيفة ثالثة سقطت بعيداً على مسافة لا تتجاوز المتر عنه، وغاب.

في زاوية من الشارع التقط أحد الشباب، رغم الفوضى العارمة حوله، رجلاً يتحدث على جهاز لاسلكي، كان يصيح بشخص على الطرف الآخر من الخط: «مترين إلى اليمين... متر... متر ونصف للأعلى...» اقترب منه متبيناً، حتى تأكد من أنه يبعث بموقع

جماعات الشباب المسعفة إلى جنود النظام كي يتم ضربها بالهاون. لم يجد نفسه إلا وهو يتناول حجراً ويرمي به على رأس الرجل، ظل يضربه يضربه حتى تكوّم جثة مشوّهة.. ثم سقطت قذيفة رابعة ذهبت به.

حين استيقظ «عصام طعمة»، بعد مدة لم يستطع تبيّنها، ألفى نفسه في بهو جامع كبير ممدداً فوق سجّادة على الأرض، لا يدرك بالضبط ما الذي يحصل حوله! الصراخ والأنين طاغيان، شاب يسلّط عدسة موبايله فوقه ويصيح: «اللّه أكبر... مجزرة الخالدية... اللّه أكبر»، أجسام مشلوحة بالعشرات في الصالة، أجساد بدون أيدٍ وأجساد بدون أرجل! فجأة أحسّ بآلام مبرحة تتناهش جسده كله. بجانبه شاب يشبه «فراس الصفدي»، نحيل بشعر غامق ويرتدي كنزة صوفية غامقة اللون. ناداه «عصام» لكن لم يصدر عن «فراس» أية حركة. حاول أن يتحرّك إليه لكنه لم يقدر على الحركة. صاح به أحدهم: رفيقك استشهد اللّه يرحمه... انتبه لنفسك وابق مستيقظاً كي لا يظّنوك ميتاً فيتركونك لمصيرك... واضغط على قدمك كي تخفف من النزف حتى يأتي دور إسعافك.

نظر «عصام» إلى ساقه، كان لحمه مفتوحاً كأن ثمة من شرّحه بأناة، والعظم يبدو واضحاً من الداخل. لم يشعر بألم! الشيء الوحيد الذي فكّر به أن يبقى مستيقظاً ويوقف النزف كي لا يقضي جثة أخرى وسط هيستيريا الموت حوله.

بعد دقائق أتاه الشاب المسعف وقال له: «لقد حفظتك فلا تخف، فقط تمدد». فتمدد «عصام»، وراح يرمق ذاك الذي يشبه «فراس» والذي بدا له هادئاً بطريقة غريبة. لكن وجهه لم يكن ناصع البياض كوجه «فراس»، كان يظهر طرفه غامقاً مائلاً إلى ازرقاق! ربما ليس «فراس»! مدّ يده يحاول لمسه عبثاً. راح الوجع يغزوه شديداً لا يطاق. فكّر بأنه نسي ما اسمه، أو من أين هو! تذكر ما حصل كحلم

عيد. تمنى أن يغفو، ثم قال لنفسه إذا غفوت الآن فلن أستفيق، بالمناظر التي حوله كانت تنطق بالموت المحتم. لكنه لم ينسَ اسم فراس». صاح به «فراس... فراس!» لكن الأخير لم يستجب.

«عصام...» صرخ أحدهم بقربي، وتذكرت اسمي. كان شاباً أعرفه، أعرفه جيداً لكن لم أتذكّره. «عصام... أنا مصعب صديق فراس تذكّرتني. أتيت بكم اليوم إلى الخالدية!!»، ثم نادى صارخاً: «شباب... عصام هنا مازال على قيد الحياة».

رأيت جمع شباب يركضون نحوي، سألتهم إن كان «فراس» بخير، طوّح «مصعب» برأسه آسفاً وهو يحاول حملي: «اللّه يرحمه... اللّه وهبه الشهادة».

- ومالك وأسامة؟!

- مالك استشهد ليرحمه اللّه، أما أسامة فوضعه خطير.

لم أعد أذكر الكثير، أذكر بأننا قطعنا المسافة بين الجامع والمستشفى بأعجوبة وبسرعة فائقة، تجاوزنا الحاجز، وسمعت إطلاق الرصاص، وانضربت السيارة بالحائط، شعرت بالغثيان واستفرغت على أرض السيارة، وأتذكّر أن القيء كان أحمر اللون! لكننا في النهاية وصلنا المستشفى! لا أعرف كيف! فيما بعد قال لي «مصعب» إن حرباً حقيقية دارت بين عناصر النظام وكتائبهم كي تستطيع سيارات إسعاف الجرحى إلى المستشفى.

يومها سمعت الشباب يتناقشون حول ضرورة المرور على حاجز آخر للجيش النظامي عند دوار المهندسين. لم يكن هناك خيار آخر، إما سننجح بالمرور وإما سيعتقلوننا أو نُقتل، وكانت المجازفة خير من البقاء. آخر ما أذكره، والألم يشتدّ ويتعاظم عليّ، وجه عنصر الحاجز وهو يمدّ رأسه ليناظر من في السيارة. وقعت عيناه عليّ، تغيّرت سحنته ثم سمح لنا بالمرور. فيما بعد قال لي الشباب في السيارة الأخيرة إن ذاك العنصر الشاب كان يبكي حين وصلوا بدورهم

إليه. كان حظّنا طيباً أننا مررنا بسلام من ذلك الحاجز. قبل أن أغيب عن الوعي في المستشفى قال لي «مصعب» للمرة الأخيرة: الآن ينبغي أن أذهب، مكاني هناك مع الشباب وليس هنا... أنت الآن بأمان والله يحميك ويرحم الشباب... كلنا على هذا الطريق... سلّم لي على أختي!!

حينما استيقظت كانت ساقي مضمّدة كلها.

أُنقذت هذه المرة من الموت بأعجوبة! ملاك الموت فاتني، لكنه قبض على روح صديقي الأقرب «فراس الصفدي» بدلاً مني، وعلى أرواح الكثير من الشباب، كأنه يقتصّ مني بتركي هنا!

من يرحل يرتاح، لا يرى من يحبّهم يغادرون، ولا يتألم لمرأى الأشلاء والجثث المشوّهة! من يرحل يرتاح، لا ينتظر ملاك الموت بعد، فقد حظي بالاسترخاء وربما بالشهادة!

من يرحل يرتاح، ويترك الألم لنا نحن الأحياء، يترك لنا الألم وانتظار الموت ورؤية بلادنا وذاكرتنا تُدمّر!

(٢١)

عن جهنم التي فتحت أبوابها يومذاك، وسحبته إليها

ثمة من قال لـ«شيران حاجو» إن الدولة تغضّ الطرف اليوم عن البناء العشوائي غير المرخّص. الجميع يبني اليوم في أراضي الغوطة، الشاطر هو من يقطع الأشجار المتبقية المتفرّقة، ويشيّد مكانها بناء مكتملاً خلال أيام قلائل. العشرات، بل المئات، من الأبنية ارتفعت في أيام كمظلات الفطر الشتوي. الجميع يبني في هذه الأوقات! ثم أن رفيقه «أحمد الأحمد» من «يلدا»، ذاك الذي يعمل أجيراً في نقل قطع الخفّان، صارت يوميته لا تقل عن ألفي ليرة سورية! ويكاد العمل لا يتوقف. «البنايات تنخلق، والكل يريد أن يعمل في هذه المصلحة!!»، قال له «أحمد»: لن تعرف الغوطة بين جرمانا والمليحة!! لم تبق فيها شجرة واحدة توحّد ربها. بساتين صحنايا أيضاً صارت بنايات. بساتين الزيتون سلامتك... وشو بدي قلك!

- يا لطيف!!

- تعال معي غداً يريدون عاملاً معنا، تساعدنا وتكسب القليل من المال، بدل أن تظل قاعداً تفتح فمك للسماء. إن لم نبنِ نحن سيبني غيرنا... دعنا نستغل هذه الفرصة.

كانت الأوضاع المادية تزداد سوءاً، والناس يزدادون حاجة

وفقراً. «قبل أن أعمل مرّت أيام لا يوجد فيها ما يأكله الصغار في بيت إلا الخبز والشاي!!»، قال «أحمد» له.

- والأوضاع عندكم ليست أفضل.

أردف، فذهب «شيران» معه في اليوم التالي. كان مستعداً للعمل في أي شيء، فقد كانت المعيشة بالفعل تزداد صعوبة يوماً بعد آخر كما قال «أحمد». الأسعار ترتفع، والعمل يتبدد، حتى إنه فكّر أن يبيع سيارته مع أنه لم ينه أقساطها المتوجبة بعد لشركة السيارات. شقيقه الأصغر «ميفان حاجو» اختفى منذ أسابيع قليلة. لم يعرف أحد أين من الممكن أن تكون أراضيه!! اختفى ذات فجر كالسحر. أتت أمه لتوقظه في ذلك الصباح ولم تجده في فراشه! اعتقدت بأنه سيعود خلال وقت قصير لكنه لم يعد. أحد الجيران أخبرهم بأن هناك من لمح «ميفان» معتقلاً في سيارة للأمن! لكن لم يعتقلون «ميفان»؟!!

الأم، التي غدت وحيدة بعد اعتقال صغيرها، أتت لتقيم في بيت بكرها «شيران» القريب من بيتها. كانت تردد كل صباح بالكردية. وهي تنشج، بأن البيت يذكّرها بحبيبها الصغير «ميفان» وروح قلبها... اللّه يرده لها بالسلامة. وتكمل نشيجها.

- كيف لي أن أنام وأنا لا أعرف إن كان حياً أم ميتاً؟! بخير أم لا؟! عطشان؟! جوعان؟! ربما كانوا يؤذونه... ربما كانوا...

لم تتخلّف الأم ولا ليلة عن نواحها وندبها على ابنها. «شيران» يقول لها متأففاً إن بكاءها هذا فأل سيئ، كأن الشاب مات لا سمح اللّه؟! فتصمت قليلاً مستجيبة لكلماته، لكنها تعود بعد حين لنواحها: «اللّه يرضى عليك يا ابني ابحث عنه، ربما استطعت أن تعرف إلى أين أخذوه... اللّه يخليك يا حبيبي..». وبعدها «شيران» خيراً.

البناء الذي سيعمل فيه يقع في المنطقة الفاصلة بين مدينة «المليحة» و«جرمانا»، وكان عليهم أن يسرعوا قدر الإمكان في إنهاء

أعمال البناء، فالشرطة ورجال الأمن في المنطقة يغضّون النظر عن البناء غير الشرعي مقابل دفع الأتاوات، يمرّ مندوب عنهم كل أسبوع ليأخذ حصّته وحصة رفاقه، لكن من الممكن أن يرغبوا في زيادة الأتاوة فجأة، فيعرقلون العمل ويخسر المتعهد. ثم إن الاشتباكات بين ثوار «المليحة» وعناصر النظام، المتمركزين في مبنى الأمن الجوي على تخوم مدينة «جرمانا»، قد تندلع في أية لحظة، والبناء الذي سيعملون فيه لا يبعد أكثر من مئتي متر عن مبنى الأمن الجوي! هذا يعني أن رصاصة طائشة قد تخترق رأس أحدهم في أية لمحة! مشكلة البناء هذا أنه كان على خط النار، في منتصف الجبهة!!

بدأ «شيران» يومه منذ أول الفجر. صار يقطع المسافة الفاصلة بين حي «الحجر الأسود» ومدينة «جرمانا» يومياً، مسافة مسكونة بالموت المحتمل في أية لحظة. مع أن صديقه «أبو علي الفهد»، قائد إحدى أكبر المجموعات المسلّحة الثائرة في «الحجر الاسود»، عرض عليه من جديد أن ينضمّ إليهم، يحمل السلاح ويصبح مجاهداً من الكتائب، فقد كان المعارضون المسلحون يزدادون شهراً إثر شهر، ولن يطول الأمر حتى يسيطروا على «الحجر الأسود» بشكل كامل. قال له «أبو علي الفهد» ذات أمسية وهم يحتسون الشاي ويدخنون الأركيلة بالتنباك البلدي: لن يبقى للنظام غير السماء ليلوذ بها، حتى السماء ستكون في مرمى نيراننا... سنحوّل الأرض جحيماً أمامهم... تعال معنا ولن تندم.

لكن «شيران» كان يخاف من القتل، من السلاح، ومن الدم. كان يفضّل أن يعمل في أي شيء آخر، ولكن أن يساعدهم بما يستطيع دون أن يلطّخ يديه بدم أحد حتى لو كان دمّ الشيطان. ثم إن أمه رجته برضاها عليه ألا يحمل السلاح. كانت تنوح باكية بأنها فقدت ابناً ولا تريد أن تفقد الثاني.

- صحيح أبو علي هل بحثتم عن أخي ميفان كما وعدتني؟!

- الشباب يبحثون عنه... يقولون إنه في الجوية، ولكنهم غير متأكدين... لكن لا تقلق سنظل نبحث عنه.

وشرق «أبو علي الفهد» شرقة قوية من أركيلته.

لكن في يوم الأربعاء ذاك من شهر تموز ٢٠١٢ لم يكن «شيران حاجو» يعرف بأن أحداثاً فظيعة طرأت على «دمشق». كانت القنوات التلفزيونية الرسمية تذيع عن تفجير «إرهابي» حدث في مبنى الأمن القومي في حي «أبو رمانة»، وتنعي مقتل رجال خلية إدارة الأزمة. قنوات المعارضة تعرض لقادة الجيش الحر الذين تبنّوا العملية!! قنوات أخرى تتّهم النظام بافتعال الأمر لقتل رجال الخلية فقد حاولوا الانقلاب عليه!! ناس تصرخ وناس تزعق، و«دمشق» تشتعل بنيران الخوف والترقب والغضب. لكن «شيران» لم يسمع بكل ذلك، غدا في الصباح الباكر إلى العمل، وكان رفيقه «أحمد الأحمد» يعاني من آلام مبرّحة في عموده الفقري ويكاد لا يقوى على الحركة. كانت أصوات الرصاص والانفجارات تصل واضحة من جهة «المليحة» إلى حيث أنقل ورفاقي قطع الخفان. الاشتباكات ثم القصف ثم الاشتباكات، أحياناً يتخلل كل ذلك أصوات انفجارات كبيرة يرجّ البناء الطارئ من قوتها، يتراءى لي بأنه سينهار إثر انفجار ما من تلك الانفجارات. كانت طائرات الهيلوكبتر تحوم طوالَ الوقت فوق «جرمانا»، تطلق رصاصها على «المليحة». ثوار «المليحة» يردّون على ضرب طائرات الهيلوكبتر بإطلاق القذائف عليها. وأنا أتمزق طوالَ الوقت بين فكرتين، الأولى أني سعيد بضرب الثوار للهيلوكبتر، والثانية خوفي من إمكانية سقوط إحداها فوق رأسي!!.

قال لنا صاحب البناء إن علينا ترك المنطقة سريعاً، فقد أضحت خطرة للغاية. وفي سيارتي ركب صاحب البناء و«أحمد الأحمد» وعامل آخر معهم. كان ينبغي علينا أن نقطع بلدة «يلدا»، التي تقع في الطرف الآخر من أوتوستراد المطار الفاصل، ليصل «أحمد» إلى

منطقة قريبة من بيته هناك. المروحيات تحوم فوق طريق المطار، تمطر المنطقة بالقذائف والموت، وتردّ قذائف الشيلكا من الأرض. الاقتراب من المنطقة يُعدّ انتحاراً، لكن «أحمد» كان يبكي وهو يرجوني أن نقترب به إلى منطقة قريبة، فانتقاله راجلاً سيكون أكثر صعوبة بكثير. وقعت بين نارين، أن أترك رفيقي وحده وأعود أدراجي، أو أبقى معه وأوصله قريباً من بيته، وقررت أن أوصله. دخلت السيارة بسرعة جنونية إلى المنطقة. الدمار المحيط بنا والأصوات القريبة توضح بأننا غير بعيدين عن القصف. الدبابات المتمركزة على طريق المطار تقصف، والمروحيات كذلك، زخّ الرصاص المتبادل بين الطرفين يثقّب أذني. في لحظة نزلت قذيفة على بيت أمامنا. هي لحظة لا تكاد تعيها، ويتطاير الغبار والحجارة في وجهك كحمم بركان، كأن الحجارة مصنوعة من غبار مضغوط وليس من بيتون إسمنتي. سحابة من الدخان غطت كل شيء لثوان. ثم قذيفة أخرى تبعد أمتاراً، رأيت أشلاء إنسان تتطاير أمامي، ونزل مطر من الحجارة والطوب فوق سطح السيارة. صرخ «أحمد الأحمد» هلعاً: «انزلوا من السيارة»، تركناها ونزلنا. كل منّا ركض في اتجاه. الدمار، الغبار، الشظايا، والحجارة، كل شيء ينفجر في وجهي. كنت أركض كالممسوس. سيارة سوزوكي بيضاء في الحارة الثانية تنقل أجساداً مشلوحة على الأرض. كانوا معفرين بالغبار الأبيض، وجوههم غير واضحة وهي مموهة بالأبيض. ربما كنت أنا كذلك مموّهاً بالأبيض!! صوت صفير حاد ونزلت قذيفة أخرى.

فكرت أن أعود إلى السيارة لأهرب من الجحيم إن لم تكن قد قصفت. عدت أدراجي راكضاً. لكن كتلة من اللهب كانت مكان سيارتي فركضت في الاتجاه المعاكس. ركضت وركضت وركضت، حولي كان هناك عشرات الراكضين مثلي. واحد صرخ بأن الثوار استولوا على ثكنة الرادارات القريبة، والنظام يحاول استعادة السيطرة

عليها. لكني ظللت أركض كالمجنون، أسمع لهاثي، أحسّ بضغط شديد ومؤلم في أذني. للحظات صرت في البساتين الفاصلة بين منطقة «يلدا» وحيّ «الحجر الأسود». ركضت وركضت وأنا أتوسّل إلى ربي أن يجعلني أصل إلى «الحجر الأسود» سالماً من أجل عيالي وأمي الوحيدة... يارب.. يا رب. ووصلت وأنا متقطّع الأنفاس. لم أشعر بحقيقة ما حدث لي إلا حين شهقت زوجتي ووقعت مغشياً عليها حالما فتحت لي باب البيت.

لم أعرف ما الذي حدث مع صديقي «أحمد» بعد أن وصل إلى «يلدا»؟!! صرت أتصل به وأتصل، لكن موبايله بقي مقفلاً. فقررت أن أقصد «يلدا» بعد أيام من الجحيم الذي كان يستعر فيها. كان الطريق سالكاً، الهدوء الذي يعمّ شوارعها يشعرني بأنها ليست المنطقة ذاتها التي كدت أموت فيها قبل أيام قليلة. مكان سيارتي فارغ، مجرد قطع معدنية متفحمة ومبعثرة على الإسفلت الأسود. هناك بضعة أبنية مدمّرة، وزجاج النوافذ معظمه مكسّر. رحت أبحث عن بيت «أحمد» بين البيوت، لكني لم أستطع العثور عليه. سألت رجلاً، يجلس على باب بقالية صغيرة محطّم زجاجها على ناصية الشارع، إن كان يعرف أين بيت رفيقي؟! فقال لي بكل بساطة واعتيادية إن قذيفة سقطت فوق رأسه ومزقته نتفاً!

إثر ذلك لم يعد هناك من شيء يدفع «شيران» لأن يبقى مثلما كان.

«ميفان»، أخوه الذي اعتقل منذ مدة طويلة، يقولون بأنه قتل، و«أبو الليث» صديقه الحميم تمّ حرقه في حيه البعيد «دير بعلبة» شرقي «حمص»، والعمل بدا أصعب من لمّ الشوك بيدين عاريتين. كان يشعر بأن الحياة بنت سداً من الطوب الأسود في وجهه، وكان صديقه «أبو علي الفهد» يؤكد وهو يرشف من أركيلة التنباك البلدي بأن المال سيطمره طمراً إذا انضم إلى صفوف كتائبه المقاتلة. لن يكون كراتب

شهري كما بقية المقاتلين، بل سيكون كحصة من الغنائم والأرباح. «لا تسألني من أين يأتي المال يا شريكي، اسألني فقط كيف سنحارب بشار الأسد وكلابه»، ونفث الدخان.

لذلك فقد قرر «شيران حاجو» بأن يبعث بأمه وزوجته وولديه إلى قريته «كوباني» في الشمال، فهناك سيكون الوضع أكثر أماناً بين أهله، وقرر الانضمام إلى إحدى كتائب «الحجر الأسود» المعارضة المسلّحة بقيادة «أبو علي الفهد». في صباح اليوم التالي جهّز ثيابه وغدا إلى بيت «أبو علي الفهد» ليتسلّم سلاحه الجديد، رغم أنه كان قد حلف الأيامين المعظمة بعد مقتل «أبو الليث» ألا يحمل سلاحاً!!

في يوم قريب ستنجح الكتائب المعارضة، ومنها كتيبة «أبو علي الفهد»، أن تسيطر على «الحجر الأسود»، سيصبح اسم «شيران حاجو»: «أبو عزيز الكردي»، الكل سينادونه بهذا الاسم، ولن يعرف أحد من الشباب المقاتلين اسمه الحقيقي، باستثناء الزعيم «أبو علي الفهد» الذي كان الجميع ينادونه «المعلّم». أما «أبو عزيز الكردي» فسيكون مسؤولاً عن قيادة السيارات، يدرّب الشباب ويقود سيارة «المعلّم» ويوصل الشحنات والأخبار المهمة، إذ لم يكن ثمة من أحد بينهم يتقن قيادة السيارات مثله!

في إحدى الأمسيات كانوا في غرفة داخلية في بيت «المعلّم»، يناقشون خططهم للأسبوع القادم، حين وصل أحد شبّانهم مسرعاً. كان ثمة بيت لرجل، قيل بأنه يتعامل مع عناصر النظام، في شارع «العروبة» القريب من حي «الحجر الأسود»، راقبه شباب الكتيبة وتأكدوا من أنه في بيته الآن وينبغي أن يغيروا عليه من فورهم.

- لكن لماذا هذا الرجل بالذات؟!

سألهم «أبو عزيز الكردي».

- لأنه سلّم عدداً كبيراً من رجالنا إلى عناصر الأمن، وينبغي أن ينال جزاءه.

صاح المعلّم غاضباً، وأمره بأن يأخذ سلاحه ويلتحق بالشباب العشرين الذين سيقومون بمهمة الإغارة على بيت «العوايني» ذاك، وليجلبوه حياً إليه.

- أريد أن أعاقبه على طريقتي.

قاد «أبو عزيز» سيارة البيك آب المهلهلة، وصعد الشباب كلهم وقوفاً في الخلف وهم يشرّعون الأسلحة عالياً. كانت الطرقات النائية المقفرة، التي تربط نهاية «الحجر الأسود» بشارع «العروبة»، تحملهم مع التفافاتها وغموضها. اقترب بيت «العوايني»، لم يكن هناك شيء يوحي بأمر غريب. وقفت السيارة قريباً ونزل الشباب يهرولون لاقتحام البيت. خلال لحظات انفتح باب البيت المعدني، وانطلق منه عشرات الرجال الذين راحوا يطلقون النار من رشاشاتهم باتجاه القادمين. صوت الرصاص يلعلع في صمت الليل، وشباب «الحجر الأسود» يتساقطون أمام عيني «أبو عزيز الكردي» الذي كان مايزال يقبع ذاهلاً خلف مقود السيارة البيك آب. لم يعرف ما الذي عليه فعله! إن استل رشاشه من بين قدميه وخرج سيقتلونه، وإن حرّك السيارة سيطلقون النار عليه، وإن بقي سيأتي دوره!! لم يجد نفسه إلا وهو يشغّل محرك السيارة وينطلق كالمجنون مخلفاً وراءه سحابة من الغبار كانت كفيلة بتغطيه هروبه لدقائق.

يومذاك قتل أكثر من خمسة عشر شاباً من مجموعته، لم ينج إلا من لحق بالسيارة وتعلّق بجزئها الخلفي وهي تلوذ بالفرار. لم يلقوا القبض على «العوايني» الذي ترك المنطقة مع أسرته، كما قرر المعلّم «أبو علي الفهد» ألا يحمل «أبو عزيز» السلاح مجدداً، فقد بقي ثلاثة أيام بلياليها واقعاً تحت تأثير حمّى قوية كادت تودي بحياته!!

- قلبك رهيف أبو عزيز كقلب النساء. مابك؟ أنا أعرف أن الأكراد قلوبهم مثل الصخر الصوان، انظر جماعة البـ.كـ.ك كيف كانوا يحاربو بالجبال متل الفهودة... ما بك؟!.

لامني المعلّم «أبو علي الفهد» بعد أن تماثلت للشفاء، لكني لم أشعر بالغربة تجاه الشباب المقاتلين في الكتيبة، معظمهم كانوا شباناً مدنيين من «الحجر الأسود» ومن الأحياء المجاورة، باستثناء شاب يافع واحد لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره بعد، كانوا ينادونه «عبدو الرهيب». أطلق عليه هذا الاسم أحد الشباب المقاتلين معنا وكان يدرس في الجامعة في كلية التاريخ، استشهد رحمة اللّه عليه في إحدى الاشتباكات وهو لم يبلغ بعد سنواته العشرين. أسماه «عبدو الرهيب» تيمناً بـ«إيفان الرهيب»، الذي حدّثنا عنه باعتباره امبراطوراً من التاريخ كان يقتل من يريد بدم بارد. نسيت من أي بلد كان! «عبدو الرهيب» كان يستطيع أن يذبح أي رجل كان بدم بارد وعينين هادئتين. يمسك بالموس ويمرر نصله الحاد ببراعة على رقبة غريمه كمن يذبح شاة عشية عيد الأضحى. «عبدو الرهيب» قتلت عائلته كلها قبل أن ينضمّ إلى كتيبة «أبو علي الفهد». بعضهم كان يقول بأنه من «ريف حلب» وأن «شبيحة» النظام اغتصبوا أمه أمامه وذبحوا والده. بعضهم الآخر يتهامس بأنه من «ريف حماة» وليس من «ريف حلب»، لكنهم يتفقون بأن أمه اغتصبت أمامه وأبوه مات ذبحاً!! آخرون بدوا مقتنعين بأنه من الريف الشرقي لـ«دير الزور»، وما من أحد مات من أسرته فقد نشأ يتيماً منذ سنوات! فهو لم يخبر أحداً بأصله. لكن «عبدو الرهيب» قال لـ«المعلم» حين قدم إلينا أول مرة بأنه يريد أن ينتقم لمقتل أهله، فقبله المعلّم بيننا فوراً. بعض الشباب كانوا ينادونه «قاتل العلويين» ويضحكون. لكنه تكشّف لي يوماً بعد يوم عن رجل مخيف وغريب الأطوار، فقد أتى من يخبرني بأنه سبق وسلّم ابن عمه إلى الثوار باعتبار الأخير متعاملاً مع أمن النظام! حين واجهته بالمعلومة أكدها «عبدو الرهيب» لدهشتي، أنا الذي كنت أنتظر منه تكذيبها! رد عليّ بجملة واحدة: «أصبع فاسد ويجب قطعه»، وعاد إلى صمته. لكنه بعد دقائق أردف قائلاً لي: «لكني لم أسمح لهم بذبحه... قتلوه بالرصاص».

«عبدو الرهيب» كان الشخص الوحيد من المجموعة الذي شعرت بالخوف الحقيقي منه، كنت أشعر بأنه قد يفعل أي شيء بما أن ذبح إنسان كان أمراً عادياً بالنسبة إليه. سألت «المعلّم» مرة لم أطلق الشباب عليه لقب «قاتل العلويين»؟.

- لا تعرف؟!

- لا واللّه.

- حصلت الحادثة معك حين انضم عبدو إلينا!

لم يخطر ببالي شيء لحظتئذ، فأنا أعلم بأن معظم العلويين الذين كانوا يقطنون «الحجر الأسود» تركوا المنطقة ورحلوا إلى قراهم مخافة الانتقامات الطائفية. حارة كاملة فرغت من سكانها منذ أكثر من سنة، وتُركت بيوتها للريح. كان يسكنها مدنيون وعسكريون ورجال أمن وموظفون وعاملون وطلاب ونساء وأطفال. كنت أعرف العديد منهم، وحفرت أكثر من بئر في أحواش بيوتهم. لكن رجلاً عاثر الحظّ من أهل تلك الحارة عاد ذات مساء إليها!! ألقى الشباب المقاتلون القبض عليه عند بداية الحارة. من خانة الهوية عرفوا بطائفته، لكنهم لم يعرفوا بأنه من سكان «الحجر الأسود». كان على «المعلّم» «أبو علي الفهد» أن يأمر باستدعائي ليسألني عن الشاب، باعتباري أملك علاقات قوية مع ساكني تلك الحارة. عرفته من فوري، كان مدرساً للرياضيات وسبق أن حفرت بئراً في حوش بيت أخيه قبل سنوات قليلة. سلّمت عليه وأخذت يده، كانت يد المسكين ترتجف وفكه السفلي كذلك، وعيناه مليئتان بالرعب. صافحني كأنه لم يعرفني! قلت لهم بأنه شاب جيد وأخلاقي، ولم أر منه إلا كل خير... والجميع يعرف بذلك فسمعته مثل المسك.

حينها قرر «المعلّم» أن يطلق سراحه، وقال له: «لا تعد إلى هنا يا ابني... حظك طيب أننا من ألقينا القبض عليك، لو كان غيرنا من فعلها من الكتائب السلفية مثلاً لكانوا ذبحوك... النفوس فائرة يا

ابني، وطائفتكم مسؤولة عن قتلنا. روح لعند أهلك ولا تعد إلى هنا حتى يفرجها ربك». ثم فكّ وثاقه. تنفس الشاب المرتعب الصعداء، شكر «المعلّم» وهو يقبّل يديه الاثنتين، ثم همّ بالهرب. في اللحظة ذاتها وصل «عبدو الرهيب»، هناك من أخبره بأن الشباب ألقوا القبض على علوي. كان يصرخ من البعيد بأن العلويين قتلوا كل أهله، وقد حلف الأيامين المعظّمة بأنه لن يجد علوياً إلا ويقتله.

صاح المعلّم فيه: «اهدأ عبدو لا تزر وازرة وزر أخرى... الزلمة ما عليه شيء»، وكان الشاب يهرول مبتعداً حين أشهر «عبدو الرهيب» مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات أردت الهارب قتيلاً. رأيت جثة مدرّس الرياضيات الشاب وسط بقعة حمراء راحت تتمدد وتتمدد!!.

مع الزمن راحت حصة «أبو عزيز الكردي» تزداد من المال والغنائم. كان قد عمل في حفر الآبار في كثير من المناطق الزراعية المحيطة بالمنطقة، لذلك فقد اختبر المعابر والدروب السرّية المقفرة شبراً شبراً، ما جعله المؤهل الوحيد بينهم لنقل السلاح القادم إلى مقاتلي «الحجر الأسود». ليس السلاح فحسب ما كان «أبو عزيز» قادراً على تهريبه، بل جملة المؤن والأغراض والحاجيات والمواد الغذائية. كان «أبو عزيز الكردي» يفكّر بأنه بعد أن يسقط النظام سيبني بيتاً في قريته «كوباني» وسيستقر هناك. كان يفكّر أيضاً بأنها الطريقة الأكثر أمناً في حال تمّ تقسيم البلاد، وأخذ الأكراد المنطقة الشمالية الشرقية وضمّوها إلى «كردستان»، سيكون بيته موجوداً حينذاك آمناً ولا تهزّه الريح.

ذات صبيحة أيقظه المعلّم «أبو علي الفهد» بهزّة لكتفه، أخبره بأن شحنة جديدة من السلاح عليه أن يجلبها من الغوطة الشرقية إلى هنا، فالشباب هناك غنموا غنيمة محرزة من إحدى الثكنات العسكرية، وسيدعمون شباب «الحجر الأسود» بجزء منها. في صبيحة اليوم الذي

يليه كان عليه أن يمتثل لأوامر المجلس العسكري في مدينة «حلب» وينطلق بسيارته إلى ريف «حلب» كي ينقل حصة كتيبتهم من الغنيمة التي تم الاستيلاء عليها من جيش النظام، بالإضافة إلى شحنة أخرى من الأسلحة القادمة من خارج البلاد. لم يكن «أبو عزيز الكردي» يُكثر من الأسئلة، يتلقى أوامر «المعلّم» وينطلق للتنفيذ، لم يكن يحبّ أن يتعب ذهنه بالأسئلة والتمحيص والتفكير، كان عليه أن يؤدي مهمته ولا شيء آخر!

إلى جانب شحنة الأسلحة القادمة من «حلب» كان على «أبو عزيز» أن ينقل عسكريين منشقين ينبغي تهريبهما إلى منطقتهما. لذلك دسّ «المعلّم أبو علي الفهد» في جيبه هويّتين شخصيتين مزوّرتين للعسكريين وأوصاه بتوخي الحذر: «اسمك مازال نظيفاً شريكي... لكن ينبغي أن تكون حذراً، هذه أسلحة وعساكر منشقّة تلك التي تنقلها وليست صناديق تفاح!!».

لم ينسَ أن يوصيه في حال شعر بأن قوات النظام ستلقي القبض عليه أن يستخدم قنبلة الرحمة. هزّ «أبو عزيز الكردي» رأسه، وتحسّس قنبلة الرحمة المعلّقة في حزام على بطنه، تلك التي تنتظر نزع فتيلها الصغير لتنفجر وتنهي حياته بطرفة عين. كان «أبو عزيز» يعرف جيداً بأن الانتحار خير ألف مرة من الاعتقال! تلك القنبلة الرحيمة لم تكن تفارق خصره يوماً، يعلّقها بحزامه كل الوقت حتى وهو نائم، وحتى لو كان يغدو لجلب الطعام من أحد مطاعم «مخيم اليرموك»، فقد كان عليه أن يفجّر نفسه مع أية دورية مداهمة قد تعترض طريقهم يوماً. ليس هو وحده من كانت قنبلة الرحمة معلّقة بخصره على الدوام، بل رفاقه المقاتلون قاطبة.

لكن مع الزمن صار المقاتلون قادرين على تصنيع بعض الأسلحة الخفيفة بأنفسهم، صواريخ محلّية الصنع، قذائف نابالم، فقد استطاعوا في نهايات الشهر التاسع من العام ٢٠١٢ أن يسيطروا على

معمل البرادات القريب. اشتركت أكثر من كتيبة في الهجوم من المنطقتين، بعد اشتباكات حامية استطاعوا الاستيلاء كاملاً على المعمل. نقلوا كل البرادات التي فيه، ووزّعوا الكثير منها على أسر من «الحجر الأسود»، نقلها «أبو عزيز الكردي» بالبيك آب وأوصلها واحداً واحداً إلى البيوت المتفق عليها. كان نصيبه براداً ٢٤ بوصة أبيض اللون متلألئاً مع فريزة قريبة من حجمه.

- أحلى هدية للست الوالدة...

داعبه «أبو علي الفهد»!

ثم تحوّل معمل «برادات الحافظ» إلى ورشة كبيرة لتصنيع الأسلحة. راحوا يستخدمون الأدوات والمخارط والآلات التي في المعمل لإنهاء أعمالهم، وخلال أسابيع قليلة تحوّل «أبو عزيز الكردي» من سائق بيك آب إلى مصنّع للصواريخ العشوائية الصغيرة في المنطقة.

- يالله عسى أن تستفيد من سنوات تصنيع آلات الحفر التي كنت تصنعها...

وقهقه المعلّم عالياً.

بيد أن الأسابيع اللاحقة لذلك كانت عصيبة للغاية. فقبل أن تستولي كتائب ثوار «الحجر الأسود» على معمل الكابلات النحاسية ذاك الذي على التخوم راحت الأموال تنقصهم بحدّة. مرّ زمن لم تأتهم أية مؤازرة مادية وكان اعتمادهم الأساسي على الغنائم، لذلك قرر المعلّم «أبو علي الفهد»، بالتباحث مع بعض قادة الكتائب في المنطقة التي تجمعه معهم علاقة طيبة، أن يفرضوا أتاوة على كل بيت في «الحجر الأسود» ليستطيعوا تدبير أمورهم المستعجلة. كان ينبغي على كل بيت، مازال أهله موجودين فيه، أن يدفعوا مبلغاً من المال أو من الأغراض المتنوعة لقاء حماية الكتائب المسلحة لهم. من لم يكن في بيته فتح الثوار بابه واستخدموه مستودعاً أو مكاناً لعيشهم، كما

استخدموا ما فيه. أتاوة من لم يكونوا في بيوتهم كانت بيوتهم نفسها، وكانت البيوت الفارغة أكثر بكثير من البيوت التي مازال أصحابها يغامرون بالبقاء فيها تحت القصف العشوائي، فقوات النظام التي لم تعد تقدر على اقتحام «الحجر الأسود»، الذي يغصّ بالمسلّحين من كل أنحاء المنطقة، راحت تدكّ المنطقة يومياً بالمدفعية والقذائف والصواريخ التي تُلقى من المروحيات!

لكن مئات البكرات العملاقة من الكابلات النحاسية، التي باعوها بأسعار خيالية، استطاعت أن تنقذهم من الضائقة المالية تلك. الاستيلاء على معمل الكابلات النحاسية لم يكن إنجازاً أقل من معمل البرادات، بالسهولة ذاتها والسرعة ذاتها كذلك، ولكن بمردود أكبر بكثير. وبقي «أبو عزيز الكردي» لشهور يتنقل مع المسلّحين في داخل «الحجر الأسود». لم تعد القذائف المتوالية ترعبه كما كانت قبلاً. حين يبدأ القصف يختبئون في قبو أحد الأبنية وفي أوقات الهدوء يغدو إلى معمل البرادات ليمارس هوايته في تصنيع القذائف البسيطة. القصف من الجو يعني أن قوات النظام عاجزة عن الدخول براً إلى المنطقة، وأن المكلّفين بحراسة أطراف المنطقة مازالوا في أمكنتهم صامدين.

- يالله عمي أبو عزيز خلّص شغلك والحقنا على بيت المعلّم.

صاح «عبدو الرهيب» يوماً وهو يبتعد على دراجته النارية، صوتها المثير للأعصاب يغطّي على كلماته. في بيت المعلّم كان التلفاز موصولاً إلى قارئ سيديات DVD، قارئ حديث حصلوا عليه من محل أجهزة كهربائية متطورة في السوق المركزي للحي. التلفاز كان يعيد بثّ الفيديوهات القصيرة التي عرضها قبل وصول «أبو عزيز الكردي» إلى صالون بيت «المعلّم». الفيديوهات تمّ التقاطها لأحد المسلّحين الموالين للنظام في حيّ «الزاهرة الجديدة»، كان يظهر في اللقطات وهو يضرب شاباً على رأسه بعقب البندقية في مدينة

«المعضمية»، ثم وهو يعذّب شاباً آخر بلبطه على وجهه وأعضائه الحميمة بمقدمة حذائه العسكري في مدينة «داريا». فيديو آخر يبدو فيه وهو يقود جماعة مسلحة في حي «الميدان» ويداهم البيوت. وهو يراقب الفيديوهات، التي لا تكاد تنتهي حتى يعود قارئ السيديات إلى عرضها من جديد، كان «أبو عزيز» يتساءل كيف أمكنهم أن يجمّعوا هذه اللقطات كلها للرجل ذاته؟!. اقترب برأسه من أذن «المعلّم» يريد سؤاله. بادره المعلّم قبل أن يفتح فمه: «أعرف عن ماذا تريد أن تسألني!!... انظر بعينيك، شاهد يا أبو عزيز ما فعله عدو اللّه هذا بدون أن تسأل كيف ولماذا! المهم أننا حصلنا على هذه الوثائق لهذا الشبّيح وهو المهم، وينبغي أن نعاقبه على أفعاله الشنيعة مثله...».

لم يضحك «المعلّم» هذه المرة. بدا غاضباً وعيناه تشتعلان بالغيظ. لكنه عاد وهمس في أذن «أبو عزيز»، بعد أن هدأ قليلاً، إن المكتب الأمني التابع للمجلس العسكري الثوري هو من بعثه.

- ربما اشتروه من شبيح رفيق له؟!

تجرّأ «أبو عزيز» وسأل المعلّم من جديد، لكن الأخير بدا كأنه لم يسمع سؤاله.

في ذلك اليوم أعاد قارئ السيديات عرض المشاهد مراراً، حتى أحسست بأن روحي ستصعد من جسدي. كان «شبّيح الزاهرة الجديدة» يقتل، يلبط، يطلق النار، يصرخ، ويتنقل بمشيته المتغطرسة مباعداً ما بين ساقيه وساعديه. في آخر لقطة بدا وهو يمسك بمسدس ويصوّبه على رأس شاب لا يبدو بأنه تجاوز السادسة عشرة من عمره، أطلق مرة واحدة ثم تركه متخبّطاً بدمه قبل أن يرفع يديه عالياً علامة النصر. عند هذه اللقطة بالذات صرخ الشباب الذين كانوا يراقبون اللقطات طوالَ الوقت بصمت، يكزّون على أسنانهم ويشدّون قبضاتهم لكن بصمت. لا أعرف إن صرخت أنا أيضاً لكن حين ندّت صرخات الاستهجان أقفل المعلّم التلفاز. كان موعد تنفيذ الانتقام قد حان.

وحده «عبدو الرهيب» لم يصرخ، بقي على جلسته مسنداً ظهره إلى الحائط في زاوية الغرفة. كنت أراقبه وهو يتربّع في الزاوية ممتقع الوجه ويهزّ القسم العلوي من جسده إلى الأمام وإلى الوراء بدون كلل.

- يالله يا شباب... جاء دوركم للانتقام لأخوتكم من عدو الله الكافر المجرم هذا... عرفتم أين بيته. أبو عزيز أنت ستقود السيارة، وسيذهب الشباب بهوّياتهم الجديدة الآمنة لتستطيعوا المرور على الحواجز النظامية التي تفصلنا عن الزاهرة.. الله معكم ويوفقكم.

ربّت «المعلّم» على كتف «أبو عزيز الكردي»، ثم صافح كل شاب من الشباب الأربعة، الذين كانوا لا يزالون تحت تأثير الفيديوهات التي لم ينسَ منسّقوها أن يظهروا مكان البيت المستهدف في «الزاهرة الجديدة». كانت الخطة تقتضي بأن يدور «أبو عزيز» بسيارته في أرجاء الحي حتى يرى «الهدف» يعود إلى بيته، حينها سيرنّ رنّة من موبايله إلى موبايل «عبدو الرهيب»، ليس من مشكلة في استخدام تلك الموبايلات حتى لو كانت مراقبة، فهي من غنائم رجال النظام. سيتلقى الشباب الأربعة الإشارة ويدخلون الحي على دراجاتهم الهوائية، وإلى الطابق الأخير من البناء المهمل في الجهة الجنوبية من الحي سينطلقون سريعاً، ويأتون بـ«الهدف» تحت تهديد الأسلحة المخبّأة في ثيابهم، وفي السيارة التي يقودها «أبو عزيز» سيقفلون عائدين إلى «الحجر الأسود»!!

- ولا أريد أية تجاوزات سيد عبدو... هل فهمت علي؟

حذّر المعلّم «عبدو الرهيب» للمرة الثالثة.

لكن ما حدث لم يجرِ كما كانت الخطة مرسومة له. مشت تفاصيل الأحداث كما تم الاتفاق عليها حتى صعد الشباب الأربعة إلى الطابق العلوي من البناء. اقتحموا البيت ودخلوا. كان التلفاز مفتوحاً على برامج الأطفال، صبي وفتاة، لا يتجاوزان العاشرة من

العمر، جالسان على الأرض قبالة التلفاز يتابعانه ويأكلان قطع التفاح المقطّع. «الهدف» كان يرتدي شورتاً خفيفاً بيتياً وقميصاً داخلياً أبيض اللون. بدا أشبه برب عائلة منه بقاتل! قيّده الشباب قبل أن يستطيع طلب النجدة، وهمّوا بالنزول من البيت تاركين الصبي والفتاة ذاهلين وحدهما، إلا أن «عبدو الرهيب» بدا متقاعساً عن الالتحاق ببقية رفاقه. كان ينظر إلى الصبي والفتاة بتركيز. صاح أحد الشباب، وهو يهمّ بوضع كيس من النايلون الأسود في رأس «الهدف»، أن يأتي معهم ولا يفكّر بأية فكرة قد تخطر على باله. لكن «عبدو الرهيب» لم يكترث لصراخه، لم يستمع إلى كل النداءات التالية من رفاقه الذين يستحثّونه على المضي قبل أن ينتبه أحد من الجيران لما يحدث. اقترب من الصبي الذي كان ينظر إليه مشدوهاً، أخرج نصله من جيب بنطاله، أمسك بشعره ووضع النصل الحاد على رقبته الصغيرة. الفتاة تنظر إليه بعينين فارغتين ازداد بياضهما، فصاح بوالدها: «العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم». لكنه في اللحظة الأخيرة أغمض عينيه، أنزل سكينه عن رقبة الصبي، ترك الطفلين بسلام ولحق بالشباب.

ضربة من عقب البندقية كانت كفيلة بتغييب «الهدف» عن الوعي ساعات. حملوه، وحملوا معه ثلاثة رشاشات ومسدس، وثلاث شرائح موبايل وكومبيوتر محمول، ورزمة من النقود كانت في أحد أدراج الخزانة.

ظلّ «الشبيح» عندنا في البيت أربعة أيام. سمعت صوت تعذيبه وأنا ممدّد على فرشتي في الغرفة. في وقت ما من سالف الأوقات كنت سأتمزق من الوجع لو سمعت آهاته، اليوم أشعر بأنه لا يستطيع تحريك شيء فيّ. بعد أربعة أيام صمت صوت آهاته وصراخه فجأة، قالوا لي بأنه مات. لم أعرف بالضبط ما الذي حدث لي بعد هذه العملية! بقيت أياماً في البيت! حين استيقظت شعرت بأن شيئاً داخلي صار أكثر صلابة. لم أعد أفكّر بأن أترك «المعلّم» ومجموعته، إلى

أين سأذهب؟! على الأقل كانوا سيفدونني بأرواحهم إن حصل معي شيء.

لكنني رغم كل الأحداث التي تتراكض حولي صرت أشعر بالملل، ملل سقيم. لم يعد لدي الكثير من الهمة لتصنيع القنابل والقذائف. صار الحصار يضيق علينا شيئاً فشيئاً بعد أن انسحب الكثير من الثوار من حي «التضامن» القريب والمناطق المحيطة. الأسلحة التي راحت تأتينا تزداد سوءاً، يمكنني أن أعرف ذلك جيداً فقد وقفت أكثر من مرة على بازار الشراء. كيس الخيش الأخير الذي وصل إلينا في شاحنة محمّلة بالخضار كان مليئاً بالأسلحة والطلقات. معظم الشباب الذين معنا لا يميزون بين سلاح وآخر، وأنا أكثرهم جهلاً بذلك، يعرفون بأنه يطلق الرصاص أو القذائف وهذا كل شيء! «المعلّم» راح يميّز بينهم: «هذا روسي... وهذا تشيكي...»، بعض تلك الأسلحة كانت محلية الصنع أيضاً: صنع في معامل الدفاع. كما قال «المعلّم» لي. لكن من بين كل تلك الشحنة، التي بلغت آلاف الطلقات، لم تكن إلا المئات القليلة صالحة للعمل. كنا ندفع المال أدراج الهواء.

لكنني مللت، وشعر «المعلّم» بذلك. بادرني ذات صباح بأنه سيبعثني إلى أخيه في مدينة «حلب»، ربما انتعش قلبي هناك فالأوضاع مختلفة، والشباب يقضون أوقاتهم في اشتباكات يومية ستسلّي أوقاتي: «الآن صدّقت أنك كردي. لن تشعر بالحياة إلا وسط الحرب!»، قهقه المعلّم قبل أن يكمل بجدية أكبر: «هناك غنيمة أخبرني أخي عنها البارحة. استولوا عليها من مداهمة كتيبة للنظام في الريف... أنت تعرف بأن أخي يقود كتيبة من أقوى الكتائب في حلب، الجميع يحسب لها حساب. ويريد أن يبعث لنا منها قواذف أر بي جي، وأنت تعرف بأننا في أمس الحاجة إليها».

كان شقيق «المعلّم» قد خاض حرباً ثانية إثر حربه مع الكتيبة

النظامية. الحرب الثانية كانت مع بعض كتائب الثوار الأخرى حتى استطاع الاستيلاء على الغنيمة كاملة. كان عليّ أن أتجه منذ الصباح الباكر صوب «حلب»، تلك التي انتقل جلّ عمل الثوار إليها لتخفيف الضغط عن «دمشق»، وهناك سأعرف التفاصيل أكثر. قبل أن أغادر طالعني «عبدو الرهيب» بعينين جديدتين، لا تشبهان عينيه اللتين اعتدت عليهما. قال لي أنه لن ينسى معروفي إن استطعت المرور حين عودتي إلى قريته القريبة من «إدلب» وقرأت الفاتحة على قبري أبيه وأمه.

- تستطيع الوصول إلى القرية فهي من ضمن المناطق المحررة، ليس هناك أي كلب من كلاب النظام هناك.

حاول طمأنتي مترجياً.

أما المعلّم فقد بادر مغيراً مزاج الحديث: «تغيّر وضع الشباب في حلب منذ أن ذهبت إليهم أول مرة. كانوا يشترون بنادق البمبكشن مهربة من تركيا بمبالغ كبيرة، لكن البمبكشن صارت مثل نقيفات لصيد العصافير في حربهم مع النظام. وعدوهم كثيراً بالأسلحة لكن كانت كلها وعوداً كاذبة... اليوم هم مصرّون، ينبغي إقامة منطقة عازلة وإعطاؤهم تسليحاً نوعياً وإلا فإن الأمور لا تبشّر بالخير».

أنهى حديثه قبل أن يدسّ في يدي رزمة من المال من أجل رحلتي القادمة.

(٢٢)

عن ذاك الشيء المرّ الذي اسمه التّهميش

في الشقة اليسرى من الطابق العلوي للبناء أتى مستأجر جديد من «السويداء»، هو «خليل أبو العزم» شقيق «عمران أبو العزم» مستثمر الكافيتريا الأول. أتى الأخير قبل أيام من انتقال أخيه إلى بيت «صفوان الشيخ»، شرب فنجان قهوة وتبادل أطراف الحديث مع أصدقاء قدامى مرّت شهور لم يرهم. أخبرهم بأن أخاه «خليل» سيسكن في البناء، وأوصاهم خيراً به. قال بأن أخاه لم يعد يطيق العيش لا في مدينة «السويداء» ولا في قريته، فالوضع بالنسبة إليه أضحى ضاغطاً. ثم ولج الأصدقاء في نقاشات حادة استمرت ساعات تالية! كان «عمران أبو العزم» يبدو يائساً من حفل الجنون المحيط الذي راح يزداد صخباً يوماً بعد يوم! يصيح في صالون بيت «صفوان الشيخ» بأن الجميع في هذا البلد فقد عقله!

بعد ساعات نقاش طويلة ودّعهم «عمران أبو العزم» قائلاً بأنه قد يغادر البلد قريباً ليعمل في بيروت، وقال أيضاً بأنه سيشتاق إليهم كثيراً، وأوصاهم من جديد بأخيه «خليل».

- يبدو عمران غريباً؟! يائساً ومتخاذلاً كما لم أره يوماً!!

علّقت «مريم محمود» حالما أغلق زوجها الباب وراء ضيفه.

- عمران كان منذ البداية ضد تسليح الثورة. كان يرى بأن السلاح لن يأتي إلا بالمآسي والويلات إلى البلد.

- هل هذا يعني بأننا كنا سعداء بالتسلّح؟ الجميع أجبر عليه!

- هو يرى بأن هناك حلولاً أخرى كان من الممكن أن تكون أكثر نجاحاً.

- وما هي الحلول الأخرى؟!

- لا أعرف حبيبتي... اسأليه! أنا أنقل لك وجهة نظره!

- لست معجبة بها.

- كما تريدين... ارحميني!!

دخل «صفوان» إلى غرفة النوم ليتمدد قليلاً على السرير، فلحقته «مريم»: «يعني هو من جماعة يضربك على الأيمن فتدير له الأيسر؟!».

- يعني هو كان يقول دائماً جملة المسيح الشهيرة حتى إني حفظتها: «أحب أعداءك، واطلب الرحمة لمن يلعنوك، وادع اللّه لأولئك الذين يسيئون معاملتك». حتى إنه طلب من خطاط أن يخطّها له على لوحة وعلّقها في صالة الكافيتريا تحتنا حين كان يستثمرها!

- انشاء اللّه تكون زوجة أخيه ظريفة.

تقول «مريم» فجأة منهية الحديث. «لأني سئمت من الجارات الشبّيحات وذوات الدمّ الثقيل».

اليوم وبعد شهور من تلك الزيارة، وفيما «خليل أبو العزم» يقبع في شقته الجديدة يقلّب في المحطات الفضائية ماداً يده بالريموت كونترول إلى الأمام، حاول أن يفكّر بمقالة ما ليكتبها. أفكاره المشتّتة لم تسعفه. ثمة مأزق حقيقي يقع فيه في كل مرة يمسك فيها بالقلم: عن ماذا سيكتب؟! قصص السوريين وحكاياتهم مسفوحة على صفحات الجرائد والمواقع الإلكترونية والفيسبوك، لن يضيف شيئاً في حال كتب قصصاً إضافية! أما كتابة تحليل سياسي للوضع فقد كان أمراً أكثر تعقيداً وتشابكاً، وليس من السهل عليه أن يفكّ خيوطه أو أن

يكتب عنه، فيتورّط بمواقف قد يندم عليها لاحقاً، أو يكتشف عدم صحتها، هو الذي بقي لسنوات مصراً على الكتابة في حقل الثقافة متعففاً عن حقل السياسة. كان من الصعب على «خليل أبو العزم» أن يعترف، حتى بينه وبين نفسه، أنه لم يعد قادراً على فهم ما يحدث تماماً. كان معزولاً عن قطاعات واسعة من التراب السوري، مناطق كاملة لا يمكنه الوصول إليها ولا معرفة ما يجري فيها. الأمر أشبه بلعبة تركيبية صعبة ومعقدة وليس من السهل تجميع قطعها الكثيرة المترامية، خصوصاً إذا كانت عشرات الغلالات منصوبة أمام عينيك. فيما هو يمحّص في أفكاره، يقلّب قنوات التلفاز واحدة تلو الأخرى، أتاه اتصال إلى الموبايل من رقم غريب. تردّد في أن يأخذ الاتصال، ثم نادى زوجته «سهام» التي كانت ترتّب خزانة غرفة النوم. دفع بالموبايل إليها لتردّ عنه، وإذا كان أحد من أهل القرية فلتقل له بأن «خليل» غير موجود.

- كيف غير موجود والاتصال على الموبايل؟

- قولي نسي موبايله في البيت... بدها ذكاء كثير يعني؟!

صاح «خليل» بنزق ففتحت «سهام» الخط. المتصل كان أحد شباب «تنسيقية الميدان» الذين سبق لـ«خليل» وأن قابلهم قبلاً. فهم من بين كلمات الشاب المشفّرة بأنهم يريدون الاجتماع به. رحب «خليل» بالفكرة، وشعر بفورة من طاقة تعتريه. كان أمراً جيداً اللقاء مع شباب التنسيقية هناك، ربما حمله هذا من مكانه العاجز إلى مكان أفضل وأكثر فاعلية. تمّ تحديد الموعد في مساء الغد.

- إلى متى ستظل تهرب من أقاربك؟! في النهاية لن تنسلخ عنهم!!

تبرمت «سهام» وهي تعود إلى عملها في الداخل. لكن مزاج «خليل» كان قد تعدّل قليلاً إثر الاتصال، لو لم يكن كذلك لكان دخل في نقاش عقيم غاضب مع «سهام»، ولأعاد عليها كل الجمل التي

يقولها عادة عن محدودية تفكيرهم التي يستغلها النظام على أكمل وجه، ولكلّمها عن ضيق أفقهم، عن أن المدينة الصغيرة تولّد عقولاً صغيرة... وهلمجرا. لكنه اليوم ترك قلمه العاجز، وراح يقلّب لمحطات بحثاً عن فيلم أو أغنية ما. ستكون مرّة من المرات القلائل التي سيلاقي شباباً من أوساط الثورة فيها، خارج أوساط المثقفين ونقاشاتهم التي حفظها عن ظهر قلب، ستكون من المرات النادرة الثمينة. جعله التفكير بالأمر ينتعش بالإثارة. كانت «وردة» تغرّد في إحدى القنوات أغنية «العيون السود»، تركها وراح يدندن معها قبل أن ينقطع التيار الكهربائي فجأة.

في مساء اليوم التالي، وهو يجهّز نفسه للذهاب إلى الجلسة، كان «خليل أبو العزم» يفكّر بالذي سيقوله للشباب في «الميدان». سيتحدث أولاً عن مخاطر التسلّح على البلاد ومستقبل الثورة، هذه أهم فكرة سيطرحها، ولن يطرحها بشكل فجّ غليظ، فهو يعرف حساسية هذه المسألة عند شباب المناطق الثائرة اليوم، بل سيطرحها بطريقة أكثر ذكاء ومواربة. كما سيتحدث عن مخاطر انحراف الثورة باتجاه طائفي، وسيتحدث عن أخطائهم كثوار شباب. سيحاول أن يزرع فيهم أفكاره. هذا ما كان يقرره «خليل أبو العزم» ويعدّ له كلمة كلمة وهو غادٍ باتجاههم.

في بيت شبه متداعٍ كان اللقاء. لاقاه شاب عند مفترق الحي، لم يبد مظهره مختلفاً، بدا بالنسبة لـ«خليل» كأي شاب متأنّق يراه في الشارع. أتى المتأنّق به إلى هنا! كانت الغرفة معلّقة على درج حجري عالٍ ملتف، صغيرة تغصّ بالأجساد الشابة وبرائحة العنفوان والنزق والغضب. الجو كان ضبابياً من تكاثف دخان السجائر، وكأس من الشاي الأسود الثقيل أمام كل واحد منهم. قام اثنان منهم ليصافحا الأستاذ «خليل»، أما بقية الموجودين فمنهم من ظل مضطجعاً على فرشات اسفنجية ملاصقة للجدران، ومنهم من رمقه بفضول لكنه بقي

جالساً. لكن الجميع ردّ على سلامه البادئ بصوت واحد: «وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته». أحسّ «خليل» بداية بنوع من الضيق، ونظرات لها رائحة الاستهتار تطلّ من عيون بعضهم. بادره الشاب الذي لاقاه عند مفرق الحي معرّفاً باسمه الأول «هشام». ربما كان اسمه الحركي، فكر «خليل». قال له «هشام» بأنه يرحّب به بالنيابة عن بقية الشباب، فقد كانوا يرغبون منذ زمن في حوار مع مثقف معروف مثله، حوار حول كل شيء، والأهم حوار عما يجري في البلاد من ثورة. شعر «خليل» للحظات بأنه لم يأت هنا ليبثّ فيهم أفكاره، بل إنه دخل للتو تحت قوس المحكمة! وبدأ النقاش.

سأله أحد الشباب، الذي بدا فائراً بغضبه، عن سبب ابتعاد المثقفين بالعموم عن الثورة، ولماذا تركوا الشارع وحده؟!

- لكن ليس كل المثقفين خارج الثورة!

حاول «خليل» أن يجيب، ثم استطرد مسلطاً الضوء على تخوّفات المثقفين ونقاطهم المنتقدة للثورة حين همّشتهم ورمتهم خارجها.

- هل تريدون كروت دعوة للثورة أستاذ؟!

ضحك الجمع. حاول «خليل» أن يضحك أيضاً، لكن الشاب السائل أردف بأن المثقفين تهمّشوا حين لم يستطيعوا تقديم شيء للثورة حتى حفنة من معلومات. أكمل «خليل» عن تخوفات المثقفين العميقة من كل تلك الأخطاء التي وقعت الثورة فيها، فصاح الشاب السائل مقاطعاً: «لا يوجد ثورة بيضاء أستاذ خليل! الناس ليسوا ملائكة». حاول «خليل» أن يقول له بأنهم يواجهون نظاماً أسود، وأن عليهم أن يكونوا بيضاً كأخلاق بديلة عن أخلاقه، فصرخ آخر مقاطعاً: «إن أتى من يغتصب لك زوجتك أستاذ ويحرق بيتك ويطلق الرصاص على ابنك فهل تظل حاملاً لغصن الزيتون؟!».

هنا بدأ «خليل» حديثاً عن الوعي الثوري وضرورته، فقاطعه شاب آخر زاعقاً بأن الشباب الواعين قتلوا، تمّت تصفيتهم، أو اعتقلوا.

والمثقفون يتحدثون إلى الآن بضرورة الوعي الثوري. ضحك الجمع من جديد.

ثوان وهمّ «خليل» بتمالك أجزائه، والبدء في القول الهادئ من جديد، فهو لم يستطع حتى اللحظة إكمال فكرة من أفكاره أو جملة من جمله! حينئذ صاح شاب آخر يعتمر «بيريه» بيضاء ومضطجع في زاوية الغرفة: لو كان المثقفون في الثورة مع الشعب لما ذهب الوعي الذي تتحدث عنه أستاذ.

- الثورة بدأت عامودية وليست أفقية حسب اعتقادي... فهناك... فهناك تنوع طبقي فيها... و...

لم يجذب حديثه الشباب، طفقوا يقاطعونه بأحاديث أخرى، كانوا فائرين، غاضبين، ممتلئين بالعتب، ومقهورين. تساءل «خليل» لثوان إن كانوا قد أتوا به لينتقموا من جمع المثقفين، أم أنهم يمارسون إقصاءهم النزق عليه ليس إلا! قال له «هشام»: «إذا كنتم أنتم المثقفون متخوّفين من أسلمة للثورة فحاولوا أن تحرفوها باتجاهكم بدل أن تجلسوا في بيوتكم وتندبوا انحرافها... أنا من «الكسوة» أستاذ، أبي كان شيوعياً في صفوف حزب العمل الشيوعي وأنا اليوم مع الأخوان المسلمين. تستغرب!! اسألني لماذا؟ ربما أنا لا أوافقهم على أفكارهم، لكنهم وحدهم من بعثوا لنا بالمال منذ البداية. لم يبعث لنا أحد بالمال إلا هم... الكل خذلنا».

- لكن بعث المال لشراء السلاح ليس بالأمر الجيد صديقي، وليس لسواد عيونكم بالتأكيد، لقد ورّطوا الثورة فيما لاطاقة لها به... بالحرب.

- قبل شهور بعث الأخوان المسلمون بحوالي مئة شاب من كل سوريا إلى تركيا ليتدربوا على العمل الإعلامي، منهم شباب أعرفهم جيداً... درّبوهم على كل شيء ثم أعطوهم معدات كثيرة، كاميرات وكومبيوترات محمولة، أجهزة بث وأجهزة إنترنيت، وأشياء لا أعرف

منها شيئاً!! وهاهم اليوم يعملون كما لم يعمل أحد. لمَ لم يقم أي فصيل آخر بشيء مشابه؟!!

- لأنهم يريدون الركوب على الثورة، استغلالها، جني أرباحها ليسيطروا ما بعد الثورة!!

قال «خليل» بغضب وقد انتقل نزقهم إليه.

- ربما، بل بالتأكيد، ولكن هل تعرف لا يعنيني إن سيطروا بعد الثورة، ما يعنيني اليوم ألا يموت الشعب والناس تتفرج عليه وهو يقتل ولا أحد يساعده... ليستثمروا كما يريدون ولكن ليساعدونا اليوم، والغد له ربه... ربما أستشهد أنا في الغد، ورفاقي ربما يستشهدون. كلنا نحمل أرواحنا على أكفّنا كل صباح!!

ثم أردف «هشام»: أنا لم أكن أصلي، بعمري لم أصلِ، لكن هذا الموت اليومي حولي جعلني أصلي، أستجير باللّه عسى أن يكون إيماني به طريقاً للخلاص... ليس هناك الكثير من الأمل أستاذ، إيماني باللّه يقويني.

أراد «خليل أبو العزم» أن يقول له بأن غياب العقائد والانتماءات السياسية، العنف وغياب الأمل، يجعل من الدين هو الخلاص، وأن الغد مهم كما هو اليوم، بل إن اليوم هو الذي يمهّد للغد ويطبعه بطابعه، وهذا ما يقوله التاريخ!

لكن «هشام» اعتذر في منتصف الحديث لأن صلاة العشاء اقتربت وسيذهب للوضوء، وذهب.

شعر «خليل» بأنه محاصر بعشرات العيون السائلة المتهمة والغاضبة. كان الشباب غاضبين من كل شيء: من المعارضة ومن الموالاة، من المثقفين، من السياسيين، من نجوم الإعلام، من الأقليات، من النظام، من «الشبيحة»، الصفة التي يطلقونها على كل موالٍ للنظام، ومن العالم بأسره. وحده الموت كان رفيقاً مرحباً به.

انبرى شاب ملتحٍ، لم يتحدث قبلاً، بكلام عن نجوم المعارضة

الذين يبنون مجدهم على حساب دماء الشهداء وويلاتهم، ولم يخدموا الثورة إلا بالكلام، حتى كلامهم ينزل أحياناً على مسامع الناس كالنار المحترقة. نجوم ثورة، يسطع نجم معارض ليخبو، ويسطع نجم آخر فيخبو من جديد وهكذا...

لحظتئذ يرنّ موبايل «خليل» بأغنية سميح شقير «يا حيف»، فيتركه ليرنّ قليلاً كي ينتبه الشباب إلى الأغنية التي يضعها. لكن لم يظهر بأن الشباب مهتمون للأمر! كانت زوجته «سهام» تبكي على الطرف الآخر من الخط، من بين شهقاتها أخبرته بوفاة ابن أخته «معتصم زين الدين».

كان «معتصم» شاباً في الثلاثين من عمره، يسكن مع أهله في «جرمانا»، ويعمل سائق تاكسي. اليوم صباحاً خرج من «جرمانا» للعمل على التاكسي كعادته. أوصته أمه بألا يغادر المنطقة، ووعدها بأنه لن يخرج خارج حدود «جرمانا»، فدعت له بالخير وخرج. لكن حينما أغراه ذاك الرجل، الذي أوقفه عند مفترق «كرم الصمادي»، بخمسمائة ليرة لقاء توصيله إلى بلدة «كفربطنا» القريبة نسي «معتصم» وعوده وقرر الذهاب. «نصف ساعة في أقصى حدّ وأكون في «جرمانا» من جديد». لكنه لم يعد بعد نصف ساعة من «كفربطنا». قُتل هناك ورميت جثته في إحدى الحقول المتطرفة.

عند المساء وصلت جثة «معتصم زين الدين» مع معلومة بأن ثوار كفربطنا» قتلوه هناك لأنه درزي من «جرمانا». جنّ جنون شباب لعائلة. أخرجوا الأسلحة المخبّأة في البيوت، وانضمّ إليهم بعض شباب اللجان الشعبية، الذين راحوا يستحثّونهم للأخذ بالثأر. ركبوا في السيارات وتهيؤوا للذهاب إلى «كفربطنا» كي يأخذوا بثأر ابن عمهم.

«خليل أبو العزم»، الذي هرع فور سماعه الخبر إلى بيت أخته، رأى الغضب الهائج يتوالد بين شباب العائلة المجتمعين عند باب

البيت. حاول أن يهدئ من هياج الجمع، لكن أحداً لم يسمع كلمة مما قال!

ثم للتوّ وصلهم خبر مغاير يقول بأن شباب «كفربطنا» يؤكدون لعائلة القتيل بأنه قتل أمام الحاجز الأمني للنظام المنصوب في أول البلد، ولم يُقتل داخل «كفربطنا» بيد ثوارها. كان ثمة فيديو مصوّر على موبايل مرفق مع الخبر الذي حمله أحد رفاق «معتصم»، يبين الفيديو «معتصم» وهو ممدد والدم يسيل منه أمام حاجز للقوات النظامية! هدأ غضب شباب العائلة قليلاً، عاد بعضهم إلى الداخل يتناقشون بالأمر ويمحّصون في الفيديو. في النهاية لم يعرف أحد حقيقة ما جرى، فالشائعات تعمّ البلد منذ شهور، والقبض على الحقيقة أمر أشبه بمعجزة.

- الدم بعمره لم يحل بالدم يا شباب.. اهدؤوا ودعونا نفكر.

كان «خليل أبو العزم» مايزال يصيح وحده فيما الشباب متشاغلون عنه.

وحدها الشائعات كانت سيدة الموقف وحاكمته. قيل في البلد بأن «معتصم زين الدين» قُتل بالسكاكين وقطّع تقطيعاً، وراحت قصص تنتشر عن رسائل تهديد لكل شباب «جرمانا» بمصير مشابه لمصير «معتصم» إن لم يلتحقوا بصفوف ثوار الغوطة. قيل وقيل، وتناقل الناس الشائعات وتهامسوا وتناقشوا. وحدها جثة «معتصم زين الدين» الشابة والمسجاة على طاولة في منتصف صالون بيت أهله، تلك الرصاصة المستقرة في عنقه، ودموع أمه الثّكلى وندبها على شبابه الضائع، الحقائق الوحيدة في كل ما حدث.

«خليل أبو العزم» عاد إلى شقته المستأجرة بعد ليل طويل ومتعب. جلس وحده بعد أن استغرقت زوجته «سهام» في نوم مُنهك ثقيل. كانت الأفكار السوداء تتناهشه، تأكله، وتقلقه. بكى وحده على ابن أخته اللطيف، تذكر طفولته وضحكته وتفاصيل علاقتهما

المشتركة، بكى وبكى، ليس لأنه فقد «معتصم» فحسب، بل لأن كل ما مرّ عليه جعله يرى القادم أكثر سوداوية وضبابية مما مرّ. كلماته تتبدد دوماً في الريح، لا أحد على استعداد لأن يسمع صوت العقل الذي يشعر بأنه يمثله. «لا صوت للعقل في خضم كل هذا الجنون!». يهمس لنفسه كي يقنعها كلما نسي.

بعد أيام حينما كان «خليل» يقف في طابور طويل أمام مركز توزيع أسطوانات الغاز في «جرمانا» كان يفكر بالعجز الذي مافتئ يحاصر روحه. وجوه المئات من الرجال والنساء التي تصطفّ وراء بعضها بعضاً تنبئ بالقهر والتعب. شمس الظهيرة الصيفية سياط تلسعهم، وذلّ الوقوف منذ ثلاث ساعات للحصول على أسطوانة غاز يجلدهم. تذكّر ابن اخته «معتصم» وأحسّ بحرقة في عينيه وأنفه. الجميع كان يعبّر عن خوفه من أن تنتهي الأسطوانات الموجودة في المركز قبل أن يأتي دورهم. من حصل على اسطوانته كان يخرج من الطابور وعلائم الانتصار تتناثر من عينيه، كأنه عثر على الكنز المدفون. فجأة وقفت سيارة أمنية بجانب الطابور، نزل منها رجل يرتدي لباس الجيش المموّه ومعه ثلاثة عساكر تتبعه. اتجه إلى أول الطابور، صاح بالذي يبيع أسطوانات الغاز أن يعطيه ثلاث اسطوانات بسرعة لأنه لا يمتلك فائضاً من الوقت. أحد الكهول، الذي كان يقف بظهر محني في الطابور، صاح بأن عليه أن يقف في الدور لأن ساعات مرت عليهم وهم ينتظرون دورهم، ولا يعقل أن يأتي هكذا ويأخذ ما يريده بدقائق!! ما كان من رجل الأمن ذي اللباس المموه إلا أن أخرج مسدسه من حزام بنطاله وأطلق في الجو رصاصات ثلاث، كانت كفيلة بجعل الطابور كله يتشظّى في أرجاء المكان خلال ثوان. أطلق شتائمه بصوت عالٍ على كل من يقف في الطابور، سبّ أمهاتهم وزوجاتهم، زعق بأنهم شعب لا يستحق الحماية، هو يقضي أيامه

ساهراً على حمايتهم من الإرهابيين القادمين من الغوطة وهم يستكثرون عليه اسطوانه غاز تافهة!! ثم صاح على البائع أن يعطيه الأسطوانات بسرعة، حملها أحد عناصره المرافقة، ووضعها في السيارة التي انطلقت بهم بعيداً.

شيئاً فشيئاً التم جمع الطابور من جديد. الكهل الذي قال «لا» كان وجهه محتقناً محمرّاً، والعيون معلّقة فيه تعاتبه. «خليل أبو العزم» عاد كذلك إلى دوره في الطابور، شعر بأن الدموع تخز أنفه وعينيه، وغصّة قاسية عالقة في حلقه. ثم انطلقت نغمة تنبئ بوصول رسالة إلى موبايله، فتحها فكان نصّ الرسالة: «سننيك أختك وأمك يا منيك، وأخت وأم كل معارض في هذا البلد. لوطيين عراعرة. سدّ تمك بصرماية أحسن ما تخسر حياتك».

(٢٣)

عن تلك الذاكرة التي انحفرت في الروح

«كنت ألمس اللّحم الطري بيديّ، أشعر بدفئه على الرغم من القفازات البلاستيكية التي أرتديها. يداي ترتجفان مع إني لطالما غسّلت الموتى منذ أكثر من عشرين عاماً. بقع الدم المتخثّر التي تلتصق بقفازاتي تبدو أشدّ حمرة منهما. أكاد ألمس لزوجة الدم! اللحم الطريّ كان لرضيع لم يتجاوز شهره التاسع. واللّه لا يتجاوز الشهر التاسع يا أخي! كبة لحم تصفع وجداني بحب مؤلم. وقعت في حب هذا الرضيع مع أن نصف وجهه ذهب في ثقب رصاصة. الباقي منه كان ينبئ بملاك كنت سأعشقه لو أخذته بين ذراعي يوماً، وراح بكاغي وتسيل ريالته على يدي. الرضيع الذي يليه لا أعتقد بأنه بلغ سنة من عمره. مددت إصبعي في فمه أريد تطهيره قبل التكفين، د ارتطمت بشيء قاسٍ مدوّر، حبة سكاكر مازالت في فمه، أخرجتها وكانت حمراء ثم حشوت قطع القطن مكانها. حاولت أن أخبئ وجهي من وجوه الناس المحيطة بي... واللّه عيب، تخيّل يا أخي يا أبو ليلى»، أنا الذي أغسّل الموتى منذ أكثر من عشرين سنة، واللّه عيب البكي هلق! بس ما قدرت. كان البكاء والصراخ يصلني من الخارج. شو ذنب الأطفال... شو ذنبهم؟! الناس حولي تأتي وتذهب، فقد كنا في غرفة من غرف المسجد. لم يعد من مكان يتّسع لكل هذه الأجساد المسجاة إلا باحة المسجد. واحد يبسمل وواحد

يحوقل، واحد يقول اللّه يرحمهم، وواحد يدعو على القتلة المجرمين. واحد يتوعد بالثأر وواحد يشتم. تسعين جثة كفّنّا في ذاك اليوم. تسعين إنساناً من مدينتي «الحولة»، رحلوا في ذلك اليوم الأسود من شهر أيار، اللّه لا يعيده... لكن أجساد الأطفال كانت شيئاً مختلفاً. منهم من لم يبلغ السنة!! واللّه لم يبلغوا السنة. أفواههم كحبات الكرز بدون أسنان، أيدي صغيرة، أرجل ناعمة، وجوه كالملائكة. بيد أن سروال الصغيرة تلك، المبلّل ببول الخوف، جعلني أرتجف، ارتجفت غصباً عني واللّه. جاهدت لأخفي رجفاتي عن عيون العالم. كنت أقلّبها وأتخيّل ما مرّت به قبل أن تصعد روحها إلى باريها... يا ربي دخيلك، أدعو لربي أن يخلّصني بسرعة، يحميني من هذا العذاب الذي لم أشهد مثله.. لكن من كان يتخيّل أن يمرّ يوم الجمعة هكذا، من كان يتخيّل؟!! صوت القصف منذ الصباح يصلني وأنا مختبئ في القبو. قصف شديد لساعات وساعات، واللّه لا أعرف كم استمر! ثم هدأ القصف وخرجنا. كان هناك امرأة تهرول من بعيد وتصرخ بأن هناك مجزرة على طريق السّد. كانت تصرخ بجنون، وهرولنا إلى هناك إلى الطرف المقابل، هرولنا كلنا. لم أتخيّل أن أرى ما رأيته لا واللّه. رائحة الحريق تملأ الجو. كان شجر الزيتون محروقاً على جانبي الطريق، هياكل سوداء متفحمة كانت أشجاراً فيما مضى. الشارع فارغ تماماً وأبواب البيوت مفتوحة. هناك بيوت مازال الدخان يتصاعد منها، وظلت رائحة الدخان في أنوفنا حتى بعد أن أقبل الليل. دخلت على أول بيت في وجهي. يا لطيف يا أخي يا «أبو ليلى»... يا لطيف يلطف بنا ويجيرنا على اللي شفته. نسوان مدبوحة وولاد... جثث ودم دم. صرنا نحمل هالجثث ونرمي في السوزوكيات. كنت أشيح بوجهي وأحمل كي لا أُبصر أكثر. أغلق أنفي وأحمل، كي لا أشمّ...».

وسكت «أبو محمد».

كان يحكي لـ«أبو ليلى» وزوجته «فاديا محمود» ما حدث خلال فترة غيابهم في «دمشق». فلم يكن قد مرّ زمن طويل على مجزرة «الحولة»، بضعة أيام قليلة حينما عاد «أبو ليلى» وأسرته إلى مدينة «حمص». الأخير راح يشتم القتلة ويستغفر ربه، ثم فكّر ماذا يملك الأطفال الشهداء من ذكريات يحملونها إلى ربهم؟! لا شيء، لا ذكريات ولا ذنوب، إنهم ناصعون كالثلج، ربما لهذا هم هانئون الآن في الجنة. وتذكّر أخاه «أبو الليث» فنظر في فضاء الغرفة كعادته باحثاً عن روحه التي ربما مازالت تلازمه! أم أنها انتقلت إلى السماء الآن؟! فيما كانت «فاديا» تمسح دموعها وتدعو اللّه أن ينتقم من المجرمين.

كان «أبو محمد»، الذي يمت بقرابة بعيدة لـ«أبو ليلى»، آتياً للتعزية بوالد «فاديا» الذي توفي في بيته قبل أيام. نزلت شظية من النافذة، كسرت زجاجها واستقرت في جسده وهو نائم على فراشه. رحل كما يتمنى جلّ الناس وهو نائم، لكن كما كره هو وظلّ يدعو ربه ألا يموت في فراشه عجوزاً مقعداً. أما «أبو محمد» فقد غامر بحياته هذا الصباح ليقطع المسافة من بيته إلى هنا ليقدّم تعازيه!

«مريم محمود» كانت وحدها في الغرفة الداخلية حيث كان والدها ينام حين غادرت روحه. كانت تتذكره وتبكي. لم يرضَ ذاك العجوز العنيد أن يغادر البيت أبداً، ظل وحده مع المربية التي كانت تخدمه. قال لابنته «فاديا»، وقت قررت الهرب مع عائلتها إلى «دمشق»، «اذهبوا أنتم يا ابنتي، اذهبوا اللّه يحميكم. أنتم شباب والحياة أمامكم، أما أنا فماذا؟! عجوز مقعد عالة على البشرية. الشباب تموت كل يوم بالمئات، وأنا مازلت على قيد الحياة... اذهبوا وادعوا لربكم أن يطعمني الشهادة بدل هذه العيشة المقرفة... ذهبوا اللّه معكم...».

مسّدتُ سرير أبي، وكانت الصورة تتضبّب أمامي، ربما بسبب من دموعي التي لا ترضى التوقف! ضوء النهار الآتي من الخارج يزيد

من ضبابية المكان فقطعة النايلون التي تغلق النافذة، بدل زجاجها الذي تهشّم، متّسخة مجعلكة، وثمة أغصان محروقة من الشجرة القريبة تخزها. كنت أفكّر بأن ذاك الماضي العتيد الذي عاشه أبي انتهى نهاية بشعة، نهاية صغيرة لا تتناسب واتساع ما كان!

تمنيت لو أنه رحل قبل أن يرى مدينته تتدمّر، وتتدمّر معها ذاكرة عمرها أكثر من ثمانين عاماً. ما المرء دون ذاكرة؟! والآن تغيب كل تفاصيل المكان التي تحمل تلك الذاكرة وتحفّزها أو تحميها من العدم! العدم وحده ما يلفّ البلاد اليوم. الأمر شبيه باقتلاع قلب إنسان وهو حي!! لا يختلف كثيراً، كان أبي قد تم انتزاع قلبه قبل أن تخترقه الشظية بزمن.

لم أتخيّل أن يتحول حيّ طفولتي إلى ما هو عليه الآن!

مدرسة «حميدة الطاهر» لا تشبه نفسها قبل أشهر، وتبدو الصفوف موحشة معتمة من خلال الفجوات السوداء في الجدران! شارع «جامع وفائي» مليء بالسيارات المحروقة المشلوحة، ومعظمها لا يكاد يظهر لونها الأساسي، إلى جانب أكوام الزبالة المتراكمة على ناصيات الشوارع! صمت غريب في الحي، مهجور كئيب تنتهكه أصوات أغنيات فرحة آتية من مسجلة عالية في مكان ما قريب. قال لنا واحد من المارة المسرعين بأنها آتية من إحدى بيوتات الحي التي سكنها عناصر النظام! حين تصمت المسجلة لدقائق تكحّل العصافير الصمت بزقزقاتها. ما الذي تقوله العصافير؟! ولم بقيت بعد كل هذا الجحيم حولها؟! أكاد أشعر بأنها تكاثرت كثيراً عن ذي قبل! ربما كانت مشكلتها مع البشر وليس مع القنابل والدخان؟ رحل البشر فأتت! هل كان أبي يتحسّس كل ذلك؟! هل كان يرى إلى مكانه الذي انتهك؟! هل كان يرمق بوابة بيته وهي مخلّعة مكسّرة كأن دبابة مشت فوقها؟!

أخي «مصعب» لم يتمكّن من القدوم إلى الجنازة. اتصل بي إلى تلفون البيت الأرضي في مساء رحيل والدنا، قال لي بأنه في مكان

بعيد ولن يستطيع القدوم! قال لي كذلك إنه بخير، وإنه اشتاق لي كثيراً، وإنه يحبني كما لم يحبّ أحداً، ثم رمى في وجهي كتلة نار ملتهبة حين سألني أن أتمنى له الشهادة! صرخت هلعة: «الشهادة لا... اللّه يخليك بقوتك لتدافع عن البلد، إذا استشهدت شو رح نستفيد؟!». لم أستطع زجر نفسي، كنت أصرخ وأبكي كمجنونة، حتى إن «فاديا» أتت مشعّثة الشعر إليّ وقد ظنت بأنه خبر موته! أردت أن أخبره بأنني حامل، وبأني سعيدة للغاية فقد عرفت بذلك قبل أيام، لكني لم أتوقف عن البكاء، ثم انقطع الاتصال فجأة، وغاب صوت «مصعب».

بعد لحظات من إغلاقي للسماعة فكرت بأن أسمّي ابني، إن أتى صبياً، «مصعب»، ثم نفضت الفكرة من فوري، أحسست بأنه سيكون فألاً سيئاً على حياة أخي! ودعوت اللّه أن يحفظه.

بعد صمت دام لدقائق يقول «أبو محمد»: «لا أظن أن الحياة بعد هذه المجزرة ستعود كما كانت قبلها، كأنها مفترق طريق.. لا أعرف! أحسّ بأنها فتحت بوابات جهنم، ولا أعرف كيف لهذه الناس أن تنسى. ما ممكن تنسى أبداً!! أفكر كيف سنرجع لنعيش سوية، جنباً إلى جنب مع الذين قتلوا أولادنا؟ صعبة كتير... كيف العالم سيرجع مثل العالم؟! صعبة كتير كتير». يهزّ «أبو ليلى» رأسه، قبل أن يكمل «أبو محمد» حديثه عن الفاقة التي صاروا يعانون منها، فالفقر راح ينشب مخالبه في لحومهم: «واللّه يا أخي يا أبو ليلى البارحة لم يكن لدينا شيء لنطعم الصغار.. لا شيء واللّه.. هذا الحصار سيقتلنا».

يهزّ «أبو ليلى» رأسه مجدداً: «كل العالم محتاجة يا أخي... كلها. الأوضاع صارت لا تطاق فعلاً!!»، ثم أردف بغضب: «المعارضة تقبض المال على اسمنا، وحمص المحاصرة تغرق في الجوع».

- اللّه ينتقم منهم...

ردّ «أبو محمد» بالنبرة ذاتها.

- سننتقل إلى دير بعلبة بعد أيام أخي يا أبو محمد... بيت أخي الشهيد أبو الليث خالٍ، والأمور هدأت قليلاً كما يقولون! سنذهب لنسكن بيته، وربما أعدت ترتيب أموره وأشغاله التي تركها خلفه. عمي الختيار رفض ترك بيته ومات معززاً فيه، وأنا أهرب كفأر من مكان إلى آخر!! لا واللّه لن أهرب بعد اليوم!!

بجانبهم كانت الصغيرة «دلع» تنصت إلى تفاصيل الحديث وهي تكمل رسم لوحة بدأتها في بيت خالتها بـ«دمشق». كانت منهمكة في التلوين بأقلام خشب جديدة اشتراها لها زوج خالتها «صفوان الشيخ»، تحرّك يمناها بانفعال، بوجه محمرّ ولسان خارج فمها. اللوحة تصوّر رجلاً جسيماً يرتدي لباس الجيش ويطلق النار من بندقيته المصوّبة على طفل أمامه، الدم يخرج من صدر الطفل نقاطاً متّصلة. بالقلم الخشبي الأحمر راحت «دلع» تطمس البركة القانية المتشكّلة تحت جسد الطفل القتيل علّها تعطي اللون المطلوب! تطمسها وتطمسها حتى انخزقت الورقة من حركة القلم الملحّة!

بيد أن «أبو ليلى» لم يكترث لرجاءات «مريم» وزوجها، فقد كان قد قرر العودة إلى «دير بعلبة» وليس من قوة في العالم قادرة على ثنيه! «أموت بكرامتي في بيت العائلة ولا أغادر حمص أمتاراً... لمن نترك أرضنا لأعداء اللّه ليحتلوها؟! لا واللّه!!»، أكّد مشدداً على مخارج حروفه.

«فاديا محمود» كانت تراقب دموع أختها وتبكي بدورها، فلم يكن الأمر سهلاً في النهاية: أن تذهب بقدميك إلى حتفك! لكنها لن تترك زوجها بأية حال، سيكون موقفاً مقززاً منها. قالت لأختها وهي تحاول تهدئتها.

في الشهور القادمة ستعيش عائلة «أبو ليلى» موتها اليومي المرتقب. سيستيقظون كل فجر على أصوات الصواريخ، وينامون على

انفجارات الهاون ولعلعة الرصاص! لن يخرج «أبو ليلى» من الحي، سيظل قابعاً مع جيرانه أمام الأبواب وبين الأزقة! وسيقضي كل الوقت قابضاً على رشاشه بيديه. الدمار سيطول كل الأحياء المحيطة، وسيبدأ بالامتداد إليهم مسرعاً كألسنة النار. ستحاول «فاديا» التواصل مع أختها عبر السكايب، عبر النت الفضائي الذي سيدخله شباب الحي إلى المنطقة. ستبتسم لها لا غير! ستبتسم طوالَ الوقت محاولة أن تطمئنها. لن تخبرها بأن كل ما بقي لهم من مؤونة بضع أكياس صغيرة من البرغل والعدس، وأن جلّ جوالات الطحين التي كانت في مستودع المخبز قد نفدت! وأن دخول الأشياء الأخرى أضحى مستحيلاً وسط حالة الحصار التي تطبق على المنطقة.

في يوم قادم ستبتسم على السكايب كالعادة، ولن تخبرها بأنّ ماء الآبار الذي يجمعونه أضحى قليلاً، وأن الشتاء سيأتي بدون كهرباء ولا تدفئة، وبأن أسرة من الحي تسمّم أفرادها حين شربوا من أحد الآبار القديمة المنسيّة، وأن «أبو ليلى» يلمّ قطع الأخشاب مع بقية شباب الحي ليستخدموها كحطب للتدفئة!

- يعني حالنا أفضل من حال حمص القديمة اختي؟!

- ودلع لم تذهب إلى المدرسة حتى الآن؟!

- لا... ليس هناك مدارس تستطيع الذهاب إليها!

- لم لا تأتين حبيبتي إلى هنا؟! كل العوائل تبعث بأولادها ونسائها بعيداً، ودلع ينبغي أن تذهب إلى المدرسة وأن تبقى في أمان، هذا أهم من البيوت والأراضي التي تبقون فيها لتحموها... البشر أغلى من الحجر يا أختي!!

ستصيح «فاديا» فجأة بأنها لم تعد تسمع «مريم»! «نتكلم لاحقاً يا أختي»، وستقطع الاتصال. أما الصغيرة «دلع» فستصيح: «مشتاقة للفرّوج اللي كنت تطبخيه خالتي...». لكن الخالة لن تسمع!

في الوقت الذي كان «أبو محمد» يمسح عينيه النديتين أمام

صديقه «أبو ليلى» في حي «الإنشاءات» بـ«حمص» كانت عائلة العميد «بهجت حسون» مازالت في «دمشق»، وقد نقلت كل الأغراض إلى السيارة المركونة أمام باب البناء في «جرمانا»، وتهمّ بالانطلاق في سفرتها الأخيرة من العاصمة «دمشق» إلى مدينتها الساحلية «جبلة».

تفجيرا «القزاز»، اللذان حدثا صباح العاشر من أيار ٢٠١٢ أمام مبنى «فرع فلسطين»، كانا الفصل في قرار العميد «بهجت» العودة إلى بلده بعد طول تردد.

لم يكن يفصله عن التفجير الأول إلا ثلاث دقائق تقريباً، ارتجّت سيارته وسقط الزجاج الأمامي عليه وعلى السائق. أما ولداه «مي» و«علي»، اللذان كانا في المقعد الخلفي للسيارة، فقد تلقّيا الخدوش الأكبر من شظايا الزجاج الخلفي، لأن الانفجار أتى من ناحيتهم. خدوش صغيرة تلك التي أصيب بها «بهجت حسون» في جسده، وشيء عميق عميق تخلخل داخله وتهشّم نتفاً.

ثم ما لبث التفجير الثاني أن أرعد من جديد بعد دقيقة. رأى بعينيه سحابة الدخان القاتمة العملاقة، أجساد البشر المنتّفة تتعالى في السماء، رآها بوضوح، الحرائق والسيارات المتطايرة وشظايا البيوت. كما اشتمّ رائحة الموت كمارد غاضب خرج عنوة من قمقمه. للحظات أحسّ «بهجت حسون» بأن القيامة ولا بد قائمة، ثلاث دقائق فصلته عنها وأطالت عمره إلى أجل لا يعرفه. كان يصرخ على ولديه ليطمئن بأنهما مازالا على قيد الحياة. نشيج «مي» المرتعب كان كفيلاً بطمأنته، لينزل وهو يرتجف من سيارته، ويتهاوى على إسفلت الطريق.

كان ثمة باص مدرسة مليء بالتلاميذ واقف وراءه. فصلت راكبيه من الأطفال دقائق أيضاً عن حتفهم وتحولهم إلى أشلاء متفحمة. كانوا يراقبون السحابة المتضخمة السوداء بعيون جامدة مبحلقة، والمعلّمة تنوح على باب الباص الذي تكسّر كامل زجاجه.

«جرمانا» التي لا تبعد عن تفجير «القزاز» إلا كيلومترات قليلة ستفاقت على صوته العظيم. «سميرة السليماني» هرولت كالممسوسة في أرجاء البيت، حاولت الاتصال بموبايل زوجها لكن الاتصالات مقطوعة. ومن على الشرفة كانت جموع البشر تتراكض بين الحارات. نزلت بروب نومها حافية إلى الشارع، رائحة البارود تملأ الجو المحيط وتنبئ بالأسوأ. زوجها وابناها على الطريق الآن. راحت تتخيّل أبشع الصور التي من الممكن أن تحدث وهي تركض باتجاه التفجير. تدعس حجارة الأرض دون أن تشعر بوخزها! أصوات سيارات الإسعاف راحت تتناهى أكثر وضوحاً، الناس مافتئت تركض في الشوارع. سيارة سوزوكي تمضي مسرعة ومحمّلة برجال إلى مكان الانفجار، لوّحت «سميرة» لهم وصعدت معهم. لم ينتبه أحد بأنها حافية وبروب النوم زهري اللون. كانت كل الدروب مغلقة بسيارات الجيش والأمن والشرطة. سحابة دخان أكبر من الخوف تتعالى وتتكثّف. نزلت «سميرة» من سيارة السوزوكي تحاول الولوج إلى المنطقة المحاصرة، فأوقفها رجل يرتدي لباس الجيش. كانت تصرخ بأن زوجها هناك وابنتها وابنها... تصرخ وتصرخ.

سائق سيارة السوزوكي حملها شبه غائبة عن الوعي وعاد بها إلى الحارة.

بعدما يقرب الساعة عاد العميد ومعه «مي» و«علي» إلى البيت معفّرين بالغبار والخدوش، فألفيا «سميرة» ترفل في الحارة مشعثة الشعر كأنها هاربة من مستشفى للأمراض العقلية.

لكن «مي حسون» لم تقدر أن تقتنع بأن جماعة صديقتها الحبيبة «عائشة الحبال» هم الذين قاموا بالتفجير، كما كرر أخوها «علي» طوالَ الأيام التي تلت. كانت الصور تتوالى عليها طوالَ أيام، الإعلام الرسمي يتّهم الإرهابيين المسلحين المتطرفين وأعداء الوطن، ثم يقول بأن جبهة النصرة أعلنت مسؤوليتها عن التفجير.

«لكن «عائشة» لم ولن تكون منهم يوماً!! ما علاقة «عائشة» بجبهة النصرة تلك التي يقول التلفاز بأنها المسؤولة عن التفجير؟!»، تصيح «مي» في الصالون، فيهمّ «علي» بالهجوم عليها، لكن والده يمنعه، يحاول أن يكون أكثر هدوءاً مع ابنته التي بدت غريبة الطباع وهي ترفع صوتها في المرّات القلائل في حياتها.

- يا ابنتي، يا حبيبتي، كلهم متعاونون مع بعضهم بعضاً. حتى لو لم يكونوا متعاونين فأفعالهم تأتي بالإرهاب... الآن جبهة النصرة تعاون المسلحين المعارضين في حلب وإدلب، وهناك اثباتات على ذلك.

- لكن يا أبي ما علاقة عائشة بالأمر؟!

- اسمعي ما أقوله لك ولننه هذه النقاشات العقيمة. كلهم متشابهون... يكرهوننا.

ينهي العميد كلماته ويعود لمتابعة الأخبار. لكن «مي» تبقى مقتنعة: ليس من الممكن لعائشة أن تمتّ بصلة لأي شيء يقترب من جبهة النصرة هذه!

- كم كنا مغشوشين فيها هذه البنت!

تقول سميرة متحسّرة: كنت أحبها كابنتي!!

ظل العميد «بهجت» يردد طوالَ أيام بأن الإرهابيين الذي خربوا البلد كادوا يقتلونه وأولاده كما قتلوا مئات السوريين الذين كانوا في منطقة «القزاز» يومذاك. وفي المساء التالي وافاهم «فاطر السليماني» بخبر أليم بأن رفيقه «أبو حسن» سقط شهيداً في تفجير «القزاز» مع ثلاثة من عناصره، وكان لسوء حظه ذاهباً إلى «فرع فلسطين» ذلك اليوم. زفر «فاطر» حزيناً.

- اللّه يرحمه... خدم الوطن طوالَ حياته!!

يعلّق العميد «بهجت»، وتمسح «سميرة» عينيها المغرورقتين بالدموع.

- أبو حسن كان صديقي الحميم، علاقتنا صارت قوية جداً في الأوقات الماضية... لن أستطيع نسيانه ما حييت! سأنزل غداً مع جنازته إلى قريته وربما بقيت يومين هناك.

في ذلك اليوم سيقرر العميد «بهجت حسون» بأن الأوان قد آن للعودة إلى مدينته «جبلة»، وأن مدينة «دمشق» أضحت مكاناً خطراً عليهم بكل المعاني، هنا ستدخل «مي حسّون» إلى غرفتها وستبكي طويلاً بصمت. للمرة الأولى ستحسّ بأنها خسرت صديقتها حقاً، وبأن المسافات هي التي ستفصل بينهما الآن وليس سوء الفهم وحده!

في الصباح التالي، فيما كانت «سميرة السليماني» تبدأ بهمة ونشاط عملية تعزيل واسعة للبيت، تحاول «مي» الاتصال بـ«عائشة الحبال»، فيأتيها صوت الأخيرة بارداً جليدياً. تخبرها «مي» باكية بأنهم سينتقلون إلى القرية قريباً، وبأنها تتمنى أن تقابل «عائشة» لتودّعها قبل الرحيل، ربما ستمضي فترة طويلة قبل أن تراها. صمتت «مي» قليلاً ثم همست: اشتقت لك كثيراً...

- لا أستطيع رؤيتك مي، أنا آسفة... قُتل أخي كريم منذ مدة، أعادوا لنا جثته من المعتقل مشوّهة! قتله رجال النظام الذي تدافعين عنه!! النظام نفسه الذي اعتقله قبلاً وجعله يخرج على التلفزيون ليعترف بأنه إرهابي!! والنظام نفسه الذي قتل أخي أحمد قبله!! والذي يقتل شبابنا كل يوم!! هل كريم إرهابي يا مي؟! كريم الذي لم يخرج من حضن أمه بعد؟! أحمد إرهابي يا مي؟!!!

- ...

- ربما يأتي يوم نعود فيه كما كنا قبلاً، وربما لا يأتي... لا أعرف! أما اليوم فلا أستطيع مي.

أغلقت «عائشة» الخط قبل أن تستطيع «مي» أن تبوح بأية كلمة، حتى إنها لم تعزّها! البكاء الناشج كل ما استطاعت القيام به.

أما «علي حسّون» فقد غادر البيت غاضباً من كل ما يحصل. كان يشعر بالحزن، حزن عميق ومؤلم قبض على صدره فجأة، فقد راحت الأحوال تتغيّر! فكّر أن يغدو إلى صالة البلياردو القريبة من البيت علّه يرفّه عن نفسه قليلاً، وقرر ألا يفكر في كل ما مرّ وبكل ما سيحدث، وسيقتنع بأنها غمامة وتمضي، كابوس وسيستفيقون منه، وسيعود كل شيء مثلما كان قبلاً! هذا ما قرره «علي» وهو يلج صالة البلياردو الصاخبة. لكن ذلك الشتات الجديد الذي راح يمزّق دواخله لم يرضَ أن يتركه لحاله! شتات جديد وارتباكات جديدة، قلق وترقب وخوف يعتصر جوانياته رغم محاولاته الدائمة في دفنه!

لكن «فاطر السليماني» حين رجته شقيقته «سميرة» أن يعود معهم إلى البلد غضب، صاح بها نزقاً كأن إهانة تم توجيهها له. كيف له أن يترك «دمشق» لمخرّبيها ويقفل عائداً إلى قريته ليجلس كالنساء متباكياً: «سنظل كل عمرنا نتحسر ونعضّ أصابعنا ندماً لو تركنا معركتنا اليوم!».

«سميرة السليماني»، كالعادة، تنازعها أمران: فخر بشجاعة أخيها الصغير، الذي تحوّل خلال شهور إلى رجل قوي صلب كصخرة، وبين خوفها عليه. في النهاية كان يبدو جلياً بأن «فاطر» اختار البقاء هنا ولن يعود بحال إلى البلد.

اليوم أزفّ أوان الرحيل.

لم تودع عائلة «بهجت حسون» أحداً من أهل البناء، فلم يعد لهم علاقة بأحد منهم. لمّوا أغراضهم، حشوا السيارة بها، ورحلوا. رحيلهم كان هادئاً لدرجة أن أحداً لم ينتبه إليهم، باستثناء صاحب البقالية المقابلة للبناء «سعيد حسين». كان يراقب تحركاتهم وهو فرح في قرارة نفسه، فقد راح العميد في الآونة الأخيرة يضغط عليه بإصرار كي يراقب الرائح والغادي في الحي، وثمة لكنة لها رائحة التهديد في كلماته.

«سميرة السليماني» لم تملّ من ترجّي زوجها كي يؤمن لهم هويات شخصية مزوّرة: «فماذا لو لاقاهم مسلحو المعارضة على الطريق؟! على مفرق حمص مثلاً؟! سيقتلونهم على الهوية»، كانت «سميرة» تندب. «بهجت حسون» يردد بنزق إن النظام مسيطر على الأتوستراد الدولي الذي يصل «دمشق» بالساحل، ولن يكون هناك إرهابيون في الطريق، هناك حواجز للجيش لا غير. «سميرة» تعود وتترجاه كي يسأل عن هويات بديلة، و«بهجت» يزداد نزقه الغاضب. لكن في قرارة دواخله كان ثمة قلق ينهشه كضبع جائع.

حينما اجتازت السيارة، التي راحت تنهب الأوتوستراد مسرعة، مصفاة بترول «حمص»، وامتدت حقول مدينة «طرطوس» بهيّة أمامهم، تنفّست «سميرة» الصعداء، وانفتحت أمامها فرجة مشرقة، فمن هنا وحتى مدينة «جبلة» لن يكون هناك مسلحون إرهابيون ليقتلوهم، سيكون رجال النظام! والعميد اكتشف بأنه كان يكزّ على أسنانه طوالَ الوقت، فقد شعر بألم مفاجئ في فكّه السفلي حالما استرخت أعصابه المشدودة.

وحدها «مي حسون»، التي كانت تسند رأسها إلى المقعد الخلفي، لم تكفّ عن البكاء الصامت، تمسح أنفها بحذر وتبتلع دموعها كي لا يحسّ أحد من أهلها. أما شقيقها «علي حسون» فكان مايزال حزيناً غاضباً وقلقاً بجانبها، يفكر كيف سيستطيع أن ينشئ صداقات جديدة في منطقة جديدة لم يسكنها طوالَ السنوات السابقة أكثر من أسابيع قليلة في فصول الصيف!! ويتساءل أسيانَ كيف سيكون شكل الحياة التي سيعيشها حين سيغدو من الاستحالة الذهاب مجدداً إلى «دمشق»!

(٢٤)

عن أساليب أخرى للحب

في غرفة نوم «صلاح عباس» كانت «ريما العيساوي» و«خالد الساعي» يتحدثان وهما مستلقيان على السرير. «صلاح» ترك لهما الغرفة وتمدّد على الصوفا في الصالون، فقد كان منهكاً تماماً بعد اجتماع طويل استطال لساعات، كان مكثفاً ومشحوناً بالخلافات. أما السرير فقد كانت رائحة التبغ تفوح منه. «خالد» يحدّث «ريما» همساً عما حصل في «دوما» في اليومين السابقين، كان يحتضن خصرها المستلقي ويقرّب شفتيه من وجهها. وجهه متعب نحيل، وثمة هالتان غامقتان حول عينيه. لم يحاول مداعبتها، كما لم يحاول تقبيلها إلا قبلات سريعة باردة. كان يبدو بأن كله غارق في كلماته حتى لم يبق من جسده لها شيء!

البارحة أتتني عجوز سبعينية قالت لي «أنا يا ابني عملت دورة تمريض قبل أربعين سنة، يمكن أتذكر وأقدر ساعدك». كانت ترتدي خماراً أسود فوق جلبابها. لدهشتي فقد نزعت الخمار عن وجهها وانهمكت في العمل. تضرب أبرة هنا، تخيط جرحاً هناك. فمساء الأربعاء انقطع التيار الكهربائي عن المستشفى وبدأ العمل بالمولّدة الكهربائية. الساعة الرابعة فجراً والقذائف تنهال على الأبنية حولنا، والإصابات بالعشرات تنهال على المستشفى. ناس بحالات فظيعة. كنا ثلاثة أطباء، ثلاثة لا يكفي لمداواة كل هذا العدد من الحالات

الصعبة. صار الشهداء يتراكمون الواحد وراء الآخر، يتكدّسون جسداً فوق الآخر في الكوريدور. الثوار يحملون المصابين، يرمونهم في المستشفى ثم يذهبون لنقل غيرهم. لم يبق من مكان لوضع الجثث، امتلأت الكوريدورات. لكن بعد أقل من ساعة جاءنا صبي رأسه مفزورة بشظية ما زالت معلّقة بجمجمته، فخرّت العجوز مغمياً عليها. أنا بالكاد تمالكت نفسي كي لا أطيح. حين استيقظت العجوز من إغمائها اعتذرت مني ورحلت. فرحت لشيء واحد بأن تلك العجوز لم تعتد الموت بعد ككلٍّ من حولي. لكن في النهاية اضطروا أن يكدّسوا الجثث خارج المستشفى، في الساحة التي أمامه، فلم يتبق من مكان في الداخل.

- «لقد اقترب الجيش النظامي إذاً وانسحب الجيش الحر»، هذا ما فكّرت فيه دون أن يخبرني أحد. السيناريو ذاته يتكرر في كل منطقة مشتعلة أذهب إليها. يبدأ عناصر الجيش الحر بالاشتباك مع قوات النظام، فتحاصر قوات النظام المنطقة وتبدأ بقصفها حتى تنتهي ذخيرة الجيش الحر وينسحب، فتقتحم المنطقة وتحصل الويلات.

غضبت، غضبت وصرت أشتمهم بصوت عالٍ: «لم لا تفكرون عسكرياً؟ لم لا تنظّمون صفوفكم؟! لم تبدؤون بشيء لا قدرة لكم على إكماله، فيدفع البشر العاديون، العاديون جداً، الأثمان الغالية». كنت أصرخ وحدي كأبكم. لكننا قررنا أخيراً وبالإجماع أن نخلي المستشفى، ولكن ماذا نفعل بمئات الجرحى المكوّمين على الأسرة وفي الكوريدورات والغرف، وبمئات الجثث المكوّمة في الساحة أمامنا وقد راح الحرّ القاتل يفسّخها فتصلنا روائح التعفن البادئ. لن يكون الجحيم أسوأ مما كنا فيه. بعد ساعات ستكفّ المولّدة عن العمل وسينتهي كل شيء.

سيارتان بقيتا أمام المستشفى ليس إلا. أسعفنا حوالي تسعة من الجرحى لديهم أمل كبير في الحياة، منهم طفل لم يتجاوز السابعة

وطفلة في العاشرة. سينقلهم الشباب إلى أطراف المدينة البعيدة حيث من الممكن أن ينالوا فرصة في العلاج. لكن بقي الكثير الكثير ممن لا يمكن نقلهم وأنا أكاد أتمزق لا أعرف ماذا أفعل!! إن بقيت مع بقية الجرحى سنموت كلنا لا محالة، وإن ذهبت سيموت من بقي هنا. كنت أبكي وأنا أنقل الجرحى. ذاك الطفل الذي في السابعة مسح دموعي بكفّه الصغيرة وابتسم في وجهي وأنا أحمله إلى السيارة، لحظتئذ قررت أن أخرج معهم، الحياة تستحق أن تعاش والناس الباقية بحاجة لي. وهربت. كانت السيارة الأخيرة تنتظرني، السائق يزعق أن أسرع. تركت ما تبقى من الجرحى وهربت. تركت جثث الناس الآخذة بالتعفّن في الساحة وهربت. في الطريق رحت أبكي وأبكي، كنت أشعر بأني خذلتهم، خذلت مهنتي. غلبني ضعفي الإنساني. كانت عيناي معلقتين بالمستشفى الذي يبتعد، وتتضبب الرؤية وتتضبب. نزلت هناك في ساحته قذيفة أخرى، وارتفع الغبار والأشلاء والشظايا إلى فوق. رأيتها من بعيد.

لا أعلم كيف استطعنا النجاة. وحده اللّه يعرف كيف أمكننا النجاة!!

ثم غفا «خالد»، أنهى حديثه، الذي كان أقرب إلى تقرير، ثم غفا بدون أن يقبّل «ريما». شفتاه مشقّقتان وجافتان، كومة تبن في آخر الصيف.

مسّدت «ريما» جبينه الحار كالجمر، مسحت العرق الذي راح يزخّ منه، وبكت طويلاً. رائحته خليط من رائحة دم وخوف وحزن وموت. لكن بعد أن تأكدت من أنه غطّ في نوم عميق قامت ووضعت له موسيقا لفرقة Vas: In the garden of souls. اعتقدت أنها من الممكن أن تخفّف من توتره، وجدت السي دي قرب مسجلة «صلاح» على طاولة الكومبيوتر في زاوية غرفة النوم.

لكن حرارة «خالد» لم تتراجع حتى كاد الصبح ينبلج. الكمادات

الباردة التي دأبت «ريما» على تغييرها عدّلت قليلاً من نار جبينه. «صلاح» استيقظ قلقاً كذلك، وطفق يساعد «ريما» في تخفيف حرارة الشاب. لكن حين سيفتح التلفاز، وقت يأتي التيار الكهربائي قريباً من شق الفجر، سيكون ثمة ناشط يقول، على إحدى القنوات الفضائية المناهضة للنظام، إن رجال النظام داهموا مشفى «حمدان» وخرّبوها. نزعوا أجهزة التنفس عن المرضى وتركوهم للموت.

- من الجيد أن خالد مازال نائماً... لا ينبغي أن يسمع بالذي حدث هناك بعد رحيله. همست «ريما».

- سيسمعه غداً!!

- سأكون حريصة ألا أدعه يرى الأخبار.

- سيخبره رفاقه بالهاتف.

- سأبقي هاتفه مغلقاً.

- إلى متى صديقتي؟! لن تستطيعي إبعاد الموت عنّا. لقد نجا اليوم من الموت، وهذا أمر عظيم، لكن هذا لا يعني بأن الموت بعيد عنّا. الموت يحيط بنا كلنا، الموت يحاصرنا صديقتي، الموت يحاصر كل السوريين كما يحاصر سوريا!

ودوّى صوت انفجار بعيد. كان التلفاز يبثّ صوراً عن قنابل متفجّرة ترمى على قرى ريف إدلب وحلب، وقبالة «جرمانا» كانت معظم مناطق الغوطة تُقصف.

- أكاد لا أصدّق كيف ينجو في كل مرة. أشعر أحياناً إن القدر يتدخل بذاته لحمايته!!

قالت «ريما» دون أن تنتظر تعقيب «صلاح» الذي بقي صامتاً يراقب التلفاز.

عند الظهر أفاق «خالد» من مرضه، كان يبدو أفضل حالاً. «ريما» التي كانت تدوّن ما حدث لحبيبها في أحد دفاتر توثيقها صاحت بفرح حين لمحته واقفاً عند باب الصالون. هرعت إليه وهي

تفكّر بأن جسده نحل كثيراً في الفترة الأخيرة، وفقد معظم تفاصيله الرياضية الممتلئة! كان يبدو هزيلاً متعباً وهو يقف بالباب. ضمّته وطفقت تقبّل وجهه العرق.

- رائحتي فظيعة حبيبتي، دعيني أستحمّ ثم نقبّل بعضنا قدر ما نريد.

- بالنسبة لي رائحتك دائماً متل المسك.

ضحك «خالد». فكّرت «ريما» بأنه ربما نسي القليل من الويلات التي عاناها البارحة، وقررت أن تبقي التلفاز مغلقاً، كما أنها أخفت تقريراً أصدرته «هيومن رايتس ووتش» عن أقبية التعذيب في سوريا، كان «صلاح» قد طبع منه نسخات متعددة ليأخذها معه إلى الرفاق في الاجتماع الذاهب إليه. لكنه ترك نسخة منه على طاولة الصالون قبل أن يغادر. التقرير مروّس بعنوان: «الاعتقال التعسفي والتعذيب والاختفاء القسري في مراكز الاعتقال السورية منذ مارس ٢٠١١». يتحدث عن سبعة وعشرين مركزاً للاعتقال حدّدتهم الأقمار الصناعية، وعن عشرين طريقة للتعذيب الوحشي تجرى في تلك الأقبية.

- وجّهت الهيومن رايتس ووتش نداء إلى مجلس الأمن لإحالة ملف سوريا إلى المحكمة الجنائية الدولية لتبني عقوبات بحق المسؤولين المتورطين في الانتهاكات.

قالت «ريما» لـ«صلاح» بعد أن قرأت التقرير. ثم سألته: هل يكون هناك طريقة لمعاقبة المجرمين؟!

- لا أعتقد... لو أرادوا أن يسقطوه لأسقطوه من زمان. الغرب يريده، وما يجهرون به لا يعدو كونه كلاماً في كلام.

وهمّ «صلاح» في فتح باب الشقة ليخرج وهو يقول: «والنظام السوري لم يصادق على نظام روما الأساسي المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية. إذاً فالمحكمة لا تملك صلاحيات إلا إذا تبنى مجلس الأمن قراراً يحيل الوضع في سوريا إلى المحكمة!!».

- والفيتو؟!.

سألته «ريما» لكنه لم يجب، قلب شفتيه ضجراً. كان وجهه ينبئ بغضب وملل وقرف. ودّعها وأغلق الباب خلفه.

حين بقيت «ريما» وحدها في الصالون مرّ «عمر يوسف» على بالها فجأة لسبب ما. انقضى وقت لم تره فيه، لم يتصل بها، كما لم يتصل بـ«صلاح» أيضاً، وباءت كل المحاولات المتكررة في الاتصال به بالفشل، فالأنسر ماشين يقول إن رقمه مغلق أو خارج نطاق التغطية. شعرت بالقلق عليه، وراحت الوساوس تتناهشها!

لكن «عمر يوسف» كان يقضي أوقاته بطرائق مختلفة في الفترات تلك، انتقل إلى مرحلة ثانية بعد أن طوّر من أساليب عمله مع كتائب الثوار في الغوطة الشرقية. مؤخراً وخلال الأسابيع الماضية كان يخطط باهتمام لمشروع أساسي. لم يكن وحده في هذا بل ثمة صديق من الثوار في حي «الميدان» راح ينسّق معه. «أنيس أبو كفاح» كان ابن المنطقة، يعرف التفاصيل والدقائق الصغيرة فيها، كما يعرف الكثير من الجهات التي راحت تُدخل السلاح إلى المنطقة. كان على «عمر يوسف» و«أنيس أبو كفاح» أن ينسّقا لتنفيذ عملية خطيرة تتلخّص في التخطيط لاغتيال عقيد في الجيش يعمل في قطعة عسكرية على مشارف مدينة «حمص». العقيد من مدينة «الحراك»، مدينة «عمر» ذاتها، لكن الأخير لم يكن يعرف ذلك العقيد، بيد أن المعلومات التي وصلتهم تؤكد بأنه من أهم المسؤولين عن العمليات العسكرية في «حمص». كان ذاك العقيد «الدرعاوي» جزءاً أساسياً من العقول التي تخطّط للاقتحامات ولشن الهجوم على المناطق المتمرّدة. المعلومات التي وصلت إلى «أنيس أبو كفاح» من ثوار «بابا عمرو» تؤكد بأن العقيد كان مؤثّراً في معركة «بابا عمرو» وفي معركة «دير بعلبة» و«حمص القديمة» كذلك، «جزء» مدبر مخطط في العمليات العسكرية. لذلك كان على الشابين مهمة ثورية، كما اعتقدا، تتلخّص في اجتثاث ذلك «الجزء» بأية وسيلة.

في بيت «أنيس أبو كفاح» اتفق الصديقان على تفاصيل نصب الكمين للعقيد «الدرعاوي» على أوتوستراد «دمشق- درعا»، في الطريق الذي يقطعه، حين الإجازات، من قطعته العسكرية على مشارف مدينة «حمص» إلى بيته في «الحراك». وبما أن الإجازات صارت نادرة هذه الأيام، والجيش مستنفر على طول الوقت، لذلك كان على الصديقين أن يدرسا الخطة بدقة أكبر بحيث تتناسب مع الوقت الدقيق لرجوع العقيد إلى بلدته.

كان على «عمر يوسف» استخدام ورقته الرابحة باعتباره من المدينة ذاتها التي ينتمي إليها العقيد وسائقه كذلك، وهذه كانت النقطة الأهم. استطاع «عمر يوسف» أن يتعرّف إلى سائق سيارة العقيد ببساطة شديدة، فقد كان أحد رفاق المدرسة لأخيه الأصغر «محمود يوسف». حين جلسا سوية حاول «عمر» أن يختبر ولاء السائق لمعلّمه العقيد، موقفه، والأهم إيمانه بكل ما يحدث. لم يكن الأمر صعباً أبداً، أشهر السائق، بعد أقل من نصف ساعة من لقائهما، بأنه يتمنى أن يقتل العقيد ذاك بيديه الاثنتين، أن يخنقه حتى يفطس أمامه، ويسلّم جثته إلى ثوار «حمص» لينتقموا منها كما يريدون: أهلنا يموتون كل يوم في درعا وقراها، وأنا أحمل ذلك الكلب ليقتل الناس في حمص!

اختصر السائق بكلمات قليلة كل ما كان يريد «عمر يوسف» إقناعه به!

في نهاية الجلسة القصيرة اتفق الاثنان على تفاصيل الكمين الذي سينصبونه للعقيد على الأوتوستراد الذاهب من «دمشق» إلى «درعا»، وسيكون ذلك حينما يعود العقيد لقضاء عطلة في بلدته بعد أسابيع طويلة من الاستنفار في قطعته العسكرية. كان على السائق أن يخبرهم بالوقت، ثم يقف في نقطة معينة على الأوتوستراد مدّعياً بأن السيارة تعطّلت فجأة، سينزل من السيارة ليتفحّص محركها الأمامي، وسيبقى العقيد في السيارة ينتظر إنهاء السائق لعمله. في هذه الأثناء سيكون

«عمر يوسف» و«أنيس أبو كفاح» منتظرين وراء الأشجار القريبة، لحظتئذ سيهجمون على السيارة المتوقفة، ويلقون بقنبلة يدوية على المقعد الذي يجلس العقيد فيه في السيارة. سيُقتل حينئذ في مكانه، بدون شوشرة ولا ضجة، وسيهرب المنفّذان من فورهما كأن شيئاً لم يكن، ويبقى السائق ليخبر القيادة إن مسلحين إرهابيين ملثّمين ألقيا قنبلة على سيادة العقيد فقتل من فوره!

الموعد الذي اتفقوا عليه كان يوم خميس، عند الساعة السادسة مساء، بجانب صفّ من أشجار السرو الكثيفة على مسافة من الكازية العامة كي لا يلفت ما يحدث أنظار المنتظرين على طابور الكازية.

الهوية الشخصية الجديدة التي أعطاني إياها «أبو كفاح» كانت هوية لشاب استشهد في الغوطة الغربية، ولم يكن اسمه مطلوباً على الحواجز. وقال لي: الآن تستطيع زيارة أمك يا صديقي بهوية جديدة وآمنة قبل أن ننفذ مهمتنا.

- ماذا سأقول لهم إن أوقفوني على الحواجز في الطريق إلى درعا وهويتي من ريف دمشق؟!

- ما بالك عمر، يبدو بأنك فقدت في هذه الأوقات ملكاتك المخابراتية؟! قل لهم أي شيء يا أخي، قل لهم ذاهب لأزور أخوالي!!

شعرت برغبة عميقة ومؤلمة في رؤية أمي وتنسّم رائحتها. في الحقيقة كان طبخها العظيم هو الأمر الذي استفقدته أكثر من أي شيء آخر. فغدوت منذ الصباح الباكر إلى مدينتي «الحراك». وعلى حاجز الأمن في منتصف الأوتوستراد أوقفني العناصر وأنزلوني من الباص الذي يقلّنا. للحظات أحسست بأن كل شيء انتهى، سيعتقلونني ويعذبونني، سأموت هناك في مجاهل المعتقل كما مات الآلاف قبلي. نظرت خلفي أتبين المكان، لم يكن من مجال للهرب، سيطلقون النار عليّ بالتأكيد إن حاولت الابتعاد خطوة. جرّني أحد العناصر من ياقة قميصي وشحطني جانباً، التمّ العناصر البقية حولي.

صفعني أحدهم على وجهي وهو يسألني ما الذي فعلته ليكون اسمي موجوداً على لوائح المطلوبين؟! راح آخر يفتّشني من شعر رأسي حتى حذائي. هممت أن أقول لهم: «ليس هذا اسمي»، لربما لم يكن اسمي الحقيقي موجوداً لديهم. لكنها كانت فكرة غبية للغاية، ألغيتها قبل أن أبدأ بها. كانت لحظات أطول من دهر، وأقسى من فقد حبيب. كنت أرى شبح الموت يقترب مني شامتاً. فجأة تناهى إلينا صوت إطلاق رصاص قريب، ثم اقترب إطلاق الرصاص أكثر. صاح أحد العناصر: «مسلحين يا شباب... انتبهوا...». وتفرّق عناصر الأمن وهم يلقّمون رشاشاتهم المشهرة باتجاه الصوت. نسوني في غمرة الارتباك والإعداد للاشتباك الذي بدا بأنه سيشتعل للتو. كان غبش العشية يسدل ستائره على القفر المحيط بالأوتوستراد، يجعل من الرؤية أصعب وأشدّ غموضاً وضبابية، ربما لذلك بدأ الثوار اشتباكهم مع الحاجز النظامي. لم أعرف كيف خطرت ببالي الفكرة، لكني انطلقت كالمجنون بالاتجاه المعاكس للأوتوستراد، نزلت في الأراضي القاحلة الجرداء التي تحدّه، أركض وأركض دون أن أتبين موطئ قدمي. ركضت وركضت، وأنا ألهث ونفسي يتقطّع، كنت أحسّ بأن الرصاص سيدخل رأسي في أية ثانية، وشبح الموت ركض بمحاذاتي طوالَ الوقت! ركضت حتى وصلت إلى مشارف تجمّع سكني مهمل بعيد، لحظتئذ نظرت خلفي، لم يكن هناك إلا الغبار والأراضي الجرداء. لدهشتي فإن أحداً لم يلحقني، انشغلوا بالتأكيد بالهجوم المباغت عليهم. لقد نجوت من الموت صدفة وبأعجوبة حقيقية. لكني رحت أسأل نفسي طوالَ الوقت: هل كان الأمر مجرّد صدفة محضة؟!

صباح يوم الجمعة دقّ «عمر يوسف» باب «صلاح عباس». كان مشتاقاً لأن يحتسي معه القهوة ويمجّ سجائر حمرا طويلة «تعبّي الرأس». هذا ما قاله عقب عناق طويل بينهما. لكن لم يكن شرب

فنجان القهوة وسيجارة الحمرا الطويلة، والشوق العظيم كذلك، هي الأسباب التي حدت بـ«عمر يوسف» لزيارة «صلاح» في هذا الوقت المبكر! كان أمراً آخر أشدّ خطورة وتداخلاً، أمراً يخصّ موجة الخطط «المخابراتية» التي راح «عمر يوسف» ينهوس بها في الشهور الأخيرة. ربما كان الأمر أشبه بطريقة للتكفير عن عمله الماضي، أو طريقة لتوظيف خبراته «الأمنية» في خدمة ثورة ألفى نفسه فجأة عاشقاً ولهاناً لها. «العاشق يعبد كل تفاصيل معشوقه السيئة منها والجيدة، أليس كذلك صديقي؟!»، هزّ «صلاح» رأسه مبتسماً، وأكمل استماعه إلى «عمر يوسف» الذي لم يكد يصمت منذ لحظة دخوله البيت.

- فإن انحرفت أو بقيت على الصراط المستقيم سأبقى عاشقاً لها!.. جائع للحديث معك يا صلاح، كما أنا جائع لطبخ أمي!

وضحكا.

لكن أياً من أصدقاء «عمر»، بمن فيهم «صلاح» نفسه، لم يتكهّنوا بما مرّ عليه في الفترة الماضية التي انقطعت أخباره فيها. لم يكن ثمة من أحد يعرف، إلا «عمر» نفسه، كيف اتصل به مدير مكتب رئيس فرع المخابرات ذات صباح، وطلب إليه أن يأتي للقياه فوراً في مكتب الفرع. لكن «عمر» لم يكن يجرؤ على الخروج من «جرمانا»، لذلك كان على صديقه القديم، مدير مكتب رئيس فرع المخابرات، أن يأتي بنفسه إلى تلك الشقة الصغيرة القذرة التي كان يقطنها «عمر يوسف» متخفياً، في الشارع الذاهب باتجاه المقبرة العامة، حاملاً معه أربع قطع شعيبيات بالقشطة ملفوفة بورق ملون. يومذاك أخبره مدير المكتب عن عقيد معروف في الأمن السياسي، جنّد ستة عناصر من الأمن ليعملوا تحت أمرته، يتصيدون أشخاصاً بعينهم بعد أن يراقبوهم لأسابيع، ثم يعمدون إلى اختطافهم وطلب فديات عالية القيمة من ذويهم لقاء إعادة تسليمهم. خطتهم الدائمة التي مافتئوا يكررونها تتلخّص في الاتصال مع أهالي المختطفين على أنهم عصابات إرهابية

مسلّحة قامت باختطاف أبنائهم، ثم يطلبون ملايين الليرات لإعادتهم سالمين.

- لكنه يختار فريسته الثمينة في المقاهي والمطاعم... أو في الأماكن العامة.

- وكيف سيعرف بأنه غني مثلاً؟

- قلت لك يراقبه ويسأل عنه، ثم يقوم بمهمته... على فكرة نجحت هذه الخطة معه مرات عديدة منذ أن بدأ بتنفيذها بمساعدة عناصره، وغالب الأوقات بمساعدة ثلاث بنات ليل اتفق معهن على ذلك.

- ومنذ متى وهو يقوم بها؟!

- منذ شهور طويلة.

- ولم لم تخبرني؟!

- انتظرت لأتأكد من الحقيقة...

- وما الذي جعلك تتأكد؟!

- معلومات... على فكرة جاءني تقرير أمني مكتوب عنك إلى مكتبي هذا الصباح!! عليك أن تكون أكثر حذراً من اليوم فصاعداً.

لسبب ما قهقه «عمر يوسف» ضاحكاً بهيستيرية، ضحك معه صديقه أيضاً، ثم سحب من جيب سترته الخريفية الخفيفة ظرفاً بني اللون ودفعه باتجاه «عمر»، كان فيه مبلغ من المال، وورقة تضمّ عناوين البيوت وأرقام الهواتف وأسماء لبعض الشخصيات. ذلك اليوم حمل المدير معه إلى شقة «عمر» المهملة قطع الشعيبيات بالقشطة، أخباراً وأخباراً، تفاصيل الخطة، ومسدساً فردياً لمّاعاً وأسود.

أما الخطة الجديدة فكانت تقتضي أن يأتي «عمر يوسف» مع صديق من أصدقائه يختاره بعناية إلى الكازينو الذي سينصب العقيد فيه الكمين لأحدهم. الكازينو يقع على تخوم «جرمانا»، في الشارع

الذاهب باتجاه أتوستراد المطار الدولي، مكان ضاجٌّ مشتعلٌ في الليل بالراقصات والمطربين والسكارى، وهادئ شبه خالٍ في النهار. أما المدير فسيعمل بطريقته على إيصال الأخبار للعقيد بأن شاباً ميسوراً اسمه «عمر» يتردد على هذا الكازينو بين الحين والآخر، وهو فريسة ثمينة جاهزة للقنص.

حين سيختار «عمر يوسف» صديقه الموثوق، الذي سيقوم معه بالمهمة، سيذهبان سوية إلى الكازينو في الليل، وهما يرتديان أفخر الثياب، وسيعبث «عمر» طيلة الوقت بمفتاح سيارة الـBMW التي سيجلبها له مدير مكتب رئيس فرع المخابرات. سيطيلان الجلوس وطلب الويسكي الفاخر والمازوات، وسيطلبان أجمل فتيات الكازينو للجلوس معهما على الطاولة طوالَ الوقت، عندها سيحاول العقيد التقرّب منهما بأسلوبه الخاص محاولة منه للتعرف إلى الشابين المحمّلين بملايين الليرات القادمة.

- في نهاية السهرة سيدعوكما إلى بيته، ويتفق معكما على موعد، وهناك سيعمل على خطفكما كما يفعل في كل مرة...

- وهل تنجح معه هذه الخطة المملّة في كل مرة؟!

- في معظم الأوقات، نعم.

لكن الخطة ستنتهي بمحاولة إقناع العقيد بأن يأتي إلى بيت «عمر» بدل أن يذهب الشابان معه. وحين سيرى بأنهما مصرّان على دعوته سيأتي، لكن بعد أن يحكم حبك الخطة البديلة التي تقضي بحمل عناصره معه إلى بيت الضحية. في بيت «عمر يوسف» سيكون ثمة عناصر موثوقة تساعدهما. سيختطفون العقيد، كذلك العناصر المرافقة له، ويجبرونه تحت ضغط السلاح والتهديد على الإدلاء بالمعلومات، سيسجلونها على كاسيت، ثم يقتلونه في مكانه ويريحون البشرية منه. ثم سيقفلون إلى بيته لمداهمته حيث بقية عناصره التي تساعده وحيث الأموال والأسلحة والمسروقات.

«خطة محكمة لن تفشل أبداً إذا نُفّذت بحذافيرها». قال المدير وهو يقضم القطعة الثانية من الشعيبيات المشبعة بالقطر. «وإذا قمت بها ستكون قد أنجزت عملاً عظيماً وأنقذت البلد من أحد مجرميها!!»، أردف.

المشكلة أني لا أثق بأحد أستطيع طلب مساعدته في هذه المهمة الخطيرة. «أنيس أبو كفاح» انقطعت أخباره، وأكاد أجزم بأنه اعتقل، ولكن ربما أمكنني سؤال «صلاح عباس»، وأشك بأنه سيوافق! لكني سأطلب منه، ليس أمامي إلا هذه الطريقة لتصفية الضباط القذرين أمثال هذا العقيد وذاك العميد. الكمائن طريقة ذكية ومضمونة.

في الصباح الباكر غدوت إلى «صلاح عباس». كنت مشتاقاً إليه، مشتاقاً لاحتساء فنجان قهوة معه ومجّ سيجارة حمرا طويلة من سجائره التي لا تكاد تنطفئ، لكني كنت أريد بالدرجة الأولى أن أطرح الخطة أمامه، علّه يساعدني! أصوات القصف العنيف من المروحيات والمدفعية تتناهى إلينا واضحة جليّة إلى صالون بيت «صلاح عباس».

- هذا قصف على بلدة دير العصافير القريبة من هنا.

علّق «صلاح عباس» والاستياء واضح على محياه: أشعر بأنهم يقصفون بيتي في كل يوم أسمع فيه أصوات القصف على مكان قريب من هنا!! أفكر بالأطفال والنساء الذين يهربون من تحت القصف الآن!!

- يقولون إن مناف طلاس انشقّ عن النظام!!

انبريت محاولاً فتح باب الحديث مع «صلاح» وأنا أرتشف فنجان قهوته الساخن. هزّ «صلاح» رأسه متأففاً ووجهه ينضح بالقرف النزق. قلت له: تعرف ليس لدي تلفزيون لذلك لا يمكنني أن أتابع الأخبار جيداً.

- الآن حين تأتي الكهرباء سأضع لك محطات الأخبار كلها لتتابعها... ستنام عندي اليوم أليس كذلك؟

هززت رأسي إيجاباً.

- أتعرف عمر، كل هذه الترهات والنقاشات الجانبية والقيل والقال وانشغال الناس بها يلهينا عن الفكرة الاساسية.

- نعم، إسقاط النظام؟!

- ليس إسقاط النظام فقط، بل إقامة الدولة الديمقراطية العلمانية التي نحلم بها... أشعر بأن الجميع ينشغلون ببعضهم بعضاً، بخلافاتهم، بانشقاقاتهم الطائفية والسياسية وهذا ما يجعل النظام يقوى أكثر.

لكن «صلاح عباس»، كما توقّعت، رفض الخطة التي اقترحتها عليه بمجملها. قال لي متبرماً بأنها أشبه بتصرفات عصابات، وليست تصرفات تليق بثوار: «الثورة أخلاق، ولكنها إيديولوجيا أولاً، إيديولوجيا ضد الإيديولوجيا». أشعر، في كثير من الأوقات، بأنه يعيش في عالم آخر، خيالي رومنسي، لا يمت إلى الواقع بصلة، يحلم فيه بثورة على شاكلته رغم أنه طالما خاض غمار العمل السياسي قبلاً! العمل السياسي السري، كما كان يؤكد لي! حين أخبرته بذلك لم يضحك. قال لي إن تركنا أوحال الواقع تجرّنا إليها فنحن أشبه بجرذان الأرض.

- لن أترك الأوحال تقودتي حتى لو انساق لها الجميع! وهناك الكثيرون مثلي تأكد من ذلك...

ثم للحظات شعر بأنه وجّه إليّ إهانة ما. أحسست بذلك في نظرة عينيه التي تفيض شعوراً بالذنب، فأردف: «عمر حبيبي نحن صرنا عجائز، هذه الأفعال المجنونة الفدائية تركناها لكم أنتم الشباب». وضحك ماجّاً سيجارته مربتاً على كتفي.

- لنخبر صفوان بذلك إذاً... ربما يساعدني!

- أشك بذلك ولكننا سنسأله!

ودوى صوت انفجار هائل من جهة «دير العصافير».

رفض «صفوان الشيخ» كذلك مساعدتي في العملية. بدا رأيه أقرب إلى رأي «صلاح عباس»، لكن أبعد قليلاً عن رومنسية الأخير، وردة فعله أكثر تسامحاً مع خطتي. قال مراوغاً إنه لا يستطيع أن يورّط روحه بدم أحد، حتى لو كان ذلك الشخص قاتلاً كالعقيد/ الهدف الذي حدثته عنه! لن يغرق يوماً في بحر الدم المحيط!

- كيف ستتخلص من أولئك القتلة إذاً؟!

لم يكن لديهما إجابة وافية بالنسبة لي! أو أنهما احتفظا بإجاباتهما في صدريهما ولم يجهرا بها أمامي! لكن رفضهما لمساعدتي في اختطاف ذلك العقيد ومعاقبته جعلني ألغي العملية من أساسها، فوحدي لن أستطيع إتمامها، وليس هناك من أثق به بعد اختفاء رفيقي «أنيس أبو كفاح»!

حاول الرجلان أن يلهياني عن التفكير بالأمر بأحاديث متراكمة ومتداخلة، ربما بدا الاحباط واضحاً على تفاصيل وجهي! حدّثاني عن الجار الجديد الذي استأجر شقة في الطابق الأخير من البناء، «خليل أبو العزم» شقيق صديقهما المستثمر القديم للكافيتريا المغلقة أسفل البناء. تفاجأت بذكر اسمه أمامي! «كم هي الدنيا صغيرة!»، حدّثتهما عما فعله ذاك الرجل مع أخي «محمود»، كيف آواه في بيته حين كان مصاباً، وكيف اعتنى به كأنه ابن له! لم يستغرب «صلاح» تصرّفه الشهم الكريم، كما وصفه، فقد كان يعرفه منذ بعض الوقت. لم يكونا صديقين سابقاً، ولم يكن يفكّر قبلاً بأن يعمل مع أمثاله من المثقفين الذين كانوا يمشون خائفين «بجانب الحائط»، كما عبّر، في الوقت الذي كانوا هم «المعارضون السياسيون» يدفعون أثمان قول الحقيقة. لكنهما منذ شهور قليلة ينسّقان للعمل سوية في التجمّع اليساري المعارض الذي يعمل فيه ومن أجله.

- رجل عاقل ومثقف ومبدئي، وما فعله مع محمود يُشكر عليه.

قال «صلاح» قبل أن يقترح القيام بزيارة ودّية له.

بعد تلك الزيارة شعر «عمر يوسف» بتهديد حقيقي، فقرر مغادرة «جرمانا» بما أن الوضع فيها لم يعد آمناً، خصوصاً بعد أن صارت حواجز اللجان الشعبية تملأ الحارات والشوارع الرئيسية والفرعية. بعد ثلاثة أيام استطاع الشيخ «أبو عمر» أن يصل إلى بيت ابنه في تلك الحارة المتطرفة من مدينة «جرمانا». كانت رحلة محفوفة بالمخاطر، فالاشتباكات تعمّ الأتوستراد القادم من «درعا» باتجاه «دمشق»، لكنه كان يحمل معه هوية شخصية آمنة لطالب جامعي من أهل «السويداء»، كان والد الطالب صديقاً لـ«أبو عمر» ورفيق عمر، كما أكّد الشيخ وهو يمدّ الهوية الشخصية إلى ابنه، وبهذه الهوية سيستطيع «عمر يوسف» مغادرة مدينة «جرمانا» والسفر على طريق «درعا- دمشق» بأمان، متجاوزاً كل الحواجز النظامية للجيش واللجان الشعبية بدون أن يكتشف أحد بأنه ليس ذلك الشاب السويداوي البريء الهادئ الذي لا نشاط له إلا أن يدرس في كلية من كليات جامعة «دمشق».

- بين أهلي سأكون في أمان أكبر.

قال «عمر» لـ«صلاح عباس» وهو يودّعه.

- الطريق خطرة للغاية، لكن مدينتي الحراك أضحت شبه محررة بعد أن سيطرت كتائب الجيش الحر عليها.. ثم أني سآكل من طبخ أمي يومياً، وسآخذ مصروفي من الشيخ الوالد... كفاني تعتيراً وفقراً هنا!!

ضحك «عمر» فيما كان يضمّ جسد «صلاح عباس» الضئيل الذي كان يمسح دموعه المنهمرة كالأطفال: سيمرّ وقت طويل بدون أن أراك!!

- لا، انشاللّه سيسقط النظام قريباً وتأتي لزيارتي في الحراك.

(٢٥)

عن محاولات أخرى للنسيان

سقط حبيبي «فراس الصفدي» هناك، استشهد بعيداً عني، بعيداً مئات الكيلومترات عني. هناك في منطقة لا أعرف إلا اسمها: «الخالدية». هناك شقّت الشظية رأسه. لم يأت جثمانه إليّ، أتت كاميرته وجهاز الموبايل، كأنهما ينوبان عن جسده الحبيب! حملهما إليّ صديقي «خالد الساعي» ذات صباح. قال لي بأن «مصعب محمود»، شقيق صديقتي «مريم»، استطاع الحصول عليهما من «الخالدية» وبعثهما إليّ. لم تأت «ريما» معه، ربما كانت فجيعة رؤيتي في لحظات مشابهة أمراً لا يمكنها احتماله! كان «خالد» يخفي عينيه وهو يحدّثني، أما أنا فلم أكن أخفي شيئاً، كنت أموت كل يوم مئات المرات على غياب حبيبي، ولا أستطيع أن أصدق، هل هذه حقيقة أم كابوس بغيض؟! حبيبي لم يعد موجوداً! لن أستطيع ضمّه إلى صدري، شمّ رائحته المسكرة، لن أستطيع لمسه! لن تذوب دواخلي بجسده حين يلجني، ولن أستطيع بعد الآن تذوّق طعم قبلاته الحارة؟ محال...

قالوا لي إنهم دفنوا جثته هناك في مكان ما من مدينة «حمص» حيث استشهد. لكني لا أريد أن أرى جثته، أريد أن أحتفظ بالصورة البديعة التي أُودعها في ذاكرتي: صورة روحي. ولا يهمني كل ما يقولونه: «مات شهيداً يا هبة... نيّاله يا هبة... في جنات النعيم يا

هبة. . .» وما إلى ذلك من الكلمات التي تحاول الضحك عليّ. حبيبي رحل وهذا أبشع ما يمكن أن أعيشه يوماً!

انقضت شهور قبل أن أستطيع لمس كاميرته أو موبايله. أخفيتهما في عتمة خزانة ثيابي، قريبين مني ولا أراهما، فكلما رأيتهما كنت أختنق، وأشعر بأن قلبي سيكفّ عن الخفقان. ولطالما فكّرت: هل مرّت صورتي أمامه حين كان يحلّق إلى السماء؟! هل نرى حقاً كل ذاكرتنا وأحبتنا لحظة الموت؟! وكيف تكون لحظة الموت؟!!

ذات صباح أتى إليّ شاب غريب إلى العمل. تقدم إليّ مباشرة وأنا أجلس وراء مكتبي في الغرفة كأنه يعرفني، أو ربما لأنه لمحني أتّشح بالأسود! كان يضع عصابة سوداء فوق عينه اليسرى، تجعل مظهره لافتاً للانتباه كقرصان قفز من فيلم، بقامته الفارعة النحيلة وشعره المحلوق ناعماً. قال لي إن اسمه «عصام طعمة» من مدينة «دوما»، وإنه كان من رفاق الشهيد «فراس الصفدي»، كما كان معه حين رحل ليلة قصف حي «الخالدية». الشاب كان مصوراً أيضاً، وبدأ يسرد لي تفاصيل علاقته مع حبيبي، كما سرد لي تفاصيل المجزرة التي حدثت في ذلك اليوم الأسود.

يا ليته لم يأت ولم يسرد لي! كانت عينه الوحيدة تدمع، وأنا لم أستطع أن أزجر البكاء فقد كان صدري يضيق على قلبي. كل من في المديرية كان يطالعني، بعضهم راح يرمقني مستهجناً، البعض الآخر نظراته متعاطفة، والبعض كانت عيونهم مليئة بالفضول! لذلك فقد قررنا الخروج من العمل، ورحنا نمشي باتجاه البيت.

- فراس، اللّه يتقبله عنده، علمني الكثير. . . أهم شيء علّمني إياه التصوير، واليوم هو كل حياتي. أذهب إلى أماكن الثورة وأصور وأحدثهم عن فراس. فراس يا آنسة هبة معلمي!!

في البيت حدّثني «عصام طعمة» عن حياته، عن عمله في الثورة التي غيّرت كل تفاصيل عيشه، بدّلتها كمعجزة! حدّثني كذلك عن

عشقه للتصوير الذي صار جزءاً من روحه. لم تكن تفاصيل جسده وحركاته النزقة المليئة بالعنفوان تتناسب وهدوء صوته الذي لا يتبدّل، يظلّ على سويّة واحدة. حدّثني من ثمَّ عن المجزرة الأخيرة التي عاشها في ريف مدينة «حماة»، وقُدّر له أن يصوّر فظائعها: مجزرة التريمسة. الصدفة الغريبة جعلته ذاك اليوم من تموز ٢٠١٢ يتواجد في منطقة قريبة، فقد كان يرافق ثلّة من الصحفيين الأجانب تسللوا عبر الحدود اللبنانية إلى «حمص» ومنها إلى ريف «حماة». كانوا يزورون البلدات الثائرة ليطّلعوا على حقائق الأرض. يحملون حقائبهم، معداتهم، كاميراتهم، فضولهم، وبعض المال، ويخاطرون في التنقل بين القرى والمدن الصغيرة. لم يبق «عصام طعمة» لأكثر من يومين متواصلين في مكان واحد منذ أكثر من سنة، قعد مدة شهر تقريباً في مدينته «دوما» حين أصيبت عينه في الشتاء الماضي، ثم استأنف عمله بعدها بعصابة تسترها.

لكن في ذلك اليوم شعر كأن القدر رتّب له أن يكون في منطقة قريبة من المجزرة ليقوم بما كان عليه فعله: إنه اللّه ذاك الذي يهديني إلى فعل الخير! كانت العتمة طاغية، وأصوات القصف تضخّمها البراري المتاخمة لمكان اختبائنا. الصحفيون الأجانب كانوا يرتعدون، واحد منهم قضى الوقت كله في الصلاة، وفي رسم الصليب فوق صدره. بعد الاشتباكات والقصف كان الجيش الحر قد انسحب من المنطقة، هذا ما عرفناه فيما بعد، فقد كانت المنطقة خالية تماماً منهم حين اقتحم رجال النظام القرية. رأيتها بعيني يا آنسة هبة، جثث مشلوحة على جوانب الطرقات، مكبّلة أيديها إلى الخلف ومقتولة برصاصة في الرأس. رأيت كل شيء حين انتهى كل شيء، كما اكتشفه من بقي من أهل «التريمسة» وقت خرجوا من مخابئهم.

قُتلت عائلات بأكملها! صوّرت جثثهم المتراكمة فوق بعضه بعضاً، نساء وأطفال مرميون وسط دمائهم في البيوت. رائحة غريبة لن

تشمّي مثلها في حياتك، رائحة أجساد متعرقة ممزوجة برائحة دم. كنت أرتعد من الخوف لكني صوّرت كل تفاصيل المجزرة البشعة تلك. أحسست يومها بأني غدوت أقوى، فقد كانت المرة الأولى التي ألتقط الصور فيها دون أن ترتجف يدي، التقطت مئات الصور بعيني الوحيدة وعدسة الكاميرا. لكن تصدقين آنسة هبة بعد مدة صرت أغلق عيني وأصور، ازدادت قساوة المشاهد! ثم لم أستطع تحمل فظاعتها أنا الذي أكل الموت من عيني في السنة الأخيرة، واعتادت روحي على الدم!! مشاهد فظيعة... لا أعرف من بمقدوره فعل كل هذا؟! كنت أضع شقفة قماش، مزّقتها من قميصي، على أنفي وأصوّر. هناك صور مليئة بالدخان، صور تكاد رائحة الموت تخرج منها. لكني صوّرت وصوّرت كأني أقاوم موتي بالكاميرا. لحظتئذ تذكرت «فراس»، واللّه يا آنسة هبة، كان يقول لي هذه الجملة دائماً: «قاوم الموت بالصورة، اجعل الكاميرا سلاحك». لأول مرة أحسّ بهذه الكلمات بكل روحي.

- كنت أقول له أنا لا أخاف الموت، الأعمار بيد اللّه! حتى إنني أحلم دوماً بطريقة استشهادي، رصاصة في منتصف جبهتي. لكنه كان يقول لي يجب أن تخاف من الموت لتهرب منه، ويجب أن تهرب منه لتعيش... الثورة تحتاج الأحياء منا وليس الأموات!!

لكن المنطقة كانت كلها محاصرة. لم يستطع أهل البلدة إسعاف من لم يمت بعد منهم. لم أعرف ماذا حلّ بالصحفيين! فقد تركتهم في مخبئهم قبل أن أتّجه إلى القرية. لكني كنت مهجوساً بإخراج الصور والفيديوهات التي التقطتها إلى الرفاق الناشطين في البلدات المجاورة ليبعثوها إلى وسائل الإعلام. كانت الطريقة الوحيدة التي ستمكننا من إخبار العالم ما الذي يحدث لنا نحن السوريين! لكني لم أستطع الخروج من المنطقة. الدبابات والمدرعات تبدو محتشدة من البعيد. قبعت أنتظر حتى نزلت عتمة الليل. كنت أحتضن الكاميرا كأني

أحتضن طفلي، وثيقتي الوحيدة ضد الموت. عند أول الليل استطعت الهرولة باتجاه الشرق. كانت الجثث مشلوحة في البساتين المحيطة، تتلامع في ضوء القمر الذي كان ساطعاً. أفكر اليوم بأن القمر ظل ساطعاً رغم كل شيء، رغم الموت هذا كله ظل يسطع! تعثّرت بجثة ملقاة في الأرض الزراعية القريبة، وكادت الكاميرا تتفلت من يدي وتنكسر. ربما كانت الجثث لأناس حاولوا الهرب فتمّ قصفهم، وربما شلحوهم هنا! رأيت جثثاً تتماوج مع مياه نهر «العاصي» المجاور للطريق، كان ضوء القمر يعكس خيالاتهم على الماء أيضاً. جثث، جثث، جثث في كل مكان! لم يكن لدي الوقت للتصوير فقد كان عليّ أن أركض، وكنت أركض وألهث، أركض وأدعو لربي ألا أموت قبل أن أوصل الصور. صار الرصاص يمرّ بقربي، أسمع أزيزه ملاصقاً لأذني وأنا أركض وأركض. ربما رؤوا شبحي في الظلام! لا أعرف! حضنت الكاميرا بشدة أكثر، وركضت بكلّ قوة باقية لدي.

- إن قتلوني، أو اعتقلوني، فستغيب الحقيقة كلها، لن يعرف العالم دون صوري ما حدث. أنا أؤمن بأن ربي تركني لهذه الوظيفة، حافظ على حياتي ووضعني هنا في هذه اللحظة من أجل هذا الواجب. وسأموت لأبرّ به!

أوصلت الصور والليل يسدل ستاره تماماً. وهناك في بيت رفيقي أمام الكومبيوتر تهاويت. بعد مدة اكتشفت بأن فدائياً آخر، شاباً من الثوار، قد نجح في إيصال بعض الصور قبلي، كانت صوراً سريعة وفيديوهات قصيرة ملتقطة بعدسة موبايل... لكن آه يا آنسة هبة كم كانت أوقاتاً صعبة!!

مسح «عصام طعمة» عينه الدامعة.

بعد أن هدأ قليلاً، وراحا يحتسيان الشاي الأخضر الذي أعدته «أم هبة»، أخرج «عصام» من جيبه الداخلي صورة متعبة. كان «فراس الصفدي» يبتسم فيها وإلى جانبه «عصام». لم تكن قامتاهما

متناسبتين، يبدو الفرق بين طول «عصام» وضآلة «فراس» مثيراً للضحك. لكن «هبة» لم تلاحظ ذلك، كانت تتملّى في تفاصيل المشهد المصوّر وقد راح يتضبب شيئاً فشيئاً من خلف دموعها. كان «عصام»، الذي يبتسم بدوره للكاميرا، يضع ساعده على كتف «فراس»، والاثنان يرفعان كاميرتيهما عالياً.

- هذه الصورة في الخالدية قبل المجزرة بيوم... أحببت أن آتيك بها آنسة هبة فقد حدثني فراس عنك طويلاً. عسى أن يتقبله اللّه شهيداً في جنته، وعسى أن يصبّرك على فراقه ويقويك لتخدمي السوريين مثلما فعل هو.

حضنت «هبة حدّاد» الصورة إلى صدرها، ودخلت في نوبة من النشيج.

حين غادر «عصام طعمة» البيت شعرت «هبة» بأنها ستختنق إن لم تخرج. كانت جدران البيت تضيق على جسدها. خرجت تمشي في شوارع «دمشق» علّها تصيب نسمة مغايرة. أيلول سينتهي هذا العام دوناً عن كل سنة، بدون مطر ولا فرح ولا رائحة منعشة. أيلول المقترن برائحة الزيتون المدقوق والزيت المقطوف حديثاً، الفليفلة الحمراء للمكدوس، والحقائب المدرسية الجديدة! أيلول هذا العام له روائح مختلفة! «دمشق» غريبة هذا العام! «دمشق» لا تشبه «دمشق»! لأول مرة يخطر ببالها أن تزور والد «فراس»، طوالَ الشهور المنقضية على رحيله لم تجرؤ على التفكير برؤية وجهه! حتى غياب حبيبها كانت شركة الاستيراد والتصدير التي يملكها الأب مازالت مفتوحة، وهو على رأسها يعمل بإصرار من يجاهد ضد الخراب، حسب ما كان يقول لابنه. اليوم اتجهت «هبة» بدون تفكير إلى مقرّ الشركة. على الباب الموصد ألصقت كيفما اتفق ورقة بيضاء مكتوب عليها: «الشركة مغلقة إلى أجل غير مسمّى».

كانت ساحة «السبع بحرات» مغلقة على السيارات، المارة

وحدهم يستطيعون المرور فيها! قُطعت مداخلها بسيارات للشرطة والأمن وقفت في عرض الشوارع. على السور الامامي لمبنى المصرف المركزي، من الجهة الشمالية للساحة، ثمة لافتة ضخمة زرقاء اللون مكتوب عليها بالأصفر: «باختصار بشار بخير... الدنيا بخير».

عناصر من الشرطة العسكرية ومن الأمن يحيطون بمجموعة من الشباب والفتيات يرقصون على أنغام أغنية: «نحن رجالك يا بشار...». البافلات تملأ الساحة والصوت عالٍ عالٍ. الشباب منهمكون في الرقص على الأنغام الهادرة، الفتيات يقفزن فرحات محمرّات الوجوه، وعناصر الأمن والشرطة يضحكون ويشاركون الراقصين فرحهم. لثوان، وهي تطالع الجموع الراقصة، أحسّت «هبة حدّاد» كأنها لمحت جسد حبيبها «فراس الصفدي» وهو ملقىً على وجهه فوق الأرض والجموع ترقص فوقه. صرخت وغطت عينيها، لكن بعد دقائق تبدد المشهد، وحدهم الراقصون بقوا يتقافزون على الإسفلت.

في الأيام القادمة لزيارة «عصام طعمة» وضعت «هبة» الملفات الموجودة على كومبيوتر «فراس» المحمول على كومبيوترها. أنشأت ملفاً اسمه «أعمال فراس»، وقررت أن تحتفظ بها إلى أن يأتي الوقت المناسب، ستقيم معرضاً كبيراً بكل ما صوّره «فراس الصفدي» خلال سنة تقريباً قضاها في أماكن الثورة يوثّق كل ما يراه ويعيشه. صور مجبولة بروحه، بدموعه، وبدمّه. ثم قررت أن عليها الخروج من هذا النفق الأسود الذي مازالت ترزح فيه منذ ما يزيد عن الشهور الستة. «فراس» لن يكون سعيداً إن رآها على هذه الحال، وهي تعتقد بأنه يراها حقاً، فهي تكلمه في كل ليلة قبل أن تنام، في تلك اللحظات تنسى قناعاتها المادية وتصدّق بالأرواح لا غير، قناعة تجعلها تتخفف من وحدتها وشبحه يحوم بحبّ حولها.

اتصلت بصديقتها «ريما العيساوي» ذلك الصباح، أخبرتها بأنها تريد أن تعود إلى العمل الإغاثي. «ريما» راحت تزغرد على الطرف الآخر من السماعة، وقبل أقل من نصف ساعة كانت تحتضنها في الصالون: «لاجئو الحجر الأسود في الطرقات والحدائق العامة... دعينا نذهب إليهم لنرى ما يمكننا فعله!».

في ذلك الوقت وعلى مسرح «القباني» كان ممثلو مسرحية الأطفال، تلك التي تعرض منذ أسبوعين، يجهّزون أنفسهم للعرض الأخير. طوالَ الأسبوعين وما من جمهور! الممثلون يأتون كل ليلة ليلفوا الفراغ، لا يوجد ولا كرسي مشغول! لكنهم كانوا مصرّين أن تبقى المسرحية، رسالة حياة ما في وجه العدم! اليوم ولدهشتهم امتلأ المسرح عن بكرة أبيه. كان متخماً بالأطفال وأمهاتهم، بالحكي والزعيق والضحك والصراخ. قعدت الناس على الأدراج. تحمّس الممثلون الذين كادوا يبكون من الفرح، وقدّموا العرض الذي طالما انتظروه وحلموا به. بعد انتهاء المسرحية اكتشفوا بأن الجمهور كله من نازحي «الحجر الأسود». انتهت المسرحية لكن الجمهور، بعد أن صفق طويلاً، بقي في الصالة. ذهب الممثلون وظل النازحون في المسرح حتى اليوم التالي وكراسي المسرح تحوّلت إلى أسرةٍ مرتجلة».

- الحجر تُقصف منذ أيام.

قالت «ريما» وقبّلت صديقتها الباكية.

بعد أن غادر «عصام طعمة» بيت «هبة» كان لديه موعد مع «عائشة الحبال» عند «دوار البيطرة». بدت «عائشة» له أكثر نحولاً وشحوباً، لكن وجهها المحمرّ بنمشه المحبب بدا أكثر فتنة. جلسا في الحديقة الممتدة بمحاذاة طريق المطار. كان ضجيج السيارات عالياً، ورائحة دخان وبارود تأتي من البعيد. كل شيء بدا كئيباً حتى العشب الذي راح يختفي تاركاً المجال للتراب الجاف تحتهما. بجانبهما كانت عائلة تشوي قطع اللحم، رائحة الشواء ذكّرت «عصام» برائحة الجثث

المحروقة التي صوّر العشرات منها في عشرات المناطق. وراح يغالب شعوراً مؤلماً بالغثيان تملّكه بقسوة. هناك عائلة أخرى تنصب أركيلة «تنباك بلدي» وتتسامر. كان ينبغي عليهما أن يرتّبا الآن نشاطاتهما القادمة وما عليهما فعله، فليس من السهل أن يلتقيا من جديد. لكن «عصام» شعر للحظات بفيض حب مكبوت في قلبه. لم يكن يجرؤ قبلاً على التفكير في الأمر، كان يشعر بأن واجبه اليوم أن يذوب في الثورة كلياً، ألا يفكّر في أي شيء آخر، فالناس يموتون والثورة طاغية السطوة! لكنه الآن، هنا، وفي هذه اللحظات بالذات، شعر بفيض من حب جارف راح يتساقط على جوانب قلبه! أراد أن يقول لـ«عائشة» بصوت مستكين، بأنه مقصّر معها كثيراً، الناس تخرج في رحلات استجمام رغم الوضع القائم، وهو لم يجلب لها يوماً أي شيء، حتى هدية صغيرة تذكرها به. أراد أن يقول لها بأنه يشعر نحوها بعواطف لا يمكنه تجاهلها، فيما كانت «عائشة» تطوي ساقيها تحت جلبابها الطويل وتبتسم بخفر. أرادت أن تقول له حين أحسّت بلغة عينيه: «يكفيني أنك معي، وحبة زيتون تغنيني عن كل مشاوي العالم». لكنها بدلاً من أن تقول دسّت أطراف حجابها داخل ياقة الجلباب وصمتت. لم يكن هذا وقت الحب، الحب الآن ترف لا يمكنها التفكير به، وحدها الثورة هي التي تستحق الوقت كله! فكّرت «عائشة» وهي تخرج سندويشتي جبنة بلدية مع شرائح خيار أعدّتهما في البيت، فراحا يلتهمانها بشهية.

أراد «عصام طعمة» أن يسرّ لها عن حلمه بيوم زفافهما، تمنى أن يحدّثها دون أن يرتبك، وأن تنساب الكلمات بمتعة وثقة مع حركات يديه الدائمة. همّ أن يجهر: «حين يسقط النظام ستكون فرحتنا فرحتين!! سأعوضك عن كل ما مرّ. سنجلب الكثير من الأولاد، سبعة أو ثمانية، لا يمكن للموت أن ينال منهم. وسنحدثهم عن أمهم «المناضلة» التي قادت ثورة دوما...».

لكن أية نأمة لم تصدر عنه.

كانت «عائشة» ماتزال تبتسم بخفر وحب. لكن بعد هنيهات طفقت تحدثه عن المستشفى الميداني الجديد الذي راحت النسوة تعدّه في بيت محايد من بيوتات «دوما»، وانغمس هو في حديثها مقترحاً ومشجعاً وتناسى الاثنان ما كانا يفكران فيه. ثم دسّ في جيب جلبابها قطعة معدنية صغيرة: «هذه الفلاش ميموري وضعت عليها نسخاً من كل الصور التي التقطتها في الثورة. خبئيها عندك».

- في عيوني... سأبقيها بين ثيابي. بهذه الحالة لن يستطيع أحد اكتشافها.

لكن «عائشة الحبال» لم تخبر رفيقها بالخبر الذي وصلها اليوم، فقد كان اسمها معمّماً على قوائم المطلوبين للنظام على حواجز «دوما» العسكرية. كانت قد جلبت هوية رفيقتها الشخصية كي تعود بها اليوم إلى «دوما». أما «عصام» فقد مرت أسابيع لم يذهب فيها إلى «دوما»، فقد كان اسمه مطلوباً منذ زمن.

لكن «هبة حدّاد» لم تعرف ما الذي حدث بعد شهرين تقريباً من زيارة «عصام طعمة» لها، فقد كانت الاشتباكات مشتعلة في «دوما» منذ أيام، والقصف طال المدينة لمدة يومين كاملين. كان «عصام» يحاول تصوير القذائف التي تسقط على البيوت كالحمم، فقد قرر المضي إلى مدينته بعد حصارها. لمحه أحد رجال الأمن الذين اقتحموا البلدة فلحق به، ضمّ «عصام» الكاميرا كعادته إلى صدره وطفق يركض، فركض عنصر الأمن وراءه. دخل «عصام» بناية من البنايات واختبأ فيها، كان ثمة عائلة كاملة تختبئ في قبو البناية، فدسّ جسده المرتجف مع الكاميرا بين الأجساد المتراكمة هناك. لكن اثنين وعشرين شخصاً قتلوا يومذاك، جميعهم برصاصة في الرأس، وكان هو من ضمن المقتولين برصاصة واحدة في منتصف جبينه. في ذلك اليوم قتلت العائلة بكاملها، ثلاث نساء وطفلان وعجوزان، وطفلة لا

تتجاوز سنتها الثالثة رحلت وهي تحتضن «أرنوبها» القماشي زهري اللون. ويومذاك نزح الجزء الأكبر من أهل المدينة إلى المناطق القريبة.

خبر استشهاد «عصام طعمة» وصل إلى «عائشة الحبال» عند المساء. نزل عليها كصاعقة حارقة. لبثت ساعات طويلة جالسة لا تتحرك، عيناها مفتوحتان وتفاصيل وجهها تنبئ بالموت. لكن عند بزوغ الفجر قامت فتوضأت وصلّت صلاة الصبح، ثم دعت أن يتقبّل اللّه رفيقها شهيداً لديه، وأن يعجّل باستشهادها لتكون قريبة منه في الجنة. مسحت وجهها، ثم قامت من فورها لتزور المستشفى الميداني الذي كان يغصّ بجرحى القصف الأخير.

لكن العودة إلى إغاثة اللاجئين في الداخل كان عملاً جعل من «هبة حدّاد» امرأة أقل يأساً وحزناً، فقد أضحى عادة يومية. تخرج بسيارتها مع «ريما العيساوي» ليعاينوا احتياجات النازحين التي تغصّ مدينة «دمشق» بهم، كما تغصّ بهم بعض مدن ريفها، تلك التي مازالت هادئة نسبياً.

اليوم كانت مباني المدارس في مدينة «التل» مليئة بالنازحين من كل المناطق المحيطة المشتعلة، وعلى الصديقتين أن تتجها، رغم خطورة الطريق، إليها. كان رفيق «فراس»، الناشط في شؤون الإغاثة، ينتظرهما مبتسماً عند بوابة المدرسة/ المخيم. استقبلهما بفرح، ثم راح يساعدهما في إنزال السلل الغذائية التي كان السيارة تمتلئ بها. «كيف استطعتما المرور من حواجز النظام بكل هذه السلل؟!»، سألهما بلهفة وفرح.

- تعرف، صبيتان بدون حجاب، لا يفتشون سيارات مشابهة!!

ضحكت «هبة» بخجل.

خلال دقائق التم حولهم عشرات الصغار. أخذت «ريما» تخرج ما في جيبها من البسكويت والسكاكر، تردّ على الأسئلة الطفولية

المتلاحقة، فيما «هبة» تنقل السلل الغذائية مع رفيقها ومجموعة من النسوة النازحات وصلهن خبر المعونات الجديدة فنزلن من فورهن إليها.

في غرف الصفوف كانت العائلات النازحة تقيم. أخرجوا المقاعد الدراسية والطاولات إلى الكوريدورات، التي تغصّ بالأطفال وزعيقهم، ورتبوا كل صفّ ليغدوا غرفة معيشة صغيرة لعائلة. هناك غرف تغصّ بعشرات الأجساد التي تتكئ على الجدران، حُصر وفرشات للنوم لا تتجاوز سماكة الفرشة بضع ميلليمترات، أغطية وحرامات، وبعض الصحون المعدنية وأباريق الماء. على بعض النوافذ، المحدّدة بشبك معدني، كانت هناك قطع من الثياب المبللة المنشورة.

- لنحمد اللّه أننا في الصيف ولا نحتاج إلى تدفئة وأغطية!

في باحة المدرسة خمس حلل نحاسية كبيرة أُشعلت النار تحتها، والفتيات تحرّكن الملاعق الخشبية الضخمة وهن يطبخن وجبات اليوم، وتتحرّك كامل الأجساد المنهمكة مع حركتها. كان أهل المدينة قد قرروا طبخ وجبة يومية لكل عائلة من العائلات النازحة. حل مقبول لتغطية احتياجات الأعداد المتزايدة في مدينة «التل» كل يوم. أما حمامات المدرسة فقد تحولت إلى حمامات للنازحين، وأماكن لغسيل الثياب ولقضاء الحاجة ولجلي الصحون.

في إحدى الغرف، التي كانت تضمّ أسرة مؤلفة من سبعة أطفال وأمهم وجدتهم، قال طفل لـ«هبة حدّاد» بأنه كان يتمنى دوماً أن يدخل المدرسة! وها هو يدخلها، وضحك مزقزقاً: «لكن لم هذه المدرسة بدون مقاعد؟! سبّورات فقط. لا يوجد طبشور... أريد طبشورا لأرسم على السبّورة»، أردف. وعدته «هبة» أن تأتيه في الأيام القادمة بعلبة كاملة من الطبشور الملون، ودونت ذلك في ورقة الطلبات لديها. ثم طفقت الأم تحدّثها عن زوجها الذي استشهد قبل أيام قليلة.

لكن الصديقتان لم تستطيعا العودة مجدداً إلى «التل». كان الوقت يهرول كالسحر وثمة أماكن جديدة ونازحون جدد يدخلون يومياً إلى المشهد! بعد عدة أيام سيصلهما أخبار القصف العنيف على مدينة «التل». لن تفكّر «هبة» وقتها إلا بالصغير الذي ينتظر الطباشير الملّون. إلى أين من الممكن أن يذهب نازحو المدرسة تلك؟! أكثر من ثلاثين قتيلاً في قصف «التل» تقول الأخبار، كما تقول بأن الهلال الأحمر مُنع من دخول المنطقة وإسعاف الجرحى. وثمة خبر آخر مفجع: صديقهما الناشط هناك استشهد! لكن هذا الخبر كان كفيلاً بجعلهما تصمتان لساعتين كاملتين، ثم تقرران أن تذهبا بصحبة «مريم محمود» إلى مسائية «كفر سوسة»، فحين يعمّ الموت هناك طريقة وحيدة لمقارعة جبروته وهي الاستمرار في الحياة!

«حيّوا سوريا ويسقط بشار الأسد

سوريا لينا وما هي لبيت الأسد»

أصوات الهتافات تتناهى من البعيد.

كانت المسائيات التي تقام هناك، إضافة إلى مسائيات حي «الميدان»، فرصتنا شبه الوحيدة بعد أن تقلّصت إمكانيات التظاهر في «دمشق» عموماً حتى كادت تنعدم! وغدونا «مريم» و«ريما» وأنا إلى مساء «كفرسوسة».

على أبواب الحي كان الشباب يضربون طوقاً محكماً عليه، ويبدو الثوار المسلّحون من البعيد، يشرّعون رشاشاتهم ترقّباً لهجوم محتمل على التظاهرة! هناك شبّان جدد في الحراسة! رمقنا أحدهم بنظرة مرتابة ومشككة. لكن شاباً آخر كان يعرفنا جيداً استقبلنا بابتسامة وتحية، كنّا نناديه «أبو الفوارس»، ولطالما اتصلت به كي يساعدني في توزيع المعونات على أهل حيه «كفرسوسة» وعلى النازحين إليه من المناطق القريبة. كان شاباً يافعاً نحيلاً وبشوشاً ولا يكفّ عن الحديث، لذلك فقد كنت أجمع الكثير من المعلومات منه في كل مرة

آتي فيها إلى هنا. دعانا «أبو الفوارس» للدخول، فولجنا إلى العمق. انتقلنا خلال ثوان إلى مكان آخر تغّير فيه مزاج الزمن كما تغيّر مزاجنا، كانت الأجساد الحارة المليئة بالطاقة تحيطنا، والهتافات والصيحات تضجّ في رؤوسنا قبل أن نبدأ بالهتاف والصياح معها. أعلام الثورة تملأ المكان، أعلام من كل الأحجام والمقاسات، وتتماوج بين أيدي المتظاهرين وفوق رؤوسهم. وهناك بين أرتال الناس نسينا الخوف وغصنا بينهم. كان صوت «الهتّيف»، ذاك الذي يمسك بالميكروفون، يصدح مغنّياً:

«ثوارا ثوارا... سوريا بدها ثوارا

ومنين أشيل الظالم وأمو هالختيارة...»

وتصيح الجموع وراءه متمايلة.

«الهتّيف» في المظاهرة هو قائدها، بيده تُكمش كل الخيوط، وله يعود القرار في تحديد لحظات الصمت والضجة! «الهتّيف» وحده الذي يقرر ما علينا أن نهتفه! وعلى أي لحن سنتمايل! متى نصفق ومتى نهتف. بقربنا تتمايل مجموعة من الشباب على أنغام الأغاني، يشكّلون نصف دائرة وهم مأخوذون بالنشوة، يرتدي كل منهم قناعاً وقد كتب على صدره: مشروع شهادة!

«اللّه محيي سوريا والثوار اللي فيها...

والثوار اللّي فيها...»

تردد الجموع بصوت واحد مصفّقة!

فجأة اقترب باتجاهنا شابان ومعهما فتاة محجبة. حيّانا أحدهما بصوت عالٍ «السلام عليكم»، ثم طلب إلينا مباشرة وبدون مواربة ألا نأتي إلى التظاهرة من غير حجاب مرة أخرى!

- لأن عدم حجابكم سبب من أسباب عدم نصرة اللّه لنا... انظروا كل فتياتنا في التظاهرة محجبات!

- لكن عليكم أن تحترمونا مثلما نحترمكم. عليك أن تحترم عدم تحجّبي كما أحترم حجابك!

صاحت «ريما» مستفزّة. وكان «أبو الفوارس» يهرول باتجاهنا من البعيد. «ماذا هناك آنسة هبة؟!»، سألني صائحاً.

- اسأل صديقك!

- عدم إيمانهم هذا يؤثر سلباً علينا... هو الذي يؤخّر نصرنا. يجب أن يرتدين الحجاب من الآن فصاعداً إذا أردن المشاركة في مسائيات كفرسوسة.

صاح الشاب بغضب.

- من قال لك أن حجابي يحدد إيماني!!

راحت «ريما» تجادله. «أبو الفوارس» بدا غاضباً هو الآخر، صاح به إن هذا الأمر لا يعنيه، وأهلاً وسهلاً بنا أياً كان ما نرتديه! ثم اعتذر منّا وسحبه هو والذين قدموا معه. كان الجمع وقتئذ يصيح بكليته:

«لبيك لبيك لبيك يا اللّه...

لبيك لبيك لبيك يا اللّه...»

أردت أن أسأل صديقتيّ إن كنّا قد سمعنا هذا الهتاف هنا قبلاً؟! فقد كانت المرة الأولى التي أسمعه فيها! لكننا كنا مانزال تحت تأثير الصدمة، وأحسست بأننا انكمشنا، نحن الثلاثة، في أماكننا.

لم يكن لدي غضاضة قبلاً في ترديد كل ما يهتفه الثوار في المظاهرات. كنت أصرخ معهم: «هي وياللّه... وما منركع إلا للّه»، مع أني في العمق لم أكن مقتنعة تماماً، لكن جسدي كان يقشعرّ حماسة وأنا أهتف به عالياً عالياً! كما كنت أصيح: «اللّه أكبر»، ولم أشعر يوماً إلا بأنه هتاف ثوري ولا علاقة له بارتباطاته الدينية. لكني أحسست الأمور تتبدّل اليوم، كأني استيقظت فجأة على متغيّرات لم أكن قد وعيتها قبلاً! ما حدث اليوم صدمني!

«قائدنا للأبد سيدنا محمد. . .»

صدحت الهتافات الجديدة.

- دعونا نذهب!

قلت، لكن «مريم» رفضت، قالت لي ينبغي أن نبقى لنقنعهم بأننا ثوار ومع الثورة ومن حقنا التواجد هنا وبدون حجاب. ووافقتها «ريما».

بجانبنا رفعت فتاة لافتة بيضاء كُتب عليها: «الحرية للمعتقل الذي لا نعرفه!» ونظرت إلى حجابها! منذ متى كنت أنظر إلى ذلك؟! لم يأت يوم وانتبهت إلى الامر! لطالما اقتنعت بأن هذا من حقها كما هو شعري الظاهر للجميع من حقي أيضاً!

- إن لم نبق متواجدين في الساحة فستضحي قوة الفصائل العلمانية كلها هباء. . . لن يكون لنا أي ثقل في المستقبل.

صاحت «ريما».

- لن نغيّر الآن من المعادلة وفي هذه الثانية. من ضرب ضرب ومن هرب هرب، والأمور كلها صارت واضحة وينبغي أن نعترف بضعفنا وعدم تأثيرنا.

منذ متى تكلّم معنا أحد هكذا؟! لقد طُردنا من المظاهرة اليوم! ألا يشعر أحد بفظاعة الأمر؟! ثم منذ متى كانت هذه هي هتافاتنا؟! كنت أشعر بضيق متزايد، ورحت ألحّ عليهما لنغادر، فاستجابت كل من «مريم» و«ريما» لإلحاحاتي المتزايدة وغادرنا المكان. لم نودّع «أبو الفوارس»، بل انسحبنا بصمت وكانت الجموع تردد وراء «الهتّيف» الصادح:

«كل يوم في عنّا شهيد

عنّا فرحة وعنّا عيد».

اليوم نحن في صيف ٢٠١٢، خمسة موظفين من المديرية التي أعمل بها قتلوا من ضمن مئة موظف فيها، وثلاثة منهم في عداد

المختفين. «عماد عساف» من «حفير» ألفوا جثته منتفخة وملقاة على تخوم المدينة مع جثث أخرى. غرفة مراقبة الدوام وحيدة وبائسة بدون صباح «عماد عساف» فيها. الأخوان «الخطيب» قتلا قبل العيد، وجدوهما مذبوحين صباحاً أمام المحل التجاري الذي يديرانه في «المعضمية». «شمس الدين» كذلك قُتل. كان عريساً جديداً تزوج منذ حوالي السنة. أذكر قطعة الراحة بالفستق التي جلبها لي حين تزوّج. أعطاني إياها خجلاً وقال لي: إنها ضيافة عرسي، جلبتها لك فقط لأنك تعرفين معزّتك عندي آنسة هبة. لا ينبغي أن نحتفل في مثل هذه الظروف. وأنا واللّه ما عملت عرس، لكن هذه الضيافة من امرأتي لك.

«شمس الدين» قتل في شهر تموز الماضي، شهر الموت الجماعي! كان ذاهباً ليشتري الحليب لرضيعه الذي يزعق بجنون من الجوع. نزلت القذيفة على بعد أمتار منه، واستقرت شظيّة منها في رأسه. جثته التي أخذوها إلى مستشفى «المجتهد» لم يعطها رجال النظام هناك لزوجته. اشترطوا عليها أن توقّع بأن زوجها قُتل في تفجير إرهابي من قبل عصابات إرهابية مسلّحة. وقّعت زوجته صاغرة، أخذت جثة زوجها برأسه المفتوحة وغادرت. كانت تقصّ عليَّ القصة حين ذهبت لأعزيها، تبدو كالممسوسة بوجهها الذاهل ولسانها المتأتئ.

في الفترة الأخيرة لا أجد نفسي إلا وأنا أتنقّل بين بيوت العزاء: عزاء بزملائي، عزاء بأصدقائي، عزاء بجيراني، عزاءات عزاءات، أواسي هذا، أتمنى الرحمة لذاك، أصمت في كثير من الأحيان، فالمشهد أعتى من أن أحاول تخفيفه بالكلام! موت موت موت.. لا أرى إلا الأردية السوداء في كل مكان. الموت يحيط بنا كسوار ضيّق من شوك. قلت لـ«ريما» ذات مساء ونحن عائدتان من تعزية صديق طبيب قتل تحت التعذيب أثناء اعتقاله. لم يعد العالم يكترث! يجاهد

الشباب في نقل الصور واليوتيوبات ومشاهد المجازر، لكن لم يعد ثمة من يكترث، أضحى الموت السوري اعتيادياً! أخبار سوريا في نشرات الأخبار معتادة! الجثث والأشلاء والحرائق، كل شيء معتاد، فلم يعد أحد يكترث بكل هذا الموت!

في الصباح التالي ستغدو «هبة حدّاد» إلى عملها ككل يوم. لا صوت لـ«فيروز» يتسلّل من شبابيك الحي الواطئة، لا رائحة قهوة ولا صباحات دمشقية معتّقة. وحدها رائحة البارود والدخان تزنّر دمشق. ذاك البيت القديم، الذي كان صهيل «فاضل عواد» يتعالى منه كل صباح، مقفلة شبابيكه منذ أشهر والصمت يلفّه. أصوات القصف والاشتباكات وحدها واضحة من كل مكان. صباحات «دمشق» مفتوحة على الفجيعة ليس إلا! الفجيعة والفجيعة!! «دمشق» كانت تحترق في بركانها. ثلاثة أيام بلياليها لم يهدأ القصف، السماء لم تصفُ من طيران المروحيات التي ترمي بالقذائف، فيما القنوات الفضائية تبثّ تداعيات اغتيال رجال خلية إدارة الأزمة.

بعد أيام ثلاثة عصيبة كانت شوارع «دمشق» متخمة بالنازحين، اقتعدوا الأرصفة وفرشوا لنومهم في حدائق الطرقات، توسّدوا الأسوار والجدران والمباني العامة، وقضوا حاجاتهم في زوايا الحارات. كانت «دمشق» تبكي أبناءها، تحتضنهم كأم عرقة لزجة حزينة وحارة. وكان على «هبة حدّاد» و«ريما العيساوي» ومعهما «مريم محمود»، ومجموعة من الفتيات الصديقات، أن يزَيِّدنَ من جهودهن لمساعدة كل تلك المناطق، أن يحاولن نقل علب الأدوية عبر عشرات الحواجز التي راحت تقسّم جسد المدينة. في ثيابهن الداخلية وبين الطيات دسّت الفتيات عبوات الحقن ولصاقات «الجيلفون»، علب الأدوية والشاش والقطن، فقد كان التفتيش على الحواجز دقيقاً كما لم يكن يوماً، وتهريب الأدوية إلى مناطق الاشتعال أخطر من تهريب الأسلحة إليها، وفي سيارة «هبة حدّاد» انطلقن.

«مريم محمود»، التي راحت بطنها في شهر الحمل الرابع ترتفع قليلاً عن جسدها، لفّت علب الأدوية والشاش في زنار قماشي حولها، فبدت كأنها ستلد للتو. كان وجهها قد راح ينتفخ، تبدو عرقة دوماً، تلوّح بأي شيء تراه أمام وجهها علّها تصيب قليلاً من الهواء وسط حرّ «دمشق». تعقص شعرها الطويل إلى الأعلى على الدوام، وترمي بفستانها الفضفاض الطويل الأسود على جسدها كيفما اتفق. كانت «هبة حدّاد» ترجوها كي تخلع اللون الأسود في حملها، فذلك سيؤثر سلباً على حال الجنين. «مريم» لن تخلع الأسود، تقول لها لن يزيد اللون الأسود من حدّة ما يعيشه طفلي وما سيعيشه، ما حولنا أقذع بكثير من لون أسود! لكنها اليوم كانت تبدو، دوناً عن بقية الصبايا، أكثر شجاعة، أكثر نزقاً وقوة، كأن ذاك الجنين الضئيل وهبها من روحه قوة غير اعتيادية. حتى إن وجه أخيها «مصعب»، ومنذ أن راحت تتقدّم في شهور حملها، غاب عن خيالها الخائف القلق. طفقت تفكّر فيه بحب، بتسليم كامل بأن ما سيحدث له سيحدث، إنه ما قدّر اللّه وسيفعل، وإن حدث ما كانت تخاف منه واستشهد «مصعب» في إحدى ساحات القتال فسيكون ذلك قدره، وليس بيدها حيلة. هذه الأفكار الجديدة، التي راحت تتنامى داخلها كلما تنامى جنينها، عملت على بعث القوة المتبددة في أيامها المتعبة. أما زوجها «صفوان الشيخ» فقد بدا وكأن رجلاً جديداً مفعماً بالأمل قد انبعث من بين أضلاعه، وسيطر على كيانه كاملاً.

على أحد الحواجز اندلقت زجاجة الكحول المعقم، التي كانت تدسّها «ريما» بين ثدييها، وانتشرت بقعاً برائحة نفاذة على ثيابها. عنصر الحاجز النظامي، الذي أدخل رأسه إلى داخل السيارة، اشتم رائحة الكحول. صاح ضاحكاً متخابثاً: شو الصبايا سكرانين من الصبح؟! حلو شكلكن كثيراً وأنتن سكرانات!!

غمز فتضاحكن، فيما كان وجيب قلوبهن يُسمع إلى الخارج. لقد أنقذتهن رائحة الكحول!

- لكن أنت، الست الحامل، سيؤذي الكحول الولد في بطنك.

صاح على «مريم»، التي كانت تجلس في المقعد الأمامي بجانب «هبة». ثم صاح من جديد: «ما هذا الكتاب على التابلو؟!». كان كتاب «محمود درويش»: لماذا تركت الحصان وحيداً، وحيداً خلف الزجاج الأمامي.

- ديوان شعر!!

- لمن؟!

- لمحمود درويش.

- عندك ديوان لنزار قباني؟!... أنا أحب نزار قباني.

- لا واللّه... للأسف.

- في المرة الثانية اجلبي معك ديوان له...

وضحك مقهقاً قبل أن يضرب ضربتين على سقف السيارة منذراً إياهن بالرحيل.

- ماشاء اللّه... متذوّق للشعر أيضاً!

علّقت «هبة» ساخرة.

- احسبي حسابك في المشوار القادم بديوان لنزار ربما نتمكن من تهريب أدوية أخرى.

همست «مريم» وهي تحرّك منشورة بيضاء عليها كتابات بالأسود أمام وجهها. ضحكت الصبايا لكن فرائصهن كانت ماتزال ترتعد.

- ما هذه المنشورة في يدك؟!

سألتها «ريما».

- لا أعرف، جلبتها هبة معها!

أخذتها «هبة» وهي تحاول أن تنظر إلى الأمام باتجاه الطريق،

كانت منشورة «اليساري» السرية التي دأبت على توزيعها: من أين أتيت بها؟! تخيّلي لو أنه رآها!

- لن يستطيع قراءتها...

علّقت «مريم» بلامبالاة.

- سيعذّبوننا حتى نعترف من الذي يعدّ المنشورة.

لكن «مريم» استعادت المنشورة من «هبة» واستمرت في تحريكها أمام وجهها قبل أن تصرخ: سأموت من الحر!!

(٢٦)

عن الحصار والرغبة وما بينهما

بعد استشهاد أخي «مهند» مرّت شهور لم تخابرني أمي. اتصلت بها مرتين أو ثلاث مرات، كان صوتها يأتيني من سماعة الموبايل متعباً حزيناً، لكنه خالٍ من نبرة العتب القديمة. اليوم صباحاً اتصلت بي لتقول بأن أبي مريض. ثم حاولت أن تطمئنني، بعد أن شعرت بالخوف القلق الذي شاب صوتي، بأنه التهاب في القصبات الهوائية ليس أكثر، لكنه متعب ويريد أن يراكِ.

لم أفكّر كثيراً، أخبرت حبيبي «خالد» بأني سأسافر ليومين إلى «اللاذقية» لأزور أهلي وأعود. بدا مستغرباً من قراري المفاجئ!

- ربما أزعجوك هناك، أو آذاك الشبيحة أو أي شيء...

- لا تقلق حبيبي، هما يومان ولن أخرج من بيت أهلي... سأرى أبي فقط.

وذهبت.

في الطريق الطويل إلى «اللاذقية» وصلت «ريما العيساوي» سماعات الأذنين وراحت تستمع من الكومبيوتر المحمول إلى سيمفونية «مالك جندلي» التي وضعها من وحي أغنية «القاشوش» بلبل الثورة الحموية. كانت حريصة ألا يعلو الصوت كيلا يتناهى إلى مسمع أي من المسافرين حولها، فستكون كارثة بالتأكيد إن سمعوها! تذكرت «أبو حمزة» الذي أهداها السي دي حين زيارة «حماة». فيما بعد قيل

لهم بأنه استشهد في أثناء الاجتياح الأخير لـ«حماة» قبل حوالي السنة من الآن!

طوالَ الطريق لم تفارق «ريما» خيالات أمها وأبيها. ألحّ أخوها «مهند» على ذاكرتها كثيراً في أول الرحلة، فقد كانت آخر مرة استقلّت فيها البولمان باتجاه مدينتها «اللاذقية» في يوم عزائه، لكن بعد مدة احتل أبوها وأمها واجهة تفكيرها. كانا قد انتقلا من القرية، التي يقضيان صيفهما فيها عادة، إلى مدينة «اللاذقية». قالت الأم لها إن قذائف هاون من قرى المعارضين المسلحين سقطت على أطراف القرية، على أحد بيوتاتها المتطرفة حيث نصب عناصر الجيش النظامي بقربه مدفعية راجمة. مات صاحب البيت وأولاده والعسكري الذي يطلق القذائف من الراجمة. كان من الممكن أن تسقط قذائف أخرى على أسطح أخرى في القرية، هذا ما جعلهما يقرران مغادرتها في اليوم ذاته.

لا أعرف لم كانت مدينتي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بأهلي، أحسّهما شيئاً واحداً حبيباً ومؤلماً، كأن القدر الذي وسم «اللاذقية» بكلّ هذه الذاكرة الثقيلة وسمهم أيضاً!

تلك الظاهرة الجديدة التي راحت البلد برمتها تتحدّث عنها اليوم، ظاهرة «التشبيح»، كانت أمراً اختبرناه نحن أهل «اللاذقية» منذ زمن بعيد، منذ أوائل التسعينيات من القرن الماضي. كنت ما أزال في مدرستي الابتدائية، لكن ذاكرتي مفعمة بتفاصيل ومشاهد وحكايات وصور لا يمكن لها أن تتبدد. ذلك المصطلح الذي يعمّ «سوريا» اليوم كان لنا نحن، أهل «اللاذقية»، شرف اختراعه أولاً، فنحن من ذاق المرارة بسببه أولاً.

قبل أن أغادر مدينتي، لأدرس الفنون الجميلة في جامعة «دمشق»، أتى «أبو ريبال» إلى حارتنا في «اللاذقية». كانت سيماء «التّشبيح» بادية عليه، كما كنا نعلّق ضاحكين في بيتنا: رأس حليقة،

لحية طويلة غير مشذبة، كرش كبير، وبنطال عسكري مموّه يرتديه على الدوام! تلك الأيام تمرّ اليوم في ذاكرتي كأنها قطعة منسية من فيلم تراجيدي قديم بالأسود والأبيض.

بدأ «أبو ريبال» بإخراج كراسي بيته إلى وسط الحارة وراح يستقبل ضيوفه هناك، يعلّق ساخراً على الرائح والغادي أياً كان! ولطالما سخر ممّن يمرون قربه وينوؤون بثقل أكياس السكر أو الرز أو عبوات الزيت وهم قادمون من طوابير طويلة أمام المؤسسة الاستهلاكية. ثم صار يصفّ سياراته في الحارة أيضاً، حوّلها إلى كراج خاص بسياراته التي كانت تتزايد كل يوم! من بعد غرز ثلاثة قضبان حديدية ثخينة على باب الحارة، بينها سلاسل معدنية متصلة، فأغلق الحارة تماماً! لم يجرؤ أحد حتى اليوم على سؤاله: «من أين أتيت بهذا الحق؟». مع الزمن صار اسم الحارة «حارة أبو ريبال»، حتى قاطنوها كانوا يدلّون على بيوتهم بالاعتماد على المعلم الأساسي: «بيت أبو ريبال». مع مرور الوقت زرع «أبو ريبال» نباتاته في الحارة، ونصب شادراً دائماً ومراجيح لأطفاله. لم يكن أحد يجرؤ على مساءلته عن حقه في فعل كل ما فعله وسيفعله، فقد كان أحد أزلام «عائلة الأسد»، «معلّمه» كان واحداً من رجال العائلة التي راحت تسيطر على المدينة وما حولها، ولم تكتفِ بمناطقها في الجبال.

تلك السنوات، سنوات الثمانينيات والتسعينيات، تلحّ على ذاكرة الكثيرين من أبناء المدينة كما تلحّ عليّ في الآونة الأخيرة. لكني أكاد لا أصدّق بأنهم راحوا يتناسون كل ذلك. هل لأنهم رؤوا الخطر من خارجهم قادماً وأشدّ هولاً، أم هو خوف تزايد من الشبيحة أنفسهم، أم ماذا؟ يكاد رأسي ينفجر حين أطيل التفكير في هذه المفارقة. الكثير مما يحدث اليوم شبيه إلى حدّ بعيد بما حصل في ذلك الوقت: الخوف، الترقب، الحذر، و«الشبيحة» أولئك كانوا مرافقي طفولتي ومراهقتي، ولسوء الحظ كانت المنطقة التي نسكن فيها مليئة ببنايات

يتراكم «الشبيحة» أمام بواباتها ليل نهار مشرّعين أسلحتهم. لم أفهم البتة، كما لا أفهم اليوم، ما السبب الكامن وراء كل تلك الغطرسة والعنجهية وعدم الاكتراث التي تنثال منهم! لطالما رأيت رجالاً محترمين يمرّون من أمامهم، وهم يحتلون رصيفاً ما، مطرقين إلى الأرض ومهرولين خوفاً، إن سمعوا بآذانهم شتائم أو عبارات ساخرة سيتظاهرون بأنهم لم يسمعوها. كانت «اللاذقية» ملكاً مستباحاً لهم يفعلون فيها ما شاؤوا! فهم القانون والدولة وهي ملك أيمانهم!

أصوات إطلاق الرصاص قريبة وصلت إليهم حين كان البولمان ينهب الطريق، قطعت سلسلة ذكريات «ريما العيساوي».

«يبدو بأنها من جهة «تل كلخ»»، صاح أحد المسافرين. لم يقف سائق البولمان، أسرع بمركبته قدر ما استطاع، حتى شعر المسافرون بأن الحافلة ستطير بعد قليل. أزّت رصاصة في زجاج البولمان الخلفي وخرجت من السقف دون أن تصيب أحداً. أسرع البولمان أكثر، وصار يترنح على إسفلت الأتوستراد المتعرّج. حينما اجتاز منطقة الاشتباك أوقفه حاجز للنظام. صعد إلى البولمان عنصر يرتدي بزّة سوداء كعناصر الشرطة، طلب الهويات الشخصية للمسافرين وصاح بهم: «الذي لم يختبئ تحت مقعده من الخوف لينزل من البولمان». ثم قهقه ضاحكاً على مزحته. لم يضحك أحد غيره. السائق افترّ عن ابتسامة صفراء وكذا المسافرون في المقاعد القريبة منه. لم يكن ثمة من أحد في البولمان لم يختبئ تحت المقاعد حين لعلع صوت الرصاص. سأله السائق لم يرتدي لباس الشرطة؟! يبدو بأنه كان يعرفه قبلاً كعنصر أمن على حواجز الطريق الذي يقطعه كل يوم تقريباً.

- أجبرونا على ارتداء ألبسة الشرطة لأن المراقبين العرب آتون... شو بيعرفني أنا!!

صاح العنصر. كأنه لم يكن يريد أحداً من البولمان! فقد بدا بأن كل المسافرين يملكون هويات شخصية من المنطقة الساحلية. ودّع

الشوفير وقال له: «روح اللّه معك»، ثم نزل من الحافلة بعد أن أخذ زجاجة كولا موضوعة أمام أحد المسافرين. طلبها منه فقدمها الأخير له بسرعة كأنه يقول: «أرجوك خذها واذهب».

كانت «اللاذقية» هادئة كأنها مدينة من زمن آخر. لكنه هدوء واجم. لا رائحة بارود ولا دخان في الأجواء، رائحة البحر العليلة تذهب بالروح فحسب، لكن رائحة الترقّب قوية. لا صوت قصف وإطلاق رصاص وتحليق لمروحيات الموت، وحدها العصافير وضجة الناس تملأ الفضاء، ومئات النعوات تتخم جدران المدينة. مئات الصور لشبان ورجال بالزي العسكري أو بدونه، ضاحكين أو متزنين، ما يجمعهم كلهم هي جملة مكررة كتبت على كل نعوة من نعواتهم: «شهيد الجيش العربي السوري».

على باب بيت أهلها وقفت الأم. للحظة فكرت «ريما» كم هي مشتاقة لها! مشتاقة حدّ الموت! لم ترها منذ استشهاد «مهند» قبل شهور. أما الأم فقد استقبلت ابنتها بالبكاء، بكت وبكت وبكت، تحوّلت عيناها إلى خوختين حامضتين ورائحتها تضوّعت، رائحة حب ودفء وخوف وحزن وغضب وعتب! دفنت «ريما» أنفها في عنق أمها وراحت تعبّ من نسيمها الحبيب. «رائحة أمي أجمل ما يمكن أن تلتقطه حاستي يوماً».

جلست على الصوفا، وكانت صورة كبيرة لأخي «مهند» معلّقة على الحائط فوق الصوفا، مؤطرة بالأسود وشريطة سوداء معلّقة على زاويتها العلوية اليمنى. يبدو فيها باسماً بلحية مشذّبة وشعر مصفف قصير، يظهره أصغر من عمره بسنوات. كانت صورة أخذها منذ وقت حينما قرر تجديد جواز سفره، فقد كان يخطط للسفر مع صديقه «عمر يوسف» للعمل خارج البلاد. بجانب الصورة كان ثمة لوحة رسمتها يوماً لقريتنا، مشهد انطباعي مفعم بالألوان! كأنها صورة إبداعي المتوفّى! هذا ما شعرته، وفركت أصابعي التي أحسّ عجزها المتزايد

عن الرسم! رمقتني أمي وأنا أطالع الصورة، مسحت دموعها قبل أن تقطّب حاجبيها، ثم فجأة صارت عيناها غاضبتين! لا أعرف عيني أمي وهما غاضبتان! أمي تلك المرأة الرقيقة حدّ الياسمين. غريبتان عينا أمي اليوم! كانت تلومني، تلهج بالكلام بدون توقف، كلمات وكلمات وكلمات، جمل وجمل وجمل، تتوالى وراء بعضها بعضاً. اعتقدت بأنها رضيت عني منذ رحيل وحيدها «مهند»، لكنها اعترفت اليوم بأن هناك من أخبرها بالذي أقوم به في «دمشق» هذه الأيام، وماذا أكتب في هذا الذي يسمى «فسبوك». لامتني لأني أقف مع الذين يذبحون رجال الجيش ويقتلون «العلويين» في القرى!

حاولت أن أتحدث، أن أكذّب ما يصلها من شائعات، أن أشرح لها كيف يُقتل الناس في المناطق الثائرة. كانت تسمعني قليلاً، تلومني أكثر، تشكّك، تتهمني بالتفلسف، وتبكي. للحظات شعرت بأن كل الكلام عبث! كأن مناطق سوريا تفصلها مساحات من الفراغ المصمت! صمت.

بلدي تتشظّى، تتفتّت، وترحل إلى العماء! وأمي تبكي وتبكي...

في غرفة النوم كان أبي ممدداً على سريره العتيق، يبدو منهكاً وأكبر من عمره بسنوات. تمددت بجانبه وحضنته. قبلني ولم يتكلّم، حضنني وقال لي «اشتقتلك يا بيي» وصمت. أما أمي فقد قدمت لتبكي بقربنا وتدمدم أدعيتها. كنت أريد أن أحدثهما عن حبيبي «خالد»، عن ذاك الشعور الغريب الذي اسمه الحب، ذاك الذي أختبره للمرة الأولى في حياتي، شعور أقوى من كل شيء، من الخوف والموت والحرب والحزن، أقوى من الخلافات والطوائف والأحزاب والأفكار، شعور يماثل جمال الحياة وقوتها. لكنني أشعر، لأول مرة كذلك، كم هي أمي بعيدة عني! لأول مرة لا أقدر أن أبوح لها بما يعتور في صدري.

بعد ثلاثة أيام ستتحسن صحة أبي، سيقوم من فراشه ويتناول الفطور معنا. كان فطور أمي قد غدا أكثر فقراً: صحن زيتون وصحن مكدوس بدون جوز وحبتا بندورة. قالت لي كأنها تعتذر: حبيبتي الأوضاع صارت أسوأ، تعرفين!

مسكينة أمي. كان يكفي أنها دأبت على إرسال بضع مئات من الليرات لي في أول كل شهر، ولم تنقطع في أي شهر عن بعث المال، حتى بعد أن اندلعت خلافاتنا. رغم أني أعرف بأن أسعار المواد الغذائية راحت تتضاعف وتتضاعف، وحالهم في البيت تسوء وتسوء. بدت أمي أكثر هدوءاً وسعادة ووالدي بيننا، كانت تعتني به كمن تعتني برضيعها! ثم بعد الفطور جاءني اتصال إلى موبايلي من «دمشق»، كانت صديقة لي من مدينة «السلمية»، حدّثتني عن أخيها الذي اعتقلوه البارحة، ثم عن صديقي «رامي محفوض» ذاك الذي وصلتني منه رسالة قبل شهور قليلة، وقت كان يقضي خدمته الإلزامية في فوج «إنخل».

كان «رامي» قد طلب نقله من فوج «إنخل» مرات ومرات، ولم تستجب السلطات العسكرية لطلبه. تحدّثت الصديقة إلى «ريما» عن تفاصيل نقلهم لـ«رامي» إلى العاصمة «دمشق» لأيام، ثم كيف عادوا ونقلوه إلى مدينة أخرى قرب «حمص» اسمها «القصير».

- هل تعرفينها؟!

سألت الصديقة.

- أسمع بها!

أجابت «ريما»، ولم تحدّثها لا عن «أبو ياسر» ولا عن جرحه الذي أحدثته قذيفة كادت تودي بحياته في «القصير»!

لكن «رامي محفوض» قُتل بقذيفة أطلقها مسلّحو «القصير» على حاجز الجيش هناك، قُتل ومعه عشرات العساكر في تلك القذيفة..

ولم تكمل الصديقة أخبارها فقد راحت «ريما» تجهش بصوت

عالٍ، تبكي وتبكي، لأنها لم تستطع مساعدته يومذاك، ولأنها كانت تتمزّق، ولأنها... وفكّرت هل يكون «رامي» قد استشهد في الكمين ذاته الذي حدّثها عنه «أبو ياسر» في «القصير»، ذاك الذي شارك فيه مع بقية رفاقه الثوار هناك، أم في كمين آخر! روحها تلك التي كانت تتشظّى، تتفتت، نصفها كان هناك ونصفها هنا!

بعد يومين ستقرر «ريما العيساوي» العودة إلى «دمشق»، مع أنها كانت قد وعدت أمها بأن تبقى لفترة أطول في «اللاذقية». كانت الأم قد بدأت تهدأ قليلاً، وتغدو أكثر استقراراً وفرحاً! لكن «ريما» ستقرر الهرب. ستقول لأمها بأنها ستذهب لتزور إحدى صديقاتها، وستترك حقيبتها الصغيرة وتأخذ الكومبيوتر المحمول، ستقبّل والدها، الذي سيربّت على رأسها كأنه عارف بما ستقوم به، وسيشيّعها بنظرة طويلة مليئة بالحب والعتب. ستقبّل أمها طويلاً، تتشمّم رائحتها الحبيبة للمرة الأخيرة، وملمس ثوبها الأسود الذي تتحسّسه على خدها، ثم ستروح في حفر تفاصيل البيت في ذاكرتها: الصوفايات العتيقة، الدهان الذي قشّرته رطوبة البحر، صورة «مهند» الباسم، طاولات الخشب المتعبة التي تغطّيها شراشف الأم المطرّزة، التلفاز القديم، ورائحة الحبق المزروع في تنكات معدن صدئ بجانب الشباك. الأم تشعر بأمر ما غريب، فتسألها: لن تتأخري عند صديقتك، أليس كذلك؟

- لن أتأخر، سأعود بكرا صباحاً!

وذهبت.

كان «خالد الساعي» قد أتى بسيارة أحد اصدقائه ليلاقيها على مشارف مدينة «حمص» كي يقفلا عائدين سوية إلى «دمشق». «الطريق خطير للغاية حبيبتي... لن أدعك تقطعين طريق حمص الشام وحدك».

- لكنه خطير عليك أيضاً!!

- حسناً، نموت سوية أفضل!

وأغلق الهاتف يومذاك قبل أن ينطلق من «دمشق».

لا أعرف لمَ أشعر بأن مشاعري القديمة، التي ازدهرت في أول يوم لاقيت «خالد» فيه في غرفتي في حي «القيمرية»، تذهب مني!! تلك الأحاسيس الطازجة الفرحة الدهشة كانت قد تغيّرت منذ رحيل «مهند» لا أعرف لماذا! شيء خارج عن يدي. لكني اليوم، وأنا أقبع إلى جانب «خالد» في السيارة التي تنهب الطريق إلى «دمشق»، شعرت بأنه قريب مجدداً: هل يمكننا أن نمرّ على مدينة «سلمية»؟!

- لماذا؟! الطريق خطر جداً!!

- أرجوك حبيبي ينبغي أن أعزّي أم رامي محفوض، تذكره؟!... صديقي الغالي! لقد استشهد في القصير... إن لم أنظر في عينيها، وأعزّيها بشهادته، وأضمّها إلى صدري، ستقتلني عقدة الذنب!!

لم يناقش «خالد» كثيراً، وانعطف باتجاه الطريق الغادي إلى «سلمية».

كان من الممكن لأم «رامي» أن تطردني، أو تشتمني، أو تتّهمني بأني فرحة لموته ككل المعارضين، كما فعلت امرأة عمي «أم محمد أهلين» في عزاء أخي، فلم أكن أعرف حقيقة موقفها من كل شيء! لكن قلقي بمعظمه تبدد حين لاقيتها، لم يحدث أي شيء مما ترقبته! لم تكن عنيفة معي البتة! استقبلتني بردائها الأسود الطويل وبسمة حزينة، ثم حضنتني. كنت أبكي وهي تقبّلني. ثم أعطتني مجموعة أوراق كانت مدسوسة في مخبأ في الجيب الداخلي لبزّة «رامي» العسكرية. كانت تعرف بأنه يحبّني، وبأني كنت رفيقة قديمة وغالية، كما عبّرت مراراً، ولدهشتي فقد كانت تعلم بالرسالة التي بعثها إليّ حين كان يخدم في فوج «إنخل»، ووقت كان يفكر بالهرب.

- يا ريته هرب إذا كان الموت هو النهاية! لو هرب ربما كان أحسّ بأنه قام بفعل ما ضدّ ما يحدث...

قالت ومسحت عينيها. وفكّرت كم هو قرار صعب أن تختار بين قناعتها بأنه يدافع عن الوطن وبين خوفها من فقده. أصعب خيار من الممكن أن توضع أم فيه!! همست لي: ألا تريدين أن نقرأ سوية ما كتب رامي؟! وهزّت برأسها محاولة الابتسام لكنها كانت محاولة فاشلة! كان مما قرأته لي: (*قالت لي أمي في آخر مرة رأيتها فيها: يا حبيب أمك كن مقتولاً ولا تكن قاتلاً! وعاشت معي هذه الجملة كل الوقت، كانت تقودني كي أحاول المستحيل وأنتقل من فوج إنخل!*

نقلوني إلى حاجز بريف دمشق. لا أعرف إن كانوا قد اعتقدوا بأنه مكان أفضل من إنخل!! نقلوني من جهة في جهنم إلى جهة أخرى منها: حاجز القهر.

لم يكن ما يحدث يشبه شيئاً، يشبه القهر فقط... القهر اليومي. كنت أشعر بكمّ الحقد المصبوب عليّ، أنا الذي أقف لأفتش في هويات المارة كل دقيقة. كنت أمثّل بالنسبة إليهم كل ما يعانونه من قهر. لم يكن ذنبي أن هناك من يرتدي بزّتي ويؤذيهم. تمرّ السيارات وتمتد الأيدي بالهويات. أشعر برجفة فيها، لكن معظم العيون كذلك مليئة بالتحدّي).

في طريق العودة وعلى تحويلة «حمص» كان ثمة صهاريج وقود عسكرية محروقة ومتفحّمة على جانبي الطريق. قال «خالد الساعي» إن الثوار استهدفوها قبل يومين لقطع الوقود الواصل إلى الجيش النظامي.

- لم أسمع أخبار منذ أن أتيت إلى بيت أهلي... التلفاز لا يُفتح على الأخبار أبداً هناك!!

قالت «ريما العيساوي». السيارة تواصل انطلاقها على الطريق المقفر مسرعة. عند مفرق «يبرود»، قريباً من مدينة «النبك»، كان هناك

أربعة بولمانات مرمية على الطريق، اثنان منها مقلوبان في منتصف الأوتوستراد، مكسورة الزجاج والدواليب مصابة. قطع الزجاج كانت تملأ الأرض الإسفلتية.

«خالد» كان يبدو مرتبكاً محمر الوجه وهو يزيد من سرعة السيارة. لا أعرف كيف وصلنا إلى مشارف «دمشق». بدا الطريق طويلاً، صعباً، ومثيراً للرعب كما لم يكن يوماً. حالما بدأت منطقة «طلوع الثنايا» تنسفح أمامنا ألفينا باصات متفحمة وسيارات عسكرية ومدنية سوداء، كان الدخان ما يزال يتصاعد من إحداها. استراحة «طيبة»، التي طالما عجّت بالرواد المسافرين، مخرّبة اليوم وزجاج واجهاتها محطّم، مثلها كمثل شركات السيارات المنتشرة على جوانب الأتوستراد. أما «دمشق» فقد كانت أشبه بمدينة أشباح، وقائظ نهايات شهر آب يزيد من غموض المشهد وضيقه.

حدّثت حبيبي «خالد» عن كل ما مرّ معي في «اللاذقية»: «تعرف حبيبي صرت أقتنع بأن المعارضة والثوار لم يستطيعوا أن يوصلوا رسائل مطمئنة للعلويين. هذا الخوف له ما يبرره!».

لكن «خالد» حدّثني عن أهله، وعن «شبيحة العلويين» الذين أتوا البارحة مع رجال الأمن وقاموا بسلسلة اعتقالات في مدينته كما خربوا ونهبوا البيوتات.

- الذي بدأ بالقتل هو الذي يريد رسائل مطمئنة أم العكس؟

نبر «خالد» ونحن نلج قلب «دمشق».

- ليس هذا كلاماً عادلاً خالد!

دخلنا في مشادة طويلة. كنا متعبين وخائفين. ثم حين وصلنا إلى غرفتي كانت رائحة الرطوبة اللطيفة تفوح منها.

- هل صحيح بأننا نختلف طائفياً حبيبتي؟!

صاح «خالد» فجأة كأنه استيقظ من النوم. بعد دقائق اقترب مني، قبّل جبيني واعتذر عن غضبه المفاجئ. اعتذرت بالمقابل عن تعصّبي.

كان ينبغي أن نتعاهد بألا نعود لهذا الشجار المقيت مجدداً، لكن قلقاً مدفوناً بداخلي لم تبدده قبلاتنا تماماً، فقد كان علينا أن نناضل كيلا تأخذنا أوحال الواقع في مجراها، وكان الأمر صعباً للغاية! ثم طفقت أفكّر بطريقة ما أخبر فيها أمي بأني عدت إلى «دمشق» دون أن تحزن!!

عند الليل كان حبيبي «خالد» قد غفا، تمددت بجانبه علّي ألتمس قليلاً من الأمان. خيالات الناس، ألبِستُهم السوداء، وجوههم، صيحاتهم، روائحهم، دموعهم، فزع عيونهم، التداخلات، التشابكات... تجنّ في رأسي. دوامة مجنونة تلك التي ألقينا فيها. فجلست لأكتب علّي أتعب قليلاً وأغفو..

لم يقترب جسدانا من بعضهما بعضاً كما ينبغي لجسدي عاشقين أن يقتربا. رائحته التي كانت تغرقني بماء شهوتي تغيرت، أحسّها تغيرت. كنا قبلاً حين نبتعد عن بعضنا بعضاً أياماً نضحي أقرب إلى ممسوسين بالرغبة، يشعلنا مشهد عابر نذكره على سريرنا، أو كلمة سرية بيننا أو لمسة. هل يكون الموت قد تسلل إلى جسدينا؟ أم إنه شيء آخر ذاك الذي يأسر شبقنا؟!

تراكمت دفاتري، تلك التي أوثق فيها كل ما يجري منذ حوالي السنة والنصف، صار عددها كبيراً تصطف بجانب بعضها بعضاً في قلب تجويف في الحائط، أشبه بمكتبة حجرية، دفاتر من كل الألوان والأحجام وأوراق مدسوسة فيها ووثائق. أشعر بأني أملك كنزاً حقيقياً حين أتأملها، كما أشعر بأنها تخفف قليلاً من شعوري المتنامي بالعجز والذنب والقلق. هذه التوثيقات ستوصل للعالم ما عاشه السوريون من ويلات طوالَ هذه الشهور الطويلة، ستوصل لهم آهاتهم وأنّاتهم وآلامهم وعذاباتهم، ستوصل للعالم ما خفي وطُمر وتم إسدال الغلالات فوقه، ستوصل لهم بالتأكيد!

للكلمات تأثير يختلف عن الفيديوهات واليوتيوبات، عن الأخبار والأحداث والمقابلات التي يبثّها الناشطون المعارضون يومياً، هي

تعمل في مكان آخر. للكلمات وقع يجعل من القارئ يشعر بما دار في دواخل شخصية ما قبل أن يُقتل، أو ما شعرت به قبل أن يُدمّر بيتها، أو يموت حبيب لها أمام عينيها! الكلمات تستطيع أن تنقل ما أحسّه طفل وقت نزول قذيفة قريبة، وكيف تمزّق قلب أم على ابنها! هذا ما تستطيع الكلمات أن تنقله دون الصور.

وتذكرت «ريما» صديقها «فراس الصفدي»، ذاك الذي قُتل في «الخالدية» قبل شهور، ورأيه بأن الصورة تنقل ما لا تستطيع الكلمات نقله، وشعرت بأنها اشتاقت إليه كثيراً! راحت صور الذاكرة تمرّ سريعاً عليها: «فراس» وهي في بهو الكلية يحتسيان الشاي، «فراس» وهي في إحدى الرحلات الجامعية إلى مدينة «الزبداني». كيف كان يتكلم، ضحكته، نكاته، لكنته الدمشقية العتيقة. كان «فراس» يتحوّل إلى ذكرى بعيدة مؤلمة! فيما «أبو أحمد الصافي»، ذاك الذي تعرفت إليه قبل أيام، يحتل مكانه في الذاكرة، وللتو فرض نفسه على تفكيرها! كان يعرف كل القتلى في مدينة «داريا»، فهو الذي دفن معظمهم! يدور في سيارته الهونداي الصغيرة البيضاء في الشوارع وتحت القصف، يراوغ الشظايا والحرائق والنهايات، يلمّ الجثث المرتمية هنا وهناك، يأخذها إلى باحة المسجد ويكفّنها... «لوجه اللّه»، كما عبّر. ثم يدفن الجثث فيما القصف مستعر، «فإكرام الميت دفنه». قال لي وهو يقف متعجّلاً عند باب بيته: أنا رأيت الموت مرات ومرات. كنا ننقل الناس الميتة، إلى الآن لم أعرف جثث من هي؟! ندور في السيارات، ونلمّ الجثث من الشوارع والأقبية... مئات ومئات، سيارتي كلها مثقّبة بالرصاص!... رأيت الذي لم يره بشر. لن تصدقي بشاعة ما رأيت!! الذي صار يا أختي بهذا البلد ولا الخيال بيتصّور أفظع منه، ومهما حاولتم أن توثّقوا وتكتبوا لن تقدروا... الذي حدث أفظع... أفظع بكتير...

- وإن لم تتعرف على صاحب الجثة هل تدفنها؟!

- يصوّرها الشباب بالموبايل. إذا أتى من يسأل عن جثة قريب له أريه الصور ليرى إن كان من يريده بينها! على فكرة أختي حتى لو كان القتيل عواييني أدفنه، ما عندي مشكلة... هو روح كمان! لا يجوز من اللّه أن أتركه هكذا، مرمي مثل الحيوانات أجَلّك... إكرام الميت دفنه.

الدفتر الذي كان يغصّ بالأسماء شاهد على ما دفنت يداه: ٧٥٠ جثة دفنها «أبو أحمد الصافي» خلال أسبوع دامٍ مرّ على مدينة «داريا». ولأن الموتى راحوا يُخلقون في الشوارع والأقبية والشقق والمحلات وفي كل مكان، لم يعد من متّسع للعناية بكل جثة على حدة. فصار شباب «داريا» يصفّون الجثث قرب بعضها بعضاً، ويكفّنونها بانتظار الدفن الجماعي.

قبل أن نغادر البيت أعطاني مجلة ملوّنة متقنة التصميم اسمها «عنب بلدي»، يصدرها الناشطون في المدينة عوضاً عن المطبوعات والدوريات الرسمية التي لم يعد لها وجود هناك. على صفحات تلك المجلة كانوا يسفحون كل ما يريدون إجهاره، كل ما يوثقونه، وكل ما أرادوا قوله منذ زمن بعيد!

ثمة رجل آخر لا يمكنني نسيانه في «داريا»، رجل نحيل للغاية، حانٍ، والكمادات المصفرّة تغطي أكثر من نصف وجهه الأيسر. «أبو نادر» الناجي الوحيد من مجزرة حصلت في إحدى أقبية البنايات التي اختبأ فيها العشرات. همس لنا كممسوس بأن عناصر النظام أخرجوا الرجال من القبو على دفعات، اثنان اثنان في كل دفعة، صفّوهم على الحائط المقابل للقبو، ورشّوهم بالرصاص. كل رجلين قتلا سوية أمام أعين الباقين الذين كانوا ينتظرون حتفهم القريب! ثلاثة وستون قتيلاً ارتموا يومذاك في القبو، بينهم ناجٍ وحيد، هو «أبو نادر» أبقاه القدر ليكون شاهداً على ما حصل، دخلت الرصاصة من عنقه وخرجت من وجنته، ملليمترات قليلة فصلته عن الموت كأبيه وأخويه

وأصدقائه وجيرانه. حين استيقظ كانت الأجساد المدماة منتشرة حوله، الذباب يطنّ، رائحة الدماء طاغية، والجو خانق كقبر. أزاح جثة من عليه وقام يهرول خارجاً.

- «مازال الصوت في رأسي... من أجل اللّه، اقتلوني ودعوني ارتاح. لا أستطيع النوم. كلما نمت أسمع صوت صراخ أبي أو حشرجات أخوي...».

كان يبدو أن المليمترات القليلة التي فصلته عن الموت فصلته عن الجنون كذلك. لم يكن بإمكاني يومذاك أن أكمل حديثي معه، فقد كانت الفجيعة أفظع من أن يتحملها المكان.

في الوقت نفسه الذي كانت مدينة «داريا» تلملم جراحها فيه، كانت مدينة «جرمانا» على الجانب الآخر تلملم أشلاء أبنائها بعد تفجير كبير هزّها قرب المقبرة. البعض كان يصرخ بأنهم الجماعات الإرهابية التي تستهدف أهل «جرمانا» الموالين للنظام! البعض الآخر يصيح بأنه تفجير من عمل النظام ليزيد من محاصرة أهل «جرمانا» ويجعلهم أكثر خوفاً والتصاقاً به! أما الحقيقة فكانت تمشي جانباً على مهل، مستترة حييّة، وتحتاج إلى أوقات طويلة لتصل! وحدها صرخات المفجوعين بأحبابهم هي الحقيقة الوحيدة المتبديّة، وكذا الطرقات والأزقة والبيوت التي يتصاعد الخوف منها بروائح حامضة، ويزيدها الترقب المحموم والعجز المتنامي.

(٢٧)

عن الحرب وضجيجها

صباح هذا اليوم اتصلت والدة «شيران حاجو» به، كان الأخير لا يزال غافياً في الغرفة الداخلية في بيت المعلّم «أبو علي الفهد» في حي «الحجر الأسود» بـ«دمشق». هدير المروحة الكهربائية، الموجّهة مباشرة إلى جسده المتصبب عرقاً، جعله يتأخر في سماع صوت الموبايل. أمه تصيح بأن المناطق الكردية في الشمال سلّمها رجال النظام إلى مقاتلي حزب العمال الكردستاني، وبأن المقارّ الحكومية والمخافر وفروع الأمن كلها الآن بيد المقاتلين الكورد! وبين النوم واليقظة يستمع «شيران»، «أبو عزيز الكردي»، إلى الجمل المتلاحقة كأنه في حلم. ثم كصوت آت من الغيب همست بالكردية من بعيد: لم يكن هذا اتفاقنا يا شيران... خربتو البلد يا ابني!!

لم يردّ «شيران» على معاتبتها، هزّ رأسه، لكنه لم ينس أن يلقي حشداً من الشتائم قبل أن يقفل خط الهاتف. كانت تقول له بأنها تحتاج المال فلم يعد هناك شيء يُطبخ في البيت، والأوضاع تزداد سوءاً.

- النظام سلّم القامشلي وعامودا للبي.ي.دي!!

قال للمعلم. لكن الأخير لم يكن يهمه كثيراً حال المناطق الكردية في هذا الوقت، تفكيره كله كان مشغولاً بالرحلة التي ينبغي

على «شيران» أو «أبو عزيز الكردي»، كما يطلقون عليه هنا، القيام بها اليوم إلى مدينة «حلب» في الشمال.

- وتركيا نصبت صواريخ أرض جو على طول حدودها معنا، ٨٥٠ كم تقريباً، بعد حرب المعابر من شي شهرين ثلاثة. تفضل يا سيدي... شو بدو يصير هلق؟!

«المعلّم» كان قلقاً بحق على «أبو عزيز الكردي» الذي سيقطع طريقاً شديدة الخطورة حتى يصل «حلب»، وعليه أن يلاقي أحد مهرّبي الأسلحة على مشارف المدينة لينقلا شحنة الأسلحة إلى المقاتلين هناك. حمّله «أبو علي الفهد» مسدّسين، دسّهما بين طيّات ثيابه، ورشاشاً، خبّأه في مكان معدّ له في السيارة تحت مقعد السائق، وقنبلة الرحمة التي علّقها في زنّاره، وعدة رزمات من النقود، ثم دعا إلى اللّه أن يوصله بأمان، وشيّع السيارة قلقاً قبل أن يلتفت إلى سيارة صالون فضية اللون قادمة باتجاه مدخل البيت، كانت واحدة من السيارات الجديدة التي استولوا عليها مؤخراً على مشارف المدينة. السيارة كانت متخمة بالأشياء: فرني غاز، ثلاث غسالات كهربائية، أربع مايكروويفات، مكيفين، والعديد من القطع الكهربائية الصغيرة مصفوفة في أرض السيارة. صاح واحد من الرجال القادمين في السيارة:

- هذه من الحارة القبلية معلّم، هرب صحابها قبل يومين.

هزّ المعلم رأسه لمجموعة رجاله القادمين بغنائم البيوت الفارغة التي خلّفها أصحابها وهربوا.

- والعفش جاي على الطريق...

هزّ المعلم رأسه من جديد قبل أن يأمر رجاله بإفراغ الحمولة في المستودع القريب: الطابق الأول والثاني من البناء الملاصق لبيته.

في ذلك الوقت كان «أبو عزيز الكردي» قد استطاع أن يقطع مسافة طويلة من الأتوستراد الدولي باتجاه «حلب». لم يكن هناك دوريات أو حواجز نظامية كثيرة على الطريق! كان أمراً مستغرباً،

طالعه حاجزان لا غير، الأول ناظر هويته الشخصية وعرف بأنه كردي فسمح للسيارة بالمرور، والثاني قبض على حزمة أوراق نقدية دسّها «أبو عزيز» في يده فصاح عليه أن يمضي!

على أحد حواجز الجيش الحر، التي راحت تتكاثف عند مشارف ريف «إدلب»، أوقف «أبو عزيز الكردي» السيارة وعرّف الشباب بنفسه وإلى أين هو ذاهب. كان ثمة رجل وامرأته واقفان بجانب دراجة نارية قرب الحاجز. المرأة تبكي بحرقة والرجل متجهّم. كان عناصر الحاجز قد طلبوا منهما أن يتوقفا قبل قليل، وهما على الدراجة النارية، فلم يقفا! لاحقوهما، فما كان من الرجل وامرأته إلا ان ترجّلا من الدراجة، تركاها وراحا يركضان في الحقول باتجاه الحدود. لاحقهم عناصر الجيش الحر حتى ألقوا القبض عليهما. كان الرجل يصرخ بألا يمسّوا امرأته، وبأنهم لا يريدان إلا الوصول إلى مخيم اللاجئين على الحدود! ثم راح يصيح بأن حاجزاً آخر للجيش الحر تحرّش عناصره بامرأته، لكنه استطاع الهرب منهم، وحين لقي الحاجز الثاني خاف أن يفعلوا الشيء نفسه فحاول الهرب. «إذا أنتم الثوار الذين تدّعون حماية شرفنا نحن الناس تتحرشون بنسائنا وتهينون شرفنا... فما العتب على شبيحة النظام!»، صاح الرجل من جديد.

لكن قائد الحاجز لم يعد يستمع إلى ما يقوله الرجل. سأله من أي طريق كان الحاجز السابق. «من هناك» دلّه الرجل. نادى على شابين يجلسان برشاشيهما إلى جانب الطريق، ثم بعثهما في سيارته إلى جهة الحاجز الآخر الذي حصلت الحادثة عنده. كانوا أربعة عناصر، لكن الشابين أطلقا الرصاص حال وصولهما، فقتل الأربعة على الفور. أنهيا المهمة ثم تركا الجثث مشلوحة على الأرض وقفلا عائدين.!

- هذا جزاء من يدّعي بأنه من الجيش الحر ويهين أعراض الناس!

صرخ قائد الحاجز.

لم يجرؤ «أبو عزيز الكردي» على التعليق! أثنى على موقفه الحازم الشجاع بصوت عال، وانطلق مسرعاً إلى «حلب». كان قد تعلّم في الشهور الأخيرة ألا يحرّك عش الدبابير بانتقاد! المديح أسلم وأبقى!! سيكون الطريق من هنا حتى «حلب» مليئاً بحواجز الجيش الحر، وبحواجز الكتائب المقاتلة غير التابعة للجيش الحر، وبحواجز جبهة النصرة كذلك، فلا حواجز للنظام هنا.

عند أحد المفارق على طريق جانبي كانت سيارة مهرّب الأسلحة تنتظر، لم يخطئها «أبو عزيز»، سيارة بيك آب بيضاء بشادر أسود يغطّي قسمها الخلفي. «كيف مرّ بها؟!»، تساءل «أبو عزيز».

- تفكّر بالطريقة التي مررت بها عبر حواجز النظام؟!

ضحك شاب ثلاثيني وهو يستقبل «ابو عزيز» من البعيد. فهزّ الأخير رأسه.

- بالرشاوي يا حبيبي... المال يفعل كل شيء!!

تصافح الرجلان، وكان مع الشاب الثلاثيني رجل يقارب خمسينياته يبدو منهكاً معفّراً: بقي عليك أنت تمرّر الأسلحة على حواجز الثوار.

- لا عليك هذه مهمتي.

دفع «أبو عزيز» المبلغ المتفق عليه، ثم تساعد الرجال الثلاثة في نقل الأسلحة إلى مخزن السيارة الذي امتلأ عن آخره، ثم راحوا يصفّون الباقي في المقعد الخلفي للسيارة.

- اتفقت مع الشباب الثوار؟

سأله الشاب.

- المعلّم اتفق معهم... معظمهم معنا. لكن هناك حاجز سنضطر لبرطلته كيلا يأخذوا السلاح. أنت تعرف الجميع يريد السلاح هذه الأيام، والشحنات قليلة جداً.

- معك حق، خبّرك المعلّم أبو علي أن هناك شحنة قريبة بعد أسبوع تقريباً؟

- خبّرني. على خير انشاللّه.

عند المساء تبدد قلق المعلّم «أبو علي الفهد» حين سمع صوت «أبو عزيز» يهاتفه من «حلب». قال له: «كل شي تمام معلّم». لكن المدينة بدت بالنسبة لـ «أبو عزيز الكردي» أشبه بمدينة للخراب. الأحياء التي استطاع الوصول إليها مهدّمة، دمار يعمّ معظم الأحياء منذ بدأت معركة تحرير «حلب». واجهات مباني سقطت بأكملها، أحجار وركام وقضبان حديد. كأن الساعة مرّت عليها وقامت القيامة هنا.

كان الثوار المسلّحون قد سيطروا على حي «صلاح الدين» قبل أيام، ومازال الدمار الذي خلّفه قصف الطائرات جلياً. وراء ركام عالٍ من انهيار مبنى سكني نصب الثوار رشاشاتهم. المتاريس أكوام من الحجارة والخفّان المكسّر. مازال الهيكل المعدني لدبابة محترقة في منتصف الشارع. في شارع آخر كان ثمة جثث لجنود من الجيش النظامي متفحمة وملقاة على القارعة لا تجد من يحملها، مدرعات وآليات عسكرية محروقة، ورجل كهل يصرخ أمام كاميرا المصور إنهم كبّدوا العدو خسائر فادحة وجثث جنوده ملقاة لا يجرؤ أحد منهم على أخذها أو حملها! الحرب في «حلب» كانت على أشدّها.

بعض شباب الكتيبة، التي استقبلت «أبو عزيز الكردي»، دعوه للاشتراك معهم في مداهمة أحد المباني القريبة التي مازال عناصر النظام يتحصّنون بها. «ستشهد واقعة لن تتكرر!»، خاطبه قائد الكتيبة المعلّم «أبو عمر»، شقيق المعلّم «أبو علي الفهد» قائد الكتيبة في «الحجر الأسود». كان يراقب بلهفة ما سيجري، وقد تمركز مع ضيفه وراء متراس من أكياس الرمل المصفوفة فوق بعضها بعضاً وقطع الحجارة. لم يكن «أبو عمر» يشبه نفسه، فكّر «أبو عزيز»، ذلك المتسكّع النكد الذي كانه في الحارات، شيء من الصرامة والقوة تشعّ

الآن في عينيه، وشيء آخر لم يستطع «أبو عزيز» تسميته، لكنه أحسّه! ربما كان هذا هو سبب إصراره على البقاء زعيماً للمجموعة، فكّر من جديد، حوّله الأمر إلى رجل مغاير تماماً، ولن يعود إلى ما كانه قبلاً! فقد كان «أبو عمر» قد خاض صراعاً حاداً حول زعامة المجموعة، انتهت بقتل الغريم وبقائه أكثر سيطرة. لكن المفاجأة الحقيقية بالنسبة لـ«أبو عزيز» كانت رؤية «مصعب محمود»، صهر «أبو ليلى» شقيق رفيقه الغالي «أبو الليث»، هنا في معركة «حلب»! كانت مفاجأة فرحة وغريبة وغامضة في الوقت ذاته! عانق «مصعب» بقوة وطويلاً، وشعر بحاجة ماسّة إلى البكاء. أما «مصعب» فقد دارى عينيه وهو يعانقه ويردد هامساً: «آه... ريحة الغوالي...».

كان البناء الهدف مؤلفاً من ثمانية طوابق، القنّاصة منتشرون على سطحه يضربون برصاصهم ذات اليمين وذات الشمال، كأن الخوف من اقتراب المقاتلين جعلهم في حال يرثى لها. قال «مصعب» لـ«أبو عزيز» إن البناء يحتوي على حوالي ٤٠٠ عسكري نظامي، لم تأتهم التعزيزات حتى الآن! ينتظرون منذ ستة أيام ولم تأتهم المؤازرة لغاية الساعة! صار المقاتلون يصيحون بالمكريفونات على العناصر في داخل المبنى: «سلّم تسلم... سلّم تسلم... اقتلوا ضباطكم واهربوا...».

قال «أبو عمر»: «انظر الآن ماذا سيحدث!!»، فصاح المقاتلون: «اللّه أكبر... اللّه أكبر...»، فقفز ثلاثة عناصر من شبابيك المبنى ليسقطوا جثثاً هامدة على الأرض الإسفلتية. ثم انطلقت أصوات متلاحقة لإطلاق رصاص من داخل المبنى.

- وصل الشباب للداخل.

علّق المعلّم متوفزاً، ثم بعد قليل خرج بعض العساكر النظاميين وهم يرفعون أيديهم عالياً من مدخل البناء. صاح المقاتلون حول المبنى: «اللّه أكبر...»، ثم صمت إطلاق الرصاص. كانت المهمة

قد انتهت، قُتل الضباط ومن رفض تسليم نفسه، أما من استسلم فقد سيق مع البقية إلى حي «صلاح الدين» حيث الأقبية المخصصة لاعتقال الأسرى.

- من نأمن له قد يبقى ليقاتل معنا، وهم قلة قليلة تكون أصولهم غالباً من مناطق الثورة، ومن لا نأمن له نأسره وربما بادلناهم بصفقة لتبادل الأسرى مع النظام... ومنهم من نقتله عقاباً على ما اقترفت يداه!! بعد محاكمة نزيهة طبعاً.

- ومن يقوم بالمحاكمة؟

- الهيئة الشرعية هنا. نوكل لها مهمة المحاكمات بناء على أحكام الشريعة الإسلامية.

أجاب المعلّم «أبو عمر» حين سأله «أبو عزيز» عن مصير الأسرى. نوع من الارتياح على وجهه وهدوء يشوب نظراته، هذا تماماً ما عجز «أبو عزيز» عن التقاطه قبلاً، استطاع التقاطه الآن! لقد تبدّد الغضب الذي كان ينضح قبلاً من «أبو عمر»، الزعامة بدّدت غضبه، وربما السلاح كذلك. هو الآن المسيطر، والمسيطر لا يغضب إلا حين يُهدد سيطرته أحد، حينئذ يصبح غاضباً حتى يستعيدها! أما «مصعب» فقد تحوّل إلى شخص آخر، لا يمكن أبداً أن يكون الشاب نفسه الذي عرفه قبلاً في بيت «أبو الليث»! ازداد قساوة، كما ازدادت عيناه غربة واستعاراً!

عند المساء أخرجه الشباب المقاتلون إلى خارج المدينة، إلى بيت بعيد ومحايد كان يجتمع فيه بقية مقاتلي الكتيبة، يتحلّقون في غرفة واسعة على جلسات عربية يحتسون الشاي في كؤوس صغيرة والإبريق على النار. المنطقة شبه خالية، والريح تصفر في البيوت المهجورة، فقد رحل النساء والأطفال وبعض الرجال إلى مخيمات اللجوء، وبقي الثوار المسلحون في المنطقة. كان الجزء الأكبر من القرية مدمّراً.

- قبل يومين رموا قنبلة فراغية هنا. تدمّرت خمس مبانٍ على الفور.

قال له «مصعب».

حالة عامة من الإصرار تطفو في الفضاء، أحسّها «أبو عزيز» تستحوذ عليه، إصرار له كنه البقاء، فلم يعد هناك من خيار.

قبل أن يتركه المعلّم «أبو عمر» في عهدة الشيخ «توفيق» قال له: «لا المجلس الوطني ولا معارضة الخارج ولا حتى قيادات الجيش الحر في تركيا استطاعت إعانتنا... علينا أن نعتمد على أنفسنا...». ثم تركه متأبطاً سلاحه ولحقته مجموعة من المقاتلين. الشيخ «توفيق» الذي استقبله باشّا كان حدّاد الكتيبة وشيخها. كل الأسلحة المعطلّة أو الخربة أو حتى أشلاء الأسلحة كان يعمل بنفسه على إصلاحها.

- شيخ وحدّاد أسلحة.

ضحك مع «أبو عزيز» و«مصعب» وهو يعرّف عن نفسه. عرّفه الشباب الجالسون في الغرفة على أنفسهم أيضاً، كل منهم استقبله بسلام ثم باسمه، اسمه الحركي بالطبع فقد نسي المقاتلون أسماءهم الحقيقية هنا: «بكر الحلبي» شرطي منشقّ من «اعزاز»، لا يتجاوز أواسط عشرينياته، يده مصابة وملفوفة عند الزند بشاش ملوّث.

- استشهد من تبقّى من أهله قبل شهرين تقريباً في مجزرة اعزاز.

وضّح الشيخ «توفيق».

«أبو عقاب» مزارع من مدينة «عندان»، رجل تجاوز خمسينياته ويبدو الزمن أحافير على وجهه. ثم نقيب شاب لم يفصح عن اسمه، لكنهم كانوا ينادونه «النقيب»، لهجته كانت مختلفة قليلاً عن بقية الشباب. كان هناك شابان شقيقان من «حريتان» كذلك، يعملان في تصليح السيارات، فقد أحدهما إحدى ساقيه في قذيفة. ثم ثلاثة شباب من «حلب» المدينة.

- عندان لم يبق منها إلا بعض البيوت واقفة، فالمدينة مهدّمة بشكل شبه كامل.

استقبلهم «أبو عقاب» بدون مقدمات.

النقاش الذي كان دائراً بين المتسامرين كان يبدو أنه بدأ منذ فترة طويلة، فقد كان المقاتلون يضعون أسلحتهم جانباً ويتجادلون باحتدام حول من تعرّضت منطقته للظلم أكثر من غيرها زمن حكم الأسد الأب ثم الابن. «بكر الحلبي» يتحدّث عن الظلم الذي تعرض له أهله في الريف، لأنهم فلاحون ولأنهم سنّة، وكيف قرر الانتساب إلى سلك الشرطة كي لا يعيش عذاباتهم المتوالية.

- النظام يعطي ميزاته للعلويين وجماعته.

يردف «بكر» ثم يتابع حديثه عن الفقر الأسود الذي طالما عاشوه.

- النظام يعطي ميزاته لمن والاه يا صاحبي... هناك قرى للعلويين أفقر من الفقر!

قال «النقيب»، لكن «بكر الحلبي» من «اعزاز» لم يصمت، طفق يحدث المجموعة عن اعتقاله قبل الثورة، فقد اتهموه بأنه ينتمي إلى جماعة إرهابية سلفية، وكيف نكّل به ضابط علوي يشبه البغل. كان يشتم أهله، يهدد باغتصاب نسائه، يسبّه، يركله على بطنه ورأسه، يصعق أعضائه، يمسك أجزاءه بالبانسة، وينزع أسنانه سناً وراء سنّ.

- لهجته ماتزال محفورة في رأسي... لن أنساها!!

لذلك فحين يتم اعتقال أي عنصر من عناصر النظام، ويتحدث أحدهم بتلك اللهجة القروية، التي لن ينساها، يحسّ «بكر» بأن كل ذاك العذاب الذي ذاقه خرج بلحظة أمام عينيه، ويرى أشلاء أهله تحت حطام بيتهم الذي قُصف قبل مدة قليلة. كان «بكر» قد قرر أن يعذّب كل من يُعتقل منهم أو يُختطف كما عذّبوه تماماً، وذلك قبل أن يقتلهم بيديه. أما أخوه، الذي اعتقلوه كذلك بالتهمة نفسها، فقد كان

وضعه أصعب بكثير، وسيق منذ سنة ٢٠٠٧ إلى «سجن صيدنايا»، ومنذ ذلك الوقت لم يسمع عنه أحد شيئاً: «ربما يكون قد استشهد في مجزرة صيدنايا التي ارتكبها الكلب النصيري ماهر الأسد». يزعق «بكر الحلبي» متألماً.

يحاول «النقيب» أن يدخل النقاش الدائر، لكن «بكر» يأبى أن يصمت. يصيح الشيخ «توفيق» عليه أن يدع «النقيب» يتكلم، فيأخذ «بكر» كأس الشاي من أمامه بعصبية ويرتشف منها رشفات متلاحقة سريعة.

- نسيتوا أبو طلال يا شباب؟!

يحدّثهم «النقيب» عن رفيقه من ريف «حمص» «أبو طلال رفيق العلي». كان قد قُتل منذ شهور قليلة في معركة «تحرير حلب»، وقد خاض معهم معارك كثيرة في «عندان» و«حريتان» و«أتارب» وغيرها. انشقا سوية حين كانا في مدينة «بانياس» الساحلية، اتفقا في تلك الليلة المشهودة على الهرب سوية، ونفّذا اتفاقهما سوية أيضاً قبل أن يشقّ الفجر. «كان حظ "أبو طلال" جيداً إذ أني ساعدته في الهرب والوصول إلى هنا»، يقول «النقيب»، ثم يردف: لا يهمهم أحد من الطائفة، لو احتاج الأمر يقتلونها كلها كي يبقوا في الحكم!! هذا ما قاله لي أبو طلال يوماً متألماً، جملته هذه أذكرها كل ليلة حين أرى شباباً من جيش النظام يُقتلون يومياً في «حلب». لم يكن أمام «أبو طلال» خيار، لن يستطيع الكفّ عن كونه في الجيش إلا إذا انشقّ، وهذا ما أقدم عليه. أسرته لحسن الحظ استطاعت الهرب إلى هنا، ثم رحلت مع اللاجئين إلى أحد المخيمات في «تركيا»، فلو ظلّت في قريتها لقاست الويلات بسبب هرب «أبو طلال»، سيعاملونها كأسرة خائن. منذ أن استشهد وأنا أفكر كل ليلة بأني سأغدو في يوم ما لأبحث عنهم في المخيمات علّي أوفّق برؤيتهم سالمين.

أنهى النقيب قصته عن «أبو طلال» قبل أن يترحّم على روحه:

هذا واجبي أن أقول كلمة حق عن صاحبي اللّه يتقبله عنده! لولاه لكنت قُتلت من وقتها لقد ساعدني كما ساعدته على الهرب.

- واللّه ما كنا نعرف سني من علوي قبل هالإيام... عايشين سوا... لكن النظام غذّى الطائفية.

- لكن أبو طلال استثناء، استثناء قليل!

يعقّب «بكر الحلبي» الذي يبدو أهدأ بقليل.

- أقصد بأن الكثير منهم ساعدوا النظام وخدموه ولكن هناك منهم من لم يكن معهم. ويجب ألا تزر وازرة وزر أخرى... أليس كذلك يا شيخنا؟!

يهزّ الشيخ «توفيق» رأسه موافقاً على كلام «النقيب».

- هذه الطائفية لن تضرّ بالنظام بل ستضرّنا نحن... ستخرب بلدنا وتضيع جهودنا عليها!!

بعد دقائق صمت قليلة يضرب «بكر الحلبي» كأس الشاي بالأرض ويصيح: لكن طالما أمسك العلويون والشيعة برقابنا، حكمونا وأذلّوا الإسلام.

يهزّ الآخرون برؤوسهم كذلك.

الشاب ذو الساق الواحدة، وهو واحد من الشابين القادمين من «حريتان» اللذين بقيا صامتين حتى اللحظة، راح يحدّثهم عن الشباب الذين دفع بهم النظام للذهاب إلى العراق للتطوع في القتال ضد الأميركان. ابن عمه استشهد هناك في العراق في منتصف العام ٢٠٠٥ قبل أن تُغلق الحدود نهائياً مع العراق في العام ٢٠٠٧. «قتله الشيعة العراقيون هناك لأنهم مع غزو الأميركان للبلد... ولم يقتله الأميركان!».

أيّده بعض الجالسين: «الشيعة يقتلوننا».

هنا يحاول «النقيب» أن يذكّره بأن الجميع دعم «حزب اللّه» في حرب تموز مع إسرائيل في العام ٢٠٠٦، وها هو: «حزب اللّه شيعي».

- طبعاً والآن خرجت شيعيته، وها هو يبعث بجنوده كي يحارب إلى جانب النظام.

يصيح «بكر الحلبي» منتصراً كأنه أوجد ذريعة دامغة لا يمكن لـ«النقيب» أن يأتي بما يدحضها.

«لكن نقيب... لماذا تدافع عن العلويين؟!»، سأله «بكر الحلبي» مستفزاً.

- ربما كنت شيعي أو علوي ومندسّ بيننا!

- لا أنا سني وهذه هويتي واسم عائلتي ومنطقتي واضح... أنا فقط تربيت بين العلوية حين كان أبي متطوعاً في الجيش وننتقل من مكان إلى آخر. درنا في كل مناطق سوريا، وأغلبها في الساحل. عاشرت العلويين وعرفتهم وها أنا أخبركم عنهم. عندهم ناس ضد الحرب، وعندنا ناس ضدنا. في كل مكان هناك علويون ضد النظام كما هناك سنة مع النظام! بالتأكيد معارضونا أكثر من معارضيهم، ولكني أريد أن أخبركم بأن حربنا مع النظام سياسية وليست طائفية... الطائفية لن تجرّ علينا إلا ويلات وويلات.

يصمت الموجودون ومن ضمنهم «أبو عزيز الكردي» الذي بقي صامتاً حتى اللحظة، ينصت إلى النقاش المحتدم الدائر بين الشباب. كانت تعابير «النقيب» غريبة، ويصعب قليلاً فهمها. أما «مصعب محمود»، الذي كان صامتاً طوالَ الوقت، فقد راح ينشغل بتنظيف رشاشه كأنه في عالم آخر! الجميع كان يتعامل معه كأنه حقاً غير موجود في عالمهم!

ثم يبدو بأن النقاش سيحتدم من جديد. هنا يحاول الشيخ «توفيق» أن يزجّ ضيفه «أبو عزيز الكردي» في الحديث الدائر، فيسأله عن رأيه. يتلكأ «أبو عزيز»، يتمتم بكلمات متأتئة قليلة، ثم يهمس بأنهم لم يفكروا قبلاً بالطائفية، كان أمراً غير معروف بينهم هم الأكراد، ويصمت.

هنا يدعوهم الشيخ «توفيق» لصلاة العشاء جمعاً كحاله كل ليلة، يربّت على كتف «أبو عزيز الكردي» ويسأله أن يذهب إلى صنبور الماء القريب في الخارج ليتوضأ. وفي غرفة مجاورة عارية إلا من سجاد نظيف يفرش الأرض أنهى المقاتلون صلاتهم وراء إمامهم الشيخ «توفيق». بعد الانتهاء راح الشيخ يدعو اللّه إلى محق آل الأسد وأعوانهم، فيرد الجمع وراءه: آمين. ثم يدعو اللّه إلى نصرتهم غداً فقبل الفجر سيغدون إلى «حلب» في معركة جديدة فاصلة، يرد الجمع: آمين.

قبل أن ينهي الشيخ «توفيق» دعاء ما بعد الصلاة يُسمع في الأجواء صوت طائرة تقترب، ويصفر صوت حاد لسقوط صاروخ. يصيح أحدهم انبطحوا، فينبطح الجميع وينفجر شيء قريب منهم ليهتزّ البيت كله. لم يجد «أبو عزيز» إلا و«مصعب» بجانبه يسأله إن كان بخير، يتلمّس جسده وعيناه تنضحان بالرعب! ثم هدر صوت رشاش مثبّت على شاحنة تتراقص تحت ثقله، فقد راح المقاتلون يوجّهون قذائفه إلى الطائرة التي كانت ترتفع عالياً، ثم تحوم بضع لحظات لتنقضّ وترمي بقذائف أخرى، ثم تعود للعلو مجدداً.

يقول النقيب لـ«أبو عزيز» وهم مايزالون منبطحين في زوايا البيت، طالما أننا لا نملك مضادات طيران حقيقية سيظلون هم الأقوى، فهم من يملك السماء. «الأسلحة الخفيفة لا تقاوم النظام بل تغذّي الحرب الأهلية فقط». يردف «الرقيب» أسيانَ، ويوافقه «مصعب» قبل أن يحمل سلاحه ويخرج إلى المعركة مهرولاً.

رمت الطائرة بعض القذائف ورحلت. كان ثمة شاب يصرخ بأن هناك جسماً غريباً على مشارف القرية، ربما كان برميلاً متفجراً سقط بعيداً ولم ينفجر. صاح الشيخ «توفيق» بألا يقترب أحد من المنطقة لحين عودة المعلّم «أبو عمر» ليروا ما بإمكانهم فعله. ثم راحت

الأخبار تصل إلى المقاتلين في غرفة الصلاة بأن هناك مصابين من الثوار في الجزء الشمالي من المنطقة.

- مرة ضربوا مقبرة فأطاحوا بالقبور وعظام الموتى تصوّر!!

خاطب «بكر الحلبي» «أبو عزيز»، ثم أردف متهكماً: ومرة ضربوا منطقة اشتباك فمات جنود موالون للنظام!! لا يهمهم مات من مات منهم المهم أن يبقوا... هناك بيوت موالية تم قصفها!! تصدّق!!

هدأ كل شيء وعادت الأحاديث كما كانت. بعد دقائق دخل «مصعب» معفّراً متعباً وصاح مبتهجاً: ربما نكون قد أصبنا المروحية! فيصيح الشباب «اللّه أكبر... اللّه أكبر».

قبل أن يشقّ الفجر راح المقاتلون يتهيؤون للذهاب إلى مدينة «حلب». يقول المعلّم «أبو عمر»: «لا تفكروا بالعودة إلى هنا قبل تحرير المدينة كاملة»، يوافقه الشيخ «توفيق» الذي كان يغذّي عزيمة المقاتلين بجملة تخصّ هذا وتربيتة على كتف ذاك، دعاء من هنا وآية قرآنية مشجّعة مطمئنة من هناك. أحد الشباب كان يحمل راية سوداء كتب عليها بالأبيض: «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».

- ماهذا؟!!

صاح الشيخ «توفيق».

- راية التوحيد!

- أعرف بأنها راية التوحيد يا ابني. لكن هذه راية جبهة النصرة، يعني راية القاعدة. ألا يكفينا اتهامات... لا تحملها، اتركها هنا واذهب.

لم يمتثل الشاب لأمره، راح يدمدم بأن «جبهة النصرة» اليوم هي وحدها التي تكبّد النظام الخسائر، هي الأقوى اليوم ولن يترك رايتها! لم يجد الحديث معه نفعاً، فقد ظلّ مصراً على حملها عالياً حتى صعد في الشاحنة من الخلف وبقيت الراية ترفرف.

- كثير من شبابنا يذهبون هذه الأيام ليلتحقوا بالنصرة!

دمدم «النقيب» لـ«أبو عزيز» وهو يجهّز نفسه للرحلة كغيره.

- طبعاً... بما أنها تملك المال والسلاح وبالتالي القوة!!

ردّ «مصعب» مدمدماً.

بعض المقاتلين كان يحمل رشاشات كلاشنكوف من شحنة الأسلحة المهرّبة التي نقلها «أبو عزيز»، يبدون سعداء وهم يقلّبونها بين أيديهم. بعضهم يحمل بنادق فال سوداء يسمونها الناتو، ينوء الحامل بثقلها.

- هناك بنادق لم يعد أحد يستخدمها إلا نحن، وبنادق معدّلة لا تعرف أصلها من فصلها.

تأفّف «مصعب» وأردف: «أتيت إلى هنا لأني ظننت بأن السلاح فائض، وبأننا سنقاتل كتائب الأسد كما لم نقاتل يوماً، سندافع عن حقنا في الحرية والكرامة... وانظر اليوم إلينا؟!!». أشكال غريبة ومضحكة من الأسلحة كانت بيد بعض المقاتلين. كل قطعة في السلاح من مكان مختلف. فكر «أبو عزيز الكردي» لحظتئذ بهذه الغنائم التي من المفترض أن ينقلها معه إلى «دمشق»، لم يبدُ له بأن الشباب هنا باستطاعتهم تزويد أحد بسلاح حقيقي. ثم سأل الشيخ «توفيق» عن تلك الغنيمة الأخيرة من الأسلحة التي غنموها، والتي من المفترض أن يأخذ منها إلى «دمشق».

- نصفها معطل أو خرب والنصف الباقي قسّمناه بيننا. لكن لا تقلق حصّتكم بمأمن، ولن نعطيكم إلا الصاغ السليم.

ثم علّق «مصعب» معيداً كلامه: «جبهة النصرة وحدها من لديها أسلحة متطورة، قنابل مصنوعة في الغرب، عبوات تي إن تي، وأصناف الأسلحة الممتازة. ولا يحتاجون للتكالب مثلنا على الغنائم».

- هناك كتائب إسلامية أخرى مدعومة كذلك من دول عربية، نحن بانتظار أن يصلنا الدعم الحقيقي كذلك منهم... انشاء اللّه لن يطول الأمر.

قال «النقيب» فيما كان «مصعب» يطوّح برأسه متأففاً ساخراً: وعلينا أن نربّي لحانا ونحلق شواربنا كي يأتينا الدعم؟!!

- علينا أن نقوم بأي شيء ليأتينا السلاح، أم أنت راضٍ بهذا الوضع الذي نحن عليه؟!

قاطعه «النقيب» فصمت، لكنه ظلّ يطوّح برأسه أسفاً.

- إن ظل الوضع على هذه الشاكلة لا تستغرب أن يذهب نصف شبابنا إلى النصرة!!

علّق «مصعب» بعد قليل مغتاظاً، لكن أحداً لم يرد عليه فقد كانت السيارات تهمّ بالتحرّك. ودّع كل من «مصعب» و«النقيب» و«أبو عمر» «أبو عزيز الكردي» ثم هرولوا ليلتحقوا بالركب الذاهب إلى معركة «حلب». قال «مصعب» قبل الرحيل، وهو يشدّ على كتفي «شيران- أبو عزيز الكردي»، إنه قد يعود وقد لا يعود، إن عاد فسيراه، وإن لم يعد فسيكون قد منحه اللّه الشهادة، حينها فليسلّم له على أخته «مريم» وعلى «فاديا» وزوجها العزيز «أبو ليلى»، ليخبرهم كم أنه يحبهم، وليقبّل الصغيرة «دلع» بدلاً منه، ويقول لها بأن خالها «مصعب» استشهد من أجل أن تحيا حياة كريمة غير التي عشناها، وليفرحوا فهذا قدر الشجعان.

- لا تقل هذا يا أخي، سأكون بانتظارك حين تعود...

ودّعه «أبو عزيز» بغصّة.

لكن تلك ستكون المرة الأخيرة التي يتكلم فيها «أبو عزيز الكردي» مع «النقيب»، فحين سيعود الشباب ليلاً من معركة ذاك اليوم سيكونون محمّلين بجسد «النقيب» الشاب المثقوب بشظية دخلت أحشاءه. شعر «أبو عزيز» بأن المجموعة ستودّع عقلها الهادئ والإنساني إن حصل للنقيب أي مكروه، وكان الأخير صاحياً يبتسم له. أما «مصعب» فكان يجهش بحرقة وهو يناظر «النقيب»، شعره مبلل تماماً بالعرق وثيابه معفّرة بالغبار والدم.

بعد ثلاثة أيام مضنية سيغادر «النقيب» الحياة. سيأتي الخبر إلى «أبو عمر» وهو يشرف على تخبئة الأسلحة في سيارة «أبو عزيز الكردي». كانوا قد انتهوا من تعبئة الطلقات صفوفاً في أبواب السيارة، بين الهيكل المعدني الخارجي والهيكل الداخلي الملبّس بالقماش، ويستعدّون للبدء بتركيب الصفيح الذي سيثبّت الرشاشات أسفل السيارة.

- اللّه يرحمه... مات شهيداً... نيّاله.

علّق «المعلّم»، لكن «أبو عزيز» شعر بحرقة مفاجئة في معدته، وفكر كيف سيكون حال «مصعب» الآن وقد فقد الأقرب إليه هنا!

قبل أن يغادر «أبو عزيز» مدينة «حلب» سأله «المعلّم» فجأة: نسيت أن أسألك أبو عزيز، ما رأيك إن طلب جماعتك الأكراد الانفصال؟!

- أنا... واللّه لا أعرف. لمَ هذا السؤال؟!

- يتحدثون مؤخراً بالكثير عن تقسيم سوريا، النظام وإيران يريدون دولة علوية، والأكراد دولة وهكذا...

- واللّه لا أعرف يا معلّم. أنا مع ما يقرره الجميع!!

- يعني مع الانفصال؟!

- لا... واللّه يا معلم لم أفكّر بالموضوع قبل!!.. لا أعرف.

- طيب أبو عزيز لا تفكّر فيه أحسن، لأنه لن يحدث! ستقسمون البلاد لتصبح ضعيفة مهزوزة، ستأخذون خيرة الأراضي الزراعية، وفي الساحل خيرة الأراضي الزراعية أيضاً!! لن نسمح لكم بالانفصال. على جثتنا!!

زمجر «المعلّم» ونظر في عيني «شيران» طويلاً.

(٢٨)

عن حواجز وكميونات عسكرية تشكّلنا

كان الحرّ شديداً، البولمان القادم من مدينة «درعا» إلى «دمشق» لا يحمل أكثر من عشرة مسافرين بعد عطلة العيد. في مثل هذا الوقت وفي الأحوال العادية يكون البولمان غاصاً بالمسافرين لكن بداية شهر أيلول هذا العام ٢٠١٢ كان وضعه مختلفاً كثيراً.

أعمدة الدخان تبدو من بعيد لـ«خالد الساعي» الذي يجلس بجوار النافذة يراقب «دمشق»، بجواره رجل بجلّابية رمادية ومعه ابنه الذي لا يتجاوز السابعة من عمره، كما خمّن «خالد». الصغير يرتدي بزّة عسكرية مرقّطة، ويحمل بارودة بلاستيكية يصوّبها على «خالد» من وقت لآخر ويصيح طاااااخ.. طاااااخ...

الطريق مقطوع من جهة الأتوستراد الدولي القادم من «درعا» إلى «دمشق»! مما اضطر سائق البولمان أن يغيّر طريقه. كان «خالد» يفكر أن أية طلقة قد تستهدف الباص الآن ستدخل في رأسه، وهو يجلس، بمنتهى الغباء، في منتصف الباص جهة النافذة!

قبل أن يصلوا أوقف حاجز للجيش سائق البولمان. كان علم سوريا الرسمي يرفرف على الدبابة المصفوفة إلى جانبه، وثمة متاريس من أكياس الرمل، وخيمة منصوبة على عجل خلف أحد المتاريس. صرخ العسكري الذي يقف أمام الحاجز وهو يلوّح برشاشه: «عد من حيث أتيت... ممنوع المرور...». حاول السائق الدرعاوي أن

يشرح للعسكري الذي يصيح، ومن ثم لقائده الذي خرج من الخيمة العسكرية، أنهم مجموعة من المسافرين المدنيين قادمون من «درعا» إلى «دمشق»، وأنه ما من طريق آخر للوصول إلى العاصمة إلا هذا الطريق. لكن شروحاته المطوّلة راحت عبثاً، فقد رفض الضابط الفكرة تماماً، ثم صاح بدوره: «عد من حيث أتيت...».

هنا لم يكن أمام سائق البولمان إلا أن يقفل عائداً من حيث أتى. لكن «خالد» زعق في آخر لحظة كي يسمح له بالنزول من البولمان، ونزل بالفعل ليغدو وجهاً لوجه مع عناصر الحاجز النظامي فيما انطلق البولمان في الطريق الذي أتى منه: «أنا دكتور وينبغي عليّ أن ألتحق بمناوبتي...». حاول «خالد الساعي» أن يشرح للعنصر النظامي، الذي كان عرق الصيف يسيح من كامل وجهه ويتبقّع على بزّته العسكرية. لكن الأخير لوح برشاشه رافضاً من جديد، وصرخ عليه أن يعود من حيث أتى.

- لا أستطيع ينبغي أن ألتحق بالمستشفى!!

لم يكن أمام العسكري إلا أن يلج الخيمة من جديد، ويخبر معلمه، الذي يختبئ من الحر في الداخل، إن دكتوراً يرفض أن يعود أعقابه. خرج الضابط من الخيمة وهو يحرّك جريدة أمام وجهه محاولاً خلخلة الهواء الخانق: نعم... إنت الدكتور؟

- أنا الدكتور...

- إنت مطلوب للسلطات شي؟

- لا لست مطلوباً!

- أرني هويتك الشخصية.

أخرج «خالد» هويته الشخصية بثقة وأراها للضابط. كان متاكداً من أن اسمه الحقيقي لم يُكشف بعد، فقد كان حذراً جداً في كل تحركاته.

- هويتك من المليحة، ما الذي أخذك إلى درعا؟!

- أزور أخوالي.

- أخوالك... وما هي نشاطاتك الأخيرة؟

سأله الضابط متشككاً وهو يمحّص نظره مرةً أخرى في الهوية. رد «خالد» بلامبالاة بعد هنيهات من التفكير: «السباحة، لكني لم أمارسها منذ فترة». انفجر الضابط في وجهه محتقن الوجه، راح يكيل له الشتائم ويضربه ضربات متلاحقة على كتفه: «عم تتمنيك عليّ يا خرا؟!!». كلّفت هذه النكتة السمجة «خالد الساعي» ساعتين تحت شمس الظهيرة، قضاها واقفاً ينتظر أمام متاريس الحاجز، ساعتين كاملتين ينتظر أن يرضى الضابط ويدعه يمر. كان يفكر، وهو يتوسّد حائط الرخام المنخفض الذي يفصل الشجيرات عن الرصيف، بأنها أغبى وأسمج نكتة اخترعها في حياته، وكان يفكر بـ«ريما»، إنها بالتأكيد تعاود الاتصال به وتعاود، لكن شبكة الاتصالات هنا مقطوعة، لا توجد أية تغطية في الموبايل! إنها تموت من القلق الآن، وعشرات الوساوس تؤرجحها كما عادتها. ثم فكّر أن يهرول هارباً مبتعداً باتجاه المدينة لكنها لم تكن فكرة سديدة.

بعد ساعتين اقتربت من بعيد شاحنتان عسكريتان نظاميتان كان يبدو بأنهما محملتان بالأسلحة، تلحقهما سيارتا زيل وسيارة جيب عسكرية تقود الركب الذي يدنو باتجاه الحاجز. وقفوا هنيهات أمامه، ثم همّوا بإكمال الطريق باتجاه «دمشق»، في اللحظة الأخيرة صاح الضابط عليهم أن يأخذوا الدكتور معهم إلى «دمشق» فعليه أن يلتحق بمناوبته في المستشفى، ثم أشار إلى «خالد» من بعيد أن يستقل إحدى الشاحنتين معهم.

إلى الكبين الأمامي للشاحنة الأولى المحمّلة بالأسلحة صعد «خالد الساعي». كان ثمة عسكري يجلس إلى جانب السائق، وبجانبه اندس. رائحة العرق المتراكم تختلط مع رائحة الوقود وشحم الأسلحة المعدنية، مزيج من الروائح الحادة يخمّرها حر آب المسلول. أحسّ

«خالد» برأسه تدور ومعدته تقلب، رغم الشبابيك المفتوحة للهواء الساخن اللاذع. صاح سائق الشاحنة به «مرحبا»، ثم أردف «يعطيك العافية حكيم»، فهزّ «خالد» رأسه راسماً ابتسامة بجهد.

الحوار الذي كان دائراً بين السائق والعسكري عادا بعد قليل لإكماله. العسكري يصيح بكل قوته كي يسمعه السائق الذي يلاصقه، لكن رغم صراخه كانت كلماته تتناهى بصعوبة إلى أذن «خالد» الملاصق له من الجهة الأخرى. كان يخبره شيئاً عما قالوه لهم اليوم في الاجتماع الصباحي في القطعة، والحديث كان عن توجيه ضربة أخرى قاسمة إلى منطقة «قدسيا» بعد أن تم ضرب «جديدة عرطوز» و«داريا»: «فالجماعات الإرهابية وصلت إليها الآن، وراحت تستوطنها كما فعلت بداريا وجديدة عرطوز»، صاح العسكري.

- ومتى ستكون الضربة؟

سأله السائق.

- قريباً... هذا ما قالوه لنا.

أجابه العسكري، ثم راح يحدّثه معاوداً الصياح عن مدينة «داريا» التي اقتحموها قبل أسابيع قليلة. كان العسكري يستغرب كيف أنها خالية تماماً من المباني الحكومية! وكيف أنه مشّطها مع رفاقه ولم يلحظ أي مبنى حكومي فيها، باستثناء البلدية! وكيف مشّطوا البيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن المسلحين ولم يروا أي مسلح فيها كذلك!

- هربوا كلهم يا رجل!!

أجابه السائق بيقينية مدهشة، فهزّ العسكري رأسه موافقاً. فيما كان «خالد» يتذكّر في تلك اللحظة زيارته مع «ريما» إلى «داريا»، ويفكر كذلك بقدره التعس الذي قاده للركوب في شاحنة عسكرية ضمن قافلة للجيش النظامي، من الممكن أن يستهدفها الثوار في أية لحظة من المناطق المحيطة بطريق «مطار دمشق». كانت عيناه معلقتين بالبلدات المشتعلة المحيطة بالطريق، ينتظر رصاصة مفاجئة أو قذيفة

قد تأتيهم في أية لحظة، حينها سيكون حظه العاثر قد حكم، وتكون المفارقة القاتلة المضحكة المبكية.

لم يشعر «خالد» بالطمأنينة تسري في روحه حتى اقتربت القافلة من منطقة «باب شرقي»، حينها تنفّس الصعداء وطلب من السائق أن ينزله هنا.

- ليش مش رايح على المستشفى حكيم؟! سنمر من هناك ونحن في طريقنا إلى القطعة العسكرية... تستطيع أن تبقى معنا سنوصلك إلى هناك!

لكن «خالد» شكره بشدة، نزل من الشاحنة مسرعاً، ثم طفق يهرول باتجاه سور «دمشق القديمة» قبل أن يخطر لأحد منهما أن يفكّر بأمره. إلى غرفتهما القريبة هو و«ريما» غذّ السير مسرعاً بين الحارات المتلاصقة الرطبة وقلبه مايزال يخفق خوفاً. كانا قد قررا، قبل أقل من شهر، أن ينتقلا من غرفة «شارع الأمين»، فالوساوس راحت تطبق بخناقها على «ريما»، كانت تهدس في كل دقيقة أن كان عناصر الأمن قد عرفوا بمكان الغرفة! لذلك فقد قررا الانتقال إلى غرفة جديدة معلّقة على سطح أحد البيوت القديمة في حي «باب توما»، غرفة ضائعة وسط الأزقة المتداخلة والبيوتات المتراكبة المتراكمة، لربما كان من الصعب على أحد أن يكشف مكانها. خلال أقل من ساعة لمّت «ريما» لوحاتها وتحفها وشموعها ودفاتر توثيقاتها المتزايدة وكومبيوترها المحمول وتركت الغرفة.

كانت حالة «ريما» كما توقعها «خالد» تماماً: تنتظر باكية مرتعدة، وتعاود الاتصال به مرة إثر مرة. كانت «هبة حدّاد» معها في الغرفة، تحتسيان القهوة المرة وتدخنان، والغرفة غمامة متكاثفة من الدخان والرطوبة والقلق. لم تقبل «ريما» أعذاره، كان الغيظ يقطر من نظراتها، ولم ترد على محاولاته البائسة في الاعتذار، والحديث عن مغامراته على الحاجز النظامي على مشارف «دمشق». لسبب ما

شعرت بأنها أكاذيب. لكن «خالد» كان يكيل الأيامين المعظمة بأنها حقيقة وليست أكاذيب. يقبّل يديها ويدعوها لمسامحته عبثاً. قالت له «هبة»: «يا زلمة متنا من الخوف عليك!!».

- آسف صديقتي ليس الأمر بيدي.

- فكّر بأن هناك ناس يحبونك كثيراً.

وضحكت غامرة رأس «خالد» العرق. شعر الأخير لوهلة برغبة في البكاء.

«مخيم اليرموك» يُقصف.

خبر استيقظ عليه «خالد الساعي» في الصباح. كان مايزال غافياً إلى جانب «ريما»، فيما صوت يصرخ من الموبايل بأخبار فظيعة عن المخيم، و«خالد» يراقب، بين النوم واليقظة، جسد «ريما» من تحت الشرشف الأبيض المثقل بعرقهما. بذل الكثير من الجهد البارحة كي تسمح له بالاقتراب منها. في النهاية أطبق على جسدها بكلتا ساعديه مانعاً إياها من الحركة، وأغلق فمها بكلتا شفتيه. عندئذ استسلم الجسد المتمرد بقبلة طويلة ومحمومة. قال لها البارحة بأن الطبيعة تزيد من إمكانيات التكاثر حين يطرأ خطر ما يتهددها. تزيد الخصوبة وقت الحروب والأوبئة مثلاً، وضحك. لكنه لام نفسه مراراً على هذه المعلومة التي أتته في غير وقتها، فقد بقيت «ريما» مصرّة طوالَ الوقت ألا يعاشرها! «لنكتف بليلة رومانسية بدون نيك»، قالت حاسمة الأمر، فينا استمر في شتم نفسه، فلم تكن علاقتهما على ما يرام في الفترة الماضية، وهاهو يفسد ليلة حمراء طال انتظارها!

كان عليه أن يخرج من فوره إلى «مخيم اليرموك»، رفاقه يحتاجونه هناك! سينتظره أحدهم على دراجة نارية في نهايات البساتين المحيطة، ويدخلون من هناك سوية بين الحارات المتعرجة المجهولة في المخيم.

«مستشفى فلسطين» كان محاصراً من قبل قوات الأمن، لذلك كان من المحال إسعاف الجرحى إليه. «مستشفى حلاوة» لم يتجاوب مع الشباب، ولم يستقبل الجرحى القادمين من القصف. قال له أحد الشباب أن إدارته موالية للنظام، وتوعّد بالثأر القريب منها! إذاً كان لابد من حل ما! الجرحى يزدادون، وأصوات القصف تتعالى وتقترب. المشافي الميدانية في بيوت الحارات الداخلية غير مجهزة بالأجهزة الطبية والأدوات اللازمة. لذلك فقد خطر على بال أحد الثوار حل سريع وناجع، لم يكلفهم أكثر من ثلاثة فؤوس متينة، لا يعرف «خالد» كيف خُلقت خلال ثوان أمامهم، وستة زنود قوية، وخلال لحظات كان هناك فجوة بحجم إنسان تشرخ الحائط الخلفي لـ«مستشفى فلسطين» من الجهة الثانية. المستشفى محاصر من الأمام، لكن الجرحى راحوا يدخلون سراً من الخلف في قلب الفجوة المعدّة في البيتون: رحلة خفية تفصل بين الموت وأمل الحياة.

دخل «خالد الساعي» مع ثلاثة أطباء آخرين إلى الداخل، وإلى غرف الإسعاف بدأ الجرحى بالتوافد، عشرات الجرحى ملؤوا غرف الإسعاف في المستشفى خلال دقائق. لم يكن ثمة من وقت للتعقيم، غسيل اليدين بالمعقمات كان كافياً وسريعاً: أدخلوا فتاة لاتكاد تبلغ الثامنة عشرة من عمرها. الشظية ماتزال مستقرة في أعلى رأسها، والدم يقطر من جديلة شعرها الخروبي الطويل. كان جمالها ملائكياً. لوهلة شعر «خالد» بأنها قد تكون أخته أو حبيبته، وفكر إن هو نزع الشظية للتو فسينبثق الدم وتتوفى من فورها. لكنه أعطاها مسكناً قوياً، أمسك بيدها وراح يحدثها باسماً. كانت الفتاة تغيب مبتسمة و«خالد» يحدّثها ويحدّثها ويمسّد على جديلتها حتى أسلمت الروح بسلام. رغم أنه لم يكن وقت للبكاء إلا أن «خالد الساعي» كان يُسعف الجريح التالي وهو يجهش: «حرام مثل هذه الصبية أن تموت هكذا.. ولم أستطع أن أفعل شيئاً من أجلها... حرام». لم يجبه أحد من

حوله، كان الجميع منهمكاً في نزع رصاصة، تقطيب جرح، أو إغلاق عيني جريح رحل لتوه. قال له دكتور يعمل قربه سحنته جادة من تحت نظارتيه السميكتين: «إن بقيت هكذا كلما مات جريح تبكي عليه وتتعلق به عاطفياً سنأخذك إلى العصفورية قريباً يا عزيزي»، وصمت مواصلاً قطب جرح غائر في وجه شاب مغمى عليه.

مرت ساعات كأنها دقائق. كان التعب قد نال من «خالد» والأطباء رفاقه. الجرحى يتوالون كالقدر، كل حالة أصعب من سابقتها. يموت منهم الكثير، ويستطيعون إنقاذ القليل. الموت يتغلغل في كوريدورات المستشفى، والأرواح تهيم بين الغرف.

أدخل مجموعة من الشباب رجلاً أصيب في ظهره بشظيّة كبيرة. كان رجلاً ستينياً أحسّه «خالد» يشبه والده كثيراً، لديه الشاربان نفسهما اللذان يغطيان نصف الوجه. حاول «خالد» معالجة الجرح البليغ في ظهر الرجل. فكر ربما أنه سيغدو مشلولاً، لكن كان عليه أن يجاهد لمحاولة إغلاق الجرح النازف. لسبب ما كان يشعر بأنه يعالج والده. لكن تشخيص «خالد» الخاطئ جعله يهمل شيئاً مهماً: وهو النزيف الداخلي في رئة الرجل، الذي لفظ أنفاسه فجأة فيما يحاول «خالد» إنقاذ جرح ظهره. راح يدعك قلبه كالممسوس، يجري له تنفساً اصطناعياً، ثم صدمات كهربائية... عبثاً. كان الرجل الستيني، الذي يشبه والده، قد مات!

جلس «خالد» على الأرض وراح يندب، بدا رجلاً مفجوعاً أقرب إلى الجنون منه بطبيب ثائر! ترك الجرحى وتوسّد الحائط هناك في زاوية الغرفة، التي تغصّ برائحة الدم والصديد، وراح يصيح ويجهش. كان قلبه مثقلاً بكل هذا الموت المتلاحق، يتمتم بأنه تعب... تعب كثيراً. ثمانية عشر شهراً من الموت إنه وقت طويل للغاية... للغاية. واليوم تبدو جرعة الموت زائدة عن الحد!!

اقترب الطبيب ذو النظارة الطبية السميكة منه، لمس يده بظاهر

كفه فقد كان داخلها مليئاً بالدماء: «ليست غلطتك يا صديقي، لا تحزن... هكذا هي الأمور يكفي أنك حاولت... جزاك اللّه خيراً. لايد لك في ذلك، كان سيموت بالتأكيد فرئته متهتكة. قم يا صديقي وأكمل عملك هذا هو المهم... قم». لكن «خالد» لم يتوقف، كان يشعر بأن روحه تعبت حدّ الإعياء، وبأنه لم يعد يقوى على الصمود.

كان القصف قد توقف، وجاءت دفعة جديدة من الأطباء المتطوعين فقرر الانسحاب، رغم أن الطريق باتجاه «دمشق القديمة» خطر للغاية، لكنه لم يرضَ البقاء في المخيّم، رائحة الموت راحت تفقده صوابه. أحد شباب المخيّم غامر بنقله على دراجته النارية عن طريق البساتين المحيطة، باتجاه «ببيلا» و«يلدا» ومن ثم إلى بداية طريق المطار، ومن هناك باتجاه بوابة حي «باب شرقي»! وفي غرفة «ريما العيساوي» كان «خالد الساعي» مايزال يبكي محيطاً رأسه بيديه. لم تكف محاولاتها اليائسة في إقناعه بأهمية عمله وبأنه أنقذ أرواح المئات، كان حزيناً بطريقة لا يمكنه السيطرة عليها. أرادت أن تقول بأنه ارتكب خطأ فادحاً حين عاد إلى البيت بثياب المشفى، ثياب ملطخة بالدم والسوائل، ستلفت انتباه أي كان في الشارع! لكنها صمتت، لم يكن حبيبها في وضع يسمح لها بأن تتفوّه بكلمة. شعره المشعّث وذقنه غير الحليقة تزيد من تعب مظهره، وللحظات تذكرت سكسوكته المشذّبة بعناية في لقائهما الأول، كان «خالد» اليوم رجلاً آخر لا يشبه نفسه منذ ما يقرب العام! حضنته ودعته لأن يشرب كأس الزهورات، ثم غفا بثيابه نفسها وهي تداعب خصلات شعره الملبّدة بالعرق والحرّ والألم.

استيقظ في الساعات القليلة التي مرت تالياً عشرات المرات، كان يقفز ملتاعاً من نومه، يرى «ريما» تطمئنه بأنه حلم سيئ ولا يوجد شيء، فيعود للنوم. ثم رنّ الموبايل، كان شاباً من حي «القدم» يطلب من «خالد» أن يأتي على الفور. فهم «خالد» بأن هناك من ينبغي

علاجه، وعليه التوجّه إلى هناك على وجه السرعة. حاولت «ريما» أن تثنيه عن الذهاب، ليستريح قليلاً فهو في أمس الحاجة للراحة. لكنه أصر على النزول.

- حسناً بدّل ثيابك على الأقل... انظر إلى نفسك، إذا أوقفك حاجز ستذهب في خبر كان... أعرفك أكثر حرصاً من ذلك!!

بدّل «خالد» ثيابه بسرعة، كان لديه بنطالاً آخر وقميصاً تركهما لحالات مشابهة. قالت له: «أريد أن أذهب معك»، لكنه رفض فالمنطقة اليوم غير آمنة البتة وسط كل هذا القصف! «لن أتأخر»، قالها بسرعة وذهب. بعد أقل من ربع ساعة كان «خالد» يدق الباب.

- ما الذي حصل؟

- اتصلوا بي من جديد، وقالوا إن كل شيء انتهى...

- شو يعني؟!

- يعني أن الجريح مات.

(٢٩)

عن القناصة وطعم الثأر والخيبات

«سليم أبو زرنة» هذا كان لقبه، رجل أربعيني من بيت «السلامات» من مدينة «الحراك». «أبو زرنة» كان اسماً على مسمى، أنا شخصياً لا أذكره إلا زارناً هادئاً وعلى وجهه ظل ابتسامة خفية. كان متزوجاً من ابنة عم لوالدي اسمها «بسيمة يوسف»، وأذكره منذ أن كنت صغيراً في القرية. كلما مرّ في شارعنا كان الأطفال ينادونه «أبو زرنة... مرحبا». فيجيب بابتسامة لا تختلف كثيراً عن ابتسامته الدائمة، ثم يربّت على رأسي هامساً: «كيفك عمو عمر؟!»، كنت أخجل من رفاقي الذين يبدؤون بسخريتهم مني حالما يبتعد قليلاً عنا.

زوجته كانت على نقيضه تماماً، لذلك كان من الصعب أن تسمع صوته في الجلسات والسهرات، فـ«بسيمة» تتحدث طوالَ الوقت، تتحدّث وتتحدّث ثم تشهّده على صحة كلامها، فيهزّ رأسه موافقاً بصمت. الجيران كانوا يغمزون طوالَ الوقت ساخرين من صوت «بسيمة» العالي، يغمزون إلى أصوات لذّتها التي تتصاعد من بيتها كل ليلة، وتصل إلى أسماعهم في بيوتهم الملاصقة المتداخلة. معظمهم يحاول أن يموّه ارتباكه بالسخرية، فالنساء لا تصوّبن إلا نظرات الغضب من عيونهن، كأنهن يصرخن: لم لا تحرثون أجسادنا كما يحرث أبو زرنة جسد بسيمة؟!

في الصباح لا بد أن يلقي أحد الجيران التحية على «أبو زرنة»

قائلاً: «اللّه يقويك...»، ويضحك. يردّ الأخير بابتسامة حيّية وصامتة.

في الغارة الجوية الأخيرة على «الحراك» لم يكن «أبو زرنة» في البيت، كان في زيارة بيت قريب له على أطراف المنطقة. حينما بدأت الغارة همّ بالهرولة إلى بيته، فزوجته وأطفاله هناك في البيت. منعه مضيفوه بقسوة، فذهابه وسط القصف العنيف كان ضرباً من الانتحار غير المجدي. انتظر نصف ساعة، أطول من دهر كانت، وقريبه يقفل باب البيت بالمفتاح. كان يلهج بالدعاء إلى اللّه أن يحمي أسرته، يصلّي ويمسح وجهه بكفّيه. حين هدأت السماء عن إلقاء حممها انطلق «أبو زرنة» مهرولاً إلى البيت، انخلعت مشايته الجلدية فخلّفها وراءه وانطلق حافياً.

على الطريق كان سكان المنطقة يهرعون باتجاه الجهة التي قُصفت، الجميع يهرولون باتجاه بيوتهم! قلب «أبو زرنة» يتخبّط مترقّباً، ساقاه تكادان لا تحملان جسده النحيل، لكنهما تهرولان بشكل لاإرادي. حين وصل المنطقة التي من المفترض أن يكون بيتهم فيها لم يكن ثمة من بيت! كانت فجوة كبيرة سوداء لا غير، لم يكن ثمة من جدران أو حديقة أو شجرة زيتون، فجوة كبيرة سوداء وأشلاء حجارة وأجساد، أشلاء حياة كانت!

كان البكاء والعويل يعمّ المشهد، لكن «أبو زرنة» وقف ساهماً على أطلال بيته. كان الناس يقتربون منه محاولين الشدّ من أزره، يقولون له اصبر على مصيبتك فهي ابتلاء واختبار. لكن «أبو زرنة» لم يبكِ، كان يقلّب نتف الثياب محاولاً تبيّنها، يتمتم بأنه سروال صغيره، وفستان زوجته الأحمر الذي يعشقه على جسدها كل ليلة. ظل يهزّ رأسه ويهزّ، وقد ازداد هدوؤه وصمته أضعافاً. حتى إن أبي قال لي، في أحد اتصالاتي النادرة معه، إن «سليم أبو زرنة»، الذي قدِم ليسكن

في بيت أهلي بعد الحادثة، أضحى شخصاً غير طبيعي. عقّب أبي أنه يخاف أن يأتي يوم ويفقد عقله بالكامل!

حين عدت إلى بيت أهلي هذا الصيف همست أمي، وهي ترمق «سليم أبو زرنة» بألم، إنه قد يبقى ساعات على هذه الشاكلة لا يتحرك فيه عضو، حتى إنه يكاد لا يرمش بعيونه، ينظر إلى الفراغ ليس إلا. ثم ضربت كفاً بكف وهي تمسح دموعها وتدعو على المتسبب بذلك وهي تناظر السماء: اللّه يعينه فقد كل أسرته، شيء ما ممكن يتحمّله عقل بشر... اللّه يحميلي إياكم يا أمي.

كان أخي «محمود» قد تماثل للشفاء، وفجوة بحجم قبضة اليد في بطنه. لكنه لم يكن يخرج كثيراً من غرفته الداخلية، وحينما كنت أشتاقه أدخل إليه إلى الغرفة. مع الزمن اكتشفت حقيقة «سليم أبو زرنة»، لم يكن الرجل مثلما يبدو! في الأيام التالية لمجيئي إلى البيت رحت أراقبه. حينما يحلّ الليل كان يتسلل إلى مكان ما، يغيب نصف ساعة، أو أكثر بقليل، ثم يعود وهدوء غريب يخيّم على وجهه. يضع رأسه على المخدة، التي خصّصتها له أمي في المضافة، وينام بعمق! شخيره يكاد يصل إلى آخر القرية. كانت هذه حاله كل يوم، لم يتخلّف ولا ليلة عن موعده!

ذات مرة خطر ببالي أن أراقبه، مشيت خلفه ولكنه كشفني، استدار فجأة، وصاح بي: «لا تلحقني يا ابن العم... لا تلحقني...»، فعدت أدراجي. في اليوم التالي كنت أكثر حذراً. انتظرت وقتاً إضافياً حتى صار بيني وبينه مسافة جيدة، ثم مشيت وراءه بتأنٍ ومن خلف أجمة قريبة رحت أراقبه. كان الظلام الدامس يجعل جسده أقرب إلى شبح مسودّ يكاد يذوب في العتمة المحيطة، لكني استطعت تبيّنه حين أخرج شيئاً أشبه بعصا غليظة طويلة، ومضى باتجاه التلة. هناك انبطح ممسكاً بها، وبدت لي أشبه بقناصة. لبث ساكناً لدقائق، ثم أطلق رصاصة واحدة مكتومة الصوت، واستعجل الرحيل

مهرولاً. رمى قناصته في الأجمة ذاتها، وغذّ السير باتجاه البيت!

اكتشافي هذا كان أشبه بصاعقة! حين وصل «أبو زرنة» إلى البيت كنت قد دخلت قبله بدقائق قليلة. رمق عيني مستفسراً، لكني لم أستطع أن أواري هلعي واستغرابي، كنت ماأزال ألهث، وأعتقد بأن عيني فضحتا كل ما يعتمل داخلي. جلس بهدوئه المعتاد، ثم قال لي: «اسمعني يا عمر يا ابن عمي...»، وراح يقصّ بجمل قليلة ومقتضبة القصة بأكملها، فمنذ أن حدث ما حدث لم يعد يستطيع أن ينام بدون أن يقنص رجلاً من رجال النظام على أحد الحواجز العسكرية التي عادت بعد القصف الأخير للمنطقة. باع قطعة الأرض الوحيدة التي يملكها واشترى القناصة تلك. كل مساء ينجز ما أقسم عليه يميناً يوم رأى أشلاء امرأته وصغاره مرمية حول بيتهم المحروق. بعد أن يفعل ما عليه فعله كل ليلة يعود والسلام يملأ قلبه لينام قرير العين.

قال لي نهاية الحديث: «سأظل أفعل ذلك حتى استشهد، أو يختفي آخر رجل من رجال النظام». مع الزمن راحت شهرة الرجل القناص، الذي يعيش في مضافة بيتنا، تعمّ الآفاق، لكن لم يعرف أحد من يكون الرجل القنّاص ذاك! ماعدا هذا لم تكن «الحراك» تختلف كثيراً عن بقية مناطق سوريا! تشبهها كثيراً.

ظل «أبو زرنة» عندنا بسرّه المدفون عميقاً في روحه وروحي. جاءت ليلة خرج فيها إلى قدره اليومي حاملاً قناصته ولم يعد. انتظرته طويلاً، كان إحساسي ينبئني بنهاية قبيحة للحكاية. لم أستطع النوم ولم أجرؤ على الخروج، كنت أترقب كل نأمة في الخارج. عند الصباح دقّ رجل من المنطقة على بابنا ليخبر أبي، آسفاً، بأن جثة صهره «سليم أبو زرنة» وُجدت على تخوم البلدة، وهو مقنوص في رأسه! حين هرولنا في الاتجاه الذي دلّونا عليه ألفينا جثة «سليم» معفّرة ومرمية على ظهرها. لكنني لم أجد القناصة معه، ولم أجرؤ على البوح بالسر، لربما بحت به فيما بعد لوالدي. بدا لي بأن من قتله

أخذ قناصته معه ورحل. رأس «سليم أبو زرنة» المفتوحة، وعيناه الناظرتان إلى الفراغ، ذكرتني بصديقي «عبد اللّه» الذي قُتل كذلك برصاصة قناص في شهر أيار الماضي. لكنني أحسست بطيف ابتسامة يلوح على فمه الفاغر، هل كان ظل ابتسامة حقاً!

توالى الموت في «الحراك»، كما توالى الموت في منطقة حوران المحيطة، لكن «الحراك» استمرت في عيشها! حزن أبي كثيراً، وبكت أمي وبكت حين قُتل «سليم»، كانت تقول بأنها فقدت أخاً. أنا أحسست بشيء غالٍ نقص من لياليّ في بيت أهلي، لكن الموت كان جارفاً، كل يوم كل ساعة وكل آن، موت وموت وموت، سيجعل من رحيل «أبو زرنة» اسماً آخر ينضاف إلى القائمة القاتمة التي تكبر كل يوم.

بعد عدة أيام عادت حياتنا كما كانت! الموت خبزنا اليومي، اعتدنا عليه، جرّبناه حدّ التّماهي، ثملنا منه عشّاقاً، فاسقين، ولم تعد رائحته تنفّرنا! وحدها تلك الندوب غير المرئية تبقى في الأرواح، تلك الندوب التي سيأتي يوم وتتفتّق عن أشياء أجهلها وأخافها. لكن «الحراك» استمرت في عيشها اليومي، فهي لا تختلف كثيراً عن معظم المناطق حولها. بعد أن عدت إلى بلدتي بأقل من شهر بدأ قصف عنيف على المدينة، ٢٤ تموز ٢٠١٢ تاريخ لا يمكنني نسيانه، بل لا يمكن لأحد من «الحراك» نسيانه! كان الناس يهرولون باتجاه الملاجئ، ملاجئنا في «الحراك» أقبية مهجورة أو طوابق أرضية في أبنية عالية لم تكتمل بعد. هذه هي ملاجئنا! تلك القذيفة التي سقطت على أحد الملاجئ المرتجلة جعلت الطابق الأرضي لبناء على الهيكل يتدمّر، تدمّر معه أكثر من عشرة أطفال كانوا يختبئون هناك. حين غاب صوت القصف هرولت كغيري من الناس إلى مكان ذاك الملجأ، كانت أمي تصرخ عليّ أن أبقى، وأخي «محمود» مازال غارقاً في غرفته. الدخان يتصاعد من البناء، آثار الحريق تبدو من بعيد، ورائحة بارود

ولحم بشري يشوى تتبدى أوضح كلما اقتربنا من المكان. رؤوس طايرة، وجوه مقسومة، وأشلاء وأيد وأرجل! أشلاء أشلاء، نواح... بكاء... صريخ وزعيق، واحد يصرخ نريد أطباء، امرأة تبعد الذباب عن الجثث، وناس أتت لتتفرج. كان الأطفال في الملجأ من أسرة «السلامات»، أعرفهم جميعاً، ورحت أبحث بين الأنقاض والهباب عن أجسادهم، لم أعرفها! لكن حينما صفّوهم في المقبرة الجماعية، وكتبوا على أكفانهم البيضاء أسماءهم، تعرّفت عليهم!

فكرت في تلك اللحظة بالذات، وأنا أرقب الأطفال الناجين، كيف لهذه الذاكرة أن تتبدد! كان بعضهم يبدو مذهولاً بعد الصدمة، بعضهم يشتم، بعضهم يبكي. كيف سيزيحون من ذاكرتهم أشلاء عوائلهم، رأس شقيق مفصول عن جسده، أو جثة أمّ مهشّمة.

الأطفال، وحدهم الأطفال يدفعون الثمن المتعاظم يوماً إثر يوم!

في شهر آب راحت القوات المقاتلة في «الحراك» تفقد مواقعها، وكانت فكرة اللّحاق بمعظم أهل البلدة إلى مخيمات اللجوء في «الأردن» تطرح كل يوم في بيتنا. أمي تنوح طوالَ الوقت، تلهج بأنها لا تريد فقدان ابنيها في حفل الموت الجماعي هذا. لم يعد لدينا الكثير لأكله، الطعام قليل والمواسم قليلة، فلم يكن بالإمكان العناية بالأرض هذه السنة كما ينبغي. أبي يرفض ذلك، يقول لن أموت إلا في بيتي، ويصيح على أمي وهو يمسك بشعره الثلجي: «بعد هالشيبة تريدينني أن أتبهدل يا أم عمر؟ بعد هالعمر وبدنا نتبهدل!!».

لكن في فجر يوم من آب فجّر من بقي من الثوار في المنطقة دبابة من دبابات النظام، وكان الحدث ينبئ بعقوبات كبيرة ستطول أهالي «الحراك»، حينذاك صاح أبي لنجهّز أنفسنا لأننا سنيمّم شطر «مخيم الزعتري»!

لم نكن قد ابتعدنا كثيراً حين سقطت قذيفة على بيتنا، ولمحنا غيمة كبيرة من الدخان والنار تتصاعد مكانه، كنا نهرول وعيوننا معلّقة

بالخلف. صوت القصف والرصاص المتلاحق يثقّب مسامعنا، ونحن نهرول بأمتعتنا القليلة، وأمي تلهج بأدعيتها. لم يكن من السهل أن نصل الحدود بسلام.

كان الناس يهرولون حولنا باتجاه الحدود أيضاً، بعضهم يحمل قطعاً من أغراض بيته! بعضهم يشحط حقائب ثياب، هناك رجل كهل يضع كرسياً على كتفه، وفتاة تحتضن أصيصاً من الزهور. كثير من الناس حملوا بسطاً وفرشاً وأغطية، وثمة مراهق أسمر وضع آلة عود على كتفه ومضى يهرول. بعد مدة من سيرنا الحثيث حاذتني امرأة متوسطة العمر تتأبط ألبومات صور بأغلفة بلاستيكية رخيصة، وتحمل صغيراً ملفوفاً بحرام صوفي في يدها الأخرى. ربما كان هناك عشرات الآلاف من السوريين يخوضون رحلة تشابه رحلتنا في مكان آخر، ربما على الحدود التركية أو اللبنانية أو العراقية أو حتى ضمن البلاد. شعب من اللاجئين نحن، كأننا نحمل ذاكرتنا ونمضي بها، أو كأننا نمضي كي نحمي ذاكرتنا!

على الحدود كانت طوابير البشر بلا نهاية: امرأة شابة وسط عائلة صغيرة ترابط جانباً، تنوح بصوت عالٍ مسموع رغم أنها تحاول إغلاق فمها بطرف غطاء رأسها. قالوا لنا إن ابنها توفي الليلة بقذيفة ولم تستطع دفنه! كانت تصيح: يا حرقة قلبي عليك يا أمي... يا حرقة قلبي... جميع المارين باتجاه الحدود كانوا يرمقونها ويمضون، ففي قلب كل منهم حرقة تشبه حرقتها! أمي مسحت بباطن كفّها دمعة في طرف عينها وقالت لي: «لن يعرف أحد ماذا يعني قلب أم مفجوعة!!»، وأكملت طريقها بجانب أبي.

وصلنا المخيّم. قالوا لنا هذه الخيمة لكم. كان حظّنا طيّباً إذ إنهم أعطونا خيمة مستقلة وغير مهترئة. ثمة أكثر من خمسة عشر ألف لاجئ سوري في المخيم، لكنهم كانوا يزدادون يوماً بعد يوم.

على طابور الطعام حكى لنا رجل كهل من «طفس» عن اللاجئين

السوريين في «لبنان»، لم تكن أوضاعهم أفضل فقد كان هناك قبل أن يأتي إلى هنا قبل شهور، ولم يكن الشتاء قد انتهى وقتها. هربوا عبر منطقة «القاع» الحدودية في «لبنان» عبر «القصير». كان القناصة يطلقون الرصاص عليهم طوالَ مسيرتهم، وسيارة تنطلق باتجاه «القاع» تحمل طفلاً لم يبلغ العاشرة من عمره تمّ قنصه في رأسه، حمله أخوه الكبير ليعالجه هناك. مات بعد دقائق من وصوله، فعادت السيارة نفسها في الطريق الذي نقطعه، وكنا مانزال نمشي. الأخ الكبير كان يبكي وهو يحتضن جثة أخيه، وجثث فلاحين مرمية على جوانب أراضيهم، قنصهم القناصة وهم في أماكنهم. كانت هناك بيوت مكسّرة ومنهوبة في الطريق. قالت لنا عجوز هناك بأنهم كانوا يبحثون عن الهاربين إلى هنا، قال الكهل. كان هناك امرأة سورية لاجئة أيضاً، ظلت طويلاً في المستشفى ثم عادت إلى المخيم. نزلت قذيفة هاون على الدراجة النارية التي تهرب مع عائلتها عليها، بُترت ساقاها على الفور، لكنها بقيت حية لتشهد نهاية عائلتها: ابنتها التي تبلغ عاماً ونصف نزلت القذيفة في رأسها وماتت على الفور وهي بين يديها، ابنها يجلس أمام والده على الدراجة شقت الشظية أمعاءه وأخرجت عينه ومات بعيداً عنها أمتاراً. أما الزوج فقد سقط كذلك على بعد أمتار. قال لي الكهل القادم من لبنان بأنها لم تكن تبكي، تبقى صامتة طوالَ الوقت كأنها في عالم آخر! وقال لي بأنه كان يتوقع أن تموت في أية لحظة، وربما ماتت الآن! قال لي بأن اللاجئين في الأردن أحوالهم أفضل. لكن كيف ستكون أحوالنا أفضل؟! كلنا لاجئون، نازحون قسريون، أشعر بأننا شحاذون على الأبواب، وكل يوم تصل إلى المخيم مجموعات أخرى من اللاجئين، يستقبلهم بعض الناس عند الأبواب. النسوة يبكين، الرجال متجهمون، والأطفال بعيون ذاهلة وبسمات خجل! الأطفال أنفسهم أراهم بعد أيام حفاة مغبرين في طرقات المخيم، يبدّدون الوقت بين الخيام في اختراع الألعاب

والتسالي، أحياناً يتحلّقون ليرسموا على أوراق تهبهم إياها إدارة المخيم في حالات قليلة. كان الأطفال يرسمون هيلوكبترات تقصف البيوت، وسحائب دخان تتصاعد من رؤوس أقلام الرصاص الداكنة على بياض الورق. يرسمون أناساً ميتين ودماء تسيل، وأشلاء على جوانب الورق، ودبابات وحرائق. الأطفال أنفسهم الذين يتراكضون حين تأتي علب المساعدات بالطعام والهدايا، وتأتي معها الكاميرات التي تصوّر الحدث، وتشير مراراً، ولا تملّ من الإشارة، إلى الجهة الباعثة للمساعدات التي أغدقت بعطائها على اللاجئين المساكين في مخيم اللجوء: أي نحن!! تُطفأ الكاميرات وتقف المساعدات هنا، ولا تعود إلا مع كاميرات جديدة ترصد التبرع الكريم لجهة أخرى.

كان هذا جزءاً بسيطاً من يومياتنا هنا في مخيم الانتظار الطويل.

في أحد الأيام كنت أراقب صبية جديدة أتت المخيم مع من بقي من عائلتها. كانت نحيلة ووجها شاحب، لكن ثمة نظرة غنجة في عينيها تطالعني طوالَ الوقت. غطاء رأسها الملوّن ينزل قليلاً عن خصلات عسلية لامعة في مقدمة رأسها، وتخيلته طويلاً كشلال من عسل. فكّرت أن أحادثها هذا اليوم وأنا أستقبلها بابتسامة، أن أبادر بالكلام والتعارف، علّ... فقد مرّ وقت طويل دون رائحة أنثى، وبعد أن أخذت أعتاد هذا المخيم القبيح صارت رائحة النساء تستفزّني وتشعلني كل الوقت. فكّرت بأني من الممكن أن أدعو تلك الفتاة عسلية الشعر لنتمشى بعيداً عن أنظار أهلها على التخوم وربما... وقاطعني ذاك الرجل الكهل من «طفس»، حين رآني أجلس قرب الخيمة سارداً، إلى متى ستبقى هكذا يا عمر يوسف؟!.

- هكذا كيف؟!

- هكذا كالحريم العاجزة!! الناس يُقتلون هناك وأنت هنا تضع يدك على خدّك وتشرد!... تنتظر أن يتكرموا عليك بالطعام!!

لم أعرف بماذا أجيبه! قال لي بأني أملك ثروة كبيرة لا أقدّرها

هي معرفتي بدقائق وخبايا عالم الأمن، يمكنني استغلال ذلك في خدمة الثورة بطرائق كثيرة غير التي كنت أقوم بها! فقد سبق وحدّثته بكل تفاصيل قصصي.

- يمكنك أن تساعد الثوار في إيصال الأسلحة لهم مثلاً...

كانت فكرة مفاجئة لي، لسبب ما لم أفكّر بها قبلاً! كان كلامه صحيحاً فقد كنت أعرف كيف تتم تخبئة الأسلحة، وكيف لا يمكن للكلاب البوليسية شمّها! كنت أعرف المعابر، وأين يتمركز عناصر النظام، على الأقل معظم أماكنهم، ويمكنني أن أعرف الباقي. كنت أعرف الكثير من الشيفرات الخفية التي يمكنني عبرها التعامل معهم. باختصار كنت قادراً على فهم طريقة تفكير الأمن. كما أعرف بالتأكيد جزءاً كبيراً من الجهة الأخرى: الثوار، على الأقل شباب منطقتي، فلمَ أقعد هنا لا حول لي ولا قوة أنتظر القدر كي يتحرّك؟! رفاقي هناك يقاتلون وأنا هنا أندب حظي. كان عليّ أن أفعل شيئاً ما!

- يمكنني أن أعرّفك على شاب هنا سيساعدك في الأمر. ما رأيك؟

لم أفكّر كثيراً هززت رأسي موافقاً.

- لكن ليكن الأمر بيننا.

- بالتأكيد بيننا.

- لا أريد لأهلي أن يعرفوا، لا أريد أن تسمع أمي بالأمر، ولا أحد في المخيم كذلك... اتفقنا.

- اتفقنا، على كلٍ إذا عرف أي أحد بالأمر فلن يبقوك هنا. لذلك كن حريصاً أكثر مني ألا يعرف أحد حتى تغادر المخيم، ومن جهتي سأنسى الأمر بعد أن أعرّفك بالشاب... سأتصل به الآن.

- هل من الممكن أن يتأذّى أهلي هنا بعد مغادرتي؟!

- لن يعرف أحد فلا تقلق.

لكن «عمر يوسف» لم يكن يعلم وقتذاك بالذي حصل مع صديقه العزيز «صلاح عباس» في «جرمانا»، فقد كان ثوار «عين ترما» قد اختطفوا «صلاح» اليوم!

- حياة صلاح في خطر!!

«صفوان الشيخ» يصيح مرتعباً: لن يصدّقوا بأنه معارض وهويته من ريف حمص... تعرفون!! لن يبحثوا الآن عن قصة حياته وتاريخه النضالي. استعجلوا في إيجاد مخرج... استعجلوا... واللّه يجيره لصلاح!!

«خالد الساعي» و«مريم محمود» كانا يعاودان الاتصال بمن يمكنه المساعدة مرة بعد مرة في الوقت الذي كان «عمر يوسف» يناقش مستقبله في تهريب السلاح مع الرجل من «طفس». «صفوان» كان يبدو متوتراً للغاية، يفرك يديه ويدخن ويدخن، «خالد» يخابر شاباً من «عين ترما» وعده أن يساعده في إطلاق سراح «صلاح عباس» من أيدي مختطفيه! «ريما العيساوي» و«هبة حدّاد» تجلسان بصمت قلق.

كان «صلاح عباس» قد ذهب البارحة للقاء مجموعة من شباب التنسيقيات في «عين ترما»، وكان ينبغي على «صفوان الشيخ» أن يرافقه إلى هناك لكنه لم يفعل، رجاه أن يذهب بمفرده وأن يأخذ السيارة معه فهي أفضل من استخدام المواصلات العامة. لكن «صلاح عباس» لم يصل إلى موعده المقرر مع شباب تنسيقية «عين ترما»!

في المساء كان «صفوان الشيخ» قد بدأ بالقلق الجدّي على صديقه الذي لم يأت حتى اللحظة من اجتماعه في «عين ترما». الاتصالات الخليوية مقطوعة عن المنطقة، لذلك لم تشغله الوساوس كثيراً حين اتصل مع «صلاح» وكان موبايله مغلقاً، لربما بسبب من الاتصالات المقطوعة! لكن قبل أن ينتصف الليل كان موبايل «صفوان الشيخ» يرنّ، وأتاه صوت أجش يخبره بأن صديقه «صلاح عباس» في

قبضة الثوار في الغوطة، ولن يطلقوا سراحه إلا مقابل فدية قدرها ١٠ ملايين ليرة سورية!

حاول «خالد الساعي» أن يستثمر كل صداقاته وعلاقاته في المنطقة، كما حاولت كل من «هبة حدّاد» و«مريم محمود» كذلك. يمّم الثلاثة شطر «عين ترما» للقاء الشباب الناشطين هناك، علّهم يساعدون في فكّ أسر «صلاح».

- هناك مجموعة من النساء، هناك عملنا سوية منذ زمن لربما ساعدونا... على أمل أن تحلّها النساء.

قالت «هبة»، فهزّت «مريم» رأسها.

وفي بيت مرمي على الأطراف اجتمع ناشطو المنطقة وثلاثة من الثوار مع الرفاق الثلاثة. كان الحوار يدور حول الجهة التي اختطفت «صلاح» وحول إمكانيات الإفراج عنه. كان «خالد» يصرخ طوال الوقت بأن الأستاذ «صلاح» معارض ولطالما ساعدهم، لكن صراخه بدا كأنه يذهب عبثاً! أحد شباب التنسيقية قال بأن من اختطف الأستاذ «صلاح» هم مسلّحون من الغوطة، وتلك الكتيبة ستبادل به مع معتقليها عند النظام، أو يدفع أهله ملايين الليرات لفك أسره.

- ولماذا سيبادل النظام به معتقلين من الغوطة؟!! إنه معارض معروف للنظام!! هؤلاء الأغبياء ألا يوجد من يوقفهم عند حدّهم؟!

صرخ «خالد» مغتاظاً.

- ليس من السهل دكتور الوقوف في وجه كتيبة قوية ككتيبتهم، الأستاذ صلاح في سجنهم الآن وأعتقد بأن حياته في خطر. النظام بالتأكيد لن يبادله.. ألا يمكنكم تأمين المبلغ؟!

- إذا بعنا كلنا أنفسنا لن نساوي ربع المبلغ... ماذا تقول أنت؟! ثم هذا الرجل الذي يختطفه هؤلاء الحمقى معنا، ساعدنا أكثر مما ساعدنا أي شخص!! ألا يستطيعون فهم ذلك؟!

- يبدو أن الأمر لا يهمّهم يا دكتور!

صوت شاب التنسيقية واهن متقطع.

أحد الشباب المتحلّقين حولهم كان يلفّ كتفه بأربطة من الشاش، بقي صامتاً طوالَ الحديث المحتدم، ثم قال: لن أنسى يا دكتور بأنك السبب في بقائي على قيد الحياة، سأفدي الأستاذ صلاح بروحي لو أمكنني، فقط لأنه صديقك، لكن أنت تعرف الأمور صارت أصعب. لكن الآن عليكم مغادرة المنطقة لا نستطيع ضمان سلامتكم، واتركوا الأمر علينا!!

- كان هنا مجموعة نساء عملنا سوية، لربما استطعت لقاءهن ولربما ساعدننا، ولربما...

- يا آنسة هذه أمور يعجز الرجال عن حلها لتحلّها النساء؟! أرجوكم غادروا الآن، وأعدكم أن نقوم بكل ما نستطيع.

كان «خالد» محمرّ الوجه غاضباً، «هبة» اغرورقت عيناها بالدموع، أما «مريم» فقد كانت طيلة النقاش المحتدم تفكّر بأخيها «مصعب محمود»، وتتساءل: هل من المعقول أن يكون مصعب قد تحوّل ليشبه تلك الكتيبة؟! أم أنه مازال محتفظاً بأخلاقياته الثورية التي عرفتها فيه؟! وهل يمكن لبقايا أخلاقيات رومانسية ناصعة أن تبقى وسط كل هذا الخراب؟!

انقضى اليوم التالي لاختطاف «صلاح عباس» في الاتصالات وترتيب اللقاءات والأسئلة والانتظار. كان التجمّع المعارض الذي ينشط «صلاح» من خلاله قد أصدر بياناً يندد باعتقاله، ويناشد ثوار الغوطة الحفاظ على أخلاق الثورة، والاتصالات تتوافد وتتوافد إلى موبايل رفيقه «خليل أبو العزم». كان «خليل» يصيح بأن الحل الوحيد هو الضغط على الثوار في الغوطة كي يضغطوا على المختطفين ويطلقوا سراحه... يصيح ويصيح، وقد راح الفزع يأخذه من أن يكون «صلاح» قد مسّه سوء عندهم! شباب التنسيقية يتبادلون الاتصالات مع «خالد الساعي» طيلة الوقت، الأخير أيضاً يصيح

ويصيح، ومجموعة الاصدقاء المتحلّقة في صالون بيت «صفوان الشيخ» تعجّ أرواحها بالقلق والذعر!

- سأتصل مع أهله.

نبرت «ريما العيساوي» فجأة: سأتصل بأمي، وهي تخبرهم لربما استطاعوا أن يجمعوا المبلغ بسرعة!!

- ريما ١٠ ملايين ليرة سورية هذا ليس مبلغاً سهلاً!

- لا، سنساومهم على تقليله... هذا ما قاله شباب التنسيقية.

قال «خالد» قبل أن يعاود الاتصال من جديد.

في ذلك الوقت كان «صلاح عباس» مرمياً في غرفة مظلمة تحت الأرض في مكان ما من الغوطة الشرقية. الأرض البيتونية العارية كانت صقيعية، ولم تسهم أنفاس الرجال المتكاثفة حوله في تدفئة المكان، بل على العكس زادته صقيعاً. صرخات الألم كانت تأتيه من الغرفة المجاورة، أصوات تعذيب تجعل معدته تتقلّص فزعاً!

- يريدونه أن يعترف بأنه متعامل مع النظام.

غصّ صوت جاف بجانبه.

- سيبقون يعذبونه حتى يعترف.

غصّ مجدداً.

- أنا بقيت ثلاثة أيام حتى اعترفت!!

- والآن؟!!

- أنتظر محاكمتي من الهيئة الشرعية.

- تعني الهيئة القضائية؟!

- لا الهيئة الشرعية التي تقيم بالمحاكمات.. الحمد للّه أنا جرمي خفيف، تحدّثت مع عناصر من النظام وقدّمت لهم الماء، لذلك لن تكون العقوبة خطيرة... لكن غيري وضعه أصعب!! البارحة حكموا على شاب بالإعدام بعد أن اعترف بأنه ساعد عناصر النظام في الاقتحامات.

أحسّ «صلاح» بذلك الخيط الحارق يكوي معدته من جديد.

بعد أربعة أيام طويلة كانت عائلة «صلاح عباس» قد استطاعت جمع مليوني ليرة سورية كفدية لإطلاق سراحه. «عادل عباس» الشقيق الأكبر لـ«صلاح» يصيح على الموبايل من «حمص»: «حتى يعرف أخي بأن الوقوف مع أولئك الإرهابيين خطأ. هذا ما جناه من الدفاع عنهم، عادى أهله وناسه، وها هم يريدون قتله... اللّه ينجيه على خير إنشاللّه..».

لم تحاول «ريما» أن تشرح له الأمر، هزّت رأسها بعد أن عرفت متى سيبعث بالمال وأغلقت السماعة. عند مساء اليوم الرابع وصل «صلاح عباس» إلى بيت «صفوان الشيخ» بدون سيارته التي لم يرجعها له المختطفون. كان يبدو منهكاً، آثار الضرب تملأ وجهه، والكدمات الزرقاء تبقّع جسده. استسلم لكمّادات «مريم محمود» الباردة ولتربيتات «صفوان» المشجعة بعد أن مجّ ثلاث سجائر متلاحقة.

- فداك السيارة يا صاحبي... الحمد للّه على سلامتك!!

- أخاف أن تكون هذه التجربة قد جعلتك تتخلّى عن دعم الثوار والثورة!!

حاول «خالد الساعي» مداعبته فيما عيناه مترقبتان معلقتان بعيني «صلاح».

- حقيقة هذه التجربة جعلتني أحتقر النظام أكثر السبب الرئيسي في تكوين جماعات كهذه.

همس «صلاح» متألماً. فسألته «ريما العيساوي» وهي تطوّق جسده الحبيب، هل أن الذعر هو السبب هنا في فعل ما يفعله الجانب المعارض أيضاً، إذا كان الذعر برأيه هو السبب الذي يحدو بأهل طائفتهم إلى كل ما يفعلونه!

- الذعر بالضبط، الذعر ذاته من العودة إلى ما كانوا عليه قبل الثورة، الذعر من الضعف ومن الفقر ومن قلة الحيلة، والذعر من

الآخر كذلك. . . إنه الذعر ذاك الذي يحرّك الوحوش في دواخلنا!

لكن «خالد الساعي» لم يوافق «صلاح» على حديثه، انبرى بأن الانفلات الأمني، وهذه الحالة من العبث والفوضى، جعل أمثال أولئك يسيطرون اليوم على بعض مناطق الثورة، فيما يستعملون الثورة أداة لخدمة مصالحهم: «يمتطون الثورة ليقوموا بسرقاتهم، يعتقدون بأنهم هكذا يتغيرون إلى ثوار بدل أن يكونوا مجرمين!!»، كان «خالد» مستفزاً غاضباً.

- قد يكون ما تقوله هو المناخ الذي أتاح الأمر، لكن السبب هو ذاته يا صديقي، الذعر.

ظلّ «صلاح عباس» مصراً يحاول الابتسام طوالَ الوقت، لكن ذكرى الأيام الأربعة المنصرمة راحت تموج أمام عينيه وهو ممدّد على الصوفا في صالون بيت صديقه. كانوا قد نقلوه في اليوم الثالث إلى غرفة معتمة سجنوه فيها وحده، غرفة خالية من الشبابيك لا يكاد يتبين معالمها إلا حين يَصرُّ الباب الحديدي ويُفتح ليدخل السجان. السجان شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، حليق الشارب بلحية طويلة وخفيفة تظهر أجزاء من خديه من بين شعيراتها المتفرقة. قال له في مساء ذلك اليوم حين أتاه بإبريق من الماء: «ليس هناك أحد لم يتصل معنا من أجلك!!». هزّ «صلاح» رأسه متعباً.

- حتى رجال المعارضة في الخارج اتصلوا من أجلك!! لكن لا تعتقد بأننا سنطلق سراحك هكذا ببساطة، حتى لو كنت تدّعي بأنك معارض معروف!!

نبر السجان وهو يرتّب وضع بندقيته على كتفه، فهزّ «صلاح» رأسه مجدداً، فلم يكن لديه القوة ولا الطاقة لجداله. أراد أن يطلب منه سيجارة، فقد فرغ باكيت الحمرا الذي كان معه منذ اليوم الأول، لكن طلب السيجارة كان يعني توسّلاً من نوع ما لم يجرؤ «صلاح» على ارتكابه!

- أنتم تقتلوننا بعد أن نهبتم البلاد كل هذه السنوات.

ولمّا لم يجب «صلاح» مجدداً تركه بسلام بدون صفعات وإهانات اليوم السابق! وأغلق الباب وراءه.

في اليوم الذي يليه، اليوم الرابع، وضع السجان الشاب قصعة معدنية فيها قليل من الطعام بجانب «صلاح»، الذي كان يتكئ على الحائط في زاوية الغرفة، ثم جلس القرفصاء بعيداً قليلاً عنه دون أن يخلع بندقيته عن كتفه. بعد قليل مدّ يده إليه بسيجارة. لم يتردد «صلاح» هنيهات بل استلها ودفع بوجهه إلى الأمام كي يشعلها الشاب السجان له، ثم راح يمجّها بشغف. سأله الشاب بعد قليل بنبرة فضول مستتر: أنتم العلويون لستم إسلام أليس كذلك؟!

- بلى نحن طائفة من الإسلام!

- لماذا لا تصلّون ولا تصومون؟!

- من قال لك ذلك، المؤمن منا يصوم ويصلّي...

- غير صحيح.

- بلى صحيح، ومن يؤمن يذهب إلى الحج كذلك! والزكاة واجبة أيضاً.

- ولماذا لا تتغطّى نساؤكم؟!

- هذه مسألة قناعات وتفسير مختلف لآيات القرآن وللإسلام بالعموم.

- كيف يعني تفسير مختلف، هناك تفسير واحد فقط... وتقيمون والعياذ باللّه حفلات جنس جماعي!

- حفلات جنس جماعي؟!! واللّه لو سمع أبي بهذه الأخبار لمات من فوره! ولكن من أين تأتي بهذه الأخبار الملفّقة؟!

- أسمعها!!

- غير صحيح يا أخي... هذه معلومات غير صحيحة. أرأيت كم نحن نجهل بعضنا البعض، لذلك نخاف من بعضنا!!

بدا الشاب كأنه لم يسمع جملته الأخيرة، أضحى غاضباً فجأة من محاولات «صلاح» المبتذلة في إقناعه، فهو ليس خائفاً أبداً منه ولا من عشيرته المنافقة ولا من أهله القتلة... وسينتصرون عليهم في النهاية. راح يصرخ مستفزاً وهو يغادر الغرفة ويغلق الباب الحديدي وراءه. ثم سادت عتمة طاغية حالما هدأ صرير الباب العالي. أحسّ «صلاح» للحظة وهو يتكئ في عتمة الغرفة/ السجن بأنه عاش طوالَ عمره بين صفحات الكتب، كانت المرة الأولى التي يتكلّم فيها مع شاب كسجانه، وبقي مستيقظاً يفكّر حتى انبلج صبح اليوم التالي.

حينما أُطلق سراح «صلاح» في صباح اليوم الخامس، رمقه السجان بفضول كأنه يودّعه. كان «صلاح» يشعر بوخز عميق في صدره! لم يكن الضرب ولا الإهانات هي ما جعلته متألماً، بل كان إحساسه العميق بشرخ يتسّع يوماً بعد يوم. كان متألماً كذلك لأنه لم يستطع أن يقنع الشاب السجان بتغيير قناعاته الخاطئة! كانت راسخة كأنها مقدودة من صخر.

- لو كنت عسكرياً لم تكن لتحلم بأن تخرج حياً من هنا.

شيّعه السجان الشاب قبل أن يغادر البناء إلى سيارة حملته إلى التخوم الحدودية للمنطقة. «فقط لأنك معارض وحكى الشباب من أجلك أطلقنا سراحك، ولو أني لا أصدّق واحداً فيكم!!».

لكن أياً من أصدقائه لم يعرف حقيقة ما يجول داخل «صلاح عباس»، وتلك الجرعة الحادة من الواقع الذي اقتحمته خلال الأيام السابقة جعلته يقتنع كم كان جاهلاً! لكن الأمر الوحيد الذي جمعهم هو ألم متشابه اعتصر قلب كل واحد منهم، ألم له طعم المرارة واليأس والعجز والإحباط، ألم له لذعة الحزن، الحزن الذي ظلّ قادراً على أن يشعرهم باللذعة رغم كل الجحيم المستعرّ حولهم!

(٣٠)

عن تلك الغرفة الصغيرة التي غدت سجناً

بعد أيام قليلة اتصلت والدة «خالد الساعي» به من رقم غريب.

كان في أحد بيوتات «حرستا» يسعف مجموعة من الجرحى سقطوا أول أمس في قصف تلا الاشتباكات هناك بين المسلحين وعناصر النظام. قالت له لاهثة وبسرعة جملاً مقتضبة بأن رجال الأمن أتوا إلى البيت واخذوا أخاه «مجد»، وأنهم قاموا بحملة اعتقالات في المنطقة. ثم أغلقت الهاتف بعد أن صاحت: اهرب ولا ترجع يا مو اهرب...

- إلى أين سأهرب يا مو؟!!

صارت يدي ترتجف وأنا أقطب جرحاً عميقاً في جبهة شاب حرستاوي.

كانت المرة الأولى التي تتكلّم فيها أمي صراحة على الهاتف، هي الحريصة المتحسّبة دوماً، ربما لم يعد من شيء يهمّها بعد اعتقال «مجد» إلا سلامتي! كان وجه أخي مزروعاً أمام عيني. ما الذي من الممكن أن يكون قد تعرّض له من تعذيب؟! يا إلهي... «مجد»! لم يبلغ عامه السابع عشر بعد! قلبي عليك يا «مجد»! راحت عيناي تدمعان غصباً عني، والرجال القادمون للتبرع بالدم يغصّ بهم المكان. لكن مازال الدم ينقصنا! للأسف لم يكن لدي أجهزة لفحص الدم، كنت أسأل من فوري عن زمرة دم المتبرع واستخدمها، لا أعرف الأمراض التي يعاني منها، وما إذا كان دمه نظيفاً!

البراميل المتفجرة لم تعد تقتل شخصاً أو اثنين كما كان الحال مع القذائف أو الرصاص، البراميل صارت تقتل الناس بالجملة، والجرحى يتزايدون ويتزايدون، والقتلى يتزايدون ويتزايدون، وأنا لا أريد اعتياد الموت! كما لا أستطيع أن أنزع وجه أخي «مجد» من أمام عيني، وجهه الحبيب الذي يمنعني من إكمال عملي. كان ثمة جثث رُبطت جروحها بأكياس النايلون السوداء! وأنا لا أريد اعتياد الموت!

أنهيت ما أستطيع انهاءه وقررت الذهاب، لم أعد أستطيع الإكمال. تركت ما تبقى لرفاقي وذهبت. كانت «ريما» تنتظرني في البيت لهفة كعادتها، أشعر بخوفها الدائم، خوفها الذي حوّلها خلال الأشهر الأخيرة إلى امرأة ممسوسة بخوف الفقد، الخوف الذي راح يشلّها. كانت تلمّ الباقي من المنشورات والكتب واللافتات والأوراق التي يغصّ البيت بها. قالت لي إن هم جاؤوا واقتحموا البيت فلن يلفوا دليلاً يديننا.

«وهل يحتاجون إلى دليل حبيبتي كي يدينوننا؟!»، أردت أن أقول، لكن الذعر الذي راح يتقافز من عينيها أسكتني. لدي شعور بأنهم قد يأتون في أية لحظة.

لمّت «ريما» كل شيء في أكياس نايلون وخرجت. وحدها دفاتر توثيقاتها بقيت في الغرفة. قالت لي أن أدسّها داخل فرشة القطن التي على السرير ريثما تعود، وفي حاوية للقمامة الموضوعة على رأس الحارة رمت الأكياس وعادت مسرعة. رحت أحدثها عن أخي، وأبكي وأنا أدسّ آخر الدفاتر في قطن الفرشة. ثم جلسنا متلاصقين نبكي، أحسست للحظات بأننا ننعي كل شيء من حولنا.

فجأة ضجّ صوت طرق شديد على الباب، لم نعِ ما حدث حتى كان الباب قد انخلع ودخلوا! خمسة عناصر برشاشات وثياب مدنية انسفحوا داخل غرفتنا الصغيرة، وبدت أضأل بوجود أجسادهم الضخمة. بدؤوا بالصراخ وأشهروا الأسلحة في وجوهنا.

سأل زعيمهم: «أنت الدكتور؟»، هزّ «خالد الساعي» رأسه بالإيجاب، فيما قالت «ريما»: «لا...». وانهالت صفعة مدوية على وجهها. راحوا يقلبون كل الأشياء في الغرفة إلى الأرض، اللوحات، الشموع، الكتب المتبقية، الزجاجات، الصحون، أواني المطبخ، خزانة الثياب، كانوا يفتشون كل شيء! «خالد» و«ريما» منكمشان في زاوية الغرفة، يحتضنان بعضهما ويرتجفان، وكدمة قرمزية اللون على وجه «ريما». التقط أحد العناصر زجاجة العطر التي تركتها على رفّ من رفوف المكتبة، اشتمها ثم دسّها في جيبه! في نهاية تفتيشهم شقّوا فرشة القطن ليعثروا على دفاتر التوثيقات. صاح العنصر وهو يقلّب إحداها «سيدي، سيدي، مدري شو هالدفاتر؟!». فأخذها زعيمهم معه، وصرخ في الشابين قبل أن يأمر عناصره بشحطهما إلى سيارة أمنية مركونة في الزقاق الموازي لزقاقهما.

الناس في الحارة يقفون على مداخل بيوتهم يناظرونهم بوجل، الصمت يعمّ المكان، والأنفاس متوقفة مترقبة! وضعوهما في المقعد الخلفي للسيارة بين عنصرين يشرّعان سلاحيهما من الشبابيك المفتوحة، عصبوا عيونهم بقطعتي قماش وانطلقوا مسرعين.

كان على «صفوان الشيخ» و«مريم محمود» أن يتركا شقتهما في «جرمانا» حال سماعهما بخبر اعتقال «خالد» و«ريما» من غرفتهما في «دمشق القديمة»، ولم يعودا إليها بعدها، فقد عثرا على شقة صغيرة في ملحق بناية منزوية قريبة من «ساحة الشهبندر» وسط «دمشق». شقّة بأجار شهري منخفض، فقد كانت مدّخرات الزوجين، التي أتيا بها من «حمص» قبل أكثر من سنة، آخذة بالنفاد! لكنها بقيت في النهاية شقّة سرّية لم يعرفها إلا قلّة قليلة من الأصدقاء. كانا يستطيعان أن يلمحا طرف ساحة «السبع بحرات» من زاوية شرفة المطبخ، كما قد ينجحان أحياناً في لمح زاوية من مبنى المصرف المركزي هناك.

- كاللص الذي يسكن على سطح المخفر!

علّقت «مريم» متهكمة قبل أن تعود إلى ترتيب حاجياتهما القليلة التي أتوا بها. كانت حركتها قد غدت أكثر ثقلاً، فقد تضخّم بطنها كثيراً في الشهر الماضي، لذلك كان حجم الشقّة الصغير أمراً بعث في قلبها الارتياح. ثم إنهما اكتشفا قابلة قانونية تسكن قريباً منهما، وأصبح قلق الولادة بعيداً.

- شقة لطيفة ورومنسية لولا الكم الهائل من الصراصير التي تسرح في أرجاء البيت، خصوصاً في المطبخ، ولولا شقق الدعارة التي تتوزّع بين طوابق البناء الخمسة، ولولا كل هذا القلق والخوف...

قالت لأختها «فاديا» في آخر اتصال معها على السكايب، فقد كان على «صفوان» و«مريم» أن يقابلا عشرات الزبائن والعاهرات على الأدراج وأمام الأبواب كلما أرادا أن يشتريا شيئاً من البقالية.

أما «هبة حدّاد» فقد تركت بيت أهلها حالما سمعت باعتقال «خالد» و«ريما»، وراحت لتختبئ في بيت خالتها في «مشروع دمر».

(٣١)

عن الخبز والحنين مرة أخرى

بعد رحيل «عصام طعمة» بأقل من شهر اتصلت «عائشة الحبال» بـ«هبة حدّاد». قالت لها بنبرة لامبالية واعتيادية: «السلام عليكم». ردّت «هبة» باستغراب: «وعليكم السلام!!»، فبادرتها «عائشة» بجمل متلاحقة متواترة ولامبالية أيضاً، أو بدت كذلك. قالت إن رفيقهما المشترك «عصام طعمة» قد أعطاها رقم تلفون «هبة» قبل أن يغادر! وإنها ترغب في رؤيتها إن أمكن. وفي مقهى صغير مندس في طريق جانبي من طرقات حي «أبو رمانة» جلستا. كانت «عائشة» ترتدي جلباباً كحلياً وحجاباً أبيض وحذاء رياضياً صغيراً. حجابها يزيد من إظهار عينيها الواسعتين الندیتين أبداً، ومن حبات النمش الصغيرة على وجنتيها، فيما كانت «هبة» تقابلها على الطاولة بقميص أسود اللون بدون أكمام وشعر مبعثر مازالت بقايا الخصل الشقراء تشعّ على أطرافه.

«عائشة الحبال» تتكلّم بسرعة لكن بصوت خفيض، تنهال الكلمات من فمها بدون توقف، ومازال كأس الماء البارد أمامها لم تمسّه. سألت «هبة» بدون مقدمات إن كانت تستطيع أن تؤمّن لها بيتاً آمناً لشاب مطلوب وعليه أن يغادر المنطقة بأسرع ما يمكن. أومأت «هبة» برأسها وهي تحاول أن تحصي البيوت الآمنة التي تعرفها: «هناك بيت في جرمانا يمكنني أن آخذه إليه».

- جيد ستأخذينني أولاً إليه، ثم سآخذ الشاب بنفسي... أفضل أن تظلّ علاقتي مباشرة معه بدون دخول أي طرف آخر.

ورشفت من كاس الماء.

انتظرت «هبة» أن تعتذر «عائشة» منها على عبارتها القاسية وغير الواثقة، لكن الأخيرة لم تعتذر. دخلت في حديث آخر، بعد أن اتفقتا على الذهاب مباشرة إلى «جرمانا»، يخصّ قدرة «هبة» على تأمين كميات مضاعفة من الأدوية والمواد الطبية لجرحى «دوما».

كانت تلك المرة الأخيرة التي ترى «هبة» فيها «عائشة». اتفقتا على موعد قريب لتأخذ «عائشة» المواد الطبية والأدوية التي استطاعت «هبة» أن تؤمنها، لكن «عائشة» لم تأت! أتت بدلاً منها صبية أخرى ترتدي جلباباً كجلباب «عائشة» وحجاباً أبيض كذلك، لكنها لا تمتلك عينيها الجميلتين! همست لهبة، وهي تدسّ الأدوية في الجلباب وتربط المواد بأحزمة قماشية إلى جسدها وبطريقة خبيرة متقنة، بأن «عائشة» أصيبت الأمس برصاصة في خاصرتها وهي في وضع صعب. الكيس الذي تبقى من الأدوية أفرغت الصبية البديلة نصفه في حقيبتها الشخصية وحملت النصف الثاني.

- كيف ستدخلين هذا الكيس إلى دوما؟!

- لا عليك سأجلس عليه!! رجال الحواجز لا يجرؤون حتى اليوم على تفتيش أجسام نساء دوما!

ليل البارحة كانت «عائشة الحبال»، بمعاونة بعض رفيقاتها في «دوما»، تحاول نقل شحنة جديدة من الرشاشات إلى الشباب الثوار على أطراف «دوما» بين البساتين المحيطة. عتمة الليل، معرفتهن الجيدة بالطرقات المجهولة المتوارية، والجلابيب التي يرتدينها ويخفين تحتها قطع الأسلحة، جعلتهم أكثر ثقة وتهوراً! لكن الاشتباكات جُنّت في الوقت الذي انتهين فيه من تسليم الأسلحة لشابين ملثّمين انتظرا مجيئهن أمام بوابة إحدى المزارع المتطرفة على

التخوم. صارت أصوات الرصاص أشدّ، والشابان راحا يصرخان بأن عليهن العودة سريعاً إلى «دوما». راحت النسوة يركضن بين الأشجار، الرصاص كان يرتطم بالجذوع القريبة، وبأحجار الأرض. نقر نحاسي على الحجر ومكبوت على الخشب. أصوات القذائف تصمّ الآذان. امرأة منهن كانت تبكي صارخة وهي تتعثر بتضاريس الأرض، «عائشة» تستحثّهن على الجري سريعاً وبعيداً حين صرخت فجأة وسقطت على التراب. رصاصة، سيخ نار، اخترقت خاصرتها اليمنى! كان الدرب بعيداً على «عائشة» والنسوة كي يحملنها إلى أقرب بيت في المدينة، والدماء تنفر من تحت جلبابها المعفّر. كانت تنزف بجنون. قبل أن يصلوا إلى المدينة بقليل أغمي على «عائشة»، وكان على الباقيات أن يحملنها. لم يكن من الصعب حمل جسد نحيل كجسدها، لكن كان من الصعب لجم خوفهن وارتجافة أجسادهن ليتمكنوا من إيصالها إلى أقرب بيت آمن يعرفونه.

حينما فتح صاحب البيت للنسوة الملفّحات بالأسود كان القسم الأسفل من جلباب «عائشة» مضمخاً تماماً بالدم، الذي يقطر منه على الأرض، وشحوب وجهها قد أضحى مخيفاً. صاحت إحداهن بالرجل: أسرع واطلب المساعدة وإلا رحلت من بين أيدينا!!

- وكيف حالتها الآن؟!!

سألت «هبة حدّاد» بلهفة الصبية البديلة عن «عائشة».

- حالتها مازالت خطيرة، ولكنها تتحسّن والحمد للّه...

- الحمد للّه.، . العذراء تحميها.

- عائشة كانت طوالَ الوقت تتمنّى الشهادة، تدعو ربها كل الوقت أن تلحق بأخويها الشهيدين... وأعتقد بأنها الآن سعيدة وتنتظر ذلك الوقت!!

ثم مسحت وجهها العرق قبل أن تودّع «هبة» وتمضي مسرعة كما أتت.

لكن بعد بضعة أيام وقبل أن يلتئم جرح «عائشة الحبال» ستترك الفراش وتيمّم شطر مدينة «دمشق» لتشرف على نقل مجموعة أخرى من الشباب المنشقين الذين يريدون الالتحاق بثوار «الغوطة». على حاجز للجيش النظامي ستُعتقل، سيأخذها عناصر الحاجز إلى جهة مجهولة وتنقطع أخبارها تماماً.

في هذه الأثناء سيكون «خالد الساعي» معتقلاً أيضاً في أحد فروع المخابرات الجوية. لم تكن مقصورة الطائرة التي يعتقل فيها صغيرة، لكن مئة وخمسين معتقلاً، يجلسون كل منهم في حضن الآخر كقطار بشري متراص، سيجعلون منها أضيق من حمام عمومي.

لا أعرف كم من الوقت مرّ بالضبط وأنا هنا!! أيام... أسابيع، فلم أحصِ الوقت. كنا في مقصورة هيلوكبتر في ساحة مطار تصطف فيه الطائرات. أعتقد بأنه مطار المزة العسكري، حسبما قال لي الرفاق حولي. تأتي لحظات لا أستطيع التنفس فيها، ويبدو أن غيري يشعرون مثلي. الوجوه تضيق، العيون تجحظ وتحمّر، ويبدأ العرق بالتصبب. الرائحة كانت فظيعة حقاً، لكن رفيقي في المقصورة/ الزنزانة «أبو يعرب»، وهو رجل خمسيني من مدينة «إدلب»، قال لي إن وضعنا أفضل من أوضاع غيرنا في الزنازين الأخرى تحت الأرض، فهناك لا توجد ولا ذرة أوكسجين! يضحك ويقول لي من جديد: «صار الاعتقال ميزة، فالنظام يعدم ميدانياً اليوم. وقلما اعتقل أحداً إلا لتسليم أحد، وحينها سيموت تحت التعذيب».

كان جسدي كله يخزني بألم ممضّ، أسفل قدميّ، معصميّ، رسغي قدمي، وأماكن لسع الكهرباء، وكذلك أظافري. كل مكان تعرّضت فيه للتعذيب كان يلحّ عليّ بألم عميق. في الأيام الأولى كنت غائباً تقريباً عن الوعي، هذا ما أخبرني «أبو يعرب» بتفاصيله، ثم عدت لاستعادة وعيي شيئاً فشيئاً. كنت أهذي باسمي «مجد» و«ريما». سألني عنهما فقلت له إنهما أخي وأختي، وبدا «أبو يعرب الإدلبي»

غير مصدّق تماماً لمقولتي. منذ أن استعدت وعيي لم يفارق «مجد» و«ريما» روحي، كنت قلقاً عليهما، مهجوساً بمصيرهما، تتصارعني الإمكانيات والشكوك، وترميني في لجّة لا قرار لها. كان ثمة الكثير من الطائرات المصفوفة في أرض المطار، هذا يعني آلاف المعتقلين مثلنا، وربما أضعافهم في المبنى المجاور والأقبية التي تحته. قضاء الحاجة كان المشكلة الكبرى، فقد كان علينا أن نقضيها في أوعية بلاستيكية يجلبها لنا عامل التنظيفات، تتصاعد منها رائحة فظيعة وقد تراكم عليها طبقة سميكة من القذاراة. لم يكن من السهل عليّ أن أنزل بنطالي أمام الجميع وأقضي حاجتي، كان أمراً مهيناً حقاً. في المرة الأولى غصصت بحرقة، وإلى الآن لم أستطع الاعتياد على الأمر! كأننا بقر في زريبة أبقار. كانت رائحة المقصورة/ الزنزانة أشبه بزريبة مهملة، هذا ما كان وجه عامل التنظيفات ينبئ به حالما يدخل المكان، أما نحن فلم نعد نشمّ شيئاً، لقد اعتدنا الرائحة كما اعتدنا أوقاتنا المتطاولة هنا. عامل التنظيفات كان شاباً لطيفاً، يرمي لنا بالأخبار سريعاً ويخرج. قال لنا يوماً بأنهم جلبوا عشرة آلاف ربطة خبز لليوم. إذا كانت كل ربطة تحوي ثمانية أرغفة، فهذا يعني ثمانية آلاف رغيف خبز، قسّمها على ثلاثة حصة المعتقل في اليوم، فسيكون عدد المعتقلين حوالي ثلاثين ألف معتقل هنا!! وذهب.

علّق أحدهم بصوت عالٍ وحال خروجه: «شاطر بالرياضيات ما شاللّه»، وضحكنا. لكن المعلومة إن صدّقناها كانت مثيرة للخوف: في هذا المعتقل هناك ثلاثون ألف معتقل، فكم عدد المعتقلين في البلاد إذاً؟!!

كان رفيقي «أبو يعرب الإدلبي» يقضي يومه في الكلام، أو في تأليف فقرات زجلية، بعضها ينضح بالفخر، يتكلم عن الثورة وأهل النخوة من الثوار، بعضها يئن من الحنين، وبعضها الآخر يتألم على شهداء سوريا. كنت أحب فقرات الحنين الزجلية التي يخترعها،

تلهيني عن تفكيري القلق. المثير للاستغراب بأنه لم ينسَ ولا فقرة منها، ذاكرته أشبه بحاسوب! كان قد مرّ عليه وقت طويل هنا، أكثر من سنة كما قال لي، تنقّل بين الزنزانات المختلفة في المبنى. حكى كثيراً عن ذكرياته في تلك الزنازين: «على كلٍ صارت البلد كلها مركز اعتقال. مقرات طلائع البعث تحولت إلى مراكز اعتقال، المستشفيات كذلك، والمدارس وكل مكان لا يخطر ببالك حوّلوه إلى مركز للاعتقال. الجميع يُعتقل إن لم يُقتل، حتى الأطفال... رأيت الكثير من الأطفال في الزنازين تحت!!».

همس لي مرة: التقيت بثلاثة عقداء كانوا معتقلين هنا بتهمة محاولة الانقلاب على النظام، وهم من القوى الجوية!!

- حقاً؟!!

- بالطبع. اعتقلوا في المكان الذي كانوا يخدمون فيه!! الثلاثة أولئك بقوا على قيد الحياة لكن رفاقهم أعدموا ميدانياً.

وقفزت حبيبتي «ريما» إلى ذهني فجأة! في الحقيقة كنت أفكر فيها طوال الوقت فكلما أغمضت عيني قفز وجهها أمامي. لا أعرف ما الذي حدث معها؟! كان معنا في المقصورة شابان من «الكسوة»، واحد من «المعضمية»، وثلاثة من «درعا». تهم الاعتقال في بعض الأحيان كانت مضحكة، فبالإضافة إلى تهم الإرهاب، التعامل مع الخارج، حيازة سلاح، وارتكاب جرائم، وما إلى ذلك، كانت هناك تهم تجعلنا نقهقه بالضحك حين نسمعها، نضحك ربما كي لا يفلت زمام الأمور من أيدينا ونجهش في البكاء. البحث عن مظاهرة مثلاً كانت تهمة. تكييف وتبريد، تهمة أخرى يقصدون فيها رشّ المتظارهين بالماء كي يبردونهم وسط الحر. اغتصاب ضابط، كانت هذه أكثر تهمة مضحكة جعلتنا نقضي الساعات ونحن نتهكّم عليها. كلما نسيناها يصيح الإدلبي «أبو يعرب»: «من الذي اغتصب الضابط

ولاه؟!!»، ونعود للضحك من جديد. هناك تهمة حيازة دبابة بدون رخصة! أو مثلاً تهمة كوكا كولا!!

- يعني أنك تعطي الكوكا للشباب حين يطلقون الغازات المسيلة للدموع... تعرف الخل والمياه الغازية تخففان من حدة الغازات إذا وضعناها على الوجه.

ذات صباح أتى عسكري إلى المقصورة، وصاح على اسم «خالد الساعي» و«أبو يعرب» وثلاثة شبان معهما. ظن «خالد» للحظات بأنها النهاية. صار ينظر حوله، يسجّل الصور كأنها المرة الأخيرة التي يرى العالم فيها، فلربما كان غادياً إلى حتفه! صار الشاب الذي من «المعضمية» يبكي، وكذا راح شاب «الكسوة» يمسح عينيه. الجميع ظنّوا بأنهم ذاهبون إلى الموت. وضع العساكر الطميشات الجلدية السوداء على عيونهم، وساقوهم بالصراخ واللبط. كانت ساقا «خالد» تكادان لا تحملانه. لكنهم لم يأخذوهم إلى الموت، بل إلى زنزانة أخرى تحت الأرض. نزلوا أدراجاً وطوابق، هذا ما شعر به «خالد الساعي» وهو يمسك بكتف «أبو يعرب» أمامه ويترنح مهرولاً ومتعثراً إلى الأسفل تحت سياط العناصر.

في الكوريدورات كان عدد المعتقلين يفوق عددهم في الزنازين. فقد كانت أجساد طرية تنمعس تحت أحذيتنا، ونحن نُساق إلى مكان ما. في الزنزانة كان ثمة أكثر من مئتي شخص يتراكمون فوق بعضهم بعضاً، معظمهم مضى عليه شهور طويلة في الاعتقال. كانوا يظنون بأن الثورة انتهت، وبأن النظام استطاع القضاء على كل شيء! أخبرتهم بأنها لم تنته بعد، بل على العكس فهي مستعرة كالنار، ورحت أبالغ في قصّ قصص الشجاعة والعظمة التي يقوم بها الثوار!! بعضهم لا يعرف ماذا حلّ بأهله! منهم من لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ومنهم شيوخ تجاوزوا السبعين! المسؤولون عن الزنازين يطفئون التكييف الذي يضخّ الهواء إلى الزنزانة/ القبر، يتركوننا لنختنق

بأنفاسنا وروائحنا، نشرئب برؤوسنا إلى الأعلى كي نصيب نسمة هواء لكن الهواء لا يأتي إلى قبرنا!

هناك التقيت بشاب صغير كردي من «كوباني» اسمه «ميفان حاجو». لم أعرف أين «كوباني» هذه؟! لكنني أحببت الشاب، كان لطيفاً وصموتاً، اعتقل بتهمة الرجل البخاخ في حي «الحجر الأسود» بـ«دمشق». كان يبدو منهكاً من آثار التعذيب. قالوا لي بأنهم كهربوا أعضاءه التناسلية، وقد ظل طويلاً في حالة شبيهة بالإغماء، كما أن حروق والتهابات أعضائه لم تشف بعد. ثم طلبوا مني أن أكشف عليه بعد أن عرفوا بأني دكتور. اعترف لي شاب بقربي من «داريا» بأنهم كهربوا أعضاءه التناسلية أيضاً. سألوه: «هل أنت متزوج؟» فقال لهم: «نعم». فقال له صوت المحقق من تحت الطميشة: «هذا كي لا تجلب المزيد من الأولاد السيئين إلى هذه البلاد... وإذا أردت أولاداً ولا بد ابعث بامرأتك إليّ لأحبلها»، وصعق عضوه بالكهرباء. قال لي الديراني كذلك بأن الألم الذي شعر به لا يمكن وصفه، فهو لا يشبه أي ألم شعر به من قبل. يشبه طلوع الروح من الجسد... ربما!! شكرت ربي لأنهم لم يكهربوا أعضائي الحميمة أيضاً! ثم سألني هامساً مقرّباً فمه من أذني: «هل سأفقد رجولتي؟ منذ ذلك الوقت لم ينتصب عضوي ولا مرة!!». طمأنته بأنها فترة وتمضي، وسيعود أشد فحولة مما كان عليه قبلاً، ليجلب دستة أخرى من الأولاد. ابتسم واسترخى فارداً ظهره إلى الحائط، ولم أكن متأكداً البتة مما أقوله!

ذات وقت، لا أعرف إن كان صباحاً أو مساء، أتوا وأخذوا الرجل البخاخ «ميفان حاجو» محمولاً، ولم يعد بعدها ثانيةً. كان بعض الشباب يقولون بأنهم قتلوه ولا بد، البعض الآخر كان يقول نقلوه من هنا. ثم أتى وقت آخر واختفى شاب غيره، ثم رجل غيرهما، كان الرجال يتناقصون! ثم أتى عسكري مستعجل وصرخ من باب الزنزانة بأن هناك إفراجاً لـ«أبو يعرب»، شعرت لحظتئذ بمشاعر

متناقضة، فرحت وحزنت، تمنيت لو كنت معه وفرحت لإطلاق سراحه، وحزنت على نفسي! صار الشباب في الزنزانة يمطرونه بالطلبات والتوسّلات، معظمهم أرادوه أن يهاتف أهلهم ليطمئنوا بأنهم مازالوا على قيد الحياة. كان على «أبو يعرب» أن يحفظ أسماء وأرقام العشرات، وأعتقد بأنه استطاع حفظها فقد ظل يرددها طوالَ الساعات التي فصلت بين تلقيه خبر إطلاق سراحه وبين خروجه من عندنا. كان وداعه مؤلماً لي، مؤلماً كأني أعرف هذا الرجل منذ طفولتي!! أنا في الحقيقة لم أعرف كم من الوقت ظللت هنا! ربما شهوراً أو أياماً أم لربما أسابيع! لكن الوقت بدا لي هنا طويلاً كدهر. اشتقت لأمي، واشتقت لـ«ريما» وكذلك «مجد»، والهواجس تتناهبني هل هما حيّان أم ميتان!

لكن اعتقال «ريما العيساوي» لم يطل، أطلق سراحها بعد شهر تقريباً من اعتقالها.

في اليوم الأول أمطرها المحقق بالشتائم والسباب، وتلقّت الكثير من الصفعات والركلات وشدّات الشعر لأنها علوية وضد النظام، ثم تركها في الزنزانة مع بقية المعتقلات حتى إطلاق سراحها.

كل معتقلة كانت في الزنزانة مع «ريما» لها قصة، لكن جميعهن كن ناشطات أو سياسيات أو اعتقلن في مظاهرة أو تجمّع ما. كان الاعتقال فرصة لمعرفة بعضهن أكثر، لاكتشاف حكايات وحيوات جديدة، للنقاش، للخلاف، وللأمل. لكن «ريما» كانت مسكونة بهواجسها التي تحزّ روحها بوحشية! تفكيرها الدائم بمصير «خالد» وخوفها المجنون عليه، القلق الذي ما برح يأكل منها حين تتخيّل ردة فعل أمها وقت سماعها بخبر اعتقالها، وسروالها الداخلي الذي دأبت على غسله ونشره كل حين، فما من أردية داخلية أو خارجية وصلتها. كل محاولات «هبة حداد» في الحصول على إذن لزيارتها باءت

بالفشل، أما «مريم» فلم تجرؤ على التفكير في الذهاب إليها حتى حينما عرفت بالمكان الذي تُعتقل «ريما» فيه، فقد كان الأمر في حالتها أشبه بضرب من الانتحار، أما «صلاح عباس» فقد كان أمراً جنونياً أن يخرق تخفّيه ويذهب برجليه إلى الاعتقال.

السروال الداخلي الذي طالما ارتدته «ريما» رطباً بعد غسله، جعل الفطور تجنّ في أسفلها، وخُلقت مشكلة جديدة وعظيمة هي آلام الالتهابات التناسلية والبولية التي راحت تمنعها من النوم!

لكنها اليوم، بعد أكثر من شهر على إطلاق سراحها، قررت العودة إلى غرفتها في «باب شرقي» رغم خطورة ذلك. انسلّت من بيت «هبة حدّاد»، الذي سكنته منذ إطلاق سراحها، واتجهت صوب دمشق القديمة. كان من الممكن أن تكون الغرفة مراقبة، أو أن عناصر الأمن مازالوا يحتلونها، أو أن صاحبها قرر ألا يؤجرها ثانية، وغيّر قفل الباب. لكنه ذاك الحنين العارم الذي لا تترك براثنه المرء حتى التحقق. كان عليها أن ترى غرفتها ولو مرة، هذه الغرفة الصغيرة الضيّقة التي أضحت تعني بالنسبة لها حياتها. غرفة تشبه الحب، تشبه «خالد»، تشبه الأصدقاء وتشبه الثورة كما بدأت.

معظم طرقات «دمشق» مقطوعة، عشرات الحواجز تقطّع أوصالها، وطوابير السيارات تصطف طويلة في الشوارع المفتوحة. أصوات إطلاق القذائف تهزّ حي «المهاجرين»، حيث بيت «هبة حدّاد»، فالمدفعية وقواذف الصواريخ منصوبة فوقها على قمة جبل قاسيون. و«دمشق» تمتد أسفل قاسيون وتحترق! رائحة الدخان والبارود في كل مكان! طوالَ الطريق إلى المدينة القديمة وأصوات الانفجارات تصل من أرجاء الغوطة الشرقية والغربية.

«هبة» كانت مشغولة باتصال من صديقتها «ديانا خوري»، التي أضحت تقيم في قريتها «مرمريتا»، أخبرتها فيه عن تفجير عروس الجبل في «مزة ٨٦»، ذاك الذي حدث قبل أسبوعين تقريباً. كانت

«ديانا» تجهش طوالَ المكالمة، التي استمرّت أكثر من ساعة، وهي تعاتب «هبة» لعدم اتصالها بها طوالَ هذه الفترة، فقد كان شقيق «ديانا» قد قضى في التفجير، ولم تكد تستيقظ من صدمة غيابه المفاجئ! «كان قد عاد إلى البيت ليكشف عليه، لأني طلبت منه ذلك... وبسببي رحل أخي حبيبي!!»، وتجهش أكثر وأعلى.

كانت «هبة» تكفكف دموعها في الطرف الآخر، تحاول أن تهدئ من حزن صديقتها، تترحّم على شباب أخيها، وتهمس دون أن تصدّق بأنها تقول ذلك: «لا تحزني ديانا حبيبتي لقد مات شهيداً!!». كانت تتخيّل الشاب مهشّماً مفتّتاً وبلون الهباب، وتزدرد شعوراً حارقاً أليماً بالذنب: كان عليها أن تكون أكثر تفهّماً وقرباً من صديقتها!

- كنّا مخطئين حين اعتبرنا أن كل من لم يقف معنا عدو!!

همست لـ«ريما» بعد أن أغلقت السماعة، وراحت تمسح أنفها المحمرّ وعينيها النديتين: كان علينا أن نجذبهم إلى صفوفنا لا أن نلقي بهم بعيداً... النظام نقل لنا أمراضه، ولم نجن إلا المزيد من الأعداء!!

«ريما» لم تكن قادرة على نبس كلمة. كانت متعبة من كل شيء، منهكة حد التلاشي، متوفزة وغاضبة! تراقب صديقتها منذ أكثر من ساعة وهي تتحدّث على الهاتف وتبكي. كان شعر «هبة» مشعثاً وقد ذهبت معظم خصل اللون الذهبي منه! حاجباها غير مزججين وأظافرها بدون طلاء ووجهها بدون مساحيق تجميل! لأوّل مرة ترى «ريما» صديقتها «هبة» بهذا المنظر المهمل! لكن بعد أن هدأت «هبة» قليلاً غادرت «ريما».

كان عليها أن تقطع الطريق من حي «المهاجرين» إلى «باب شرقي» سيراً، حوالى خمسة كيلومترات على القدمين، فالشوارع مغلقة بالحواجز الأمنية، حواجز حواجز، تحوّل «دمشق» من مدينة إلى سجن

كبير، تمشي الناس فيه أرتالاً في شوارع مغلقة على السيارات ومفتوحة على القلق والغيظ. فكرت «ريما» وهي تكدّ باتجاه «باب شرقي».

اقتربت من الزقاق على مهل ولفحتها نسمة باردة. راحت تراقب كل ما حولها: الزقاق كان هادئاً ولا يبدو أن شيئاً غريباً أو غير مألوف قد حدث!

اقتربت أكثر، باب الغرفة المفتوح على الزقاق مازال مخلوع القفل، والهواء يتلاعب به، يطوّحه، تضرب دفتاه ببعضهما بعضاً بصوت قاسٍ كتيم، ثم تعودان للتباعد بانتظار الارتطام القادم.

اقتربت أكثر، دفعت الباب بيدي وأنا أحاول تبيّن الداخل المعتم. لم يكن ثمة أحد في الغرفة، لكن الفوضى تأكل الغرفة! الأوراق مع الثياب واللوحات على الأرض، كتب الرفوف متناثرة، السرير مجعلك وفرشته مشقوقة ومقلوبة. تمثال القبلة مكسور في الزاوية، عدّة حلاقة «خالد» مكسورة ومازالت بعض رائحتها عالقة في المكان... آه رائحة حبيبي، لممت أشلاءها، جمعتها ووضعتها على رفّ من رفوف المكتبة. لوحة رأس السمكة «لعبدلكي» نفضتها من الغبار العالق ورفعتها. تعويذة أمي، كُسرت العين الفيروزية فيها وتقطّعت سلاسل الفضة، حملتها ودسستها في ثيابي. كل ذاكرتي كانت مسفوحة على الأرض. لم أعرف ماذا أفعل! جلست على الأرض ورحت أبكي. كنت أحسّ بالحريق في جوفي وعيني وقلبي. حبيبي لا أعرف أين هو منذ شهور! لم يتمكن أحد من معرفة مكانه أو أين اعتقل!

لم يعرف أهلي بأني اعتقلت، لم أخبرهم، ولم يخبرهم أحد من الرفاق كذلك. لا أعرف ما الذي من الممكن أن يكون قد حصل لو عرفوا!! ربما كان قلب أبي توقف في لحظتها! حين أطلقوا سراحي وسلّموني الموبايل اتصلت أولاً مع أمي. كانت تصيح من على الجانب الآخر، وأشعر بخوفها الهيستيري المتصاعد من كلماتها.

قالت لي بأنها اتصلت بي عشرات المرات وموبايلي مغلق، وبأنها بعثت إلى بعض الأقارب ليفتّشوا عني في «دمشق»!!

- لا يحتاج الأمر إلى كل ذلك ماما... موبايلي كان خربان، وها أنا غيّرته واتصلت معك... كيف أنت؟!

رحت أغني وأنا أتوسّد الصوفا المبعثرة:

«بغرفة صغيرة وحنونة كنا نلتم

هالأصحاب وجمعنا الهم».

هدهدتني الأغنية، هدّأتني، فأكملت غناءها. كنت أراقب تفاصيل الفوضى حولي وأنا أدندن. لكني خلال لحظات فكّرت بأن حبيبي قد يخرج في أي وقت، لن أصدّق بأنه لن يعود، لدي إحساس عميق بأنه سيعود، سيعود بالتأكيد، وحينها ينبغي أن تكون غرفتنا جنة، كما كانت دوماً جنتنا. سأعيدها تلك الغرفة الصغيرة والحنونة التي كانتها. أما دفاتر توثيقاتي فما الهمّ إن ذهبت إلى العدم؟! توثيقاتنا هنا في أرواحنا، في ذاكرتنا، في كل تنهيدة أو دمعة أو ضحكة، وسيأتي اليوم الذي نعود وندونها فيه.

خلعت حذائي وشمّرت بنطالي وبدأت التنظيف.

(٣٢)

عن العودة إلى ما هربنا منه

في ذلك الوقت كان «شيران حاجو» الملقّب بـ«أبو عزيز الكردي» ذاهباً في رحلة جديدة إلى «حلب». هذه المرة أيضاً، ككل مرة، ثمة أشياء جديدة تمور في المدينة. الشباب هناك كانوا يثرثرون طوالَ الوقت عن ولادة الهيئة الشرعية في «حلب». لم يجتمع الشباب في «اعزاز»، كما المرة الماضية قبل شهرين، بل في بناء جديد في مكان متوسط يقع بين حي «السكري» وحي «الفردوس» اللذين تسيطر عليهما كتائب المعارضة، وذلك حسب تقدير «أبو عزيز»، فالشباب لم يفصحوا عن مكان الموقع بالضبط. المكان كان معرّضاً باستمرار لقصف الطائرات، لكن الشباب بدوا مسترخين ومتحمّسين. معظم المجتمعين كانوا جدداً، باستثناء المعلّم «أبو عمر»، «أبو عقاب» مزارع «عندان»، والشرطي المنشقّ «بكر» من «اعزاز»، البقية كلهم جدد. الكثير ممن سهر معهم قبل شهرين استشهدوا، أو انتقلوا للقتال مع كتائب أخرى، أو أصيبوا في المعارك. سألهم عن «مصعب محمود» فقال «المعلّم» بغيظ إنه انتقل إلى كتيبة أخرى، ولم يعطهِ معلومات إضافية.

موضوعان رئيسيان كانا يتناهشان الجلسة بمجملها: تأسيس الهيئة الشرعية، وصراعهم في سبيل تأمين المال والسلاح. لم تكن قد مضت أيام طويلة منذ تأسيس الهيئة من قبل مجموعة من الكتائب الإسلامية

في «حلب»، وكان الشباب يناقشون إمكانية انضمامهم إليها. كان «بكر الحلبي» يصيح بأنها ملأت الفراغ الأمني وأمّنت انضباط المجتمع المتجّه إلى الانفلات: «كل عناصرها مسلمون مؤمنون ويقودهم الشيخ «أبو محمد»... يعتمدون على الشريعة الكريمة التي سنّها اللّه تعالى وليس على القانون السوري الذي وضعه كفار فاسقون... لم لا ننضم إليهم؟!!».

يواصل صياحه، وقد احمرّ وجهه وبرزت تفاحة آدم أكثر في عنقه النحيل. المعلّم «أبو عمر» يبدو متردداً، و«أبو عقاب» ليس لديه رأي، فيما راح شاب ملتح، لم يعرف «أبو عزيز» عنه شيئاً إلا اسمه: «أبو سراب»، يحاجج «بكر» بأن الهيئة أساسها اتفاق بين «لواء التوحيد» و«جبهة النصرة» و«صقور الشام»، وأنهم سيبتلعون في بطنهم كل الكتائب الأصغر والأضعف، وسيسيّرونهم حسبما يريدون.

- لم لا؟! على الأقل لن نحتاج إلى السلاح والذخيرة بعد الآن...

- فلتذهب إليهم مباشرة إذاً.

لم يكن هذا حالهم قبل شهور، فكر «أبو عزيز الكردي».

في اليوم التالي تأبّط «بكر» ذراعه بيد وحمل رشاشه بيده الأخرى وهو يهمس: سنذهب في زيارة إلى مقرّ الهيئة الشرعية، لدي الكثير من الاصدقاء هناك، ستعجبك... كل شيء هناك يمشي بشرع اللّه، حتى التدخين ممنوع هناك، والنساء ممنوع دخولها إلا باللباس المحتشم.

هزّ «أبو عزيز» رأسه وهو يقول لنفسه: يريد مني أن أقنع المعلّم بالانضمام.

- حدود اللّه هي الشيء الوحيد الذي يقومون به، حدود اللّه فحسب... وكله بعد التحقيق الشرعي.

- سمعت بأنهم يعتقلون الناشطين في المدينة.

- اللّه لا يردّ الكفرة والملحدين... بسببهم لم ندحر أعداء اللّه حتى اللحظة. ذاك الناشط الذي تتحدث عنه نزع علم القاعدة عن المركز الطبي، لماذا؟! أليست القاعدة هي التي تمدّنا بالمال؟! أليست القاعدة التي نصرتنا فيما الجميع خذلنا؟! أليست القاعدة تدافع عن الإسلام وناسه؟!

- المعلّم لن يرضى الانضمام إليهم، يراهم لا يريدون شيئاً إلا السيطرة... آخر همهم حماية السوريين.

- المعلّم غلطان... واللّه غلطان.

لكن الأمر لن يطول حتى يترك «بكر الحلبي» المجموعة، وقيل بأنه انضم إلى «جبهة النصرة»، فيما ستتأسّس بعد شهور قليلة هيئة شرعية شبيهة بهيئة «حلب» في المنطقة الشرقية من البلاد، وستسمى: «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». سيكون أول ما تقوم به تكسير المانيكانات المصفوفة في أطلال المحلات التجارية في السوق الرئيسي، باعتبارها أصناماً من الواجب تكسيرها، كما ستُمنع نساء المنطقة من ارتداء البناطلين.

لكن الأمر لن يطول بـ«أبو عزيز الكردي»، بعد تلك الزيارة الأخيرة إلى «حلب»، حتى يغادر «دمشق»، سينتقل مع بدايات السنة الجديدة ٢٠١٣ عائداً إلى قريته «كوباني» في الشمال. سيحدث كل ذلك حين سيصل إليه ابن عم بعيد كان يتردد سابقاً إلى بيتهم وقت كان يدرس في جامعة دمشق علوم الاقتصاد. كان شاباً مثقفاً يحبّ التنظير، كما يذكره «أبو عزيز الكردي»، ولم يكن يفهم معظم حديثه. في السابق كان يهزّ رأسه لا غير دون أن يستوعب شيئاً من مغزى كلماته، وسيبقى يهزّ رأسه حتى زيارته القادمة. سيبدو حديثه في تلك الليلة أشدّ غموضاً وصعوبة، وقد ازدادت رغبة التنظير لديه، أو على الأقل هذا ما سيحسّه «أبو عزيز». سيحدّثه ابن العم بكرديته المتمكّنة عمّا يحصل في مناطق الأكراد في الشمال، سيكلّمه طوالَ الليل وهو

يحتسي كأساً من الشاي المحلّى الأسود الثقيل، ويضطجع على المدّة الإسفنجية في الغرفة الداخلية لبيت المعلّم «أبو علي الفهد» حيث يقيم «أبو عزيز» في حي «الحجر الأسود». سيخبره هامساً، لئلا يسمعه أحد في البيت، عن أشياء غير مفهومة وعن أفكار ومصطلحات وتحليلات! وسيحكي له تفاصيل عن وحدات الحماية الشعبية ي.ب.ج المتمركزة في المناطق الكردية، وعن مشروع الإدارة الذاتية، وسيكمل تحليلاته السياسية عن الأسباب الكامنة وراء حرب الكتائب الكردية المقاتلة مع «جبهة النصرة» في «سري كانيه»! وسيظهر إعجابه، ولا يملّ من إظهار الإعجاب، بالطريقة البطولية التي طرد الأكراد فيها المسلّحين العرب. سيقول ابن العم له بأن الأكراد يحلمون بإقامة حكومة محلية في الشمال في منطقة غرب كردستان «روج آفا»، وبأنهم ينظرون إلى المستقبل الذي سيتخلّصون فيه من كل الظلم الذي عانوا منه سابقاً، ويعودون لرفع رؤوسهم عالياً! كما سيرفرف العلم الكردي عالياً. سيخبره بأنهم صاروا يدرّسون الأولاد باللغة الكردية في معظم المدارس، تلك اللغة التي حرموا من النطق بها طويلاً، وسيجاهر بأن الحلم بات قريباً، وعليهم كلهم، ككورد، أن يشاركوا في صناعته.

- أنت تعرف شيران يا ابن العم أن مسعود البرزاني أمر بافتتاح معسكرات تدريبية للمقاتلين الأكراد في الإقليم!

- لا واللّه لا أعرف، من متى؟!

- من تموز الماضي... هذه المعسكرات ستبعث بمقاتلين كورد مدربين إلى مناطقنا... بهذه الحالة لن نبقى جنوداً جيّدين لمستعمرينا، كما كان يقال عنّا. وبذلك لن تصير «روج آفا» بيد الب.ك.ك بعد سقوط نظام بشار الأسد بل سيكون لنا قوة كذلك حين سنستقل بدولتنا.

سيمر الليل ذاك وفم «شيران حاجو» فاغر، ذاهل بما يسمعه.

سيستمع بإنصات كما لم يفعل يوماً، وسيتحرك خياله في مراته القليلة، وسيسمح لنفسه بأن يحلم مع ابن عمه.

- لم تقاتل مع العرب يا ابن عمي؟! نسيت كيف خذلونا في ثورة ٢٠٠٤؟! لنفكّر الآن بأنفسنا، بمستقبلنا... هم ليسوا بحاجة لك، يمكنهم تدبير أمورهم بدونك!!

همس ابن العم لـ«شيران حاجو».

في آخر الليل حين سيغفو ابن عمه على المدّة الإسفنجية ذاتها سيقرر «شيران» المضي منذ الصباح إلى «كوباني» ليشارك في بناء إقليم «روج آفا»، وينخرط في صفوف شبابها. «ماذا أفعل هنا مع هؤلاء؟!»، سيسائل «شيران» نفسه حين سيشقّ الفجر ذاك، على الأقل سأكون هناك في الأحضان الدافئة لامرأتي، رائحة امرأة في الليل أفضل من روائح الرجال العفنة التي لم يشتمّ غيرها طوالَ الأشهر المنصرمة. وسيبدأ «شيران» في حزم أغراضه القليلة. سيقول للمعلم «أبو علي الفهد» بأنه ذاهب في زيارة قصيرة إلى «كوباني» فأمه مريضة، وسيوصيه «المعلّم» أن يحذر من عناصر الحواجز.

هناك في «كوباني» سيجمعه ابن العم مع بقية الشباب الأكراد الذين سيقنعونه بالذهاب إلى معسكر التدريب في إقليم كردستان العراق، وهناك لن يناديه أحد بـ«أبو عزيز الكردي» بل سيعود اسمه كما كان: «شيران حاجو»، ذاك الشاب الكردي الذي قُتل أخوه «ميفان حاجو» في سجون النظام السوري، والذي لا يتنقّل بين البيوت إلا مسلحاً وفخوراً، والذي يشارك إخوانه في صنع الحلم القومي الكردي.

(٣٣)

عن المآلات والنهايات السريعة كشهب

تغيّر حال ذلك البناء في مدينة «جرمانا»: الشقة الأولى إلى اليمين، تلك التي كان يقطنها «صفوان الشيخ» وزوجته «مريم»، سكنتها عائلة جديدة من مدينة «حماة»، أرملة وأولادها الثلاثة الصغار وحماتها. الشقة المقابلة التي كانت أسرة العميد «بهجت حسون» تسكنها، والتي فرغت منذ زمن، استأجرها شاب وحيد أعزب قال لصاحب البناء بأنه آت من ريف «حلب» الشرقي بغرض إكمال جامعته في «دمشق»، ووضع رزمة من النقود أمامه على أنها أجرة البيت لسنة كاملة، الأمر الذي جعل صاحب البناء يوافق فوراً بدون تفكير. أما بيت «أم بيرو شاهين» في الطابق الثاني إلى اليمين فمازال مغلقاً على أغراضها. وصاحب البناء راح يحاول في الفترة الأخيرة، عبر اتصالات محمومة معها، أن يقنعها ببيع البيت:

- ما الذي ستفعلينه ببيت جربان في دمشق؟! اللّه يهنيكِ بأميركا.. اللي بيعيش بأميركا بيرجع على هالبلاد التعيسة؟!

«صلاح عباس» لم يغادر بيته المقابل لبيتها بعد، لكن الأمر لن يطول به حتى يفعل. أما «أبو ياسر»، الرجل الجريح من مدينة «القصير»، فقد ترك شقته حين راح يشعر بأنه أضحى وحيداً في المنطقة بدون من يغطّي وجوده! فقد استشعر خطر انكشاف أمره ورجال اللجان الشعبية يتبخترون كل يوم بأسلحتهم المشرّعة أمام أبنية

«جرمانا» وعلى مداخل الشوارع والأزقة، يخرجون من كل مكان ويدخلون في كل مكان، يتطاولون على أي شخص، ويطلبون هوية أياً كان! فمسلّحو «جرمانا» هم سلطتها وحاكموها اليوم.

«خليل أبو العزم» قال له قبل أن يترك شقته بدوره، شقة الطابق الثالث المقابلة لشقة «أبو ياسر»، إن لديه صديقاً في «صحنايا» جنوب «دمشق»، ويستطيع أن يطلب إليه تخبئة «أبو ياسر» وأسرته عنده ريثما يتبين لهم القادم: «لديه شقة صغيرة فارغة إلى جانب شقته... بقرب صديقي ذاك ستكون في أمان كامل فهو موثوق!!». هزّ «أبو ياسر» رأسه موافقاً من فوره، فلم يكن لديه خيار آخر. ثم غمزه «خليل أبو العزم» قائلاً: «صديقي ذاك معارض حتى الموت، حين تستمع إليه ستشعر بأنك لا شيء تجاهه، مع أنه طبعاً لم يغادر كرسيه قبالة التلفاز منذ اللحظة الأولى للثورة»، وقهقه قبل أن يكمل: «يعني عليك أن تتحمّل تبجحاته!!».

ساءل «أبو ياسر» نفسه بصمت: ماذا يعني تبجحاته؟! لكنه فهم بأن الرجل الذي سيؤويه رجل طيب وغير متعامل مع الأمن، وهذا هو المهم!

ثم نزل «خليل أبو العزم» ليودّع صديقه «صلاح عباس» قبل أن يغادر «جرمانا» بدوره. كان شقيقه «عمران أبو العزم» قد أصيب بنوبة قلبية قبل شهر تقريباً. حظّه الطيب أنقذه في اللحظة الأخيرة من موت محقّق. الأطباء نصحوه أن يبتعد عن توتر «دمشق» وقلقها، وألا يستمع إلى نشرات الاخبار أو يقرأ الصحف.

- إذا لم أستمع إلى نشرات الأخبار ألن أسمع أصوات القذائف والصواريخ طوالَ الوقت؟! ألن أسمع أصوات العزاء كل يوم؟! ألن أسمع لعلعة الرصاص والانفجارات؟!

صاح «عمران» مستفزاً، فشجّعوه على الذهاب إلى القرية إن كان من مجال لذلك! أو ربما خارج البلاد! هذا ما جعل أخوه «خليل

أبو العزم» يقرر الخروج من البلاد إلى «مصر» مع أخيه وأسرته، فقد كان ثمة صديق شاعر هناك سيساعده في تأمين مسكن لائق، وربما ساعده كذلك في تأمين عمل في إحدى الجرائد أو المجلات العديدة في «مصر»، وحينها لن يلقَ مصير معظم السوريين هناك! لم يفكّر «خليل» بالعودة وأخيه إلى القرية، فقد كان خياراً قاتلاً بالنسبة لكليهما، أما «جرمانا» فقد باتت تثير غضبه المحموم يوماً إثر يوم، كما عبّر لصديقه.

- كيف حال عمران الآن؟!

سأله «صلاح» وهو يقدّم له سيجارة حمرا طويلة.

- أفضل. في الفترات الماضية كان شديد الغضب والتوتر، مستفزّاً دائماً، محبطاً مصدوماً كمن فُجع بصديق له!!

- لاحظت ذلك!! لكن الأمور لا يمكن أن تسير بهذه الحدّة أو الراديكالية. هناك نقاط سوداء ربما لكن هناك الكثير من المساحات البيضاء أيضاً! ومهما كان الوضع فليس الحل الاستسلام!! هذا ما يريده النظام بالضبط!!

- أنا أعرف صديقي لكن هذا هو أخي... على كلٍ ربما كان الرحيل أفضل بالنسبة له. وأنا سأرى ما الذي من الممكن أن أفعله هناك، ربما أمكنني أن أكون أكثر فاعلية وتأثيراً!! ربما استطعنا تأسيس فرع لتجمعنا هناك، ربما... صار منظر الشبيحة في جرمانا يثير غضبي بشكل لا يوصف. كل شيء يثير غضبي، الناس، الشوارع، ما يحدث، المآلات، ما وصلنا إليه... كل شيء!

- الغضب لن يحلّ شيئاً يا صديقي.

لكن الصديقين بعد أن اتفقا حول أولويات تأسيس فرع للتجمّع في القاهرة، ولجا جدالاً طويلاً وحاداً حول إمكانيات تقسيم البلاد، أم أن الغرب سيتدخل عسكرياً، أو ربما أعطوا السلاح لقوات

المعارضة، أو لربما تضخّمت المجموعات السلفية والجهادية في البلاد حتى أكلتها، أو... أو...!! فيما كانت أصوات القصف تتداعى من حول «جرمانا» وتزداد علواً.

- إنهم يريدون حالة الاستنزاف اليومي المتروكة سوريا فيها. حالة استنزاف تريدها أميركا ويريدها الغرب، كي تتحوّل سوريا إلى بلد منهك ضعيف، مفتّت متعفّن لا يشكل أي خطر عليهم وعلى ربيبتهم المفضّلة إسرائيل!!

صاح «صلاح عباس» آملاً في حسم النقاش، لكن ذلك النقاش الحامي بينهما استمر حتى غربت الشمس، وقام «صلاح» ليعدّ القهوة للمرة الخامسة على التوالي، فيما كانت «سهام»، زوجة «خليل أبو العزم»، قد بدأت سلسلة اتصالاتها المحمومة بموبايل زوجها بدون كلل، وهي تناجيه أن يعود فالقصف عالٍ اليوم وأصواته تخيفها!!

حين سيغادر «خليل أبو العزم» شقة «صلاح عباس» والليل قد أرخى ستائره، ستكون قوافل النازحين قادمة من مدخل مدينة «جرمانا» الغربي، مئات، وربما آلاف، النازحين وقف «خليل» يراقبهم على ناصية الشارع. بعضهم يحمل أغطية سميكة، البعض الآخر ثياباً شتوية، وأمهات يتشبّثن بكفوف أولادهن الذين يبدون كناضجين، بدون دموع بدون تشكٍّ وبصرامة الشيوخ، عيونهم وحدها كانت تنضح بالذعر. عناصر الحواجز الأمنية الأهلية يوقفون القوافل النازحة، يفتّشون في الهويات الشخصية، يسائلون ويسائلون، يصرخون مربكين ومذعورين أكثر من النازحين، ينظرون إليهم كأنهم آتون بالخراب إلى منطقتهم. هكذا على الأقل ما فكّر فيه «خليل أبو العزم» وهو يراقب مشهد النزوح الجماعي الذي بدا له كمشهد التغريبة، التغريبة السورية الجديدة!

كان ثمة مجموعة من الناشطين من المنطقة يساومون عناصر

الحواجز كي يسمحوا لهم بسوق الناس إلى المدارس، ليلجؤوا هذه الليلة على الأقل. عرف «خليل» منهم اثنين، لم يقترب منهما، بل اقترب من إحدى العوائل على أطراف الرتل الطويل، سأل الرجل الذي بدا معفراً مع كيسين بلاستيكيين كبيرين في يد وصغير يحمله في يده الأخرى: «من أين أنتم قادمون؟». للحظة شعر بأنه سؤال تافه جداً، تافه كنظرته «الاستشراقية» تجاه النازحين، فالقصف دام لساعات، وقد تكون العائلة هاربة من أية منطقة حول «جرمانا»، من الشرق أو الغرب أو الجنوب، قد تكون أسرة هاربة من الموت في كل مكان. لم يستطع «خليل أبو العزم» أن يواصل أسئلته، فقد كان وجه الرجل ينبئ بشيء يشبه الفجيعة، وامرأته تشبّثت به وهي ترمق «خليل» بحذر.

- يمكنكم القدوم إلى بيتي...

قال دون أن يفكّر كثيراً، ثم ندم على عرضه، ربما خاف الرجل منه! لكن الأخير ابتسم في وجهه ابتسامة مرهقة أسفرت عن مجموعة من الأسنان المتآكلة: «شكراً أخي، إنه نزوحنا الثالث... لا تقلق، اعتدنا على الشرشحة والشنشطة من مكان إلى مكان، نزحنا من الحجر الأسود إلى يلدا، ثم من يلدا إلى المليحة، ومن المليحة إلى هنا ثم لنرى...». وبدأ الرتل بالمضي باتجاه داخل «جرمانا»، يبدو بأن الناشطين نجحوا في عقد اتفاق مع عناصر الحواجز الأهلية.

بعد عدة أيام ستأتي عائلة جديدة من مدينة «درعا» إلى «جرمانا»، ستسأل «سعيد حسين»، صاحب البقالية المقابلة للبناء، عن بيت للإجارة. «سعيد» سيقول لرب العائلة، التي تقف زوجته خلفه وحولها خمسة أطفال أكبرهم لا يتجاوز الثامنة، وهو يشير إلى البناء المقابل: «هناك ثلاث شقق للإجارة في ذاك البناء سأتصل لك بصاحبها...». وحينما سيأتي صاحب البناء ويصطحب الأسرة إليه، وهو يرشّ عليهم أسئلته المشككة والمستفسرة، سيقف «سعيد حسين» كعادته على باب

البقالية يراقب الخارج، وسيتحسّر على الحال التي وصلت إليها البلد! سوريا موطن الأمان والسلم تتحوّل إلى كتلة من لهب وغضب وأحقاد وخوف! سيفكّر. كل يوم يأتي نازحون جدد، كل يوم يبدأ صباحه بأصوات الاشتباكات وينتهي بدوي الانفجارات، كل يوم يرجوه أهله أن يعود إلى مدينته، كل يوم ترقب محموم خائف!! سيطيل من تفكيره، ثم سيعود ليجلس وراء طاولته مراقباً الطريق كالعادة، منتظراً متلهفاً لحلّ سحريّ ينقذ البلاد من كل ما هي فيه، ويعيدها كما كانت سابقاً آمنة مطمئنة! قبالته كان بعض الشبان يعلّقون لافتة جديدة على مدخل الحارة، يربطون أطرافها بقضبان حديد الشرفة الأولى من البناء الأول في الحارة. كانت ربة ذاك البيت ترمقهم من خلف الزجاج، وترمق اللافتة الجديدة التي تُعلّق على قضبان شرفة بيتها وقد خُطّ عليها بالأزرق: «الشعب السوري بوحدته الوطنية وحبّ قائده عصيّ على المؤامرات». لأول مرة يشعر «سعيد حسين» بالشكّ الحارق يخترق قلبه!

في تلك اللحظة ذاتها وفي بيت «هبة حدّاد» كان الأستاذ «صفّوح» مايزال متكئاً على الأريكة ذاتها ويتحدّث حول الموضوع ذاته، عباراته القديمة ذاتها وأفكاره ذاتها، لكن وحدها أمثلته الجديدة جديدة! كان يذكّرهم بصحة آرائه حول الخراب الذي طالما تنبأ به وها هو يعمّ البلاد الآن، وحول التطرّف الذي يزداد، وحول كل شيء قاله قبلاً... ويردّد بفخر!

في الغرفة الداخلية أخبرت «ريما العيساوي» صديقتها بقرارها الأخير الانتقال إلى بيت أهلها في «اللاذقية»! بدت «هبة» مصدومة وعيناها فارغتان وهي تراقب شفاه «ريما»، نبرت في وجه صديقتها: والثورة لمن نتركها؟!! ثم كيف ستقدرين على العيش هناك؟ ستموتين كل يوم ألف مرة!!

- لا أعرف إلى أين سأذهب؟! معظم أصدقائنا اعتقلوا، أشعر

كأني فأر محشور في زاوية! خالد لا يبدو أنه سيخرج قريباً، وأدعو اللّه كل يوم أن يخرج بسلام. لم يعد لدي مال... ولا تقولي لي سأعطيك، لقد كلّفتك أكثر من طاقتك. دمشق صارت مخيفة بالنسبة إليّ، أخاف منها وأخاف عليها. ربما هي فترة مؤقتة وأعود، فترة استراحة وأعود. لا تقلقي!!

- لكم لمن نترك دمشق؟! الجميع يغادرها! لمن نتركها؟ للنظام؟ للعفن؟ للتطرف؟ للأغراب الذين يأتون يومياً إليها للجهاد؟... لمن نتركها ريما؟!

- لم أعد أستطيع تحمّل كل هذا الموت. لم أعد أستطيع!!

- سأغدو يتيمة بدونك، أولاً فراس ثم أنت!! من سيبقى لي؟!

في الصباح التالي ستغادر «ريما» لتودّع «مريم محمود» و«صفوان الشيخ» في بيتهما الذي استأجروه حديثاً في «ساحة الشهبندر» وستبكي طويلاً، فيما «مريم» تنشق بجهد، وقد أصبحت بطنها مهولة واقترب موعد ولادتها. يرنّ الهاتف، دقائق وستبدأ «مريم» بالصراخ منتحبة. لوهلة سيظنّ زوجها وصديقتها بأنها على وشك الولادة، وأنّ أوان الطلق قد اقترب. لكن «مريم» كانت تلهج: «فاديا... دير بعلبة... دلع...»، وستمرّ دقائق صعبة قبل أن تستطيع شرح الموضوع لأحد!! كان ذلك اليوم قد أشرق على مجزرة في حي «دير بعلبة» بـ«حمص» راح ضحيتها المئات! بيوت «دير بعلبة» وأزقّتها متخمة بروائح الدم والفجيعة، بالجثث المشوّهة والرؤوس المقطوعة، بعشرات البطون المبقورة والأجساد المحروقة، وموبايل «فاديا» مغلق، والهاتف الأرضي لا يردّ!!

- الاتصالات مقطوعة حبيبتي... اهدئي. انشاللّه ما صار عليهم شي!!... انشاللّه حبيبتي.

«صفوان الشيخ» يحاول تهدئة زوجته المنتحبة على أرض الصالون. اتصال صديق بعيد من «حمص» ينقل إليهما الفاجعة، يتركهما كالمجانين، يكاد قلباهما يتوقفان هلعاً على «فاديا» و«دلع» و«أبو ليلى» الذي لم يرضَ أن يغادر «دير بعلبة»! والترقّب المحموم بالقلق سكّين مثلمة تحزّ شرايين القلوب.

- اقتحموا الحي بالتعاون مع قصف جوي بعد أيام اشتباكات!

صاح الصديق البعيد من «حمص» ثم انقطع الاتصال!

ستمرّ ساعات ثقيلة متطاولة من الترقّب اللاذع، من الخوف الذي يقطّع الأحشاء كمن ينتظر خبر فاجعة ما. لن تستطيع «مريم» أن تزيح من مخيالها صورة أختها وهي مبقورة البطن، أو جسد ابنة أختها الصغيرة وهو مقطّع الأوصال! اللون الأحمر القاني، العيون الفارغة، والأجساد المشلوحة كخرق، هي كل ما كان من الممكن لـ«مريم» تخيّله.

كانت «هبة حداد» و«صلاح عباس» قد حضرا منذ وقت بعد أن أخبرتهما «ريما». التلفاز تتنقّل محطّاته بين نشرات الأخبار التي بدأ بعضها بنقل تفاصيل بدئية عن مجزرة «دير بعلبة». الصمت المترقّب الذي يلفّ البيت لا يخترقه إلا صوت التلفاز ونواح «مريم» التي كانت لا تزال جاثية على الأرض.

عند أول المساء سيرنّ الهاتف، سيخبرهم صوت آت من البعيد، مع وشوشات وتقطّعات، بأن «فاديا محمود» بخير هي وابنتها «دلع»، لكن صهرها «أبو ليلى» استشهد. «اللّه يرحمه... مات وهو يدافع عن شرفه...»، سيهتف الصوت من ثم بأن أختها «فاديا» حلّفته أن يتصل بـ«مريم» بعد أن أعطته رقمها... ثم انقطع الاتصال!

للوهلة الأولى ستشعر «مريم» بفرح عارم لن تقدر على تحمّله! «فاديا» و«دلع» بخير! مازالتا على قيد الحياة! جسداهما سليمان وفيهما نفس يتحرّك! يا كريم يا للّه... يا كريم يا اللّه!! وتبدأ

بالضحك كممسوسة! تفتح كفّيها للسماء وتشكر ربها متأرجحة ذات الأمام وذات الخلف. يا كريم يا اللّه! لن تتذكر صهرها «أبو ليلى» إلا بعد حين، حينما تغادرها موجة الفرح الهيستيري، ستتذكّر بأنه لم ينج من المجزرة، وستحاول أن تزجر بقايا فرحها، فمن المعيب أن تفرح وصهرها قد انتقل إلى رحمة ربه! لكن ذلك الفرح لم يرضَ أن يغادر قاع قلبها، بقي مترسباً ساكناً هناك.

التملّص من الموت في حفل الموت الجماعي، هل ثمة من شيء أكثر مدعاة للسعادة!

الجميع كان يهنئها ضاحكاً، الجميع يقهقه، الجميع يمسح دموعه! صديقتاها أيضاً تعانقانها وتضحكان ماسحتين عيونهما!

«الحي أبقى من الميت... اللّه يرحمه!»، سيقول «صفوان الشيخ» كأنه يبرر الفرح الطارئ الذي اجتاح المكان، وهزّ الجميع رؤوسهم موافقين ثم صمتوا، لكن شبح ابتسامة لم يرضَ أن يفارق أياً منهم.

في تلك الليلة سيسيح ماء الرأس من رحم «مريم»، ولن يستطيع «صفوان» أن يطلب القابلة القانونية، التي تسكن قربهما، حتى كان الجنين يغادر رحم أمه، ويولد وحده في فراش غريب في بيت غريب وسط مدينة غريبة اسمها «دمشق». قبل أن تصل القابلة و«صفوان» إلى البيت كانت «مريم»، بجانبها «هبة» و«ريما»، تبكي بحرقة كما تبكي صديقتاها، يبكين جميعهن فيما الصغير يتمطّى زاعقاً، والحبل السري مازال موصولاً إلى أمه! ستوسّده الأم صدرها قبل أن تسميه: «مصعب».

في ذلك الوقت وفي مقبرة جماعية كبيرة سيصّطف جسد «أبو ليلى» بجانب الأجساد الأخرى التي رحلت اليوم، ملفوفاً بالكفن الشاحب، وسيُسند رأسه إلى طوبة قاسية. كانت تلك الهيئة الأخيرة التي ستلمحه زوجته «فاديا محمود» عليها، وشقيقها «مصعب محمود»

الذي كان موجوداً في مراسم الدفن، قبل أن يهيل شباب الحي التراب عليه وعلى الأجساد المصفوفة بجانبه في الحفرة الطويلة غير العميقة التي حفروها اليوم! لم يكن للفرح هناك مكان، الفجيعة وحدها ستكون المسيطرة، الفجيعة الحارقة التي ستجعل الناجين من المجزرة أشبه بكائنات تودّع أجزاءً منها بانتظار موت آخر قادم ومحتّم! كان رأس «مصعب» ملفوفاً بشاش متّسخ، ويده قابضة على رشاشه الأثير، فقد أصيب في اشتباكات الأيام الماضية قبل أن يكون القصف الأخير!

- كلنا على هذا الطريق يا أختي... اللّه يرحمه ويسكنه فسيح جنانه.

همس «مصعب» لأخته الناشجة، التي تكاد لا تصدّق بأن شريكها رحل ولن تراه بعد الآن. «دلع» الصغيرة كانت تقف صامتة، وتراقب مشهد الدفن الجماعي بصمت وبعيون مفنجرة كعادتها.

بعد عدة أيام من يوم الدفن الكبير سينجح «مصعب محمود» في نقل أخته «فاديا» وابنتها إلى أول الأتوستراد الذاهب باتجاه «دمشق»، مراوغاً الموت والحواجز والقصف والاشتباكات، سيودّعها هناك قبل أن تستقل سيارة تنتظرها إلى بيت أختها في «دمشق». سيقول لها «مصعب»، وهو يقبّل رأسها الملفوفة بحجاب أسود: أمانة في عنقك أن تقبّلي أختك مريم، وتضمّي صغيرها إلى قلبك، وتقولي له خالك مصعب لن يعود إلى البيت حتى تتحرر سوريا، كي تعيشوا فيها بكرامة وحرية كما تستحقون... أمانة برأسك إذا استشهدت أن تخبري دلع دائماً إن خالها كان يحبها كثيراً، أنا لم أتزوج لكن دلع وصغير مريم هما ولداي.

«فاديا» كانت تنوح وهي تصرخ به أن يسكت، تغلق فمه بكفها وتقبّل وجهه. لكن حينما ستغادر في السيارة التي تنهب الأتوستراد الدولي باتجاه «دمشق» سيفاجأ أخوها «مصعب»، وهو عائد يقطع الطريق المتطرّف الخالي، بمجموعة من العناصر المسلحة، لم يعرف

إن كانوا من عناصر النظام أو من بعض الكتائب المسلحة. سيشتبكون وسيسقط صريعاً من فوره بمجموعة من الطلقات التي ستخترق جسده بكامله. جثته ستبقى هناك، لن يعثر عليها أحد، رغم كل محاولات رفاقه التفتيش عنها، ستسترها أجمّة كثيفة محايدة، ولوحوش الليل ستترك حتى تقضي عليها تماماً.

- لكن ما هي الخيانة؟! إنقاذ المرء لحياته خيانة؟! هذا سيجعل كل محاولات النجاة خيانة لمن لم ينجُ! هذا سيجعل البشرية برمتها تاريخاً من الخيانة!

يصرخ «صفوان» في الصالون.

كان قد راح في الأيام الأخيرة يلحّ على «مريم» و«فاديا» أن يخرجوا إلى بيروت، لديه صديق مقتدر هناك، يملك مكتباً هندسياً وسيساعده بالتأكيد.

- إلى متى سيساعدنا؟! سنتشرّد ونجوع مثل بقية اللاجئين السوريين هناك!!

تصيح «مريم» فيبدأ «مصعب» الصغير بالبكاء في حضنها. «فاديا» صامتة في أسودها، «دلع» صامتة أيضاً وتبحلق عينيها في الصائحين.

- لن أترك ابني يموت هنا. لن أبقى لأعيش لحظة واحدة وأجد ابني فيها يموت. من أجل ماذا؟! من أجل وحشية نظام وغباء معارضة؟! من أجل ماذا؟! أنا لم أختر مآلات الثورة ولست راضياً عنها، ولا عن أسلمتها ولا عن شيء... لست راضياً ولن أدفع الثمن بعد الآن...

لم يعتذر «صفوان» عن إهاناته حتى حينما بدأت «فاديا» تبكي، و«مريم» لم تخاطبه لأيام طويلة. لكن صباحاً من نهايات شباط ٢٠١٣ غيّر كل شيء، حين هزّ المنطقة انفجار مهول، بدا كأن الأرض ستنشقّ

بعده، اهتزّ البيت، وراحت «دلع» تصرخ، و«مصعب» الصغير يزعق بجنون. الانفجار ذاك الذي حصل أمام مقر حزب البعث، في منطقة الروضة القريبة من ساحة الشهبندر حيث يسكنون، سيغيّر معالم المكان كلّه، وسيذهب بحياة الكثيرين، تسعة منهم فقط من قوات النظام، والباقون عشرات وعشرات من المدنيين والمارة. ذاك الانفجار لن يغيّر خريطة المكان ووجهه فحسب، سيغيّر أيضاً من قرار «مريم» و«فاديا» في مغادرة «دمشق»، فلم يبق من مكان آمن! وإلى «بيروت» سيتّجهون، مجرد أرقام في قوافل متتالية يهرب فيها السوريون من جحيم بلادهم إلى «لبنان».

- لن أغادر أبداً حبيبتي... لن أترك البلد حتى لا يعود أحد بحاجة إليّ هنا. حتى تخلو البيوت من المهجّرين، والساحات من النازحين. حتى لا يعود هناك جريح بحاجة لدواء ولا طفل لعلبة حليب... لن أتركها.

تقول «هبة» لـ«مريم» وهي تضمّها. لكن نظرة الذنب في عيون «مريم»، وجهها الذي شاخ سنوات في شهور، وذراعاها اللتان تضمّان صغيرها الملفوف بعناية، سيجعلان من «هبة» خرقة غير قادرة على التماسك، ستنشج بحرقة: أما أنت حبيبتي فأتمنى لك كل الخير في بيروت... ربما هي فترة استراحة وتعودون إلى دمشق وإليّ!!

«صلاح عباس» قال: «سنة جديدة، مناسبة رائعة ليحتفل السوريون بالموت!!»، وهمّ بسكب القهوة في فنجان رفيقه «صفوان الشيخ» فارتجفت يده. كان الأخير قد قدم إليه ليفاتحه بموضوع السفر، وليودعه. كانت المرة الأخيرة التي سيتنسّم فيها عطر قهوة «صلاح»، وأحسّ بخيط حارق يخز عينيه وأنفه!

«كيف ستغادرون؟»، هذا كل ما سأله «صلاح» حول الأمر.

- هناك سائق من جرمانا أعرفه، يعمل على خط دمشق بيروت، كان يهرّب الأدوية والمعدات الطبية إلينا من لبنان. شاب موثوق

وعارف بكل تضاريس المنطقة وخفاياها، وتعاملنا معه كثيراً سينقلنا بسيارته...

وضّح «صفوان» وصمت، أما «صلاح» فكان يشعر بألم عميق يجعله غير قادر على التنفّس، شبيه بالألم الذي أحسّ به حين سمع نبأ مقتل أخته «نوال». كان «صفوان» يغادره، كمن تغادره روحه. الاثنان كانا يبكيان ولكن في دواخلهما، فيما الصمت يعمّ المكان.

(٣٤)

لم تكن بداية النهايات:
إلى دمشق...

لم أفكر يوماً لم أسمتني أمي «هبة»، هل كانت تشعر بأني «هبة» من عند اللّه!! ربما! طوالَ حياتي وأنا أحاول أن أقترب من روح اسمي، أن أكون هبة بما تعنيه الكلمة من معنى. لا أعرف إن كنت قد اقتربت ولو قليلاً.

بعد أن عادت صديقتي «ريما العيساوي» إلى مسقط رأسها، سافر اليوم أيضاً صديقاي «صفوان الشيخ» و«مريم محمود»، معهما الصغير «مصعب» وأخت «مريم» وابنتها. لم أودّعهم، هربت، فلن يطيق قلبي وداعاً آخر.

مشيت في شوارع «دمشق» المغلقة، كل الشوارع مغلقة! اتجهت إلى الجنوب، مشيت ومشيت ومشيت، لكني لم أكن قد تجاوزت حارتين في مسيرتي! كان الشارع مغلقاً بمتاريس من أكياس الرمل المتراكمة.

«دمشق» باردة ورطبة ومعفّرة بالألم.

أنظر إلى كل سيارة أمرّ بها وأفكر: هل تكون مفخّخة؟!

أصوات انفجارات بعيدة، أصوات زمامير سيارات، ورنين موبايلي. جاءني صوت امرأة لم أعرفه، تناجيني بأنه ينبغي علينا مساعدة مئات النازحين. «أنا قادمة إليك»، قلت لها.

في السنتين الماضيتين انقلبت الأشياء كالسحر، تغيّرنا كما تغيّر الناس جميعهم، كالسحر كذلك. نشأت علاقات حميمية بأزمان قياسية، وانتهت علاقات كانت حميمية لسنوات بلحظة! تحوّل أقزام إلى عمالقة بلحظة أيضاً، وتقلّص عمالقة، طالما كُرّسوا كعمالقة، إلى أقزام! تراجيديات هائلة انكتبت، وتحولت تراجيديات، طالما كُرّست كتراجيديات، إلى مهازل، بلحظة أيضاً![1] لم يعد أحد منّا كما كان قبل سنتين، كأنّا دخلنا في زمن آخر عبر بوابة لا مرئية، ولن يعود أحد منّا كما كان قبلاً، أراد ذلك أم لم يُرد! لقد أصابتنا غواية العصيان، مسّنا السحر بقوته، لحظة التغيير وحلم الحرية، كلّنا، المعارض للنظام والموالي له ومن بينهما، الأبيض والأسود والرمادي والملوّن، كلّنا مسّنا السحر، وسيبقى يلاحقنا كذاكرة ملحّة. لن نعود كما كنا قبلاً، لا يوجد أحد في الدنيا عاد بعد مسّ السحر كما كان قبله!

«الأسد» الأب والابن مازالا يطلاّن من معظم اللوحات الطرقية يبتسمان، يحيّيان أحداً ما، أو يسردان في شيء ما! وأمكنتهما متخمة بصورهما وحضورهما وسطوتهما. أصوات الاشتباكات البعيدة تغلّف المدينة، أصوات القذائف والقصف والهيلوكبترات، ورائحة البارود والدخان عالقة ملتصقة في جنبات «دمشق»، فلم يعد ثمة فسحة لرائحة غيرها، والخناق يضيق ويضيق، كأنها بقعة طافية وسط الطوفان وما هي إلا مسألة وقت لتغرق.

الذاكرة تغصّ بمئات آلاف الراحلين، آلاف النعوات في كل المدن، آلاف ماتوا أيضاً بدون نعوات، فلا يوجد من يطبع لهم النعوات ويوزّعها. ذاكرة معتمة منهكة، والانتظار ثقيل يجثم على الجميع. كل يرى التغيير بطريقته، ولكن يتمناه!

---

(١) من وحي كتاب «المبتسرون: دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية»، للكاتبة والثائرة المصرية «أروى صالح».

لكن ما مرّ في هاتين السنتين لم يكن إلا فصلاً في تاريخ البلاد، فصلاً ستزداد أحداثه شراسة وتعقيداً. وما اعتقدناه أقصى العذابات واليوميات، سيأتي ما هو أقسى منه وأكثر قصوية! وما استطعنا فكّ خيوطه قبلاً سيغدو أكثر تشابكاً وضبابية!

وها أنا كغيري أرنو إلى وطن مشروخ متعب متروك للحزن، كطفل رجل «معارض» في مخيّم اللاجئين يتذكّر جثة أبيه المتشظيّة، كطفل رجل «موالٍ» في عزاء أبيه القادم من الجبهة الداخلية! وطن متروك للموت يسير محاذياً لكل أبنائه في كل بقعة منه! وطن مؤجّل إلى زمن آخر للحبّ!!

وللحديث بقية...

كولونيا- هامبورغ
٢٠١٣-٢٠١٦

المحتويات

١. عن الكافيتريا وذاك البناء البعيد على تخوم جرمانا ٧
٢. عن الانتظار، وذاك السحر الذي غيّر البدايات ٢٠
٣. عن ريما وأمها والحكايات ٣٣
٤. عن القرية والماضي وخوف الرجوع ٤٣
٥. العودة إلى الحجر الأسود ٥٥
٦. عن البرد وأشجار الزيتون ٦٥
٧. دمشق والذاكرة والحب ٨٢
٨. عن أشقاء الروح والفراق ٩٣
٩. عن المعجنات والدروب التي انقطعت ١١٣
١٠. دمشق، مدينتي التي لا أعرف ١٣٠
١١. عن أيام بطعم الخيبة ١٤٥
١٢. عن الفجيعة وذاك الغول الذي اسمه الموت ١٦٥
١٣. عن مفاتيح المدينة المعلّقة في زنار «أم ياسر»! ١٨٠
١٤. عن اللجاة وسهلها المتخم بالحكايات ١٩٠
١٥. عن الرجل البخاخ وأحاديث الجدران ٢٠٤
١٦. عن الهجرة وفجوات احتلت الأمكنة ٢٢١

١٧. عن حماة، ومدينة تستيقظ ذاكرتها بعد عقود ٢٣٨
١٨. عن المراجيح المنصوبة على الدباباب، وقوافل الجنازات ٢٤٦
١٩. عن تلك الصحارى التي بيننا ٢٧٢
٢٠. عن صلاة لم تستجب العذراء لها ٢٨٨
٢١. عن جهنم التي فتحت أبوابها يومذاك، وسحبته إليها ٢٩٩
٢٢. عن ذاك الشيء المرّ الذي اسمه التّهميش ٣١٨
٢٣. عن تلك الذاكرة التي انحفرت في الروح ٣٢٩
٢٤. عن أساليب أخرى للحب ٣٤٢
٢٥. عن محاولات أخرى للنسيان ٣٥٨
٢٦. عن الحصار والرغبة وما بينهما ٣٧٩
٢٧. عن الحرب وضجيجها ٣٩٤
٢٨. عن حواجز وكميونات عسكرية تشكّلنا ٤١١
٢٩. عن القناصة وطعم الثأر والخيبات ٤٢١
٣٠. عن تلك الغرفة الصغيرة التي غدت سجناً ٤٣٩
٣١. عن الخبز والحنين مرة أخرى ٤٤٣
٣٢. عن العودة إلى ما هربنا منه ٤٥٦
٣٣. عن المآلات والنهايات السريعة كشهب ٤٦١
٣٤. لم تكن بداية النهايات: إلى دمشق... ..... ٤٧٤

هذا الكتاب

في السنتين الماضيتين انقلبت الأشياء كالسحر، تغيّرنا كما تغيّر الناس جميعهم، كالسحر كذلك.

نشأت علاقات حميمية بأزمان قياسية، وانتهت علاقات كانت حميمية لسنوات بلحظة! تحوّل أقزام إلى عمالقة بلحظة أيضاً، وتقلّص عمالقة، طالما كُرّسوا كعمالقة، إلى أقزام! تراجيديات هائلة انكتبت، وتحوّلت تراجيديات، طالما كُرّست كتراجيديات، إلى مهازل، بلحظة أيضاً!

لم يعد أحد منّا كما كان قبل سنتين، كأنّا دخلنا في زمن آخر عبر بوابة لا مرئية، ولن يعود أحد منّا كما كان قبلاً، أراد ذلك أم لم يُرد! لقد أصابتنا غواية العصيان، مسّنا السحر بقوّته، لحظة التغيير وحلم الحرية، كلّنا، المعارض للنظام والموالي له ومن بينهما، الأبيض والأسود والرمادي والملوّن، كلّنا مسّنا السحر، وسيبقى يلاحقنا كذاكرة ملحّة.

لن نعود كما كنا قبلاً، لا يوجد أحد في الدنيا عاد بعد مسّ السحر كما كان قبله!

مكتبة نوميديا 207

Telegram@Numidia_Library

رسمة الغلاف: رؤيا عيسى

ISBN 978-9933352363